اعتدال رافع

الأعمال الكاملة

(القصص)

اعتدال رافع

الأعمال الكاملة

(القصص)

الصفر- امرأة من برج الحمل

- أبجدية الذاكرة - رحيل البجع

- مدينة الإسكندر- يوم هربت زينب

- بَوْح.. من زمن آخر - أهداب مالحة

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١٧م

«اعتدال رافع الجدَّةُ الطِّفلة...

لا أحد يُوقِّرها كجدَّة، ولا أحد يدللها كطفلة»

محمد الماغوط

الأعمال الكاملة: الصفر – امرأة من برج الحمل... / اعتدال رافع .– دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١٧م.– ٤٨٨ص؛ ٢٤ سم.

١– ٨١٣.٠٠٨ ر ا ف أ ٢– العنوان ٣– رافع

مكتبة الأسد

مُقَدِّمَة

فن البوح لدى اعتدال رافع

د.ماجدة حمود

اختارت الكاتبة اعتدال رافع، منذ حوالي ثلاثين سنة، العزلة والابتعاد عن بريق الشهرة رافضة اللهاث وراء الزيف والمادة، فقد لاذت بحروف إبداعها، أي جنتها الأرضية، التي فتحت أمامها أفقاً، تحلق فيه روحها، حيث تعايش أرواح آخرين معذبين، سُرقت أحلامهم مثلها، رفضت أن تعايش بشرا ارتدوا مسوح التماسيح، لا يهتمون بالمشاعر، التي هي أساس الحياة، إذ لا معنى لها من دون تواصل إنساني، وقد اختزل معاناتها محمد الماغوط حين وصفها بالجدة الطفلة، لا أحد يوقرها كجدة، ولا أحد يدللها كطفلة!

رغم العزلة، التي فرضتها على نفسها، لم ينسها المخلصون من معجبيها، مازالوا أوفياء لتميزها الإبداعي؛ لهذا جاء اقتراح الهيئة العامة السورية للكتاب في وزارة الثقافة إصدار أعمالها الكاملة، وبذلك يتمّ بهذا العمل النبيل تكريمها بأروع طريقة، حيث يحفظ إبداعها للأجيال؛ كي يسهل تلقيه ودراسته.

يلاحظ ثمة علاقة استثنائية بين اعتدال رافع وبين إبداعها، فهي تعيش كلمتها، وتتنفس بفضلها، إنها فرحتها الوحيدة، التي أمدّتها بالروح، ودفعتها للاستمرار في الحياة، إنها صمام أمانها، تطرد بها وحشتها، لهذا أخلصت لها الود، وتمسكت بها، كمن يتمسك بحبل خلاصه، وقد تنقطع عن الكتابة فترة من الزمن حين تهجم عليها أوجاع الحياة، لكنها سرعان ما تستجمع قواها الروحية، وتلملم إرادتها مستندة على حروفها؛ لتنهض من جديد.

وقد بدت القصة القصيرة لديها أشبه بومضة، تستعجلها قبل انطفائها، إذ لديها إحساس أن الزمن يلاحقها، حتى إنها تخاف أن يخطفها، قبل انتهاء قصتها؛

تكتبها في جلسة واحدة على حد قولها، لعل السرطان زاد من مخاوفها، فهي تصارعه بإرادة شجاعة، تساندها حروفها في معركتها تلك، فقد كان الإبداع خير علاج لها، تلوذ به هاربة من أوجاعها؛ اختارت جنساً أدبياً، يناسب إحساسها بأنها ملاحقة بسوط الزمن؛ كتبت فنوناً قصيرة (القصة القصيرة، القصيدة، المقالة) وبذلك يحس المتلقي أن هذه الفنون تشبهها، فهي لا تحب التفاصيل الصغيرة، يشغلها البحث عن الجوهر؛ يناسبها ما يناسب تلك الفنون من تكثيف واختزال؛ لن نستغرب تمرد الكاتبة على ما تشهده اليوم الساحة الثقافية العربية من كتابة روائية، يلجأ إليها كثير من الأدباء، بعد أن كتبوا الشعر أو القصة القصيرة، وهي حين أرادت الكتابة في جنس أدبي آخر، اختارت الشعر فقد أصدرت ديوان "كلمات مسافرة" (٢٠١٠) وقد وجدناه يعبق بأنفاس القصة القصيرة هواها الأول!

لكن تجربتها الطويلة مع السرطان منذ حوالي خمس وعشرين سنة، جعلتها تفكر بكتابة رواية "صديقي السرطان" أتمنى أن نقرأها قريباً بإذن الله.

صحيح أن اعتدال رافع ليست ممن يكثرون الكتابة؛لم تصدر مجموعات قصصية كثيرة، لكنها استطاعت أن تعيش في ذاكرة المتلقي، وتنبض في مخيلته؛ لأن كلماتها ابنة أعماقها؛ حتى كأنها تكتب ذاتها، علها تجد مرفأ لأوجاعها، ليس غريباً أن تتحول الكلمة إلى نبض حياتها، بفضلها نجت من الجنون، كما أخبرتني، تكتب الألم، كي تتخفّف من أثقاله، بل يحس المرء أمام قصصها أن ثمة جرحاً ينزف إبداعاً.

إذن تتوغل الكاتبة في أعماق ذاتها وأعماق الآخرين، حتى لتبدو قصصها أشبه بوقفة تأمل لمعاني الحياة الكبيرة، وأسرارها الخالدة؛ مما أتاح لها تقديم إبداع أصيل في فن القصة القصيرة، يترك بصمته في ذاكرة المتلقي؛ لن نستغرب أن تكون رائدة في فن صعب، لا يمنح التميز لأي كان.

أعتقد أن الاهتمام بإصدار المجموعة الكاملة لأعمالها، يجب أن يواكبه دراسة إبداعها، عندئذٍ يتمّ تكريمها على أفضل وجه، فجاءت هذه الدراسة، التي أعترف بأنها لن تستطيع التعريف بكل ما أنتجته اعتدال رافع من أعمال أدبية في الشعر والمقالة والقصة القصيرة.

سأحاول في هذه الدراسة التوقف عند بعض قصصها، الفن الذي أخلصت له، حتى ظهر في شعرها ومقالاتها، لعلي أستطيع تسليط الضوء على ملامح إبداعها؛ كي أحفّز المتلقي العادي على قراءتها والتمتع بعوالمها المدهشة، وألفت نظر المتخصص لضرورة دراسة أعمالها. اخترت مجموعة "امرأة من برج الحمل" صدرت في عام ١٩٨٦، ومجموعة "الصفر" (١٩٨٨) ومجموعة "يوم هربت زينب" (١٩٩٦) لعلي أكشف بعض **أسرار تميزها:**

اللغة الشعرية

أعتقد أن اللغة الشعرية من أبرز ملامح التميز في قصصها، وهي تتناسب وطريقتها في الكتابة، التي تقوم على تقنية البوح والاعتراف؛ لهذا كثيراً ما سمعت اعتدال رافع تقول: "القلم يكتبني، الكلمة تكتبني" فهي تتوحد بحروفها، حتى كأنها تستسلم للغة، التي تنصاع لها في المقابل بطواعية وبعفوية، وبذلك تضيع الحدود بين أنا الكاتبة، وما تكتبه؛ لتصبح بوحا يعيش المتلقي فيه صدق الكلمة وحميميتها المغموسة بالوجع، مثلما يعيش رهافتها، فيحس أنها تنتسب مثل بطلتها (انتصار) إلى "**الشجرة والماء والعصفور والبحر والصواري...**" (قصة "الحرب" ص٥٣ من مجموعة "الصفر") فيعيش قصة عشق فريدة بين الكاتبة والحرف؛ لهذا لن تستطيع الكتابة بعيداً عن تلك العلاقة الاستثنائية، فقد أتوا لها، حين مرضت، بمسجلة؛ لتستخدمها عوضا عن الكتابة، تسمعها بوحها، فلم تستطع التفاعل معها، ربما لم تستطع أن تستأمنها على حروفها، التي تحملها بأصابع روحها؛ لتستودعها الورق أو لوحة مفاتيح الحاسوب.

إذن تكتب اعتدال رافع بنبض القلب قهر الإنسان البسيط، فتجسد أوجاعه، التي هي أوجاعها، استطاعت أن تحلّق بقصصها بعيداً عن الإلغاز والحذلقة اللغوية، فتمكنت من ترك بصمتها الخاصة، إنها، بفضل هذه اللغة، تخاطب مشاعر المتلقي، وتشاركه في التفاعل عبر تخيل عوالم أبطالها الداخلية، فالمرأة الفقيرة الحامل في قصة (المخاض) يتحول بطنها المنفوخ الذي يتأرجح أمامها إلى "**نعش**" (مجموعة الصفر ص١١) فتجرح هذه الصورة بقسوتها الوجدان، فيتساءل المتلقي متوتراً: أي ولادة هذه، التي تبشّر بالموت!!!

تحضر روح الشعر المكافئة لروعة الحياة وضرورة الحفاظ عليها، ففي مشهد مؤثر في قصة (الحب والحرب) يوحي بانتفاء الحب، حين يختار الرجل الذهاب إلى الحرب؛ لهذا سيقتل قبل ذهابه أول من يقتل حبيبته "**سأقتلك قبل أن أذهب إلى الحرب... قتلني وذهب إلى الحرب مستعجلا، وأكلني شوقي إليه**" (ص١٠٣-١٠٤) توحي الجملة الأخيرة بأن القتل كان معنوياً، وهو أشد على الروح من القتل الجسدي.

إذن خفق الشعر في شرايين قصتها القصيرة، حتى ليحس المتلقي أن جمال اللغة شكّل نبضها، وبذلك تعلّمنا الكاتبة أن من يستسهل هذا الفن، يمتلك لغة متميزة، تحمل بصمته الخاصة به، سرعان ما ينساه الزمن!

امتزاج اللغة اليومية بالشعرية

لعل أجمل ما في لغة اعتدال رافع هذا الامتزاج بين الشعري واليومي، وبذلك تساعد على إنقاذ الروح من قتامتها، مثلما تنقذُ أبطالها من وجعهم وبؤسهم، فالفقراء "**يستدفئون بالوهج** (الذي يصدر عن الحطب) **وبالذكريات**" (مجموعة "الصفر" ص٤٠) وفي المجموعة نفسها نسمع صوت الزوجة الفقيرة عبر حوار داخلي، حين يدخل زوجها لتناول الفطور: "**تصبّين له فنجان الشاي، وأنت تتحاشين النظر إلى وجهه، ترتسم دوامات على وجه الفنجان من لفح همومك**" (ص١٣) وبذلك تمنح بفضل لغة الشعر الأشياء اليومية أبعاداً جمالية، تُبرِزُ توحدها بل تفاعلها مع هموم الإنسان، وبذلك تخلق تواصلاً مدهشاً، يعين على مواجهة بؤس حياة، لا تتوقف منغصاتها.

وفي قصة من المجموعة نفسها نجد (الروزنامة) تعلوها أكداس الغبار معلقة "**كمشنقة تتدلى منها قامات لناس وأشجار لا حصر لها**" (ص٧٤) تتغير هذه الدلالة القاتمة، حين تقوم المرأة بفعل، يدخل الفرح إلى نفس طفلة، قهرتها الحرب (تفصّل لها ثوبا للعيد من الثوب الوحيد، الذي تملكه) عندئذ يصبح للزمن معنى وتأثيرٌ "**انفرطت أوراق الروزنامة، وسافرت من النافذة إلى التاريخ**" (ص٨١)

نجد هذه اللغة أيضاً في مجموعة "امرأة من برج الحمل" (التي كتبت بين عامي ١٩٧٤و ١٩٨٥) إذ تدهشنا بجمالياتها، التي ترتكز على لغة تتراوح بين

اليومي بحيويته والشعري بكثافته وعمقه، وذلك بفضل قدرات تخييلية شديدة التعبير والإيحاء "**قذفنا الناس بقمامة ألسنتهم وفضلاتهم**" مما يؤثر في المتلقي، إذ يلمس ما يعانيه عبر لغة يألفها، لكنها صيغت بطريقة مدهشة، تجذبه إليها، إذ تخاطب وجدانه ومعاناته، إذ إنها تفضح بشاعة ما نعيشه في حياتنا اليومية، الذي يناقض رغبتنا الروحية في الانعتاق وتذوق الجمال؛ لهذا سيتهم من يحس هذا التناقض، كما اتهمت بطلة قصة (شائعة) بالجنون، فنسمعها تقول: "**لست مجنونة إذا ما سألتموني عن الحب الجواب جاهز...أحب الله وأنبياءَهُ وأنتم والشرطي...كاذبة لا تصدقوها، وبالفعل كانت منية القلب تكذّب، ما باحت لأحد بحبها للجياد والفراشات والغزلان**" (ص٢٥ مجموعة "الصفر") وبذلك يكمن بؤس الحياة اليومية، حين نعيشها عبر حصار مقولات جاهزة، تبدو نقيضاً لما نحبه، لكننا نقمع كل ما نحب بدافع التأقلم والنجاة من تهمة الجنون، أي نقمع كل ما ينتمي لعوالم الشعر والجمال، لكن مثل هذه الازدواجية، قد تفضي بنا إلى جنون حقيقي!

الحداثة القصصية:

تبدو هذه اللغة المدهشة من مكونات الحداثة القصصية، التي تقوم على التجديد في الرؤى واللغة والتعامل مع الشخصيات، وقد تجلت الحداثة في بعض قصصها، حين أكدت المؤلفة بصوتها وهمية شخصياتها، في حين نجد مؤلف القصة التقليدية يؤكد واقعيتها، وبالتالي نفي أي تدخل تخييلي من جانبه (مثال ذلك قصة وداد سكاكيني "الذئبة" من مجموعة "الستار المرفوع")؛ لهذا تبّدت لنا رغبة اعتدال رافع في مجموعتها (يوم هربت زينب) في تجديد إيقاعها الفني، مما أتاح لنا معايشة تجربة إبداعية، يتعانق فيها الجمال بالتجربة اليومية! مثلما يتعانق الأسلوب التقليدي بالأسلوب الحداثي، كما في قصتها الطويلة "يوم هربت زينب" وقصتها القصيرة "أبطال من ملح" إذ قدمتها عبر لغة تقترب من الشعر في كثافتها وصورها ورموزها، فقد أعلنت الكاتبة منذ الرسالة الأولى (العنوان) أنها تقوم بخرق التقاليد المألوفة في كتابة القصة، لتقدم لنا عالماً لا معقولاً أشبه بالحلم، مما يوحي لنا باستثنائية شخصياتها وفرادتها، فهي ضعيفة، تنتمي إلى عالم وهمي (من ملح) يناسب زمناً متغيّراً، لا أصالة فيه، ولم تعد فيه البطولة تقوم على القوة والصلابة والقدرة على

المواجهة والانتصار على الأعداء، باتت متجسدة بما يناقضها من شخصيات خرقاء سريعة الذوبان كالملح؛ لهذا بدت مسلوبة الإرادة، لا تستطيع الانطلاق بحرية بعيداً عن المؤلفة، كما هو مألوف عادة من الناحية الشكلية على الأقل في رسم الشخصية فنياً، بل نسمع صوت الكاتبة يتدخل في سيرورة الحدث القصصي، حتى لتبدو كأنها إحدى الشخصيات؛ لهذا تصرح بأن بطلتها حياة تشبهها "**تعيش مكسورة الخاطر**" وعبد الله كأنه زوجها "**فاشل ومهزوم**".

إذن قامت بخلخلة الأُطُر الفنية للقصة، استغنت عن الإيهام بالواقع؛ لتصرّح ببعض تفاصيل صنعتها الفنية "بعد أن استنكر القاضي هزيمة أبطال قصتها، نجدها تقول: "توسدت **شخوصي** جرحها ونامت"وبذلك أبرزت كلمة **(شخوصي)** صوت المؤلفة لا صوت الراوية، لنفتقد بذلك الطريقة المتعارف عليها في تقديم الحدث والشخصيات بحيادية وموضوعية! فلا يظهر الكاتب تعاطفه معها أو نفوره منها!

وبذلك يأتي إعلان تدخلها؛ ليؤكد للمتلقي وهمية العالم، الذي تقدمه! ومثل هذه الخلخلة تعدّ جزءاً من الرؤية الحداثية للقصة!

يلاحظ المرء أن بناء القصة قد تشكّل على إيقاع اللغة الشعرية، حتى لغة الواقع التي لحظناها، أحياناً، في القصة تبدو مشدودة إلى عوالم شعرية، وذلك بفضل سيطرة الحلم على فضاء القصة، فعندما تجوع الحبيبة يهم الحبيب بانتزاع قلبه، ليقدمه لها عوضا عن الرغيف، لذلك بدت لنا هذه اللغة برهافتها وبقدراتها المجازية قريبة من لغة الحلم، الذي بإمكاننا أن نعدّه البطل الرئيسي في القصة، لجأت الكاتبة إلى اللغة الشعرية لكونها أقدر من اللغة التقليدية على تجسيده، فهي أكثر قدرة على الانطلاق بدلالات اللغة وتكسير مألوفيتها، مما يضفي جمالية خاصة على القصة، فالحبيبان حين يختلفان "**يجهشان باللوم على بعضهما، وتنأى مسافات القبل**".

إن كلمة (يجهش) التي اقترنت باللوم تلقي ظلال الحزن والفجيعة والخيبة على أعماق المتلقي، لذلك تضيع الحميمية بين الحبيبين ويسور البعد أشواكه بينهما! وبذلك أسهمت لغة الخيبة والألم بدلالتها وإيقاعها في رسم جو الحزن والفجيعة!

كذلك نجد لغة الفرح ازدادت توهجاً باستخدام لغة الشعر "**رقصا على إيقاع حلم دنا قطافه**" فتجلّت لغة الحياة الفرحة بكل حيويتها وانطلاقها (الرقص، الإيقاع، القطاف...)

كذلك أضفت الشعرية على لغة الضياع إيحاءات تغني دلالاتها، فاستطاعت تجسيد فظاعة خذلان الفقير، حين يفقد ملاذه الوحيد (الحلم) "**تاه القطيع وتبعثر في فلاءات الرمل**" فلم تكتف الكاتبة بدلالة فعل (تاه) بل أضافت إليه (تبعثر) لتشدّد على إيحاء الضياع والتمزق، ولذلك جاء (الفلاء) بصيغة الجمع ليعزز حالة الشعور بالضياع ودلالة امتداده!

كما لمسنا في هذه القصة غرائبية في التصوير؛ مما يجعلها أكثر تأثيراً في المتلقي، فالفقير الذي ينجب طفلاً، من المفترض أن يكون أملاً له، نجده محكوماً بحياة مشوهة منذ ولادته "**حبل السرة كان ملتصقا برقبة الصبي**"، لذلك يعيش حياته مقيداً به، حيث يكتسب الحبل دلالات رمزية، حتى إنه يمكننا أن نرى فيه حبل الفقر الذي يورثه الأهل لأبنائهم مع دمائهم، لهذا ليس غريباً أن تكون الولادة مشنقة، تخنق أعناقهم منذ اللحظة الأولى في حياتهم، وبذلك بدت الغرائبية جزءاً من جمالية اللغة الشعرية التي استطاعت أن تغني دلالات القصة، وتضفي حيوية وجمالاً على فضائها!

ثمة نقطة أفسدت تفاعل المتلقي مع فضاء القصة، باعتقادنا، وهو تدخل صوت الكاتبة أثناء اشتداد الصراع في أعماق عبد الله لإحساسه بضياع الخاتم (الحلم) بسبب طرد جند السلطان له، فبدا لنا هذا التدخل غير مستساغ، رغم أن الكاتبة أدخلت إلى حلبة الصراع شخصية جديدة هي شخصية اللص!

إن التجربة الحداثية في الكتابة القصصية تحتاج إلى عدة امتلكتها اعتدال رافع، فلم تهتم كغيرها بالتجديد الشكلي على حساب المضمون، فضمنت تفاعل المتلقي مع فضاء القصة إلا فيما ندر.

لغة الحلم

من أبرز مميزات الحداثة التركيز على لغة الحلم، بما يعنيه من إدهاش وجمال وابتعاد عن الرتابة؛ لهذا شكل تعويضاً عن بؤس الواقع، لعل أكثر قصة

جسّدت هذه اللغة قصة (أبطال من ملح) إذ عاشت شخصياتها حلم البطولة، التي تقاوم القمع، وكل ما يجعلها تعيش مبعدة عن إنسانيتها، التي هي حريتها وكرامتها، وقد تجلى قلق الكاتبة اعتدال رافع وخوفها عبر تدخلها عدة مرات، لتوضح أن طبيعة شخصياتها من ملح، أي من وهم، لعلها تستطيع حماية ذاتها؛ لهذا تقول: "**تامت على أوراقي تحدوها أحلام البطولة**"، وتارة تصف شخصياتها "**مسكوبة على أوراقي كدموع مهاجرة في رمد الهجير، ومزحومة بأنفاس من خيوط الحكاية**".

لكن هذا العالم الوهمي، لن ينقذ أبطالها من الحزن؛ لهذا لن تجد سوى الحلم عزاء لها، بعد أن نجح الواقع في قهرها؛ وقد أدى امتزاج لغة الواقع في القصة بالحلم، إلى منح فضائها حيوية، أفلحت في جذب المتلقي رغم سيطرة الأحلام والفنتازيا عليه، مثال ذلك حين نسمع صراخ (حياة) "**أنا جائعة وقبل أن يهم عبد الله بانتزاع قلبه ليقدمه لها، رسمت رغيفا، خرج لتوه من التنور، تفوح منه رائحة القمح ولون الشمس، مدّ عبد الله يده لأخذ الرغيف، قال الخباز: ثمنه...**".

رغم بساطة حلم الموظف عبد الله، الذي يختزله (الرغيف) فإنه لا يستطيع تحقيقه مادام راتبه عاجزاً عن تأمين حاجاته الأساسية؛ لهذا تتعاطف الكاتبة مع شخصياتها، وتتوحد بهم؛ لتواجه (الحرامي) الذي لا يكتفي بتنغيص حياتهم، بل يتمادى في شره، حتى يصل إلى تنغيص أحلامهم، فيحرمهم من الفرح بها، مثلما يحرمهم من الأرغفة، بل نجده يتجرأ ويقتحم دفتر المؤلفة، فيضطر كل من (حياة وعبد الله) إلى الهرب، فقد استطاع أن يفسد حلمهما بالرغيف، مثلما استطاع سرقة الأمل منهما (خاتم السلطان) الذي كان سيحلّ مشاكلهما، وقد بدت المؤلفة متعاطفة مع بطليها، تلعن الحرامي في سرها، وتلوم نفسها على الورطة الشنيعة التي أوقعت بها أبطالها، إذ أفسدت أحلامها، حين دفعته لاقتحامها وسرقتها! رغم ذلك تصرّ الشخصية على الحلم، الذي هو خير معين على متابعة الحياة، مثلما هو خير سند للفن، لكن القصة رغم ذلك بدت أقرب للسوداوية، إذ إن الحلم يحاصره السلطان ويصادره، ثم يأتي اللص، ليكمل المأساة، فيسرقه! وبذلك نعايش عبر (أبطال من ملح) الهروب من بشاعة الواقع إلى الحلم، وقد بذلت الكاتبة جهدها لتقيم توازنا بين أحلام أبطالها وبين صفعات الحياة، لكنها تكتشف حقيقة مؤسية وهي: أن اللصوص سرقوا منها الحلم أيضا!

إن ما يدهش في شخصيات اعتدال رافع إصرارها على الجموح بأحلامها؛ من هنا تبدو آسرة على الصعيد الإنساني والجمالي، فهي لا تعرف الركون لبؤس الواقع، كما ترفض أن يقيّدها العادي والمألوف بقتامته، ولذلك كثيراً ما تبدو أحلامها أكبر من بؤس واقعها، مما ينسج ملامح شخصيات فريدة، لا تعرف التنازل عن حلمها، فهو فرصتها الوحيدة، كي تعيش حياة إنسانية، تستطيع عبرها تجاوز القبح والبؤس "**أشفقت عليه لأن قدميه كانتا أكبر من حذائه، وجسده أوسع من ملابسه...**" (قصة امرأة ورجل) مما يوحي بأن الرجل يعاني انكساراً داخلياً تجلّى في عينيه، لكن حبّ المرأة واهتمامها أدى إلى "**استقامة جفنه المكسور، وأصبح مثل من النسر**"؛ لهذا بدا الحب لدى الكاتبة رفيق الحلم، فهو الذي يمنح الإنسان المقهور قدرة على مواجهة أوجاع الحياة، فلا تستطيع هزيمته، صحيح أن العفن ينتشر في كل مكان، لكن بإمكاننا مواجهته، كشخصيات اعتدال رافع، حين نملك روحاً حية، وإرادة تتسلح بالحلم والعمل، فنكتشف قدرات خفية في أعماقنا، توقظ عزيمتنا، عندئذٍ نستطيع أن نتحدى ونغير أنفسنا! لهذا لن نستغرب أن تنتمي معظم شخصياتها إلى طبقة القهر والحلم والأمل، وقد سلطت الضوء على الأطفال، الذين يخلطون واقعهم البائس بالحلم المنقذ، وبذلك استطاع خيال الكاتبة الجامح أن يرسم للمتلقي ملامح طفل، لا يبارح الذاكرة، **فجمجمته تنمو على حساب جسده، فتبدو كأنها مركبة تركيباً** (قصة حكاية ولد من جيل يأجوج ومأجوج) وبهذه الصورة المشوهة من الخارج، لكنها من الداخل توحي بنمو مركز الحلم والخيال، الذي ينقذ الطفل؛ لهذا يستطيع رسم رغيف، والنوم جائعاً.

أما الطفلة (رقية) التي تخبئ النجوم في جيبها، فتتجمد يداها من البرد والعمل في البيت؛ لهذا تحسّ أن الكبار يهدّون أحلامها، وينغصون حياتها، فتستبدل "**بالنجوم البعيدة القبور القريبة**" وهي لن تكتفي بهذه الأحلام، بل تقاوم ظلمة الحياة وقسوتها بالعلم، فتتهجا حروف الأبجدية عبر شواهد القبور! وبذلك تتخلخل قواعد الحياة والموت، إذ بات القبر (حامل الموت والجمود) مصدراً للمعرفة بفضل إصرار الطفلة على تحويل أحلامها إلى واقع.

لم تحمّل اعتدال رافع الواقع البائس مسؤولية قهر الأطفال فقط، بل حمّلت الكبار مسؤولية قهرهم أيضاً، فهم بوصايتهم عليهم يفترسون أحلامهم، فيهدّمون جسور التواصل بينهما، وقد تصل قسوتهم إلى درجة لا تصدق، تنتفي فيها أعظم المشاعر (الأمومة) حتى إن "**الأم تهيئ مشنقة لابنتها**"؛ لهذا يتخبط الطفل وحيداً في عوالم قاتمة مرعبة! تؤدي إلى موته، قبل أن يستوفي حقّه من الحياة، التي كثيراً ما تختزل في مرحلة الطفولة، التي يتمّ فيها تكوين الشخصية! إذ بات من المعروف أن هذه المرحلة تصاحب حياة الإنسان كلها؛ لهذا تدمغ بصمات الحرمان شخصياتها، وترتسم على وجه أطفالها خطوط الأحزان، فقد ضاعت أحلامهم،فضاع الفرح معها، بناء على ذلك لن تستطيع البطلة تحقيق حلمها في أن تتعلم السباحة، ولن تستطيع اكتشاف عوالم المدن المسحورة في أجواف الحيتان!

وقد أسهم زمن الحرب في قهر الأحلام، إذ تحوّل إلى حاجز، يمنع أبطالها من التوغل في أدغال الحلم "**القذيفة لم تترك فسحة لقدم تخطو أو زائر يجلس أو حلم يغفو دون أن يذبح**" (قصة "وصية القوقعة البيضاء")، وبذلك تصبح الحرب في مخيلة المتلقي مكافئة لمجزرة الأحلام!!

رغم ذلك يبدو الحلم أحد المنقذين، إذ يأخذ بيد اعتدال رافع، مثلما يأخذ بيد قصتها أيضاً، فهي مدينة للحلم، الذي يمنح حياتها بعض الفرح، فهي تعترف بأنها تعيشه أكثر من الواقع، مثلما تعيشه شخصيات قصصها، فتتألق بما تحويه من دهشة وغرائبية في اللغة. صحيح أن قصصها تنزف ألماً، لكنها بفضل الحلم وروح الشعر أنقذتها من ظلمة السوداوية والكآبة؛ وبذلك تتغلغل كلماتها أعماق المتلقي دون أن يحس لحظة بأنه أمام عالم متخيّل مدعٍ، فقد أتقنت الكاتبة أدواتها الإبداعية إلى درجة نحس معها أننا بعيدون عن "لعبة الفن"، وفي الوقت نفسه أمام عالم مدهش في جماله ورهافته وبراءته، فهي تنفر من كل ما يوحي بالافتعال، الذي يشوّه نسيج القصة، فيعرقل التواصل العفوي بينها وبين المتلقي.

إذن بفضل لغة الحلم اجتمعت في قصصها عوالم البساطة والبراءة، بالجمال والإدهاش، فتأسر المتلقي لغة الكاتبة، التي تصغي بقلبها إلى وجع الإنسان، لتنطلق حروفها مرفرفة في آفاق من الشعر والحلم المدهش.

التكثيف والاختزال

تحترم الكاتبة إبداعها قدر احترامها لوقت متلقيها؛ لهذا نأت قصتها عن الثرثرة، فقد حمّلتها أمانة روحها وأوجاعها! لهذا نعايش في قصصها لغة شعرية، يناسبها التكثيف والاختزال، حتى كأن اعتدال رافع تزنها بميزان الذهب، فهي تحس نبض الحرف، وتعيش وجعه، المتماهي مع وجع أبطالها.

يلاحظ في مجموعة "الصفر" هذا الاختزال الشديد، إلى درجة تضطر إلى التوضيح في الهامش، إذ يقول عبد السميع لزوجته (آمنة): "**لا تُهوّلي الأمور، وتضخمي الأوجاع، وتقولي عن سِرَّتك كأنها مذبوحة ببلطة مهووس من مهووسي المذابح**" فتشير في الحاشية ص١٣ (في صبرا وشاتيلا بقروا بطون النساء الحوامل بالبلطات)

يحضر تكثيف الرعب في قصة (الروزنامة)، إذ يبدو زمن الأطفال مخنوقاً بالمذابح "**كان صوتها يدمع ويشتي على رأس رنا الصغير الغافي على أوتاره المذبوحة حكايا لأطفال شُلعوا بوحشية عن أسرتهم وأعمارهم**" (ص٨١)، فيعيش المتلقي صدى فظاعة الحرب على الأطفال، والكاتبة لن تشير إلى هذه الحرب بتفاصيل تاريخية، ستكتفي بتاريخها، الذي يوحي بحرب أهلية، شارك بها الصهاينة باجتياح بيروت (١٩٨٢).

تبحث اعتدال رافع عبر لغتها الشعرية عن عوالم أكثر إنسانية، تَمُتُّ إلى جوهر الإنسان؛ لهذا ترفض، كبطلتها، أن تنتمي لزمن "**لا يمت بصلة إلى الشعر والفروسية... تذبح الكلمة من رقبتها كالنعاج**" (قصة "المخاض" ص٣٠ من مجموعة "الصفر")

لغة السخرية

من أسرار جمال القصة القصيرة لدى اعتدال رافع تلك اللغة الساخرة، التي تشارك في رسم بؤس الشخصية الفقيرة، فتجتمع لديها المرارة بالابتسامة، فتمنحها عبر لغة المتناقضات تفرداً مؤثراً، فالبطلة (راكعة) مثلاً، تقاوم إغراء الطعام، الذي يحمله الرجل، رغم إلحاح الجوع عليها، وبما أنها "**تتنفس مثل كل الأحياء، كان لابد أن تستنشق ما يتحفنا به الهواء من روائح، وراكعة تعودت طويلا أن تكتفي بهذه**

النعمة الإلهية رغم ما تنطوي عليه من عذاب، وتعميق لأخاديد الحرمان" (قصة "تحول الرماح" (ص٨٩) تعودت أن تسد غائلة الجوع برائحة الحلاوة، التي تمر بها، وهذا في نظرها يعدّ نعمة إلهية!

وقد تبدو هذه اللغة أكثر قدرة على تجسيد بشاعة البشر، كما في قصة (حارس القطيع) التي تنطق بصوت (كلب) فيسمع المتلقي تأملاته وأفكاره، التي تراوده "**غريب أمر هؤلاء البشر لا يخجلون من لصق صفاتهم بالكلاب**" (ص٨٥) وبذلك يأبى الكلب أن تلحقه صفات البشر لشدة بشاعتها!

وبما أننا نعيش زمناً مجنوناً بسبب الحرب؛ بدت اللغة الساخرة خير مجسّد له "**القصف يصيب جميع الأمكنة ما عدا مشفى المجانين؛ لأن الجنون هوية حضارية**" (قصة "هستيريا الزهري" ص١١٠) مما يوحي للمتلقي بأن البشر جميعاً، في زمن الحرب، تخلوا عن عقولهم، وبات اللا معقول يشكل جوهر حياتهم!

لغة الموروث:

من أسرار جمال القصة القصيرة أن تمتلك روحاً خاصة بها، تنطق ببيئة خاصة، تكون أشبه ببصمة تميّزها عن إبداع غيرها، يلاحظ أن قصص اعتدال رافع امتلكت تلك البصمة، التي تنتمي للبيئة المكانية بكل معطياتها الثقافية، لهذا نلمس روح البيئة الشامية، التي تربّت فيها، عبر لغتها الشعبية، ففي قصة "رقية" تنتقي الراوية مفردات وعبارات، توحي بانتمائها لتلك البيئة "**دفعت ثمنها من عبها**" (مجموعة "امرأة من برج الحمل")، كما تُسمِع المتلقي لغة المثل الشعبي، التي تعلي من شأن الرجل "**الرجل في البيت رحمة حتى لو كان فحمة**" (مجموعة "الصفر) وفي قصة "الروزنامة" تحضر أهزوجة شعبية شامية، تقال للأطفال عادة:

نيّمتك في المرجوحة   خفت عليك من الشوحة

نيّمتك فـــي العلية   خفت عليك مـــن الحية

كما تحضر في قصصها لغة الموروث الشعبي عبر معتقدات خرافية، شكلت مرجعية فكرية لأبطالها الفقراء؛ لهذا لا تزال المرأة في قصة (شائعة) تعيش الخوف من الجن، إذا لم تبسمل، حين تسكب ماء حاراً، كما نجدها في قصة (الروزنامة) "**تتشاءم من طنين يداهم أذنها اليمنى، ويسد قناة المناجاة لديها،**

ومن رفة هدب عينها اليمنى، ومن يوم الأربعاء والجمعة، ونعيق الغراب والبومة..." (ص٧٦) رغم ذلك يلاحظ أن اعتدال رافع تبدو راغبة بتقديم إيحاء إيجابي، فتبيّن أن بطلتها "**كانت تتشاءم كثيرا وتتفاءل أكثر**" .

كما شكّلت لغة الموروث الديني جزءاً أساسياً من بنية الشخصية، حين أحست (لطيفة) بطلة "وصية القوقعة البيضاء" بدنو أجلها "**أدارت نفسها جهة القبلة...رفعت يدها اليمنى وتشهدت**".

ويلاحظ في القصة نفسها موروث الحكاية الشعبية ألف ليلة وليلة "**طارت لطيفة على بساط الريح على سطح بيت ريفي، معشوشب...**" (ص ٤٠)

في قصة "الجرد الحنون" تحضر قيم بيئة تقليدية (القبيلة) حيث تفتقد المرأة الروح الإنسانية لدى رجال عشيرتها، الذين انتزعوا كينونتها وشيّؤوها، فقد سلبوها الإرادة والحرية، لهذا تقول: "**ألبسوني شوالا، هكذا يصطادون الكواسر في الشوال، ضاعت قُبلي وابيضّت شفتاي**" يبدو تكرار (كيس الشوال) هنا مقصوداً، فالمرأة لا تكتفي بالإعلان عبر القول بجريمة القبيلة، بل تؤكد عبر الفعل مدى التشوه والقهر الذي يحاصرها به رجال، ينتمون إلى مرجعية تقليدية (العشيرة) تفرض إرادة التخلف عليها، وذلك بخنق تمرّدها وحريتها، حين أرادوا وأد الحياة في داخلها! لهذا قررت العزلة عن البشر؛ لتجد منقذا لها في ذلك (الجرد الحنون) رغم ما يحتويه من حيوانات مفترسة، التي تعايشها، فتجدها قد تخلت عن وحشيتها، وتمنحها الحنان، بعد أن مارست القبيلة شتى أنواع القهر عليها "**دار الضبع حولي، شمّني، أطلق صيحة ثم رحل، عنقي مذبوح، وشعري محروق، وركبتي مجوفة، والورد الجوري يبس دما على شفتي...الضباع والرياح والعتمة، ترصّع ليل الجرد بالأنس. عزّ على الليل أن يتركني وحيدة، وحمل إلي ابن آوى، تأملني بحدقتين دامعتين.**"

يحضر الموروث الجاهلي، هنا، بعفوية وفنية عالية، عبر ميراث العادات القبليّة الظالمة، إذ يحدث تناص بين لغة الكاتبة، التي تلتقي مع الشاعر الجاهلي الشنفرى، الذي يقول في لاميته:

أقيموا بني أمـــي صدور مطيّكم ... فإني إلى قوم سواكم لأميل
ولي دونكم أهلون: سيد عملّس ... وأرقط زهلول وعرفاء جيأل(١)

---

(١) **سيد:** ذئب، **عملّس:** سريع، **أرقط:** نمر، **زهلول:** أملس، **عرفاء:** طويلة العرف، **جيأل:** ضبع.

فيحس المتلقي أنه أمام معاناة واحدة، تلغي الفارق الزمني الكبير بينه وبين البطلة، إذ يلتقي الشاعر والبطلة في افتقاد دفء العلاقات الإنسانية، فيجدان في الصحراء والجرد مكاناً آمناً، بل إن الحيوانات المتوحشة (الذئب والنمر والضبع...) باتت أكثر قدرة على منح الأمان من البشر.

جماليات الاسم:

تتنوع أسماء الشخصيات لدى الكاتبة، فقد تختار اسماً عاماً (المرأة) يوحي بشموله جنس النساء، لترصد معاناتهن من وباء الحرب، مثلما ترصد عطاءهن، والتضحية بأغلى ما يملكن من أجل الأطفال (تفصّل من ثوبها الوحيد ثوب العيد لطفلة الجيران الفقيرة). تتعمّد الكاتبة عدم ذكر الاسم، لتوحي بعمومية تلك الدلالة، وامتلاك المرأة قدرة كبيرة على العطاء.

ثمة إحساس لدى المتلقي بتماهي الكاتبة مع شخصياتها دون تمييز بين المرأة والرجل؛ إذ إن الهمّ يوحّدها وأبطالها جميعاً، لهذا اختارت لهما اسمين في قصة (أبطال من ملح) هما (حياة، عبد الله) لتوحي بعمومية الدلالة، التي تختزل عبر هاتين الشخصيتين كل الفقراء من عباد الله الذين يعيشون الموت وكل ما يناقض الحياة بسبب سيطرة الجوع والحرمان! ومن هنا تبدو الدلالة الساخرة التي أسبغتها الكاتبة على اسم المرأة (حياة)

وقد استخدمت الكاتبة في القصة نفسها اسماً يدل على فعل مشين (الحرامي) كما أنها اختارته عوضا عن (اللص أو السارق) لأنه أكثر تداولاً في الحياة اليومية، وهي ذات صلة بالحرام المكروه في الضمير الشعبي بتأثير المرجعية الدين، باعتقادنا.

تسعى الكاتبة إلى هذه العمومية؛ لهذا يتكرر لديها اسم (عبد الله) في قصة "الشرخ" حيث نجده فقيراً معدماً، يدفن حيا، وبذلك نجد الكاتبة معنّية بعباد الله المحرومين.

وحتى حين تختار اسماً أقرب إلى الصفة، فإنها لا تميّز بين المرأة والرجل، ففي قصة "امرأة ورجل" نجد الحلم والفقر يؤسسان لبطولة مشتركة بين الجنسين، فيبدو صوت المرأة (أم شفيق) ندا لصوت الرجل (أبو شفيق)، إذ

جمعهما الحب والأحلام، فأنجبا (شفيق) لنعايش عبر دلالة الاسم الأمل في بناء الأسرة تحت لواء أنبل المشاعر! فالحنان والشفقة يحتاجهما الصغير والكبير، وافتقادهما يدمر الروح قبل أن يدمر بيت الأسرة.

يلاحظ امتلاك اعتدال رافع حساسية لاختيار الأسماء ذات دلالة مؤثرة، لاتصالها بما يكوّن اللاوعي العربي، الذي يحلم بقيم الفروسية المنقذة من بؤس واقعه؛ لهذا تختار في قصة "فارس" التي كتبتها (١٩٩٤) عنواناً لقصتها هو اسم لبطلها (فارس) مما يغني دلالة الاسم والعنوان معاً، إذ تعلن عن ولادة بطولة جديدة، لا تصنعها المعارك والانتصار على الأعداء (كفروسية عنترة)، بل هي بطولة العمل والكفاح من أجل لقمة العيش الشريفة، ومع ذلك فإن هذا البطل لم ينقطع تماماً عن مفهوم الفروسية القديم، إذ يلتقي مع فرسان الماضي في حب الشعر، كأن الفروسية في الذاكرة الجمعية العربية لا تجتمع إلا بثنائية الشعر والكفاح.

وقد تلجأ إلى انتزاع هذه الفروسية من الاسم، فنعيش دلالة نقيضة له، ففي قصة "الصفر" نجد اسم الفارس (عنترة) قد تكرر عبر ثلاث شخصيات (الرجل: عنترة الأول عشيق أم عنترة، والثاني: الطفل، في حين منحت اسم عنترة الثالث لقط) فقد ضيّعت هذه الشخصيات قيم الفروسية، لذلك تطلق على شخصيات عاجزة ومستسلمة، بل يشاركها هذا الاسم حيوان أليف، أقرب إلى الضعف، مما يضيف دلالة السخرية عليه.

وقد تختار اسماً تاريخياً لشخصيتها النسوية (رقيّة) يوحي بميراث أحزان كربلاء، لكن الكاتبة منحتها بعداً رمزياً، تغير حياتها على أساسه، لهذا تتحول دلالة الموت (القبر) إلى حياة تقاوم بها الجهل (تتهجا الحروف على شواهد القبور)، ونظراً لأهمية هذه الشخصية تجعل اسمها عنوانا للقصة.

جماليات العنوان

مثلما لاحظنا في دلالة الأسماء نلاحظ في دلالة العنوان البعد العام، مثل عنوان "امرأة ورجل" فيحس المتلقي بعدم تمييزها، الذي لحظناه سابقاً، إذ إن كلا المرأة والرجل في القصة، يتّسمان بأنبل المشاعر معاً.

كما وجدناها تحتفي الكاتبة بالأسماء ذات الأبعاد الرمزية والتاريخية والأسطورية، مثل ("رقية" "وكان اسمي الشاطر حسن" "فارس"...)

وقد يلاحظ المتلقي أن عنوان مجموعتها "امرأة من برج الحمل" لا علاقة له بأي عنوان داخل المجموعة القصصية، على نقيض مجموعتها "الصفر" و"يوم هربت زينب" كأن الكاتبة، التي هي من مواليد برج الحمل، تتماهى مع أبطالها، وتريد أن تجعل معاناة أبطالها المقهورين (وخاصة من النساء والأطفال) تجسيداً لمعاناتها، حتى إن هذا العنوان يصلح لمعظم قصص المجموعة، إذ وجدنا (سبع قصص) تتحدث عن معاناة المرأة الضعيفة كالحمل "الدجاجة" "الجرد الحنون" "الصبية والأخطبوط" "وحشة" "الجنين الذي ذبح أمه" "رقية".

وقد وجدنا بعض القصص تتحدث عن البطل الذكر الذي ينتمي إلى عالم (الحمل) إذ نجده فتى ضعيفاً ويتيماً (في قصة "الدرب إلى المجرة") أو فتى يضاف إلى فقره إعاقة أصابته أثناء القصف الصهيوني لقريته الجنوبية (في قصة "حكاية ولد من جيل يأجوج ومأجوج") حتى الفتى الحطّاب الذي كان في العشرين من عمره (في قصة "وكان اسمي الشاطر حسن") لا يملك سوى أحلامه (طاقية الإخفاء) وفأسه، ما إن يحاول تغيير بؤسه حتى يصفعه واقعه، فيجد (المهلهل) صديق أحلامه مذبوحاً أمام باب بيته! ربما كان ذبح صديقه الفارس الجاهلي (المهلهل) دليلاً أن الشاب في هذا الزمن عليه أن يبدأ من جديد بعيدا عن أساطير البطولة الجاهلية، ليصنع بطولة خاصة به، تستند على ظروف عصره ومعطياته!

وقد يوحي عنوان القصة بالحالة النفسية التي تعانيها البطلة، ففي قصة "وحشة" تعيش المرأة عزلة عن الحياة، تجعلها تكره الليل، الذي يزيد وحشتها، وتتمنى لو يرحل إلى بلاد العشاق والشعراء، فجماله لم يُخلَق من أجلها، فقد اجتاحها الجدب والقهر، لذلك تحسد الكلاب على حريتها، وتتمنى لو تُعلِن حرمانها على الملأ! وهي لا تجد وسيلة تخفف قلقها وهواجسها سوى التدخين، كما لا تجد وسيلة للتمرد سوى تلك النصائح، التي تدعو للإقلاع عنه خشية الموت! فهي مشدودة إلى رغبة في الانتحار البطيء، لعلها تنقذ روحها من إحباطها وقهرها!

جماليات الافتتاحية والخاتمة:

تتقن اعتدال رافع لعبة القص، الذي يعني تشويق المتلقي من أول كلمة في الافتتاحية إلى آخر كلمة في الخاتمة، فهي تأخذ بيده إلى عوالم الدهشة والجمال.

ولو توقفنا عند افتتاحية قصة (البصمات الدامية) "**قال لي حبيبي وأنا أضع رأسي الغزير على كتفه: لو كنت أملك مركبة فضائية لخطفتك، كما تختطف الشوحة صغار العصافير، وطرت بك إلى أحلامك**" (ص٩٥). استطاعت هذه الافتتاحية بما امتلكته من لغة شعرية، وحركة (أضع، خطفتك، طرت إلى أحلامك) رسم جمال مشهد، يشوّق المتلقي على معرفة المزيد.

اعتنت الكاتبة بجماليات الخاتمة، حتى لتبدو أشبه بجرح يفغر فاه ألما؛ ليثير أسئلة في أعماق المتلقي، ففي مشهد ختامي غرائبي مفزع حيث يغطس الأطفال بدم أمهم لحظة وفاتها "**كانت فاطمة تطفو فوق بركة دم، شاحبة وفمها مزموم وعيناها كبيرتان. لم يسبق لهم رؤية عينين بهذا الاتساع الممزق، انتحبوا وهم يقتربون منها أكثر. وتقرمزوا بدمائها.**" وقد جاء عنوان هذه القصة "الجنين الذي ذبح أمه" ممهّدا لفجائعية هذه القصة وغرائبيتها! فقد قتل الأمَ جنينها، الذي حاولت إجهاضه!

حققت اعتدال رافع في قصصها معادلة الفن الصعبة التي يلتقي فيها الجمال بهم الإنسان، فقد أتاحت للمتلقي فرصة معايشة الألم عبر لغة تخييلية، تنفتح على جمال لا تدركه إلا روح مرهفة، تستطيع أن تكشف قدرة أفعال بسيطة أو أقوال لا ننتبه لأهميتها، لكنها تهب حياتنا معنى، فتخفّف ظلمة ما نعانيه من قهر، لهذا نسمع طفلا في خاتمة (حكاية ولد من يأجوج ومأجوج) يقول: "**أترقب خروج صاحب البيت ليحييني بابتسامته العذبة التي كان أنسها يبهرني، لم يسبق لي أن رأيت في حياتي ابتسامة فيها كل هذا الضوء، وأيقنت أن هناك شموسا أخرى غير الشمس المعلقة في السماء.**"

أعترف أن جمال هذه اللغة وعمق حساسيتها الإنسانية جعلني أكاد أتناسى خطأً فنياً ارتكبته الكاتبة، حين أنطقت طفلاً بلغة تتجاوز قُدراته، فقد أسقطت عليه رؤيتها وحساسيتها، وبذلك ضيّعت صوته الخاص به!

تحاول الكاتبة أن تختار لخاتمتها، في أغلب الأحيان، لغة أقرب إلى الشعر، كي تشحنها بأكبر طاقة تعبيرية مؤثرة، فمثلاً بدأت الفتاة الفقيرة (راكعة) في قصة (نحول الرماح) تفقد قدرتها على مقاومة رجل يساومها على شرفها بقطعة حلوى، إذ بعد حرب طويلة بينها وبين الجوع، أحست بالضعف، ولكن "**قبل أن تلامسها أصابعها كانت قطعة الحلاوة قد تحولت إلى قطعة سوداء تعج بالذباب**" تبدو هذه الخاتمة أشبه بطعنة تصيب شغاف القلب، وتشحن الوجدان

بالقرف من واقع بائس، يمتهن كرامة الفتاة، لكن خيال الكاتبة يحاول إنقاذها عبر هذه الصورة "**كانت يدها واجمة كثيرا، والرجل لم يخطر بباله أن يستبدل قطعة الحلاوة بأخرى**" (ص٩٢)

حتى الخاتمة التي تنتهي بموت البطلة (لطيفة) في قصة "وصية القوقعة البيضاء" لن تريح المتلقي، بل تزيده ألماً وتوتراً، فأخوها (عباس) الذي أهملها في حياتها "**ذهب مع أولاده إلى مخدع لطيفة كانت مدثرة بالثلج في فراشها. نهبوا أشياءها بعد أن افتضوا بياضها وحنينها بأصابعهم الخشنة**" (ص٤٢) انتهكوا حرمة موتها الجميل والمؤسي (**كانت مدثرة بالثلج**) بأفعال تقتل (**بياضها وحنينها بأصابعهم الخشنة**) فتموت لطيفة مرة أخرى حين تسرق أشياءها الحميمية، فلا تنفذ وصيتها!

وقد حاولت الكاتبة في تجربتها الحداثية التدخل في الافتتاحية وفي الخاتمة، بعد أن نبّهت إلى أمر هام هو: انسجام المقدمة مع الخاتمة، فقد بدأت القصة بالحديث عن شخصياتها المهزومة والمجروحة "**بعد أن استنكر القاضي هزيمتها، توسدت شخوصي جرحها ونامت**"، وختمتها بنهوض الكاتبة في الصباح وإخراج دفترها من تحت وسادتها، فتكتشف تلون صفحاته ببقع دماء شخصياتها التي تبدو متناثرة كالشموس، فجاءت صفة (الشموس) لتفتح آفاقا جديدة أمام المتلقي، تنقذه من إيحاءات القهر والظلم.

وبذلك تبدو الخاتمة مفتوحة لديها، فهي لا تريد أن تريح المتلقي، بل تقلقه، وتثير في داخله أسئلة تؤرقها، لعله يشاركها البحث عن أجوبة، تنقذه مع أبطالها من بؤس يومي يطارده.

أخيراً أعتقد أن هذه العجالة لا تفي تجربة اعتدال رافع حقّها، لكن لا أدري إن كنت قد استطعت لفت النظر إلى تجربتها الفريدة في الإبداع القصصي؟ آمل أن أكون قد حفّزت المتلقي؛ ليدرس هذه التجربة المتميّزة بالعمق الإنساني والرهافة الشعرية!

وعدتك يا صديقتي ألا أكتب دراسة أكاديمية جافة، فأنا مثلك أنفر من تلك اللغة النقدية المحنطة في إحصاءات ومصطلحات لا حياة فيها، أبحث عما ينفع الناس، ويحلق بهم في عالم أجمل.

الصفر

(قصص)

المخاض

ذقن عبد السميع كانت عريضة في ذلك الصباح، ينفلش جلدها على الرقبة مباشرة... لم تكن هناك استراحة لصهيل بين حنكي عبد السميع وتفاحته.

وأنت يا آمنة يحلو لك الشرود في الصباح وصفّ الحكي. تتمادين في وساوسك.. وتتقبضين، ينقف لحم رحْمك كأنك تحملين جبلاً.. وتظهر لك ذقن زوجك عريضة، وهي في الواقع ليست كما تتراءى لك، وتداهمك أوجاع المخاض قبل أوانها.

ذقن الرجل يا آمنة تعكس فصول العمر.

وأوجاع المخاض لابدّ منها!

تخمّر العجين يا آمنة وفاضت حمضته على القلب..

ومهما فعلت لتقصي فراخك وتجنّبيها حموضة زمانك التي تفوق بقبقة الأسيد خوفاً على غضاريفهم من التآكل والذوبان.. لن تفلحي البتة في مسعاك هذا، فهذا العمل من صنع الجبابرة، وأنت مجرّد آمنة.

يفرش عبد السميع رغوة صابون الحلاقة على ذقنه..

مع جهجهة الضوء تشردين في بياض الثلج..

تقتربين من عبد السميع، وبإصبعك النحيلة والمرتعشة تنقرين البياض الذي يكفّن الذقن.. وترسمين غمّازتين عند إطلالة الضحك!

من عبثك الصبياني يجرح عبد السميع جلده، ويشوب بياض الرغوة خيط أحمر.

تسرعين في الاعتذار والمغفرة.

تقبّلين الخدّ وتضمّين شفاه الجرح بشفتيك.

تتكفّن شفتاك بالبياض والدم. تكشيّن من الهلع:

صباح السمّ ولا صباح الدم يا عبد السميع.

يستمر عبد السميع بتمرير الشفرة على جلده، وأنت ترعفين خوفاً وتشتدّ طلقات الطلق ونقفات رحمك المغموم الأجنّة.

يطلب منك عبد السميع أن تحضري له منديلاً وجورباً نظيفاً:

لماذا لا تحبين الجوارب والمناديل يا آمنة؟

فتحت الجوارير، قلبت محتوياتها، وفي شرودك كنت تبعدين الجوارب والمناديل عن يديك!

لعنْتِ الشيطان الذي يسرق جوارب عبد السميع ومناديله من الجوارير!

وجواربك يا آمنة منسولة من خيوط المطر.

ومناديل عرسك مغزولة من لُعاب الشرانق.. صرخة الدماء الذبيحة لفحتها بعيداً عنك.

الجوارير محتوياتها مبحوشة، وأنت مازلت تبحثين وتبعثرين ما هدّك تنسيقه وسرق عمرك منك.

لماذا فتحت الجوارير يا آمنة.. عمَّ تبحثين فيها ؟

عدتِ إلى عبد السميع متعثرة بنسيانك وخيط الدم يابس على شفتيك، وبطنك المنفوخ يتأرجح ويمشي أمامك كأنه النعش.. وكنت خالية تماماً من الجوارب والمناديل.

تدهشك ذقن عبد السميع الخاوية من غمّازتيك.. تحملقين في جرحها الذي ينام يابساً على كرسي الخد:

صباح السمّ ولا صباح الدم يا عبد السميع.

من يوم يومها ذقن عبد السميع وحنكاه هكذا.. بلا غمازات، وبين حين وآخر كان يجرحها.. تزلّ يده بالشفرة إلى اللحم أثناء الحلاقة ويجرحها وحده،

ما بالك اليوم تبالغين في وسواوسك وتلحّين على تناسق التقاطيع والمسافات والبهجة ؟؟

عجيب أمرك يا آمنة، تعتريك أوجاع المخاض وما هلّ شهرك؟

مرة تلو المرة دخلت إلى الغرفة المبحوشة الجوارير وأنت ترددين بشفتيك:

جوارب نظيفة.. محارم أيضاً لعبد السميع.

وفي إحدى تلك المرّات، حانت منك التفاتة إلى نفسك:

رأيت آمنة في آمنتين. واحدة تسبح في بركة زرقاء.. والثانية تجرش الملح على بطنها، حششت الزرقة التي كانت تنمو على ضفاف البركة، وحالاً عثرت على الجوارب والمناديل.

الأحلام تأخذك إلى دنيا غير هذه الدنيا يا آمنة:

وآخ ..

بكّرت في شرودك ومخاضك يا آمنة.

-٢-

ضجيج الأولاد يا آمنة يشبه ضجيج محطات سكك الحديد. ترقص له الأرض والجدران وصدغاك، وعندما ينام الأولاد يغفو ضجيجهم على وسائدهم. انتهزت فرصة نومهم، سندت جبينك المحموم بكفك الرطب كي لا يتبعثر الحلم في صباحات مخاض الضوء.. وتشردي على مدى شرود التعب والهم.

بدأت طقسك اليومي بخزي الشيطان والبسملة وأنت ثقيلة بجنينك التاسع الذي يحبو إلى شهره التاسع. انسللت إلى المطبخ لاعداد الترويقة وفي عينيك تقفز حيوانات برية تلبس بيجامات مخططة بالأبيض والأسود.

تضمّين جفونك على ركضها كي لا تبصري حدقاتها الممزّقة بذعر البنادق والبلطات، والتي كانت تشقّي أقدامها النحيلة عن قاماتها وتضيعّها عن أجسادها .. فتسقط وتغرق مع ملابسها بالدم.

يفور قلبك مع إبريق الشاي ويطوف على البتوغاز والأرض:

أعطاك الله خير هذا الفوران يا آمنة !

بيد تفتحين النمليّة، وبيدك الأخرى تجذّفين الموج وتبعثرين دوّامات الغرق. تمتد يدك القريبة إلى النمليّة. تخرج صحوناً فيها بقايا زيتون وشنكليش وبصل مفروم. تستطيل اليد الأخرى إلى الحقل لتحّش الأشواك التي تجرّح سيقان سنابل الحنطة.

يدخل عبد السميع إلى المطبخ، تصبّين له فنجان الشاي وأنت تتحاشين النظر إلى وجهه. ترتسم دوامات على وجه الفنجان من لفح همومك.

يرشف عبد السميع رشفة.. ويطغى عليك الهدير..

تتسع الدوامات من النقطة إلى الغرق:

آخ يا ولدي..

تسندين بطنك المنهوب بالسكاكين. تهدهدين برفق أوجاع الأجنّة.

يقول لك عبد السميع:

اخزي الشيطان يا آمنة وصلّي عالنبي. تجلّدي من أجل مولودنا القادم (صقر بن عبد السميع الخارج).

تقولين له: حاضر.

أجل يا آمنة الحاضر حضور، والحضور بهجة، لا تهوّلي الأمور وتضخمي الأوجاع وتقولي عن سّرْتك كأنها مذبوحة ببلطة مهووس من مهووسي المذابح(١)، وتكدّرين عبد السميع. أنت تحبينه يا آمنة مهما بدا لمخاضك شكل ذقنه.. والرجل في البيت رحمة حتى ولو كان فحمة!

تنفرج شفتاك دون إذن منك. يتقاذفها حنين مقيم في حناياها:

لو كان بيتنا حقلاً يا عبد السميع، لا أبواب له ولا حيطان.

كان يستيقظ النبات فينا ويكسونا الندى، ويكبر الأولاد على راحتهم وهم يخوضون في السواقي والجداول والأنهار، يعدون مع الظباء والأرانب، ويصطادون الثعالب والذئاب، ويتدثرون بفرائها. أقطع سرة جنيني بالحجر إذا

---

(١) في مذابح صبرا وشاتيلا بقروا بطون النساء الحوامل بالبلطات.

ما داهمني المخاض وأنا في الحقل. أضعه في "شقباني" وأحمله على ظهري طوال النهار.. ولا يفارقني نبضه.

عندنا بارودة فرنسية يا عبد السميع، وأولادنا يخافون.. بئس لمصيرهم!

منذ اختراع العجلات والأبواب والأقفال والبواريد، كان الخوف..

ولباب بيتنا قفل بستّ طقات؟

صار الخوف يسري إلينا من مسامنا محّملاً بالإسمنت والزجاج والغبار والزعيق والهدير والحرامية الذين يسطون على البيوت والأرواح في عزّ النهار.

تغبّر المناخ وأظلمت الطقوس وضاقت النفوس: ضمر الأولاد من الجوع والخوف وقلّة الحركة.. بردوا كثيراً يا عبد السميع.

لو كان بيتنا حقلاً يا عبد السميع لأسكنته رأسي.. وما عرفت العصْبة والحبوب المسكّنة والمهدئة طريقها إليه.

تعبئني بالبذور.. وأطرحها لك يانعة رغم نحولي. على الأرض يبدأ نحولها مثلي. الرحم رحمة يا عبد السميع..

كم مرة ومرة صليّت وتمنيت: لو يعود أولادي صغاراً بحجم عُقلة الإصبع لأعيدهم إلى بطني وأتخلّص من آلام نحولهم وخوفي عليهم.

عشرون عاماً أنهضت لك من سُبات ظلمتي وظلمي ثمانية براعم ،والبرعم التاسع على وشك أن يجتاز عتبتي النديّة.. إلى المحل.

ثمان بنات وولد أسميناه "مصعب".

الحمل ينهك الجسد ،يهدّ قواي يا عبد السميع.

جنيني لا يحلو له اللعب والرفس إلّا عندما أهجع إلى الراحة. ينزلق من مكان إلى مكان وينط كالطابة في أرجائي. أمدّ يدي إليه لأخفف من نزق تدحرجه ونطّه.. تنطبع على كفيّ الأخاديد.

تشقق بطني كثيراً يا عبد السميع، ما عاد مشدوداً مثل رغيف خبز الصّاج. أحملّك بعض المسؤولية فيما آل إليه حال بطني.

عندما كنت أراك منشرحاً وصافياً، كنت أنتهز فرصتي للدلال. أطلب منك أن تشتري لي حبوب منع الحمل من الصيدلية: الإنجاب مسؤولية كبيرة يا عبد السميع وليس شطارة أو فحولة طالما أن القطط والكلاب تنجب توائم؟

وكنت سرعان ما تتغبّش وتُظلم بسرعة، وتقول لي قول الواثق:

يأتي الطفل ويأتي رزقه معه لا تكفري يا آمنة!

ويتضاعف عدد مواليدنا وتشح أرزاقنا. وتلوذ أحجار تنوّرنا السوداء بالفرار.

.. نحلت ذقن عبد السميع كدمعة مفروطة من غُمر مهاجر.

-٣-

برد الشاي يا عبد السميع وأصبح لونه غامقاً، والترويقة جاهزة، ليس عندنا خبزٌ كافٍ فاخطف رجلك إلى الفرن واحضر لنا بضعة أرغفة ساخنة قبل نهوض الأولاد.

صه.. زوجك تعبان يا آمنة، وآن له أن يرتاح من مشاوير الأكل والشرب.

تنادين على مُصعب بخفوت النعس والموت. مصعب نائم لا يرّد عليك لأنه لا يسمعك.

يذهب عبد السميع لإيقاظه ،يبحث عنه بين الأجساد المؤنثة الثمانية المشكوكة على الفرشات كقطع اللحم : يهزه حالما يعثر عليه ويهمس له:

- قم يا مصعب.

يفيق مصعب من نومه، ينهض حالاً قبل أن يزول احمرار النوم عن عينيه. عبثاً يحاول رفع بنطال بيجامته إلى خصره ليخفي بطنه وسرّته العارية. يشدّ جاكيت البيجامة إلى أسفل، وأيضاً لا تطاوعه بالنزول. ويبقى بطنه والتوتة

الشامية الناتئة على خاصرته اليمنى ظاهرة للعيان. كبر مصعب وصار في الصف الخامس الابتدائي، والبيجامة المقلّمة بالأبيض والأسود أصبحت ضيقة عليه وقصيرة على قامته. يحشر مصعب جسده فيها عنوة. ولا يدع ضيقها وعتقها يُفسد بهجته الصباحية "بالدحاحل". يفتح درجاً مخلّعاً يتناول كمشة "دحاحل" ويدّسها في جيوب بيجامته.

مهما كبر الأولاد فإنهم يستمرون أطفالاً في عينيك وخوفك يا آمنة.

مصعب يزداد طولاً وجمالاً يوماً عن يوم. يفرش ظلّه على وجهك وحيطان البيت.. وغداً سوف تكبر الطاقات التي تتسرب منها الشمس والعصافير إليك.

يفتح مصعب الباب ويخرج منه إلى الفرن كالريح. خشخشة الكرات الزجاجية الصغيرة التي تصطك في جيوبه تسبقه إلى الخارج:

- لا تتأخر يا مصعب.

- محروس يا ولدي.

تضمّين شغافك يا آمنة على الحيوانات البريّة التي ترتدي بيجامات مخططة بالأبيض والأسود.

- ٤ -

لأن الفرن كان مزدحماً بطوابير الجائعين. فرد مصعب "دحاحله" عند جذع الشجرة في منحدر الجادَّة. عانق بأصابعه واحدة حمراء ونقفها.. تراكضت "الدحاحل" وارتطمت ببعضها محدثة صوتاً زجاجياً.. شاحنة كبيرة كانت قادمة من أعلى الجادّة بسرعة جنونية لم تمكن سائقها من السيطرة على فراملها. كسرت الشجرة وسحقت "الدحاحل" واصطدمت بجدار بناية قريب من الشجرة، الخبطة الآتية من اصطدام السيارة في منحدر الجادة، أعقبها ضجيج كضجيج الكوارث.

تنهنهت الحناجر وأركان المنزل بالصراخ:

- تأخر مصعب وبرد الشاي يا عبد السميع.

خرج عبد السميع إلى الشارع ولحقت به آمنة حاسرة ،حافية. تاه منك عبد السميع في الحشر الذي تجمعت حشوده في لمح البصر، وسدّ منافذ الجادّة أمام عينيك. انحشرت بين الناس وأنت تجذفينّ ببطنك وكوعك وصراخك. لم تلمحي اخضرار الشجرة التي كانت واقفة على كتف حيكم منذ عشرين عاماً. رأيت ظهر شاحنة سوداء مبقّعة بالطين.. ولم تتمكني من الوصول إلى دواليبها.

تطلب منك امرأة كانت واقفة بين الجموع أن تغادري فوراً إلى بيتك كي لا تجهضي جنينك من بشاعة المنظر الذي يستلقي تحت دواليب الشاحنة.

تسافرين يا آمنة التي يحلو لها الشرود وصف الحكي إلى الهدير!

- صباح السم ولا صباح الدم يا آمنة.

(كان يا ما كان في جنون هذا الزمان صبي في العاشرة من عمره يلبس بيجامة قصيرة وضيقة مقلّمة بالأبيض والأسود، اسمه مصعب، أرسله أهله إلى الفرن ليشتري لهم خبزاً. كان الفرن معجوقاً بالناس، فاستغل مصعب هذه الفرصة وفرد "دحاحله" تحت الشجرة وراح ينفقها.. وبينما كان نشواناً بالأصوات الصادرة عن تدحرجها، تدحرجت إليه شاحنة كبيرة واستقرّت دواليبها الأمامية على قسمه السفلي بعدما كسرت الشجرة.. وبقيت يداه في الهواء تنقفان "الدحاحل")

ينحّل عبد السميع صرخة في إطلالة (صقر بن عبد السميع الخارج) تشردين يا آمنة في الهدير وأنت مسكونة بقسوة العجلات.

دمشق ١٩٨٦

شـائعة

تسري الشائعة في الهواء .. تتقاذفها الشفاه مع الأنفاس. تتخطىّ الحدود والسدود إلى أماكن قصيّة مسكونة بالعفاريت والجن والأنصاب والأطلال والأوابد التاريخية والمستحاثات والناس المتعبين:

- (منية القلب مجنونة، جنونها خطر، لا تقربوها لأنها ممسوسة، يوم الخميس وهو موعد حمّامها دلقت ماءً مغلياً على الأرض دون أن تتعوّذ من الشيطان الرجيم وتُبسمل وتستأذن الأسياد. تضايق الجن الذين يسكنون تحت بلاطات حمّامها وغضبوا من عبثها وقلّة اكتراثها.. ولطشوها..

يا لطيف الطف بنا، جنون النساء أشدّ هولاً وشراسة من جنون الرجال. (الله يثبت علينا العقل والدين).

.. ومُنية القلب تنفي جنونها نفياً قاطعاً، وتؤكد أن لا علاقة للجن فيما حدث لها. وإن كان هذا الحدث الرهيب قد توافق مع موعد حمّامها.. فمن قُبيل الصدفة فقط، وتعترف أنها دلقت ماء مغلياً فوق بلاطات الحمّام، فعلت ذلك وهي في غاية الاستعجال، ومعاذ الله أن تكون ملحدة! تجاوزت طقوس دلق المياه المغليَّة فوق الأرض، وكان همّها منصبّاً على تنظيف بلاطات الحمّام من الحيوانات المنوية التي قذفتها الزواحف والحشرات لايقاعها في الشرك الذي أوقعت به صديقتها كريمة من قبل.. فمنذ موت كريمة الذي اكتنفه الغموض أصبحت منية القلب مسكونة بهاجس "تحبل البنت من بلاطة الحمّام"، لذلك صوبنت أرض الحمّام وغسلتها سبع مرات حتى أصبحت لامعة ومصقولة كمرآة.. لا أثر للحيوانات المنوية عليها:

منية القلب سبيعيّة وتحب رقم ٧.

رقم سبعة مشقول الذراعين إلى أعلى ومتأهب للعناق دائماً.. لا يتعب من تسبيح ربّه، أشياء وأشياء تحشر في عناقه عنوة!

الله خلق الدنيا في سبعة أيام.

على كل حبّة رز سبع آيات قرآنية.

والمقاتلون والمغامرون يأخذون صوراً تذكارية وهم يرسمونه بأصابعهم ويضحكون.

تتعرّق منية القلب وتزفر تعبها، تسفح جلدها فوق أرض الحمام. تخلع مَحْبسها وتحلّ شعرها الطويل من دبابيسه.

تغتسل وهي مطمئنة تماماً.

الاطمئنان ضروري في الحمام ليكتشف البنات جمال أجسادهن.. ويغنينه.

غطّاها بخار أبيض.. وصارت منية القلب جزيرة نائية ملفَّحة بالغيم.

تراقصت أطياف رطبة فوق شفاهها وأهدابها كان لها زخم جياد راكضة.

امتطت منية القلب جواداً وعانقت خاصرتيه بجسدها وصوتها، وانطلقت في مدى السحب وكانت تغني "يلبقلك شك الألماس دروب دروب".

الغناء في الحمام يجلي الغم عن القلب.. وانجلى غمّها. وتشرّب جلدها بالماء ودلكته بكيس الحمام الخشن وفصلت عنه تراكمات اللهاث والتعب. ثم غطّته برغوة وافرة.

تتطاير فقاعات الرغوة القزحيّة الألوان، وكانت منية القلب تراقبها وتنفخ عليها.. فتتأرجح الفقاعات بين أنفاسها والجاذبية.

ثم تحط على جسدها وتتفلش.

الفقاعات نجوم والماء مطر وجسدها الأرض.

يتجسّد حلمها، تراه وتشمّه، ويتدفق في عروقها مع الدم.

هي هكذا دائماً .. تحلم. تعيش حلمها وتتنفسّه. حتى عندما يأخذها النوم إلى سلطانه، تنام وهي مفتوحة العينين، ويقولون عن نومها "غزلاني".. وهي لم ترَ قط غزالاً نائماً أو راكضاً إلّا في أدغال الحلم.. وعينيها.

وتصدق منية القلب أحلامها أكثر مما تصدق خوفها!

(منية القلب وقحة تغني في الحمام!!

– لماذا تغنين يا منية القلب في الحمام؟

حتى لا يجف الماء عن جسدي.)

صارت منية القلب نظيفة، وخرجت من الحمام ورذاذ الماء يتساقط من نهايات شعرها، ووجهها عابق بالصبا. في تلك اللحظة التي اقتربت من المرآة لتمشط شعرها لا تدري ماذا حلّ بها!. للوهلة الأولى خيّل إليها أنها انكسرت مع المرآة.. وتبعثرت وتناثر صراخها في كل مكان. خرج من شقوق النوافذ والأبواب..

وكف عقلها أن يكون عقلاً. بينما كانت ترفع يدها بالمشط إلى رأسها ،طوّقتها جثّة كانت ترتدي ربطة عنق فاتحة وملابس داكنة.

ضغطت الجثة بقسوة على يدها.. انغرست أسنان المشط في كفهّا وأحدثت فيه ثقوباً حمراء.

– (الصراخ فضيحة)

طقطقت الجثّة بفكيها الغائرين وخطفت شفتي منية القلب من مكانهما وضغطت عليها بأسنانها الصفراء.

– (الجثث ترفل بأكفانها في القبور لا تتحرك وتمشي وترتدي ملابس الأحياء وتدمي كفوف الصبايا وشفاههن)

ولم يصدقها أحد.

وحكموا عليها بالجنون.

طافت بها أمها والجارات على أضرحة المباركين وأصحاب الكرامات. رقوها.. وحمّلوها التعاويذ والحجب، وبخروها بدخان بذور "نبات الحرمل وكشّه الثوم والنعناع اليابس والشبه وورق الشجر الأخضر"

دمعت عينا منية القلب وسال أنفها.. وبقيت ممسوسة:

لا علاقة للجن فيما حدث لها.

ومنذ ذلك اليوم أصبحت منية القلب محاصرة. الجثّة تقتفي أنفاسها، والشائعات تلاحقها، وهي تركض وتصرخ وتدافع عن الجن وحدها!

.. وعيناها مسكونتان بالغزلان.. والمروج لم تبارح قلبها، ولكنها كانت تضيق بركض الغزلان.. وأحياناً كانت تسمع صهيلاً يناديها، تعانق الصهيل وتتشرنق داخل نفسها وتصبح كثيفة ناصعة كالحرير.

- (أنا لست مجنونة امتحنوا عقلي إن لم تصدقوني، إذا سألتموني عن الحب، الجواب جاهزٌ على رأس لساني ونهاياتي المتوفرة: أحب الله وأنبيائه وأنتم والشرطي وساعي البريد وموظف البلدية.

- كاذبة لا تصدقوها)

وبالفعل كانت منية القلب تكذب. ما باحت لأحد بحبها للجياد والفراشات والغزلان وحصى الينابيع المفلطحة ورائحة التراب بعد المطر وجزر الغيوم الوردية في السماء عند الغروب والألوان الليلكية. كانت تعتقد هذا البوح لا يعبر عنه بالكلمات.. بل بالرقص، وهي محاصرة بجثة وشائعات تمضغها مثل قطعة البان، وأحلامها لا تزال بضة الأعناق توّد لو تصل شهقتها الأخيرة إلى حدود الشفاه لتنداح بخاراً مع السحب.. أو مزماراً في الهواء.

عصيان غير معلن..

وتوغل في غابات الحلم.

الجن والعفاريت والجثة والناس يلاحقونها، يهجمون عليها، وتضيق الحياة على أنفاسها.

في نومها وتعبها تنفتح القبور وتخرج الجثث بعظامها المجلودة بالبرودة. تطالب بحقوقها المقدّسة في كينونة الأنفاس والجسد.

تعلن منية القلب جنونها الأبدي.

تنطلق وتركض وترقص عشقها وأحلامها وجمال جسدها (المبلول).

– (منية القلب مجنونة ،جنونها خطر، لا تقربوها لأنها ممسوسة)

لا ..

إذا ما صادفتموها في الصباحات، وعادة تكون نديّة مثلها. اشلحوا جلودكم وابتسموا لها، فجنونها ليس خطراً كما يزعمون.

لا تصدقوا الشائعات.

دمشق ١٩٨٦

الصفر

دخل عنتر الثاني إلى البيت كالسهم المشتعل وهو يخفي قَرعته بيديه وينزّ عرقاً.

كان الجو حاراً والذباب يطن ويهرب من الوهج إلى الظل والأماكن الرطبة، سحابة سوداء من الذباب دخلت خلفه.. لم يحسّ عنتر الثاني أبداً بكثافة الذباب الذي التصق برقبته العارية اللزجة، ولا بلسعاته، كانت بقايا شعره المحلوق تندس في رقبته وصدره وتوخز كالإبر. كما أنه في دخوله المستعجل لم يلاحظ وجود عنتر الثالث الذي كان يمدد جسده على عتبة البيت ويتحيّن الفرصة للخروج، فداس على ذيله وصرخ عنتر الثالث من الوجع، قوّس ظهره وشخر ونفخ ونطّ على ساق عنتر الثاني وخرمشها ثم هرب وهو يطلق صيحات غضب واحتجاج ويهمهم بشتائم غير.. مفهومة:

عنتر الثالث يعبّر عن وجعه وغضبه بطريقة بدائية فظّة. كل القطط تفعل ذلك!

وهو عنتر الثاني لا يحذو حذوه مطلقاً..

كان عنتر الأول جالساً على بقايا كرسي هزّاز يهز جسده المتعب. مرّ عنتر الثاني من أمامه وكان لا يزال يخفي قرعته بيديه، فأطلق عنتر الأول ضحكة مجلجلة عندما رآه على هذه الحالة، وأمّه في هذه الأثناء كانت في المطبخ لا تدري ماذا حدث لعنانترها الثلاثة.

انبطح عنتر الثاني على بطنه في منتصف الغرفة قبالة المرآة مباشرة، كوّع ساعديه بزاويتين حادتين وأخفى وجهه.

لم يتجرأ على النظر إلى نفسه في المرآة أبداً.

كان ضحك عنتر الأول ينهال على صدغيه كالمطارق.. ويصدّعه ويستدر الدموع من عينيه:

- (لو كنت تدري أيها الولد، يا عنتر الثاني، إن في يوم الأربعاء ساعة نحس، والزيرو تعني صفراً، وعنترة الأصلي اسمه ينتهي بتاء مربوطة وحياته ملحمة، وإن بيتاً كبيتكم مأهولاً بثلاثة عناتر - عشيق وولد وقطّ - من الطبيعي أن يتعرّض للاهتزاز في زمن لا يمت بصلة إلى الفروسية والعشق والشعر ونوق العصافير، لرفضت منذ البداية اسمك ووجهك وعمرك، ولكن من أين لك أن تعرف كل هذا وشعرك كثيف كالغابات وأنت دون العاشرة ومربوط إلى أمّك بقوة انتمائك إلى الطبيعة؟؟ ومن أجلها كنت تحبّ عنتر الأول وتسمع كلامه وترضخ لأوامره حتى لو قال لك ارمِ نفسك في البحر لفعلت ذلك.. من أجل استمرار الحب والتلاحم. من قبل لم تكن تخجل أبداً ببنطالك القصير الذي كنت ترتديه في أول فصل الصيف وتخلعه في آخره.

لم يخطر ببالك أن تصبح أقرعَ في يوم من الأيام.

في يوم الأربعاء ،ساعة نحس يا عنتر الثاني، والزيرو تعني.. صفراً.

منحوسة تلك الساعة التي امتثلت فيها لأوامر عنتر الأول وحلقت شعرك عالزيرو.

اجتاحك الهرم وقطّع أنفاسك.

ولأول مرّة سمعت من عنتر الأول كلمة زيرو، وفسّرتها في قاموسك الطفولي على أنها شيء رائع مثل (سابو)، وقلت لنفسك جميل شعر (سابو) الذي شاهدته في السينما وهو يتأرجح من اللمعان.

الآن فقد أدركت أن الزيرو لا شيء.. نقطة سوداء صغيرة بحجم رأس الدبّوس وشعرك الذي كان طويلاً وكثيفاً كالغابات.. صار صفراً!

حتى تلك اللحظة التي جلست فيها على كرسي الحلاقة عند الحلاق "أبي ياسين"، كنت خالي البال لا تشكو من أي شيء على الإطلاق سوى حكّة شديدة في فروة الرأس. ملعونة هذه الحكّة التي كانت تدعوك لغرس أظافرك في جلدك

وهرشه حتى يسيل منه الدم. النظافة عدوّة الحشرات، وخاصة تلك التي تتدّس في أدغال الشعر ومسام الجسم وتسبّب الحكة والهرش.

(النظافة من الإيمان) هكذا علمّوك في المدرسة. أنت مؤمن وتحب النظافة حتى لو لم يعلّموك هذا في المدرسة. شحّ المياه وانقطاعها عن الصنابير وعدم توّفر الصابون، يُبطل كل قيمة لكلام الكتب والنصائح. كنت تملأ الدلو من الفيجة كي يستحم عنتر الأول وأمك. يعلو صدرك ويهبط من ثقل الدلو، ويتأرجح بين يديك وترقص مياهه وتفيض وتبلك مع ملابسك وتشعر بالانتعاش:

الاستحمام ضرورة للكبار أكثر من الصغار لأنهم يتوسَّخون بسرعة.

والأمهات تحب رائحة أولادها.. وتطيقها مهما كانت، ولا تحب رائحة الرجال إذا لم تكن زخمة بعطر الرجولة والصابون.

عنتر الثالث يتمدد على خاصرته كل يوم وهو يفلي جسده ويحكّه بأسنانه ويلحس صوفه بلسانه حتى يصبح لامعاً.

وأنت تذهب إلى النهر الشحيح الأخضر كي تستحم فيه. تعلق الحشائش والنفايات في شعرك وتلتف حول جسمك. تخرج من الماء مبتلاً ورائحتك تشبه رائحة حراشف السمك.

تعوّدت يا عنتر الثاني أن تقصّ شعرك في الأعياد.

أعطاك عنتر الأول نقوداً وقال لك: اذهب إلى الحلاق.

كنت تظن أن العيد على الأبواب.. والعيد لا زال بعيداً أيها التعس.

كما أنك لم تلاحظ الفرق اللغوي بين القصّ والحلاقة.

قال لك احلقه عالزيرو، وفي السابق كان يطلب منك أن تقصّه.

هل فعل ذلك ليسخر منك كما يفعل الآن؟.

لا.. لا تشك بصدق نواياه. إنما فعل ذلك ليجنِّبك الحكّة، وضحكه اليوم ليس جديداً عليك. هل نسيت أنه كان دائماً يضحك ويهزّ قدميه؟

ما بالك اليوم تتلوّى من الألم كلّما سمعت ضحكه؟ لم يتغيّر شيء.. أنت الذي تغيّرت، وعنتر الأول ما زال شهماً يقطع اللقمة عن فمه كي تشبع مع أمك.

العيب ليس فيه. العيب فيك أنت:

للزوجات الأرامل الحق في الحياة بعد وفاة أزواجهن، ولو كان أبوك هو الأرمل، له الحق أن يتخذ أكثر من زوجة وعشيقة!

آخ.. صار الأمر معقداً وصعباً يا عنتر الثاني.

أنت تحب أمك وتغار عليها، وحبّ الأولاد لا يطفئ ظمأ الأمهات.

استيقظ فيك الرجل، ولو عرفت أديب يومها، لما سمحت لعنتر الأول بتخطي عتبة داركم.

في الماضي لم تكن تبالي بتحاشي أولاد الحارة لك كأنك طاعون، وأنت تحبّ اللعب معهم وتتحرق إلى رفقتهم. في البيت كان عنتر الأول وأمك يداعبانك حتى تشبع لعباً.

اليوم تركض وأنت خارج من عند الحلاق أبي ياسين. تتمنّى أن تنشقّ الأرض وتبتلعك مع قرعتك حتى لا تقع عيناك على أولاد الجيران.. أو تقع نظراتهم على عريك.

لم تسأل نفسك يوماً عن الأسباب التي جعلت اسميكما وملامحكما متشابهة أنت وعنتر الأول. كنت تؤمن أن الحب يوّحد بين القلوب ويقرّب شبه الملامح إلى بعضها. اختلف الأمر يا عنتر الثاني أنت صورة مصغرة عن عنتر الأول وهو ليس بأبيك وفيه ملامح غزاة القرن العاشر ميلادي، وعمّا قريب سيصبح لك مثل شاربيه الشبيهين بشاربي "ايرول فلين"، والفرق بينك وبينه هو اختلاف شكل الأنف. أنفه بارز النتوء مطعوج في وسطه.. وأنفك مستقيم وحذاؤك مطعوج عند الكعبين.

في اللحظة التي بدأت كتل شعرك تهوي على كتفيك. أحسست بثقل جبال الجليد تنهال عليك وتحني ظهرك. بردت.. وشعرت أن شيئاً ما، أملس وطري يتجعّد في لبّ سنواتك العشر.

قل لي يا عنتر الثاني لماذا تتحاشى النظر إلى نفسك في المرآة ؟ خجل أنت بقرعتك؟ والقرعة ليست عاراً، المصارعون يحلقون شعورهم مثلك. ارفع رأسك وانظر إليه في المرآة واضحك..

قم على حيلك، وجاذب عنتر الأول أطراف الحديث.

أنت جائع وعمّا قليل سوف ينضج الطعام وتأكلان وتشبعان وتضحكان وتلعبان.. وفي الليل تتحلقان حول أمك كمجرَّتين.

أنت تنام على يمينها، وعنتر الأول على يسارها، وعنتر الثالث تحت قدميها. حرارة جسدها تمدّك بالسحر، وعطر أنفاسها يأخذك إلى الربيع. تنام وينام عنتر الثالث، ولأمك الحق بعد نومك أن تدير لك ظهرها وتشرّع وجهها باتجاه القلب. في الصباح عندما تفيق ورأسك على زندها، تراقب وجهها الغافي المشرق الذي ينضح بالسعادة والحب. تبتهج.. وتحبّ عنتر الأول الذي أشرق أمك وجَمّلها كالربيع.

حلاقة الشعر عالزيرو لن تغيّر من الواقع شيئاً يا عنتر الثاني).

نهض عنتر الثاني، وفوراً زرع رأسه في المرآة.

انقلب الأثاث وتكسّرت الأواني. سقط عنتر الثاني على الأرض وتوقف عن الضحك. فانقلبت طنجرة الطعام على بابور الكاز واندلقت على قدمي أمه.

وبقي عنتر الثاني بلا طعام.. بلا نوم.. بلا حب أو حكايا.

دمشق ١٩٨٦

وصية القوقعة البيضاء

أنفاس كانون ثلجية.

والقرية كانت عالية عن سطح البحر، بيوتها متباعدة وتعدّ على الأصابع، وأشجارها كثيفة وغزيرة مثل شعر الرأس.

"لطيفة" كانت شجرة صفصاف لفحها البرد واحتقنت به، فتورّمت رئتاها ومجاريها التنفسية. داهمها سعال متواصل واقشعر بدنها من الحمّى.

أغلقت لطيفة مخدعها وعينيها على بواكير الخضرة، ولزمت فراشها:

– لطيفة بنت سليمان أنت بين يدي الله الآن استعدي لعناق طويل أنحلك انتظاره.

صفّرت رياح كانون، حمل الصفير إلى لطيفة نداء مراكب بعيدة:

– طالت غيبتك يا امرأة. كيف حال الزيتونات؟

– اشتقت إليك يا أمي. كيف حال البيادر؟

تورّدت لطيفة من صوت النداء وأشرقت عيناها، ورقص الشوق على شفتيها.

أدارت نفسها إلى جهة القبلة وابتهلت إلى ملاك الموت ليأتيها ويعجّل في أخذ وديعته ،ثم رفعت سبابتها اليمنى وتشاهدت.

(طارت لطيفة على بساط الريح، حط بها البساط على سطح بيت ريفي معشوشب وعليه مدحلة من حجر. نزلت لطيفة من مدخنته المسطومة بالشحّار:

– لا بارك الله في خلقة البنات..

تشحّرت لطيفة وصدقت سوادها مرة أخرى).

في ذلك الكانون من الخمسينات كان عمر لطيفة خمسين سنة.

وأبواب بيوت القرية كلها خشبية وعتيقة. ناطحها الزمن والريح وأحدث فيها شقوقاً وحرشف ما تبقى من مساحاتها. عالج الناس تلك الشقوق وسدّوها بروث البقر والخروق. وكانوا في الصيف يتركونها فاغرة على حالها لتدخل النسمات من خلالها إليهم.

اشتدت العاصفة وزأرت غاضبة. اختبأ الناس في بيوتهم ومترسوا أبوابهم من الداخل.

تحلقوا حول الكوانين يلقّمونها بالحطب ويستدفئون بالوهج والذكريات:

لكل منهم ربيعه.

للكبار ربيعهم الماضي.

وللصغار أيضاً ربيع أجدادهم وآبائهم.

"ولطيفة تركض فوق الثلج، تهز أشجار الزيتون والسنديان. تحوّش ثمارها وتملأ أذيالها وعبّها. تلسعها برودة الثمار التي لا تلبث أن تسخن من لفحها. تفرّغ ثمارها في طبق القش أمام أخيها عباس الكبير:

لطيفة تستحق أن تأكل اليوم لأنها اشتغلت بثمن رغيفها.

يقول عباس لزوجته.

لطيفة لم تمترس بابها، كانت واهنة على الزحف إليه وإغلاقه بالمسمار "المطعوج" الذي دقته بالجدار.

ولأنها واهنة.. فهي لا تخشى الأقوياء.

صفعت الريح باب مخدعها وفتحته على مصراعيه. شرد الثلج إلى داخل المخدع وابتّل الحصير والبساط وتحلّلت ألوانه. كما أصاب البلل الصندوق الذي كانت لطيفة قد وضعته في صدر المخدع من زمان، وخبأت فيه أسرارها وحنينها وجللته بغطاء من الحرير الأخضر. ثم بدأ الفراش الذي كانت تنام فوقه يتشرب الرطوبة ويعبّ الثلج بنهم.

في الصندوق كانت تنام أشياء جديدة من إبرتها: قمباز دمشقي، ملابس طفل، طرحة بيضاء وقفازات عروس، وأطر لوسائد ووجوه طراريح ومناديل مطرّزة بشغل الإبرة والسنارة.

وخز البرد حنين لطيفة النائم في الصندوق.. تمطّى وصهل. نهض إليها وعانقها. انتشرت مع ندف الثلج الشارد أوراق عطر وورد جوري وأغصان حبق كانت مندّسة ومعرّشة بين طيّات الحنين، وانضّمت أكليلاً لبس رأس لطيفة النائم على الوسادة.

صارت لطيفة عروساً زفّتها السنديانة الواقفة أمام باب مخدعها بمواويلها الحزينة وشيعتها بالدموع إلى بساط الريح.

– أنا لطيفة بنت سليمان أوصي بأملاكي، الصندوق والبساط والحصير ودست النحاس وطبق القش وزلع الفخّار وجلّ الزيتون ،إلى حياة بنت ابتسام قابلة القرية.

قرأ عباس الوصيّة أمام ذكوره تحت السنديانة وبصق.

"كانت حياة في البريّة تحمل سلّتها وتمشي حافية لا تبالي بالبرد ،تجمع القواقع التي كانت تشدها رائحة الثلج من أوكارها في الصخور كي تتزاوج فوق الثلج. تشويها حياة في الموقد وتستمع إلى وصيّتها وهي تئن تحت الرماد قبل أن تأكلها:

– أنا القوقعة البيضاء.. أوصي بلحمي وشحمي إلى حياة، وببرازي إلى عباس الطمّاع".

مزّق عباس الوصية وهو غاضب:

– لا وصيّة لوارث.

وذهب مع أولاده إلى مخدع لطيفة التي كانت مدثرة بالثلج مع فراشها.

نهبوا أشياءها بعد أن افتضوّا بياضها وحنينها بأصابعهم الخشنة.

دمشق ١٩٨٦

الحـرب

-١-

عقب انفجار عنيف أطاحني من زاوية إلى زاوية، ترجرجت.. وتقيأت ذاكرتي. لم يسعفني لساني المربوط سوى بالعواء.. وبعدها استغرقت في الذعر وأنا أنبض كرقاص الساعة، واجتاحني كساح أعمى، ونَدَهت:

- يا أمي..

في الضيق نَنْده أول ما نَنْده أمهاتنا والله والأنبياء.

وهذه الحرب أقصت ارتعاشاتنا عن حنانها، والميليشيات احتكرت الله والأنبياء وطوّبتهم باسمها.

كان لابدّ لي من صدى حنان أو قداسة، أو حتى قشّة نجت من طاحون الجنون لأتعلق بها وأُبحر إلى حواسي مرة أخرى.

أنا مشعّثة ومغبرّة وممزقة ومهروسة اللحم عند تضاريسي الناتئة. أذيالي نديّة، وأزيز الرصاص يشفط ذرات الهواء من حولي، يفخخّها ويفرقعها.

هدهدت عيني وأذني:

- يا عيني لا تتعبي من خرابك فأنت لا زلت مرآة دمعي.

اغتبطي بما تبقى لك من بريق قبل أن تطفئك سيجارة مهووس بإطفاء العيون.. لتشهدي !!

ويا أذني التي تشبه الغرامافون، مَوْسقي انفجاراتك قبل أن تشفيّك سكين مهووس بقطع الآذان.. لتحكي.

نحن مازلنا على قيد الحياة.

بذلت جهداً للملمة ما تبعثر فيّ في زاوية آمنة تقع بين عضاضتين، وأنا أنحشر فيها بطولي وعرضي وارتعاشاتي، تذكرت أن العضاضات في الماضي كانت تحمل البيوت وتحميها:

وبيت جارتي آمنة شفطته قذيفة فراغية مع عضاضاته وسقوفه وجدرانه وصخبه أثناء الاجتياح الإسرائيلي.

العضاضات فقدت متانتها في زمن الفراغيّات.

تجرّحت كفاي وأنا أُبعِدُ الزجاج والاسمنت عن مقعدي.

نفخت عليهما وفركتهما ببعضهما، وأسندت حالي إلى العضاضة التي كانت ساخنة من مفعول البارود.

–٢–

تعوّدت عقب كل انفجار عنيف أن أطأطئ رأسي وأدسّه بين كتفي.. ثم استغرق في الذهول. وعندما أفيق أجد صعوبة في رفع رأسي إلى فوق.. للتضرع.

وهذا الانفجار الذي حدث كان أقواها جميعاً:

في السقف فجوة كبيرة سوداء أحدثتها قذيفة وحولها دخان محروق.. والفجوات السوداء في السماء تلتهم النجوم. كما كانت هناك فجوة أخرى في أعلى الجدار تجاهلتها عن عمد حتى لا أرى الصرصار الذي كان يزحف مذعوراً ويتخبط في الاتجاهات. فأنا من شدة الإرهاق لا أستطيع أن أقارن حالي بحاله، وذعري بذعره، كما أنني تجاهلت الهاتف الذي استيقظ مدوياً في داخلي، والذي كان يؤكد لي قرابتي للصرصار.

(وخلقنا الإنسان في أحسن تقويم)، وألف ألف لعنة على داروين والغرب الذي قرّبنا من الصراصير.

التصقت بالعضاضة أكثر وأنا أقلّص قامتي المرتعشة وأسخر من تلك النقطة السوداء المتراكضة إلى السقف حيث توقفت في حذاء الفجوة ومدّت لي

قرني استشعارها مودّعة قبل خروجها إلى السطح، مؤكدة لي بطريقة ما.. تعاطفها معي.

إلى الجحيم أيها المخلوق اللزج.

لمّا غاب الصرصار عن ناظري شعرت بالوحشة.

(حسدت الصراصير لأنها تستطيع أن تمشي على الحيطان وتتسلّقها إلى السقف).

أترقب ظهور الصرصار من جديد وأنا ملهوفة. تطل عيناي على زرقة السماء المموَّه بالدخان، فالفجوة التي أحدثتها القذيفة احتلّت ثلثي مساحة السقف بعد أن أكلت نصف الحائط..

وهروب الصرصار من فجوة السقف شدّني إلى السماء التي سرعان ما ارتددت عنها لأنها غائمة وفيها دخان وقذائف ..

إلى المصباح الذي كان يتدّلى سلكه في الفراغ إليّ متكئاً على قضيب حديد عارٍ. فرحت بالمصباح لأنه مثلي لا يزال على قيد الحياة معلّق في مكانه، يتأرجح ويرتعش في القذائف، ينطفئ حيناً ويضيئ أحياناً، وتدور حوله الفراشات في الليل وتخرّ صريعة العشق الضوئي.

القذيفة أخطأتني مع المصباح. تذكرت شيئاً هاماً وهتفت مثل نيوتن:

ذاكرة العشق مرتبطة بذاكرة الضوء وبئساً للقذائف العمياء في مسارها الجهنمي الذي لا يميز بين السقوف والجدران والصراصير والناس والمصابيح.

وأظل محشورة في زاويتي أعانق العضاضتين وأهرول بأنفاسي إلى الكون الغارق في سبات البورصة والمخدرات والفقر والأيدز.

-٣-

زمن الحرب بلا نهاية.

والعمر محصور بين طلقة وشهقة.

المدنية التي كانت تمنحنا الحياة كلها والضجر كله.. باتت تسرقها منّا بطرفة عين.

أزمّ عيني ولا أطرفها. أسدد سهامها إلى السماء وأنا أجمع ذكرياتي من قافلة الرحيل والسفر لأستمتع باللون الأزرق الذي نسيت طعمه وملمسه. وكان لابدّ لي من شدّ رقبتي إلى فوق لأغرف الزرقة من حجب الدخان والأزيز. لما فعلت ذلك، ارتفع أنفي تلقائياً ولحقت به ذقني. نهض صدري من انكساره.. وتدغدغت. كأنما أصابع حانية ألفت مداعبتها وضحكها اجتازت عتبات الذبح ومتاريس الخطف وبوابات الرحيل.. وسافرت إلي. داعبت خاصرتي الضامرتين ونقرت حلمتي اليابستين ..

كان لدغدغة الأصابع المشتاقة طعم التفاح والسكر. أتذكر بوضوح من زرع أصابعه في عناق جرحي، هذا الأحد غيّبت الحرب طلّته عني.. ولا يزال حاضراً في ذاكرة الجسد.

في ذكرياتي السحيقة وقرابين بعل السخية أريق دمي وأريق دمي وأنبت الزنابق والأقحوان وشقائق النعمان والأجنة. بدّلت جسدي الذي كان يعتق كل مرة من الطهارة بجسد جديد، وكان يعتق وأبدّله لأنني أحب الأشياء الجديدة. البوذيون يقولون أن الموت يهب الحياة معنى وكوناً.

يطلّ جسدي في انبعاثه ،تتفتح حبيبات العرق كالدموع على مسامه ،ويصر على أنه تقمّص الشجرة والماء والعصفور والطفل والشمس والقمر ،ويدّعي أن الله يحبّه كثيراً وفي الآتي سيصنع له جناحين من أمواج البحر.

أنبش حبيبي من مسامي لتدغدغ ذكراه ذكرياتي وسمرة عنقي واخضرار عيني وزرقة السماء (تحديد المسرّات بمسارات الدمع يطمسه العطش والجوع وشبح الموت في زمن الحرب الأهلية).

قبل لحظات.. أيام.. شهور.. سنوات. سمعت انفجاراً شديداً طأطأني. تدلى رأسي الممشوق بصواري سفن الأرجوان إلى كتفي كما يتدلى رأس مشنوق من حبل المشنقة.

تكررت المرات التي كنت أهبط برأسي فيها. حتى تقوّست تجويفاً أشبه بمغارة أختبئ فيها عقب كل دويّ. استمرار الحرب قولبني مغارة أدس فيها لحمي

المرتعش كالسلحفاة، وأنا لا أحب السلاحف لأنها لا تهب الحياة معنى ولا تستطيع عناق من تحبّ بمسامها.

قبل عشر سنوات كان لي حبيب أحبني وأحببته كثيراً قبل أن يودع جسده ويلفني به ويفترش سمرة الأرض وزرقة الكون. تركني أرفو ثقوب مهجتي وحدي، وأنا ليس عندي إبرة ومغزل وشرانق وخيوط حرير.

قبل هذه الحرب كان رأسي محمولاً على عنق زرافة، وكان حبيبي يستغرق حبّاً وزمناً وهو يزرع شفتيه في اكتناز مساحاته المشدودة، وهذا المتدلي على كتفي الآن كجراب متسول، والمثقل بذل اللحظة.. العشرة.. العشرين.. الأربعين.. الستين.. السبعين.. الألفين. مرّ بغابات المشانق وشفاه المقاصل ومرارات الانكسارات والهزائم. تناسخ إعدامه رقاباً متهدلة وأخرى مشدودة، خرجت ألسنتها من مكامن همسها الخائف إلى لهيب الحرائق والحقائق.

سحبت من عبيّ جريدة اصفرّت من لهاث صدري وتقادم عرقي عليها. كانت مكسّرة ومهلهلة عند طيّاتها. فرشتها أمامي عشقاً معمداً بالدم. انغرست عناوينها السوداء كمناقير الغربان في عيني :

(السبت الأسود الدامي الذي نحر فيه الموظفون كالخراف عالهوية).

اقشعر خوفي... وماتت دغدغة الأصابع.

أعادتني الجريدة مع رأسي وحواسي إلى تحت:

– لماذا ..؟

– إلى متى ..؟

كانت علامات الاستفهام تشبه المناجل.. وبعدها صعب عليَّ استعادة طعم الدغدغة.

إنها الحرب الأهلية.

وأنا انتصار زوجة عدنان في عام الحرب، والأصابع المشتاقة لا تجتاز عتبات الذبح ومتاريس الخطف وبوابات الرحيل، لتسافر وحدها إلى الجسد المفخخ عناقه بالموت.

والعصافير يا انتصار معرضة دائماً للتسديد والجندلة في الدخان وحرقة الأشجار وتسيّب الكوى التي كانت تضم أعشاشها وتحميها. برودة الزناد أفقدت الأصابع الباقية تلك الرعشة التي كانت تجتاحها عند هبوب كوامن الحنين، والذكريات والعناق.

في العلالي الانعتاق، وعلى الأرض دمار يا انتصار.

لا..

أضيع في متاهات الحرب ولا أستطيع أن أميز طريقي.

تعبت من الملاجئ وبرودة العضاضات.. وشحّ المياه والرغيف.

في العلالي الانعتاق..

أحمل حزني على أهدابي إلى فوق ،أكاد أن أمزّق حدقتي وغشاوة عيني. أبحث عن شيء ضائع لم أفقد الثقة بعد في العثور عليه! والسماء تبدو من الفجوة وسيل الحرائق، بعيدة.. بعيدة عن مدى الصراخ واستراحة النظر وحرارة التضرعات وشظايا القذيفة انفلشت مع اسمنت السقف كالزوبعة شققت الحيطان بعدما قشّرت طلائها الماسي. كسّرت المزهريات والمرايا واللوحات وصور الذكريات وأقفاص العصافير وأصص الورود. مزّقت مفارش الكنبات وأغطية الأسرة.. بترت العناق. لم تترك فسحة لقدم تخطو أو زائر يجلس أو حلم يغفو دون أن يذبح.

يا رب... يرتد صوتي إلى حشرجتي محملاً بالشظايا:

ضيقة المسافات في الحرب، محصورة الأمكنة، والجسد أوسع من الفراغ المخصص له... وأكبر من وطن القبيلة والعشيرة والطائفة.

مرة أخرى يفجعني تغبّش السماء البعيدة. أطوي الجريدة وأعيدها إلى عبيّ لأن اسم عدنان وصورته فيها. ابصق سائلاً أصفر يحرق معدتي الخاوية، وتتداح أمواج الحرب مثل الطوفان. تحترق الجهات الأربع، تخلّع صمامات أماني.

أتشبث بالعضاضة، وأصرّ على قرابتي للبحر.

كنت خائفة ولا أريد أن أموت بشكل مجاني وعشوائي.

اجتزت ثلاثين حريقاً ومليون موت. خبأت دغدغة الفصول في ذاكرة الجسد وحناياه. وأجّلت مواسمي إلى الغد. دورتي الدموية من دورة الكون وسنون الحرب فاقت العشر والقذيفة خرقت الجدار والسقف وأخطأتني مع المصباح، والأرض لا زالت تدور... وتدور يا انتصار، وجسدك الذي قطع ثلاثين حريقاً ومليون موت، اكتسب صلابة المعابد وقدسيتها وعبق بخورها وخلودها، وهو يحن للاسترخاء والشبع والارتواء والنوم ليستعيد أعياده وطعم الأصابع التي دغدغته.

بعد لحظات.. أو غداً.. أو في غد الغدّ، تخف حدّة القصف وينام الموت إلى حين، وتخرجين إلى البحر مع الناس الشاحبين، تعود إليك المدينة والبحر.. وتسبحين في رحابه، وعندما تتعبين تستلقين على بساط الرمال وكفك يعانق محارة ساقها موج الجنوب العاتي إليك. تغلفين أذنك بها وتستمعي إلى أساطير الصيادين ومزارعي التبغ والليمون. أساطير تؤكد لك نسبك إلى الشجرة والماء والعصفور والبحر والصواري.

اخفض بصري إلى تحت، أحملق في خراب محارتي.

أهمس: لا بأس أن عاد صدري إلى انكساره المعهود.

أسحب الهاتف المكوّم على الأرض، أنفخ الغبار عنه، أرفع السماعة إلى أذني.. السماعة توشوشني.. وأذني مسدودة بالصملاخ والانفجارات والأساطير. الأسلاك المنصوبة للتواصل بين الناس تتعطّل وتتشوّش في القصف.

أهتف إلى الله وأدير في القرص ثلاثين صفراً..

وأنتظر الجواب.

بيروت ١٩٨٧

موت النافذة

عرف الدجاجة مقطّع، مضرّج الذبح.. وثقيل. رأسي يتضاءَل يوماً بعد يوم ويشحُّ.

تلك الليلة التموزية.. آه ما أشدّ حرارتها.

في تموز (تغلي المياه في الكوز). خلعت عرف الدجاجة وملابسي لأفتح فم الغول وأكسر أسنانه وأجعله مغارة للقمر.

نمت إلى جانب زوجي يوسف!

أنا عارية لن أحلم بالعري مرة أخرى.. وأخاف.

ضوء القمر مغناطيس يخطفني مع سهاد الساهرين إلى مملكة الحب الأسطورية.

نظرات القمر كانت أول من استباحت جسدي.. ويا نجوم لا تطفئي الطفولة في وجهي.

كان على يوسف أن يسبق القمر ويشبع عينيه من عريي، ولكنه كان تعباً ونام.

نبض عرف الدجاجة على حافة النافذة وناداني، تجاهلته فالتصق بالحديد... وتخثر. كانت ملابسي التي عصرت جسدي مكوّمة على حافة السرير. رائحتها هموم وعرق وبول. الغول بال على ذيله ورشني من مفرقي حتى قدمي.. وسبعني! ..

لن أفلح باقتلاع جلدي. رغبة جامحة تتآكلني لفتح فم الغول وتحطيم أسنانه ورمي أحشائه على حبال الأراجيح. وفمه مغلق بسبعة أقفال مفاتيحه ضائعة في قيامة الموت ومدّ الكوابيس.

ضحكت النافذة. يا لعذوبة ضحكتها.. كانت تزفر أنساماً باردة. تناهى إلى مسامي المتفتِّحة صوت حفيف. تعلقت نظراتي بالنافذة. كان الليل جاثماً والصباح لا زال بعيداً عن يقظة العصافير. (العصافير تنام في الليل لأنها تعبة من الطيران).

وجسدي العاري في تموز الحار طاقة مضنية مسبوعة ببول الغيلان ،ترسل النداءات، وتخنقها حشرجة الاستغاثات ويرتد إليها الصدى..

صوت الحفيف حط على جسدي كقطرة مطر، كان يمتزج بنقلات عصفور تهبط الدرج الخشبي الذي ينتهي إلى مشرقة صغيرة، تفضي إلى غرفة نوم ولديّ ثم إلى غرفتي. بيتنا عتيق مبني باللبن والأخشاب يسند بيت الجيران، وبيت الجيران يسنده. ونافذتنا عالية، أعلى من السور التاريخي الذي تطل عليه. سور عظيم حمى المدينة من الغزاة، والسوق الشعبي الملاصق لبيتنا يفصل بيننا وبين السور، ويبدو من علو نافذتنا كالجب المخنوق وهو يعجّ بأصوات الباعة والناس من صياح الديك حتى نوم التعب.

لا يوجد في بيتنا سوى هذه النافذة التي تظهر في عنق السور وظلام السوق كطيارة ورقيّة بيضاء.

عندما تزوجني يوسف وضعنا سريرنا تحت النافذة، فرؤية السماء والمدى المرصع بالضوء قبل النوم وفي إطلالة الصباح يضيء القلوب. دقت الساعة، انسكبت دقاتها فيّ ثقيلة كالرصاص هذه الساعة المعلقّة على الحائط قبالة النافذة، هدّية أمي في عرسي. إطارها أصفر وعقرباها سوداوان يزحفان على صفحة وجه منقط بالشامات.

يوسف عنده شامات، ولكنه حليق الشنب وجسده مدهون بدم الوطواط. لم تنتشر فيه غابات وأدغال. عميّ (أبو يوسف) عنده شنب.. وكان يحلق عانته وتحت إبطيه وينتف شعر صدره بالملقط، كان يحب أن يظهر أمام زوجته أم يوسف التي كانت تحب الرجال الموطوطين.. كأنه موطوط كابنه يوسف.

ناداني حسام:

– ماما أنا عطشان.

أنا أيضاً كنت عطشى، والصغار مثل الكبار يعطشون في الليل والنهار ليعوضوا عما فقدوه من غزارة. عندما ناداني حسام، ارتد صوت الحفيف والنقلات باتجاه السطح. صررت جسدي بالشرشف وشربت من الصنبور، ثم ملأت كأساً سقيته لابني.

ذهبت إلى المشرقة وتفحصت الدرج. لم تكن هناك رائحة عصافير أو ريشة تدّل على وجودها. لما عدت إلى النوم طقطق السرير. سألني يوسف عن الساعة، وقلت له الثانية عشرة ليلاً.

عاد يوسف إلى النوم قبل أن يسمع جوابي، وأنا محرورة، وفي ضوء القمر يغطي جسدي بشحوبه، وكان يحتكر لون الحنطة في أديمه ورحيق الزهر في صبغياته.

شرّعت النافذة ،وكنت أشرعها دائماً لتدخل إليّ الفصول والعصافير وأسراب الحمام وعقود النجوم، ويركض النسيم في أنحاء بيتنا وطيات جسدي وشعري. يؤرجحني مع المصابيح والستائر وأغطية السرير.. ويرقص العالم من حولي.

توَّرم عرف الدجاجة. تمدّد من الحر، وحبس أنفاس النافذة عني.

في منتصف تموز.. آه من الجمر المفروش على سريري.

هربت إلى نجمة كانت تسهر أمام النافذة ،سقطت في فم الغول قبل وصولي إليها. كان بوِدّي أن أصير هي.. تعبت أنا. تأملت تضاريسي في ضوء القمر، كانت منتفخة.. خجلت من عريي وبكيت.

من حين لآخر يبكيني ضوء القمر، وكانت هذه ليلتي الأولى التي أنام فيها عارية. خزانتي ملأى بالملابس وأنا من أنصار الاحتشام. لم أتعرّ بقصد إغراء يوسف لممارسة الحب، أو بسبب الحرارة الشديدة. من عمر الحب في جسدي وأنا أرتدي الملابس المحشومة، ما خلعت ملابسي وعرف الدجاجة إلّا تحت تهديد الحلم وإنذاره ووعيده.

فمنذ طفولتي والأحلام تسكنني.

تزوجت يوسف ولبسته.. أماناً للستر. كل مرة أضع رأسي فيها على الوسادة بجانب رأسه أشاهد نفسي أمشي في الشوارع المكتظة وأنا عارية، تخترقني النظرات كالسهام المسنونة وتنفذ إلى دمي وتفرغه من لون الحشمة الوردي.

أفيق مصدوغة وموجوعة من جراح النظرات وأنا أتحسس جسدي المخنوق بالملابس الثقيلة.

– العري في الحلم.. فضيحة في الواقع!

كانت تقول أمي، تكشف عن صدرها وترفع يديها إلى السماء:

– يا رب استر على جميع الولايا.

هذه الفضيحة المصيبة آتية من مكان غامض أجهل أسبابها. لم تعلمني الحذر، وكانت العواقب لا تأخذ حيزاً كبيراً من تفكيري. بحبوحة النسيان تخطفني إلى الطفولة التي يعزّ عليّ مبارحتها، وأداعب الورود التي يصمخني أريجها، وأسكن عينين يخصني بريقهما كمرآتي. وأغرد مع العصافير. أتذكر أحلامي فجأة وأنقبض. أضمر من تعقيد الحساب وأنا أعدّ خطواتي وأنفاسي:

لولا هذا الحلم الذي سكن أنفاقي لقلت إنّ حياتي تسير في مجراها الطبيعي خالية من المنغصّات، وتعوّدت على ثقل عرف الدجاجة وذبحه. ونظراً لتكرر هذا الحلم أصبح نذير شؤم مؤكداً لا طاقة لي على احتماله.

العري ملحاح كالموت والولادة.

لبست يوسف وكان كملابسي ضيقاً على جسدي. لم أفلح في مراوغة أحلامي.

أصبحت مغارة مسكونة بالخوف، ومع ذلك أنجبت ولدين جميلين، وفم الغول بقي نهماً يلتهم مساحاتي ويقوّض شاماتي المضيئة.

عاد الحفيف إلى الدرج الخشبي وشربه جسدي كالاسفنجة.

كان الحفيف واضحاً هذه المرّة، في الحقيقة ليس هناك مسافة تذكر بين أحلامي والواقع.

هل هي قطة الجيران؟

من المؤكد أن تكون هي، تسلقت كعادتها الطبلة التي تفصل سطح بيتنا عن سطح بيت الجيران، فالقطط كثيراً ما تفعل ذلك في الليل، عندما ينام الناس وتتأرق هي، تسرق جسدها إلى الشوارع والأزقة وتدخل البيوت من أسطحتها، تبحث عما يطفيء جذوتها.

الحمد لله أنني لست قطة.

فتح باب مخدع نومنا .. وتلاحقت أنفاسي.

إنها ليست قطة الجيران. واستبعدت أيضاً أن يكون زائر الليل لصاً. إذ ليس في بيتنا أشياء ثمينة تغري اللصوص سوى النافذة التي يرقد تحتها جسدي ..

والنوافذ لا تسرق إلّا بعد أن يتقوّض المنزل الذي يحملها.

تقدّم طيف الزائر باتجاه النافذة، ولمّا صار في منتصف الغرفة سقط عليه ضوء القمر. كان يلبس منامة بيضاء، وقسماته في عمق وجهه تئن من مطاردة الضوء لها. وأنا في صغري كنت أزور جبلاً شاهقاً تستقر في صدره أشكال منحوتة بعمق وثبات تشبه آلهة أسطورية، كان الناس يقولون عنها أنها قامات لرجال حقيقيين عاشوا في زمن مضى وحاولوا تحدّي شيخوخة الوديان وانزلاق الانحدارات، وفي أحد الأيام لموّا بعضهم بشجاعة وحاولوا الصعود إلى قمة الجبل متحدين اللصوص الذين كانوا قد سرقوا قمته ،وبينما كانوا يمشون صعوداً باغتهم اللصوص من مغائرهم السوداء بالرصاص. ومنذ ذلك التاريخ ظلوا محفورين في صدر الجبل كالأساطير لا يبارحونه أبداً.

هل يكون زائر الليل واحداً منهم؟

كأنني أعرفه، ولشدّة يقيني وإلفتي لم أوقظ يوسف أو أقم بأية محاولة لستر جسدي. وكان كلما خطا خطوة باتجاهي تتعمق المعرفة وتتوضح الألفة.

ترى أين التقيته يا أنا؟

سلط عليّ بريق عينيه، واشتعل جسدي بالسنابل وأتعبني وجيبي.

نقّ عرف الدجاجة ونطّ من النافذة إلى رأسي.

حملتني اليقظة بأهوالها إلى النافذة، أدليت قدمي من بين قضبانها، وناديت:

حرامي.. حرامي.

باعة الخضار والفاكهة الذين جاؤوا إلى السوق مبكرين، رفعوا رؤوسهم واستقرت نظراتهم سهاماً على ساقي وكل أنحاء جسدي. ذكّروني أنني عارية، وهممت بالنزول لارتداء ملابسي. في هذا الأثناء نهض يوسف وأدار مفتاح الضوء. شاهدني عارية أدير وجهي للنافذة وثدياي يبرزان من بين قضبانها.. كقمرين.

سحبني من شعري وصفعني:

يا عاهرة.

وغاب فوراً لمطاردة الحرامي.

حقق الحلم إنذاره ووعيده العتيق.

والله لم يستجب لابتهالات أمي البتة في الستر على الولايا.

في اليوم التالي اختفت النافذة من مكانها تماماً، وحلّ محلّها جدار كلسي بلون القبور.

صدر عن قلبي صوت تقصف يشبه تكسّر أجنحة عصافير الأقفاص.

دمشق ١٩٨٦

الشـرخ

السماء، هذا الامتداد الداكن لليل بارد، بدت مشروخة.

كان الشرخ في منتصفها تماماً حيث ظهر واضحاً وعميقاً كالجرح.. تسيل منه ظلال قانية، وعلى طرفيه تخثّر سواد.

الطريق إلى حيّ الصبّار كان يمر عبر القبور الدّارسة وأشجار الصبّار الهرمة بدا موحشاً وكئيباً، وهذا ما حدا بأبي ياسين العائد إلى بيته أن يشهق نفساً عميقاً ويكلم نفسه بصوت جهوري ليؤنس وحشة خطواته ويطرد عنه الأرواح الشريرة التي يمكن أن تعترض طريقه. بعد استغفار ربّه، تقاذفت شفاهه الملامات على الأموات لأنهم يخلدون إلى الصمت المطبق ولا يوشوشون العابرين المتعبين. لكنه ما لبث أن ندم وقرّع نفسه :

– معتوه.. الأرواح تخلد إلى الراحة مع أصحابها لأنها تعبة ودون رغبات.

– لماذا؟ لابدّ للأرواح أن تحمل رغباتها التي عذبتها وأزهقتها إلى أبد الآبدين.

– هراء.. الجوع مرتبط بالجسد، والحب أيضاً الجسد عموده الفقري، والأحلام تدور في فلك الرغبات، ومن يقول غير هذا ما هو سوى إنسان مصاب بالعنّة.. والقصور.

أشجار الصبّار التي كانت تشكل سوراً حول المقبرة ظهرت لأبي ياسين كمخلوقات أسطورية كلها رؤوس وليس لها أطراف، تشوّش واضطرب وخاف. ثم نادى:

أنا ابن جلا وطلّاع الثنايا..

وقبل أن ينادي الشطر الثاني من البيت يصطدم بشاهدة قبر ويقع على الأرض وينسى كلياً كل ما حفظه من شعر. يستغفر ربه من جديد ويحمده ويشكره لأنه كان رحيماً به وجنبّه السقوط في قبر مفتوح.

لو كان هناك مصابيح كهربائية أو نجوم لجنَّبت سكان حي الصبّار العائدين إلى بيوتهم (دغشة الدني) الوحشة والخوف والوساوس والسقوط في القبور المفتوحة. ولكن كيف؟ والنور يقلق راحة النائمين، والحرص على راحة النائمين واجب إنساني وضرورة اجتماعية وقومية وشعرية!!

بددت سكون الطريق صرخة ممزقة أنست أبا ياسين رضوض وقعته:

ياهو.. و.. و.. هـ..

ثم تلت الصرخة استغاثة لجوجة:

أنقذوني أنا حيّ.

جفل أبو ياسين وتسمرّ في مكانه.. الرعب لا يفسح مجالاً للتفكير والمناقشة.

تكررت الاستغاثات وكانت مثل البلطات تقطع أعصاب أبي ياسين وتفرمه وتزيد من ارتجاجه.

تشجع يا رجل، الخوف لا يليق بالرجال.. لو رآك أحد على هذه الحالة المزرية، لأقسم جازماً بأنك حريمة لا حول لها ولا قوّة.

بالتدريج عاد أبو ياسين إلى وعيه واستدار عدة دورات ليحدّد المكان الذي سمع منه الاستغاثة:

– لعنة الله على الظلام الذي يغرّب الإنسان عن عينيه وقلبه وطريقه.

تلمس أبو ياسين الأرض بقدميه، وأشعل عود ثقاب وهو يتقدم ببطء نحو الجهة التي سمع منها الاستغاثة، قدّر أنها قريبة جداً من موضعه. بوصوله إلى أول قبر اعترته دهشة شديدة. كان هذا القبر هو قبر صديقه عبد الله الذي وافته المنية مساء أمس على أثر إصابته بسكتة قلبية.

نام عبد الله ولم يفق من نومه أبداً.

– مسكين عبد الله.

أيقن أبو ياسين مدى قسوة العقاب الإلهي على الأموات الجاحدين بنعمة الحياة، وجزم قاطعاً بأن أنكر وأنكير يحاسبان عبد الله على ما اقترفه من ذنوب وأثام.

– بسم الله الرحمن الرحيم.

ولكن عبد الله كان إنساناً بائساً مثلك يا أبا ياسين! بربك قل لي ماذا اقترفت من آثام وذنوب حتى تجرّم عبد الله؟؟ أجل.. أجل. كان عبد الله رحمه الله في منتهى الوداعة إذا داس على نملة لا يؤذيها. يكدح ويجوع ويتألم بصمت. وكنت تؤنبه على صمته لأنك تعتبره إذعاناً وحياداً سلبياً تجاه قسوة الناس والظروف. وكنت تقول له راجياً: اصرخ.. ابك يا عبد الله ،ما أنت إلّا إنسان من لحم ودم ومشاعر وأحلام، ومحروم من أشياء كثيرة لك الحق في امتلاكها. وتحذره : إذا بقيت على هذه الحال يا عبد الله فسوف يقتلك الغم كما قتل آلاف التعساء من قبلك، والموت بسرطان الحنجرة أجمل وأوسع ألف مرة من الموت بداء السكتة ،لأنه يترك لك فسحة للأنين والتعبير عن ألمك. ألا تعلم أيها الصديق أن صراخ الموت مشروع كالولادة ؟

وكان عبد الله يجيبك بسخرية رجل فقير وموجوع: إنك تهذي يا رجل، لقد هدّت التنهدات قلبك وتقطعت حبالك الصوتية من الصراخ وأكلت الدموع عينيك.. أخبرني ماذا كانت النتيجة؟ ما هي محصلات جعجعتك؟

ربما كان عبد الله على حق. أجل، لقد كان رجلاً حقيقياً حتى في الملمات والأحزان الكبيرة التي يطحن ثقلها الجبال ويقزّم العمالقة. عندما ماتت زوجته وابنه الصغير بمرض التيفوس، كان يبتسم للمعزّين وهو يلجم دموعه كما يلجم أنينه.

يفقد الحزن معناه وأصالته بالتهويل واللعلعة.

مرة أخرى أشعل أبو ياسين عود ثقاب وهو يركع على قبر عبد الله. وضع أذنه فوق تراب القبر الندي، لكنه لم يسمع غير دبيب الصمت:

– لابد أنك كنت تحلم يا رجل! في ليل مشروخ وبارد يصعب التفريق بين اليقظة والحلم. لابد أن أنكر وانكير قد انتهيا من حساب عبد الله!! هل يمكن للموتى أن يستغيثوا كالأحياء؟ وهل يمكن للذي لم ينبس في حياته أن يصرخ في موته؟ لا إنه ليس حلم ولا هلوسة لقد سمعت يا أبا ياسين صوت عبد الله بشحمه ولحمه. أيكون عبد الله قد دفن حيّاً نتيجة خطأ ارتكبه أبو محمود الحلّاق الذي فحصه وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون ؟

(في حي الصبّار، الميّت ليس بحاجة دائماً إلى شهادة طبيب لتشخيص موته وتأكيده.. شهادة حلاق الحي موثوق بها أيضاً.. شهادة الطبيب بخمس وعشرين ليرة، وشهادة حلاق الحي بكيلو حلاوة يوّزع على روح الميت).

ازداد أبو ياسين إصراراً على سماع صوت عبد الله. استلقى على تراب القبر ونفخ فيه بكل قوّته:

– عبد الله يا صديقي الوفي واللدود أنا أبو ياسين ردّ عليّ.

شق صوت أبو ياسين سكون الموت مثل مزامير الريح وهو يكرر رجاءَه إلى أن بحّ. وعبد الله ظلّ عازفاً عن الجواب.

دمشق ١٩٨٣

الروزنامة

كانت الأصابع حركة وانتظار وتوتر ..

في ذلك الوقت من زمن الواقع العلمي الغرائبي، وفي بيت كان وطناً. صمتت الأيدي وأعلنت الأصابع إقلاعها عن الاستجابات الزمنية العابثة بنقلات عزفها وحنينها.

همدت إلى حين مطوية على بعضها بانكسار. لذلك كانت آخر ورقة قطفتها أصابع مستعجلة من الروزنامة تشير إلى شهر أيار من عام ١٩٧٥. ومنذ ذلك الحين استقرّت الروزنامة غافية على ورقة نيسان من العام نفسه رغم ما تكدّس فوقها من عتق وغبار وازيز ونزيز. أرقامها لا زالت واضحة تماماً.. داكنة الحبر.

قالت غابات الشفاه الفاغرة عشقاً وموتاً وخوفاً، والكامنة في أحشاء الروزنامة:

– عاشت التكنولوجيا التي ذوّبتنا صراخاً مجفولاً في زمن خارق لكل التصورات والأعراف.

وكانت الروزنامة تستعجل المرأة الشاهدة التي كانت تدير لها قفاها، كي تبحث جادة عن نظّاراتها.

والمرأة كانت تجلس على الديوان المسنودة تداعياته إلى الحائط، وتدير ظهرها لكل روزنامات العالم. فهذه الروزنامة المعلقة كالمشنقة فوق رأسها تتدلى منها قامات لناس وأشجار وبيوت لا حصر لها. وهي مثل غيرها من روزنامات هذا الزمن الكالح، المزموم بالحقد والصرامة. خيط نحيل، بل خيوط متسربلة بالدم، تصل ما بين ذاكرتها وتلك التواريخ المحنطة السوداء التي يؤرخون بها

الصرخات والمجاعات والحروب واحتضار الماء في الأجساد التي كانت أدغال جنون القمر وأسرار البحر اللافحة. والمرأة لا تنظر البتة إلى الروزنامة بعدما انطفأت خوابي عينيها من التحديق وارتخت جفونها من هلع الفتح والضم:

لا ضرورة إلى الروزنامات في توقف الضحك والمواعيد وغياب الأحلام. في نضوب سيولة المهج والضوء. يُبطل الزمن وتغادرنا الأمكنة.

من شدة الارتعاش والبرد فرشت المرأة شالها الأسود على كتفيها. ضمته إلى عبّها الذي تقطعت أزراره وتركت مكانها على ثوبها ثقوباً، وعلى نحرها وشماً يبدأ من نحول الصرخة إلى ضمور الخصر.

بجانب المرأة كانت تستلقي سلّة صغيرة مجدولة من سيقان الحنطة التي صُبغت في يوم من الأيام بألوان زاهية متعددة الأفراح. كان في السلّة مكبّات خيطان وأزرار وبقايا دانتيلا وشرائط ومطاط ومقص ومدبسة مشكوكة بالدبابيس والإبر.

أخذت المرأة يدها إلى المدبسة، تحسستها بأناملها وسحبت إبرة من إبرها المغروسة في حشوتها، بسهولة ويسر ميّزت أناملها الإبرة عن الدبوس:

للدبّوس طارة صغيرة في نهايته وليس للإبرة مثل هذه الطارة.

كانت المرأة بحاجة إلى نظّارتها، لذلك بحثت أول ما بحثت عنها في أعلى مفرقها، ولمّا لم تجدها بحثت عنها في جيوبها والسلّة. وبعدها لابت عليها في كل أنحاء جسدها والبيت، وكانت تتعثر بأذيالها المهترئة وخفها الذي بات واسعاً على قدميها وينشلح منهما عدة مرات في اليوم وهي تلوب الأرجاء بحثاً عن مفقوداتها. عندما عادت إلى قعدتها كانت بلا نظّارة، وكانت أيضاً تُبعد لهاثها الذي مجّته الأهوال حريقة على فمها.

قهقة الرقم (٧) الذي يلي الرقم (٩) ويسبق الرقم (٥) في عام (١٩٧٥)، لأن لهاث المرأة هذه المرة كان من الشدّة والحدّة والاستعجال إلى درجة أنه طيّر الغبار عن حواشيه.

قالت المرأة :

سأضم الخيط بخرم الإبرة دون نظارات. بحكم الترقيع والرتق آن لي أن أعرف أين تقع خروم الإبر.

وبسرعة قرّبت الإبرة من عينيها قبل أن تنسى موقع الخرم في ذاكرتها.

كانت عيناها مكدّستين بالضباب. والإبرة من الدقة والصغر بحيث لا تظهر البتة لعينيها، وأيضاً كانت أصابعها ترتعش بفوضى.

خطر لها الضحك، وضحكت بوهن شديد.

ربما كان هذا الضحك الذي عنّ على بالها، مارسته كطقس قديم من الطقوس التي ولّت، ليساعدها على وضوح الرؤية، ويبدد الغيوم المكدّسة فيما حولها وعينيها:

حتى ذاك الذي يبحث عن إبرة في كومة بيادر سوف يجدها حتماً إذا طوّل باله وفرز التبن عن الحنطة وذراه قشة قشة.. والحنطة عدّها حبة حبة.

الضحك ما حقق جلوتها المرجوة، ومع ذلك استمرت في ضحكة مشبوبة الأنّات. فهي لم تعد تتفاءل أو تتشاءم من الأحداث التي تدور خارجها، أو تلك التي تتطاحن فيها وتندلق من حواسها.

في الماضي كانت تتشاءم كثيراً وتتفاءل أكثر.

كانت تتشاءم من طنين يداهم أذنها اليمنى ويسّد قناة المناجاة إليها، ومن رفة هدب عينها اليمنى، ومن يومي الأربعاء والجمعة، ونعيق الغراب والبومة، ونباح كلب بالمقلوب. وكان تشاؤمها يصل إلى أبعد حدوده في انكسار النظّارات والمرايا.

وبالمقابل كانت هناك أشياء جمّة تدعوها للتفاؤل، مثل طنين أذنها اليسرى، ورفة هدب عينها اليسرى، وأيام السبت والأحد والاثنين والثلاثاء والخميس، ورقم (٥) المدّور الذي يشبه الكعكة. وتصل فرحتها وبشائرها إلى قممها عندما تخرمش القطة البسط والتكايا ووجوه الكنبات وتلوي قائمتيها الأماميتين إلى خلف أذنها بحركات دائرية مثيرة للأنس. وكانت تفسّر سلوك القطة هذا بمجيء ضيوف أعزاء جداً من سفر طويل.

تذكرت المرأة كل ذلك وهي تبحث عن خرم الإبرة.

.. وحدث في شهر نيسان الذي ينام تحت شهر آذار في أوراق الروزنامة، أن وقعت نظّارتها عن عينيها إلى الأرض وتناثرت. وكان هذا نذير شؤم توجّست من ورائه شراً مستطيراً، وفيما بعد عزت كل الذي حدث للوطن والناس من خراب وموت واندثار، إلى عبثها واستهتارها بنظّارتها.

وفي (١٩٨٢) المحفور في أخاديد القلب وأثلام الوجه، انكسرت مرآتها، بينما كانت تقف قرب النافذة تزيل شعرات حاجبيها الطائشة في نور الشمس.

غاص الملقط الحاد في تهدّل بطانة العينين ،صرخت من الوجع ،وسقطت المرآة من يدها إلى الأرض وانطحنت. ومن يومها كرهت الأيام كلها، والرقم (٥) ما عاد يشبه الكعكة. صار جمجمة.. والمدينة الرياضية[١] صارت مقبرة الأنفاس الراكضة إلى الحرية.

هذا ما كان: انكسار النظّارات والمرايا، مقدمة لفجائع قصوى لا نهاية لها.

والآن، وبعدما أصبحت بلا نظّارات.. بلا مرايا، أمست أثوابها المتبقية بلا أزرار، وكانت هناك حاجة ماسة تفرضها الحرب إلى ثوب محكم الإغلاق عند الصدر،لأن جلّ ما تخشاه المرأة، أن تموت مكشوفة الأنين ومهتوكة. جراحها ورضوضها صارت جيوب جسدها ،مكدّسة بحنين وذهول لا ينتهي. ومحاولتها المستميتة للعثور على خرم الإبرة كانت تستمدها من عري نحرها وتسيّب أبوابها وشبابيكها.

ضمّ الخيط، ربما كان محاولة لضم ما تبدد من شمل وأشواق وسنين وأزرار مقطوعة وأغمار موجوعة. هذا العمل الفادح الصعوبة هو ورقتها الأخيرة – مع علمها المسبق ووعيها الكامل أنه من المحال العثور على خرم الإبرة دون نظّارة لمثل عينيها اللتين شاهدتا... إلهي كم من الأهوال! وإنها ترمي ورقتها في مهب الوطن، ولكنها كانت تأمل، ولو ضئيلاً، أن تصطدم

---

(١) الاجتياح الإسرائيلي لبيروت – ٥ حزيران عام ١٩٨٢ – بدأ بقصف المدينة الرياضية.

هذه الورقة بفرع أخضر لشجرة عملاقة لم تصب قامتها بالحروق. ولكن ما بال هذا الضباب المكدّس في عينيها لا يتزحزح أو ينقشع مهما اخترعت له من ذكريات وأحلام وأوهام؟ إنه يلتصق بها التصاق الجنين برحم أمه. يأبى المغادرة كأنه حقل مغلف بالزجاج، وعمقه المطل على مجرى الدمع كانت تحسّه مغبّشاً بقطرات كتلك التي تنبعث من الأماكن الدافئة وتدمع على سطح الجليد والبرد. يقينها الذي لا يخطئ الدمعة ورائحة الهطول من وجود هذه القطرات الكامنة وعدم نضوبها تماماً. دفعها للعدول عن عبث اكتشاف موقع خرم الإبرة، وشغلت نفسها بمدّ يدها إلى السلّة والتقاط الأزرار المناسبة لعبّها المقطوع الأزرار.

وطالما أن كل شيء ينوس في هذا العالم وتتساوى ألوانه. استعاضت عن بصرها بأصابعها الخشنة وكانت لا تزال تختزن نكهة اللمس والحكايا. انتقت أزراراً حمراء وزرقاء وصفراء وخضراء وبنفسجية. وكانت كلها تبدو لرؤوس نهاياتها بلون واحد، فمن المستحيل تمييز الألوان بالعتمة. كما لا يمكن بأي حال من الأحوال سماع أصواتها.

كمشت الأزرار المنتقاة بيدها وأحكمت إغلاق قبضتها عليها.

من تعب التحديق أصابتها غفوة، رأت خلالها أثوابها الماضية تنهض من جسدها، وكل ثوب ينتقي أزراره التي كانت له يوماً.

لمّا عادت إلى صحوها كانت الأزرار في قبضتها تتفصد بالعرق الغزير.

أخذت المرأة جسدها إلى النافذة التي شلع درفتيها الغزو وحروب الطوائف. تطاير صوتها ببّحات متواصلة النداء على رنا ابنة الجيران يستعجل قدومها لأمر هام ليس بالإمكان تأجيله.

سمعت رنا نداء البحات وكرجت مستعجلة كساقية، طلّت على بيت المرأة وهي تحمل لعبتها العارية من ساقيها. سمعت المرأة نشيج لعبة رنا من حفيف دمعها المقترن بحفيف قدمي رنا الحافيتين، وسرت في أوصالها قشعريرات برد. ربخت رنا إلى جانبها وكانت تنشق سيل أنفها المزكوم على

التوالي. وفي الحال انفردت كفّ المرأة كمحارة وراحت رنا تنسل كنوزها وتعدّها بناءً على طلب المرأة.

عدّت رنا الأزرار وكانت ثلاثة عشر زراً !!

فرشت المرأة ثوبها العتيق اليتيم من الأزرار على حرجها. وبيد ثابتة مسكت المقصّ واقتطعت منه منديلاً صغيراً لرنا كي تمخّط به أنفها، وما تبقى من الثوب فصلّته ثوباً على قدْ رنا، والقصاصات الصغيرة الزائدة فصلّتها أثواباً للعبة رنا. ثم طلبت من رنا أن تضم لها الخيط والإبرة وحذرتها من أن تطيل الخيط حتى لا ينعقد ويتعقد أثناء الخياطة.

ضمّت رنا الإبرة وقصرت خيطها. عقدت المرأة الخيط عند نهايته وعندما شكّت أول غرزه في ثوب رنا الجديد، تسربت إلى مهجتها قطرات ماء. غفت رنا على ركبتها ،وهي تخيط لها الثوب وتزينه بالدانتيلا والشرائط والأزرار. تدفقت من حناياها المعتقة بالأمومة ترانيم عتيقة :

(نيّمتك في المرجوحة   خفت عليك من الشوحة

نيّمتك فـــــي العلية   خفت عليك مــن الحيّة)

كان صوتها يدمع ويشتي على رأس رنا الصغير الغافي على أوتاره المذبوحة حكايا لأطفال شلعوا بوحشية عن أسرّتهم وأعمارهم. وفي اللحظة فاض صوت المرأة بغزارة البحّات، رفعت رنا رأسها عن ركبتها، رأت ثوبها الجديد وصارت تنادي على العيد وهي تنط على الديوان كالكرة.

تطاير غبار ولفحات هواء من نطّها.

انفرطت أوراق الروزنامة وسافرت من النافذة إلى التاريخ.

دمشق ١٩٨٧

حارس القطيع

على مدى عشر سنوات أو أكثر كان "زغران" يمشي وراء القطيع ويحميه من الذئاب والواوية والحرامية، وخلال هذه المدّة التي توّلى فيها زغران الحراسة، لم ينقص القطيع ولا رأساً.

في الحر والبرد ،كان زغران بخاصرتيه المجوّفتين وفمه الواسع وشدقيه المتهدلين من قسوة العظام العارية الآدام والنباح ،حارساً شديد البأس والوفاء والأمانة لصاحب القطيع وقطيعه وأهل بيته.

هذه المهمة القصوى التي أوكلت به، جعلته دائم القلق والتوتر.

يشنِّف أذنيه وحواسه الأخرى ليتفادى الأخطار المباغتة التي من شأنها المساس بأصحابه - قبل وقوعها. لذلك كان بالكاد يغمض له جفن ،كما أنه كان لا يتمادى بأحلامه بعيداً عن مؤخرة القطيع وعتبة الدار والعظمة العارية كالريح الملقاة إليه.. إلى أخرى مكتنزة باللحم والدهن. كما كان يطمس بقهر رائحة "زغرانة" التي تهف إليه من مسافات بعيدة وتدعوه بإلحاح إليها.

كأنه أدرك بفطرته الكلبيّة المجبولة على نكران الذات، والوفاء والإخلاص للصاحب: أن قدره أن يكون زغران حارس القطيع ولا شيء غيره. وعندما كان القطيع يعود إلى حظيرته سالماً في آخر النهار، كان زغران يستلقي عل جنبه أمام عتبة البيت مطمئن البال، يمدّ قوائمه المتعبة، يغمض عينيه نصف اغماضة ويسترخي قليلاً قبل قدوم الليل الذي يعني له ،بداية الشوط الثاني من الحراسة.

كان زغران معنياً بسلامة عالمه وناسه الذين قصّوا له ذنبه المعوج بالمقص لأنه لا يتقولب إلى الاستقامة التي يطمحون إليها.. ولو وضعوه في القالب أربعين سنة. يومها كان زغران جرواً. نبح نباحاً مؤلماً ونزف دماءً كثيرة من عصِّه.

ومع الأيام تأقلم مع وضعه الجديد، حتى أنه نسي ذنبه وشكله والآلام التي سببها اجتزازه منه، وازداد تعلّقاً بصاحبه وقطعانه.

بقدوم الصيف يكبر ضوء القمر، وتكثر السهريّات على السطيحات.. تعجّ سطيحة صاحبه بالأصدقاء الذين كانوا يتحدثون بأصوات عالية وكلمات مبهمة لا يفهم زغران معظمها وهو مستلقي أمام البيت، رغم ذلك كان يشنِّف حاسة شمّه وأذنيه كي لا تفوته ولا كلمة من تلك الأحاديث.

يقاوم إغراء الرقاد ليسمع اسمه ينطلق من فم صاحبه وهو يكيل له المديح، ويقول عنه أمام الجميع: إن أصل زغران كان ذئباً، وإنه أصبح زغران منذ أول عظمة رماها له وتمزّق شدقاه وتدمّى فمه من قسوتها.

لم يكن لزغران ذنب ليهلل به طرباً على مديح صاحبه له..

وفي نفس اللحظة كان زغران يغتم وتقطر نفسه حسرة من أصحاب القطعان الذين حوّلوا الذئاب إلى كلاب! وليتهم اقتصروا على هذا، فصاحب القطيع وأهله وجيرانه وكل سكان القرية، إذا أرادوا أن يوجهوا الشتائم والسباب والتحقير لشخص دون غدر بهم يقولون له كلب ابن كلب؟؟

يحتار زغران: كيف يتهمونه بالغدر وهو على هذه الدرجة من الوفاء؟

غريب أمر هؤلاء البشر الذين لا يخجلون من لصق صفاتهم بالكلاب!!

بعد عشر سنوات كبر زغران وهرم. أقعدته الشيخوخة وقاعسته عن الحراسة والنباح والسهر. يومان فقط من التقاعد القسري، خبت فيهما عيناه وكلَّ جسده، ونباحه إلى حشرجة وأنين.

ليس من حق كلاب الحراسة التقاعد والتقاعس يا زغْران. حتى وإن كانوا أفنوا أعمارهم وزهوتها في الحراسة ..

حاول زغران أن ينسل من شيخوخته ومرضه ويلحق بالقطيع. رأى صاحبه مقبلاً عليه وهو يدكّ بارودته بالخرطوش. برك زغران في مكانه مستسلماً لقدره الزغراني. قرّب صاحبه فوّهة البارودة السوداء من صدغه ثم ضغط على الزناد.

دمشق ١٩٨٧

نحول الرماح

كانت (راكعة) في ذلك الوقت من أعوامها الرماد تتربّع على قمة الجوع التي هزلت خواصرها من الشوكيات المسنونة الأريج والأوراق. مرّ بها رجل وكان يحمل كيساً من البسكويت وصرّة فيها حلاوة. عن عمد لوّح لراكعة بيديه المغلولتين بالسكر. اعتبرت راكعة تصرّفه استعراضياً يفتقر إلى الذوق واللياقة لأنه ينطوي على تحدّ سافر لمشاعرها.

حملت نسيمات الخريف إلى راكعة رائحة البسكويت والحلاوة. دخلت إليها واحتلتها دون إذن منها؛ لأنها تتنفس مثل كل الناس الأحياء، كان لابدّ أن تستنشق ما يُتحفنا به الهواء من روائح. وراكعة قد تعوّدت طويلاً أن تكتفي بهذه النعمة الإلهية رغم ما تنطوي عليه من عذاب وتعميق لأخاديد الحرمان، ولا تتخطاها إلى اللمس والتذوّق. ومن قبل كانت قد رأت مراراً هذا الرجل المحمّل بالبسكويت والحلاوة. على مدى أعوام مضت كان يعبرها ويتخطاها بشموخ واستعراض الناس الشبعانين، وهي أيضاً لا تعيره التفاتاً أو مودة.. أو حتى يفتر ثغرها عن رغبة. لكن لم يسبق له أن تباطأ في تهاديه أمام قمتّها الشوكية ولوّح لها بكنوزه. ولو أنه مضى إلى سبيله كما كان دأبه في السابق ،لما تبلبلت إلى هذه الدرجة وخارت قواها. كثيرون الرجال الذين كانوا يمرّون ويمرّون أمامها وهم يحملون البسكويت والحلاوة.

وما استحلب ريقها أو نظرها أحداً منهم. كانت تتجاهلهم عن قصد، ولا تلتفت إليهم بتاتاً أو تصوّب باتجاههم مباشرة. حتى لا يقولوا عن راكعة عينها فجعانة لا تكسرها هبات الله وسخاؤه الواسع الذي خصّ به عباده الصالحين. ولكن عينها الواسعة كانت تخذلها دائماً. تختلس نظرات مواربة إلى أيديهم وأقفيتهم المستديرة وهي تغيب عن منحدرات قمّتها.

منذ الصغر تعلّمت راكعة "ليس للكفن جيوب"، لذلك عمدت في حياتها أن تختار ملابسها بلا جيوب. كما أنها ما اقتنت أبداً جزداناً. دائماً تدس في عبّها ممتلكاتها وما تيّسر لها الحصول عليه من دريهمات قليلة لقاء تعبها.. وكانت بالكاد تسدّ حاجات الجسد المتنامية إلى الرمق والكساء.

لأن راكعة تستاء من اسمها بقدر ما تحب الصلاة، خفّت ملامتها بالتدريج على أهلها الذين سموّها به (كما روى لها أبوها فيما بعد عن سبب تسميتها راكعة، فهو قد أطلقه عليها لأنها كانت راكعة في بطن أمها، عندما خرجت منه إلى الدنيا نزلت من ركبتيها وسقطت على الأرض وهي في وضعية الراكع الذي يتأهب للسجود)

في ذلك الوقت الذي مرّ بها رجل البسكويت والحلاوة، كانت مشكوكة على قمة جوعها كرمح غرسه محارب عتيق مضى ليشرب من نبع.. ولكنه لم يؤبْ إلى رمحه أبداً.

كان الدقيق والنبيذ نفدا من خوابيها.

لذلك اتسعت عيناها اتساعاً رهيباً، وكان هذا الاتساع على حساب تقاطيعها الأخرى.

وإذا كان الرجل قد توقف في حذاء قمتها المبرية والجافة من نفاذ عصير ومؤونة الخوابي، فلأنه ارتاب بهذا المخلوق النحيل الواسع العينين الذي لا يرمش فمه. كأنه اكتشفه لأول مرة، مع أنه صادفه مراراً من قبل، وحاول أن يستحلب نظراته مرات من بعيد لبعيد.

دون أن تدري راكعة نوايا عابر السبيل تجاهها. حلّ هذا صرّة الحلاوة ،وناولها قطعة يقطر العسل والدبق من حواشيها .

نقطت بضع قطرات عسل على الأرض.

تجمدت راكعة من الغرابة والغربة إلى درجة أنها نسيت طقوس صلواتها القديمة!

ليس من أجل العسل المهدور حصل لها ما حصل.

كان هناك سؤال اخترقها كالسهم لم تجد له جواباً فورياً مقنعاً:

- لماذا؟

بقيت الحلاوة معلّقة بيد الرجل، وراكعة كانت تبحث عن جواب (فقط بينها وبين نفسها كانت تذوب جوعاً إلى الحلاوة التي كانت تحبّها كثيراً، ولكن معاذ الله أن تهمس بهذا أو تعلن عنه حتى للجدران أو للريح).

أجهدت راكعة نفسها كثيراً في حلّ غموض السؤال:

لماذا قدم لها الرجل حلاوة؟

وكانت يد الرجل ما زالت ممدودة إليها.. لم تتعب أو تضجر من الانتظار.

همست راكعة لنفسها بجواب مقنع:

طالما أنها تحب الحلاوة إلى درجة الانفطار، فمن الغباء المطلق والنفاق الرعديد أن تشيح بوجهها عنها وتتظاهر بالغثيان ولمعان الأسنان، لأن الله سيغضب منها وعليها، إذا حرمت نفسها وتعففت عن أكل الحلاوة.

ارتعبت عندما تبادر إلى ذهنها هذا الإقناع. وتمنت أن يتفتت كبدها من اليباس قبل أن تتنازل إلى غريزتها.

ولأن الجوع كافر، بسطت راكعة يدها إلى قطعة الحلاوة الممدودة إليها.

قبل أن تلامسها أصابعها، كانت قطعة الحلاوة قد تحوّلت إلى قطعة سوداء تعج بالذباب.

أعادت راكعة يدها ووضعتها على ركبتها.

كانت يدها واجمة كثيراً، والرجل لم يخطر بباله أن يستبدل قطعة الحلاوة بأخرى، يقطفها من رحيقه إلى لعابها مباشرة.

دمشق ١٩٨٧

البصمات الدامية

-١-

قال لي حبيبي وأنا أضع رأسي الغزير الشّعر على كتفه :

لو كنت أملك مركبة فضائية لخطفتك كما تختطف الشوحة صغار العصافير. وطرت بك إلى أحلامك. ولكن صدقيني يا حبيبتي، الأرض جميلة أيضاً بما فيها من عناق وفراق وتأزم ولهفة وتراب وزهر وصبّار. اختراعنا للأحلام التي نضحك بها على أنفسنا ونُتعسها، يعذبّنا.. كوني معي للحظات مبتورة عن كل شيء سواي، وأخبريني بعدها عن شعورك.. يقيناً ستغيرين رأيك بعدها.

- كنت صغيراً، قالت لي ابنة الجيران "حوح" وكانت الدنيا برد، عانقتها وأدفأتها وأحببتها كما يحب الكبار، وفرحت فرحاً طاغياً.

- بعد نجاحي بالثانوية، قال لي أبي إنني قد كبرت فعلاً، وعلي أن أعيل نفسي ولا أعتمد بعد اليوم عليه. لم يصدمني قراره. في اليوم التالي توّرمت قدماي إلى أن وجدت عملاً، وكبرت بين ليلة وضحاها عشرات الأعوام دفعة وحدة.

- جبت كل البحار، وقطعت القارات، غزوت العالم بدوياً بفرسي وترسي ورمحي واحتقاري الدفين لعقدة التفوّق الآري.

فضضت نساءه غرباً وشرقاً.

الظمأ.. الاضطهاد.. التعويض. هل شعرت بكل هذا يا حبيبتي؟ يا لغبائي أنت وطني. شفتاك المبيضتّان من حرقة الملح تقولان إنك ما عرفت الطراوة والأمان.

تخترق رصاصة صامتة صدر حبيبي، تجند له مع حبّه وذكرياته. يهوى مع كتفيه، وترتخي يده المحيطة بخصري. أتَيَتم وأفقد القدرة على العويل. أستريح على صدره، أنفتح جراحاً. يتدفق من بطن الليل شفق غزير. تظهر في السماء نجومٌ مذبوحة، تلتحم مع الشفق بتراتيل طويلة، تبدأ بصوت أحادي سحيق مسحوب من أعماق البشرية، بأول صرخة رعب مزقت حنجرة هابيل. تتدرج الأصوات ثنائية.. ثلاثية.. رباعية.. وتصبح كورالاً لملايين المنشدين.

أحتج بلا ضجيج. أصدّع أركان ذاكرتي، تتدفق منها الجماجم والهياكل العظمية. أنهار وأنا أنادي بلا حنجرة.

- حبيبي..

تصمت النجوم احتراماً لأحزاني.

تتلاشى في أعماقي دبقاً يشدّني إلى الأرض.

-٢-

أقلعت عن الحب والأحلام.

أرسم مسوخاً يمشون على نوافيخهم، يتكلمون من أعضائهم التناسلية.

أحاول أن أتعوّد عليهم بلا حب.. أو فجيعة.

يتكيّس جلدي بدرنات كبيرة من الشحم، يتوّرم عنقي، يجفّ فمي ويتمرمر لعابه، تنخر أسناني وتصفّر، وتُبخر أنفاسي رائحة كريهة.

أنداح رعباً وأنا أرى صورتي في مسوخي التي رسمتها. أهرع إلى جاري "أبو أنيس" الذي يسكر كثراً وينسى قليلاً:

ليقول لي من خلال دموع حبيسة أنفة:

- هدئي من روعك.. العالم لا يزال بخير.

- أي خير يا (أبو أنيس)؟ أنا جلد هرم مشلوح على كومة من العظام والعفن. الأرض التي أقف عليها اقتلعوا (بازلتها) لأغوص في أحشائها السوداء. إنما جئتك يا صديقي لتدلني على درب النسيان.

(كنت أتوقع من (أبو أنيس) أن ينصحني بشرب العرق عالريق)

– عليك بالبرانا... [١]

– أهي مخدّر جديد يساعد على النسيان؟

– إنها إشعاع قوّة الأشياء. لكل شيء قوّة خاصة به. تخيّلي وجود قارورة فارغة في أسفل عمودك الفقري، وركزّي على القوة المنبعثة من الشعاع واملئي القارورة بها.

– كيف أطيق هذا الجلد وأنا امرأة مشلوعة من رعب الليالي وصدور الأحبّة الذين رحلوا وتركوا بصماتهم الدامية في قلبي؟ كيف أركِّز انتباهي وأتمحور حول أشياء بعيدة.. لم أمارسها من قبل؟ اسمع يا صديقي :

"في ليلة من الليالي كان أهالي قريتي مهدودين من الفلاحة والجنس ،ناموا باستغراق شبيه بالموت. شعّ نيزك وهاج يأخذ الأبصار والألباب.. تسلل غرباء أضرم الوهج نيراناً وقتل الغرباء النواطير ونهبوا الأراضي والمحاصيل. علّل الناس ما حدث بغضب الإله عليهم، ولاموا أنفسهم لتقصيرهم في عبادته. ولو أنهم قد عرفوا أن اليقظة هي الأولى في قائمة الإيمان والعبادة، لخففوا اللوم عن أنفسهم وسلكوا مسلكاً آخر. توافدوا إلى المساجد والكنائس وهم يحملون مسبحات طويلة ويرددون:

– يا لطيف. يا لطيف. اجعل للبلاء تصريف.

وحمّلوا سيقان النساء الوزر الأكبر: لو لم تكشف المرأة عن ركبتيها وتظهر بطّة ساقها، لصانهم الله، وحفظ أراضيهم وأعراضهم وغلالهم. عندما كان القمر يُصاب بخسوف كانوا يعتقدون أن حوتاً قد ابتلعه، فيصعدون مسرعين إلى أسطحة منازلهم، يصبّون زيت الكاز على أكوام الهشيم التي جمعوها خصيصاً لهذا الغرض ويضرمون النار فيها. ثم يطقطقون على صفائح معدنية لإرعاب الحوت وعصر القمر من جوفه. فلكل ظاهرة قوّة خارجة عن

---

(١) **البرانا** – من الطقوس البوذية.

مداركم ، تعليل وسلوك يستهويهم، ويبدعون بالتفنن به وإخصابه، بخيالهم وغيبّياتهم التي تفوق خصب بيادرهم. في صخب غضب الإله وردّة الفعل الناجمة عنها، قبضت أحلامي على ورقة مسافرة لجوجة في هربها، مكتوب عليها الحرية. كانت الورقة ندّية الدمع. سألتها عن سبب دمعها. قالت لي إنها غريبة ووحيدة، وإن الناس منافقون، محبتهم لها لا تتعدى حدود الزعيق والأقوال، يتشدقون بها في كل المناسبات. والزنزانات تلفظها أنيناً موجوعاً من كواها الضيقّة. قلت لها مواسية بأنني أحبّها فعلاً، وسوف أترجم محبتي لها إلى أفعال ومواقف. غاصت في طيّات الأحلام وهي مشككة بقولي، وأقسمت أن أخلص لها وأحارب من أجلها ما دام فيّ عرق ينبض بالحياة. وكانت الـ "لا"، يافطات ولافتات مختلفة الحجوم والأشكال والزخرفة والوعيد. دُقّت إلى الأرض بثبات وشُرّعت أعلاماً وبيارق تخفق فوق مهد الطفولة وأرض الوطن.

لا تسرق.. لا تحب.. لا تتنفس.

أطع الله وأباك وأمك.. والشرطي.

وكنت هوجاء، ولجوجة. أردت أن أنزع كلَّ لافتات ويافطات الـ "لا"، وأحرقها وأدفن رمادها في بئر عميق. في حرم الجامعة الأمريكية يقبضون عليّ، يدقوّن رأسي بأعقاب بنادقهم، يمزقون ملابسي، يسحبونني من شعري، وببساطة يحكمون أنني عاهرة!

أرتمي على صدر حبيبي طوفاناً من الأحزان والنقمة، يقول لي الحديد بلي ونحن لن نبلى، أعرّش عليه دالية غضب وثورة وحبيبي يحمل تجربة أعوام طويلة من الاضطهاد، والسجن والنفي. زاده زادي، طموحه الحرية والشبع لكل الناس.

وأنا هوجاء ولجوجة، أريد أن أغيّر العالم بسرعة. وحبيبي يترجم حبّه (وروداً على طول الطريق الذي ينفي الموت). وهو يؤمن أن رحلة الألف ميل تبدأ بخطوة. وقطرة مياه تحيي غرسة، والغراس هي أم الحقول والبساتين والغابات. في الأماسي الطويلة كنّا نرقص ونغني ونحن مشحونون بدموع يعزّ

علينا هدرها. يقول لي حبيبي وهو يراقصني، أنت مستحيلي.. فيردد الأصدقاء، هي مستحيلنا جميعاً. وأحس بأهميتي من خلال ورقتي الخضراء التي قبضت عليها أحلامي يوماً، وعرّشت في الذاكرة والقلب.. ويروضني حبيبي فكرياً وعاطفياً لأصبّ في النبع الذي ينهل منه. وتخط أقدامنا المعربدة طريقها إلى البحر، نفترش الصخور، نعبث بالنباتات التي تطل من شقوقها ونحن نعبّ رائحة البحر والليل والملح. نتأمل بحرنا بخوف ونتساءل:

"بيروت يا مدينتنا، كيف نسّد المجاري المفتوحة على بحرك الأزرق نحن الأصدقاء الذين جمعتنا الكلمة وحكم علينا بالغربة فيك؟"

يتأملني "أبو أنيس". يفرغ كأس العرق في جوفه مرّة واحدة. يفضّ جريدة لفّت بها بطحة عرق جديدة. يقع بصري على صورة جماعية لأناس من مختلف الأجناس والأعمار، وتعليق كُتب تحت الصورة:

عشرات الملايين من البشر ضحيّة الجنون السياسي في العالم.

أشدّ على يد أبي أنيس مودعة:

البرانا هي الحب الذي زرعه حبيبي ورداً على طول الطريق الذي ينفي الموت.

بيروت ١٩٨٠

الحب والحرب

-١-

- أتمنى أن تنشب حرب ضروس. حرب حقيقية.

- سأفتقدك يا حبيبي.

- في الحرب لا وقت للحب.

- أمن أجل هذا تتمنى أن تقع الحرب؟

- لا.. من أجل أن تسقط الأقنعة وتتعرّى الوجوه. مواجهة الموت من أنبل وأصدق المواقف. ولقد كشفت حروب سابقة عن زيف الكثيرين. رأيت رجالاً يرتعدون ويبولون في سراويلهم وسخرت منهم.

الحرب تخلق أوضاعاً سليمة.

- وإذا لم تقع الحرب؟

- لابدّ أن يحدث أي شيء!

- ما رأيك أن تقتلني؟

- سأقتلك قبل أن أذهب إلى الحرب.

- هل تحبني إلى هذا الحدّ ؟

- ربما..

- هل أنت صادق حقّاً في قتلي قبل أن تذهب إلى الجنوب؟

- أجل...

- إذن اقتلني في ليلة بروقها أكثر من أمطارها، تتوسَّدني يا حبيّ حتى الفجر، وتقتلني .. أحب أن أموت مهدودة من الفرح.

-٢-

وقعت الحرب. هرعت إلى حبيبي.. وكانت هذه ليلتي الموعودة. بروقها أكثر من أمطارها.

اشتعلت بالبروق ورقصت كالمجدلية قبل اغتسالها من الخطايا.

فتح حبيبي لي صدره، وقبلنيّ قبلة حارقة.

استعجلته قائلة: هذه ليلتي الموعودة.. إن جسدي يشتعل بالزنابق.

وأحبني كثيراً حتى نهنهني.

- ستقتلني؟

- لن أقتلك حتى لا يكون ذهابي إلى الحرب انتحاراً.

- بل ستقتلني...

- وناولته المسدس.

قتلني حبيبي وذهب إلى الحرب مستعجلاً. وأكلني شوقي إليه.

بيروت ١٩٧٧

هستيريا من الزهري

قضى وديع عشرين عاماً في دير الصليب[1]، ونسيته القرية.

اليوم مات وديع في دير الصليب، وتذكرته القرية.

موته المنسي، ذكر القرية بالجنون، وبأحزانها القريبة.

لكل قرية مجنون، فمثل هذا الأمر ضرورة ملحّة لإغناء التراث ورصانة العقلاء.

ومجنون القرية يطلق عليه في العادة لقب "أخوث"، وقصص هذا الأخوث غنيّة على الدوام. لا يخجل الكبار مطلقاً من روايتها للصغار :

وديع جعلت منه الظروف الشاذة – التي ربما كانت صالحه – مجنون قرية الساقية الوحيد في تلك الفترة من الخمسينات، لأن الجنون الجماعي استشرى فيما بعد بشكل خطير ورهيب. وقصص هذا الجنون ستبقى إدانات وغصّات ونكسات في التاريخ والحلق. يخجل الآباء من روايتها للأبناء.

أبتليت عائلة "أبو وديع" بمرض الزهري واستفحل أمره في أفرادها. فنهشهم نهشاً، الفرد تلو الآخر. وأدى بهم في نهاية المطاف إلى الجنون.. وكان من سوء حظ هذه العائلة المنكودة والمنكوبة بالزهري، أن وديعة أم وديع كانت مخصابة وتنجب توائم باستمرار على مدار الشهور والأعوام. لم يلمحها أحد من سكان قرية الساقية إلّا وهي منتفخة البطن ومتورّدة جداً. وأسباب ابتلاء هذه العائلة بالزهري، ليست شائعات أو تأويلات كما يزعم بعضهم حفظاً على

---

(١) **دير الصليب** – مستشفى الأمراض العقلية في لبنان.

ما تبقى من حياء وجه القرية. والحقيقة أن هذا المرض اللعين جاءَها عن طريق الوراثة، وعدوى الوراثة حقيقة علمية مؤكدة! وديعة أم وديع ذهبت يوماً إلى المدينة، والمدينة بحر ملوّث وكباريهات وخمر وغرباء، ضاعت وديعة فيها لعدّة أشهر، ولمّا عادت إلى القرية كانت تطفح بالزهري. وبقع الزهري كما هو معروف وردية، وبشرة وديعة داكنة السمرة. نساء القرية كلهن دون استثناء حسدن وديعة على تورّد بشرتها، وطالبن أزواجهن بإلحاح أن يأخذوهن إلى المدينة في الحال ليتوردن مثل وديعة، ولكنهن غيرن رأيهن فيما بعد عندما طقّ عقل وديعة. ومن الغريب أن أعراض جنون الزهري كانت لا تظهر على أفراد أسرة "أبو وديع" إلّا بعد الزواج والإنجاب.. مثلاً ،شمسَهْ أخت وديع ،ظهرت عليها هذه الأعراض بعد إنجابها العديد من التوائم، وطلاقها من زوجها الذي كانت تحبّه كثيراً. يومها ظهرت شمسَهْ عارية في ساحة القرية وعلى الأسطحة. عرضت قدّها وطولها وعرضها ومفاتنها على الملأ من الرجال الذين بعد أن تمتعوا استغفروا الله وأخذوها إلى الجرد أوثقوها بالحبال وانهالوا عليها ضرباً بالبلطات لطرد الأرواح الشريرة منها.

امتلأت شمسُهْ ندوباً وجروحاً وقروحاً، وظلّت الأرواح الشريرة مدمنة عليها. في الليل كان أهالي قرية الساقية يسمعون عويل شمسَهْ، ويشبهونه بعواء ذئبة مكلومة.

في أحد الأيام وجدت بقايا عظام ونتف لحم ودماء في الجرد الذي سُجنت فيه شمسَهْ. ضرب أهالي القرية كفوفهم ببعضها، وقالوا:

– مسكينة شمسَهْ أكلها الضبع.

بعد أن أكل الضبع شمسَهْ ظهرت أعراض الجنون على أخيها وديع كان يومها عريساً.. حديث العهد بالزواج. هجم على زوج شمسَهْ الضخم، بطحه أرضاً، وعراه من أليته، ثم ضاجعه في ساحة القرية. ضحك الرجال مبتلعين إثارة شبْقَه. وخجلت النسوة. ضُرب وديع على أثرها ضرب البهائم حتى سالت دماؤه، ومن يومها حجز في دير الصليب، كان في العشرين، وهناك قضى نصف عمره وصار

حكاية. مرّت السنون والتهب خلالها جنون الزهري، وكانت هذه ظاهرة فريدة في التاريخ المعاصر لقرية الساقية والقرى المجاورة. الذين لم تطلهم عدوى الزهري، وهم قلّة تعد على الأصابع، بدا عليهم الخوف والقلق، لأن هذا الجنون كان جماعياً ومستشرياً إلى حدّ رهيب، تعدى حدود التعرّي والمضاجعة العلنية، إلى الحرق والتشويه والقتل والتدمير الآدمي.

في غمار هذا الجنون يتذكر العقلاء وديعاً:

مسكين وديع لقد ظلمناه، ماذا حلّ به يا ترى؟ هل ما زال على قيد الحياة؟

ربما سقطت قذيفة على دير الصليب وقضت على وديع ومن معه.

ولكن شيئاً من هذا لم يحدث. حقاً أن الجنون حصد العديد من الأبرياء ودمَّر مدناً وقرى كانت آمنة تضرب الأمثال بجمالها. ولكن دير الصليب لم يُصب بأذى، لأن الجنون هوية حضارية!

في هدنة جنون دير الصليب مات وديع مرتاحاً، حملوا جثمانه إلى قرية الساقية كانت مياهها جافة وبيوتها مطفأة وأشجارها محروقة وسكانها من العواجيز.

وفود عديدة من قرى مجاورة أمّت قرية الساقية لتشارك في مأتم وديع، وفي هذا المأتم المهيب، تذكر الناس أيامهم الماضية وشمسَهْ. ونعبوا ..

تحوّل مأتم وديع الذي قضى عشرين عاماً في دير الصليب لتهمة ألصقت به زوراً وبهتاناً.. إلى مأتم شهيد.

بيروت ١٩٧٧

امرأة من برج الحمل

(قصص)

الإهداء

إلى مهد

امتدادي وارف الظلال

ممشوقة الأحـزان

«اعتدال»

الدجاجة

مرت ثلاثون... ولا زلت أتذكر المشهد:

غرفة ضيقة في قبو مظلم، لا أثر فيها للنسمة التي تحدثها رائحة الرجل. سرير وبضع أرائك وفراش على الأرض وفوضى، وجدران مبقعة بالبصاق ودم الحيض والبق، وامرأة في عقدها الثالث، كل ما فيها منفوش مثل ديك مشاكس.

تحمل مشنقة: حبلاً وصابوناً. تبري قطعة الصابون على الحبل وهي تكز على عظامها وأسنانها. تلف الحبل حول عنقي وتشدَّه من طرفيه. تنتفخ الرقبة وتجحظ العينان.. ولا أموت. وأتظاهر بالموت، ولا تصدقني، وتستمر في شنقي.

أنسى أشياء كثيرة، طفولتي... وأن تلك المرأة كانت أمي..

وأنا لم أقترف ذنباً سوى أنني كنت ألعب لعبة الأمومة.

... صغاراً كنا وحدنا. أختبئ في "اليوك" كالدجاجة. أخرج حبات الحمص من جيوبي، أضعها تحتي، و"أربخ" فوقها برهة. ثم اقوقئ وأرفع رجلي. تنفلت حبات الحمص من تحتي وتكرج فرحة مثل "الدحاحل". يهرع إليها إخوتي الصغار الجائعون. يلتقطونها ويزقزقون وهم يقضمونها ولا يحسون بقسوتها تحت أسنانهم اللبنية. لأن الجوع يجعلها في طراوة الهليون.

ويحبني الصغار.. ويعترفون بأمومتي.

وأصدق فعلاً أنني دجاجة، تبيض حمصاً لصيصانها الجائعين. وأنسى أنني اشتريت الحمص من الدكان.

يطير صيتي في الحارة. يأتي أولاد الحارة إلي محمّلين بتوصيات الكبار. ويرجونني أن أبيض لهم ذهباً.

وأعدهم أن أبيض لهم ذهباً.. كثيراً.

كان يومها خيالي شاسعاً.. شاسعاً.. بامتداد..

أقضي النهار في الشوارع البعيدة وأنا أجمع أوراق الشوكلاته عن الأرض ومن بين أكوام القمامة حالفني الحظ وملأت جيوبي منها.

عدت إلى البيت وقلت لأخوتي وأولاد الحارة:

- سأبيض لكم كنزاً. انتظروني بعيداً. لا تداهموني وتقطعوا علي مخاضي.

دخلت "اليوك". قصصت الأوراق الذهبية على شكل مستدير - بحجم قطع النقود و"ربخت" في "اليوك" مدة، أطول من تلك التي كنت أقضيها في بيض الحمص.

استعجلني الأولاد. نهرتهم وأنا ألعن نزقهم وسوء تقديرهم للموقف:

- إن من تبيض ذهباً ليست كمن تبيض حمصاً. الذهب غير الحمص أيها الأغبياء.

عندما انتهيت من قص أوراق الشوكلاته الذهبية، وكنت مأخوذة كلياً بلمعانها، رصفتها على شكل الكنز الذي كنت قد تخيلته في الليل وجلست فوقها بحرص شديد حتى لا أفسد ترتيبها ولمعانها.

ثم قوقأت.

تدافع الأولاد ورفعوا ستارة "اليوك".

تظاهرت بالتعب الشديد وأنا أنهض متثاقلة عن كوم الذهب.

وصدقت فعلاً أنني أبيض ذهباً حقيقياً.. كنوزاً.

بعثر الأولاد باستهتار كنزي الذي كلّفني الكثير من الجهد والعرق. داسوا فوق قطعه الذهبية. كسروا استدارتها.. وبكوا.

- كانوا جائعين.. والذهب لا يؤكل.

صاحوا معاً:

بيضي لنا حمصاً.. لا نريد ذهباً. تفوه عالذهب.

كان الكبار يراقبوننا، وما أن لمحوا بريق الذهب من بعيد حتى اندفعوا نحوه مثل عاصفة.

تدافعوا وتعاركوا وتضاربوا واقتتلوا، وكانوا من قبل يقتسمون رغيف الخبز والدمعة.

اختبأت مع الأولاد في "اليوك" الذي تغمست ستارته بالدم. أخرجت من جيبي بضع حبات من الحمص، وقدمتها لهم.

قالوا: ما هذا؟

قلت: حمص.

ولم يصدقوني. ورفضوا أن يأكلوا.

جاء رجال الشرطة وسيارات الإسعاف التي كنت أحب صوت زماميرها.

اقتحم شرطي "اليوك" وضربني بوحشية.

وتناثر الكنز.. غباراً.

ثم أكملت أمي مهمة الشرطي.. بالمشنقة.

ومن يومها كففت عن لعبة الأمومة. وما عدت أصدّق بأنني أبيض حمصاً وذهباً أو حتى أطفالاً.

دمشق/١٩٨٤

الدرب إلى المجرة

الدرب إلى المجرة طويل وصعب.

وأنا بلا أجنحة.

وألوم نفسي: من البلاهة أن أفكر بشيء كهذا. أنا مخلوق طيني محدود بالجاذبية ومحكوم بالشرائع والأنظمة والقوانين. الجوارح والعصافير فقط، يحق لها التحليق.

خدر كدبيب النمل يمشي في مفاصلي التي أكبح حركتها، ويمتلئ قلبي بالغصات.

"ألتصق بالمرأة التي أحب والتي تشاركني قدري وخندقي ومتراسي. أضج معربداً فيها. تقول لي أحبك يا فارسي. أبحث عن وجهها لأغمره بالقبل. الدخان والغبار يحجبه عني. أغوص في الخندق معها. ننصهر بالحرارة. الدمار المحيط بنا، الموت القريب، يوقظ فينا شبقاً قاتلاً وشهوة مدمرة. أمارس العشق معها.. ولا أصل إلى المجرة، لأن وجه حبيبتي قد حجبه الموت عني في لحظة النشوة".

أسافر خبباً، من نضجي المخمر بالتعاسة والأحلام، إلى طفولتي المشرعة على الجوع والبحر، الواقع يصرع أحلامي: تختلط الحنطة بالدم، والحب بالموت، والبحر بالمجارير. وأتوزع بين الكوابيس والحوريات السمراوات والبحر. يهاجمني عسكر "الفرنساوية" بحرابهم وبنادقهم. أسرع بالهرب، وأطير محلّقاً فوق الجبال، أرتاح على قمة جبل مدببة غارقة في الغيم والمطر. وأبول وأنا أقترب من المذنب. أنظر إلى الأسفل. أوقيانوس الرعب الأسود الذي يترصدني يشيع الهلع في أوصالي. يتخدر باطن قدمي، ولا أحس بثقلي. أختلج.. وأفقد توازني.

أفيق من كابوسي، وقلبي ينتفض في القفص الصدري (في محاولات يائسة للخروج منه). أنهض من فراشي مذعوراً. أبذل جهداً كبيراً في السيطرة على نفسي وإيقاف تيار الرجفان الذي يهزني. أحل الحبل الذي نربط به عادة باب بيتنا، وذلك بشدّه إلى حديد النافذة في الليل. لأن بيتنا لا أسوار له. وتسكير بابه ضرورة من ضرورات الأمان.

"أنا صغير وخائف. وأمي سمراء كالفيافي، ومشدودة القامة والعينين. وعسكر "الفرنساوية" لا يوفرون حتى المرأة المجهضة، فكيف أمي؟".

يستقبلني الصباح ندياً برطوبة البحر. الشارع ضاجٌّ بالحياة والظهور الثقيلة والمنحنية. أركض حافياً مثل صبي الغزال الذي نشأ بين الوحوش في الغابة. أجهل نمرة قدمي. لم يسبق لي أن انتعلت حذاء جديداً، وأفضل أن أمشي حافياً، على أن أنتعل حذاء ليس لي. وبفضل العناية الإلهية. أصبح لدي حوافر صلبة تحمي قدمي من الحرارة والبرودة والتجرح.

أنزلق على سكة الترام الشديدة اللمعان والحرارة. أقلد صوت جرس الترام: ترن.. ترن..

وجهي إلى الغرب. البحر.. الأفق.. الزرقة. ومن خلفي الشمس والترام يلفحانني بأنفاسهما الحارقة.

يعلن الترام عن قدومه، وأبتهج. والابتهاج بقدوم الترام حق للأقدام العارية المنزلقة على سكة شديدة اللمعان والصلابة. ويغمرني ضياء وسكون. أتنحى لصديقي الترام عن السكة، فهي مخصصة لكلينا. نتناوب في الانزلاق عليهما حتى لا نصطدم ونتبعثر ونصبح أعداء. الترام صديق حقيقي. وسكته سكتي (سكة الحضارة الفولاذية). لا أظن أنني سأصبح ابناً باراً لتلك الحضارة. ولكن من الضروري أن أصبح هذا الابن البار، حتى أواجه عسكر "الفرنساوية" مواجهة حقيقية. مواجهة الند للند. فالسيطرة ضرورية على كل البراغي والأزرار الفولاذية التي تشد العجلات وتحركها وتوقفها عند اللزوم.

أخرج من جيوبي قطعاً حديدية ومسامير كنت قد جمعتها من أماكن عدة. أفرشها بسرعة على سكة الترام.. وأنتظر. عجلات الترام تقدح شرراً عند انزلاقها فوق السكة. الترام حديد، والحديد ثقيل.. وأنا مخلوق طيني مضاء بالنجوم ومسكون بالعصافير، وأحياناً مطموس بالعتمة، وأصبح مسكوناً بالوطاويط عندما يصادفني عسكري سنغالي. تفرّ العصافير من عيني وأذني وتتساقط ميّتة في قلبي. تتكدس فوقها الوطاويط.. والنقمة، وأغلي (مثل مرجل قاطرة).

الترام يقترب، وأفاجأ بحرارة ووهج ينصبان فوقي. تمر عجلات الترام فوق قطع الحديد والمسامير، وتخلفها مسطحة.. رقيقة.. ملساء.. ومحرقة في سخونتها. أجمعها بيدي. ترتدّ أشعة الشمس من حواشيها إلى حدقتي. أقلبها بإعجاب واندهاش.

الفولاذ لا يدقه إلا فولاذ مثله، ومن الحكمة أن يتعلم الإنسان هذا في سن مبكرة حتى يعرف.. ويستطيع بعدها أن يتغلب على قهره. ويصنع قفلاً لباب بيته يحميه من الحرامية.

المسامير تحولت إلى ما يشبه السيوف. مقبض كل سيف ونصله.. متلاحمان.. القطع الحديدية الأخرى تحولت إلى تروس مستديرة. وأصبح عندي سيوف وتروس. وفي لحظة كبرياء أصبح وارفاً، وأقرر أن أحارب عسكر "الفرنساوية" وأهزمهم، وألتهب حماسة للقتال.

"في تلك الليلة البعيدة عني والمحفورة على جبيني وعظم الجمجمة. تسلل أبي مع كيسين من الطحين وبغله وعبر الحدود السورية إلى لبنان. اعترض طريقه عساكر الفرنساوية، وعاملوه بقسوة وشراسة. ولم يحترموا حبه ونخوته. صادروا بغله والطحين وأرادوا مصادرته وسجنه لأنه تجرأ وخرق القوانين الفرنسية التي تحظر تهريب الطحين. قال لهم أبي إنّه مضطر أن يفعل ذلك، لأن أفراد أسرته جياع. سخروا منه، وقالوا له: كلوا بسكويت. وشتموه.

لم يستسلم أبي لأنه كان يحب أولاده وزوجته وجيرانه وأشياء كثيرة أخرى لم يمهله الزمن للإفصاح عنها. استل خنجره وطعن عسكرياً وأرداه قتيلاً.

ولم يتمكن أبي من طعن بقية العساكر وإيصال الطحين لنا، لأنه كان وحيداً وصرعوه بأكثر من بندقية. ومنذ ذلك الحين أصبح أبي يعرف بـ "شهيد الطحين" بين أهالي الحي.

بعد استشهاد أبي. تعرضنا لتعديات وانتهاكات عديدة من قبل أولئك الذين يدعون الحضارة ويتهموننا بالهمجية والوحشية ويصرون على أنسنتنا.

صادروا شقيقاتي الثلاث (هند ومريم ومفيدة) واستثنيت من المصادرة لأنني كنت يومها مختبئاً في بطن أمي. وزعت شقيقاتي على بيوت القادة للخدمة والترفيه.

وألزمت أمي بخدمة المسيو ديكارت.

أنا أغضب.. إذن أنا موجود.

أنزلق على سكة الترام خفيفاً. أمنع نفسي من الجنوح، لأن البحر قبالتي يكشف لي عن سحره ويغريني بالأسرار. يخشخش شيء ما في صدري، هو مزيج من الدم والعواطف الملتاعة والغضب.

خط الترام يقترب من نهايته حيث البحر.

صورة العائلة قبل التشتت انطبعت في عيني وأعماقي وعلى شفتي انتماء وكبرياء وقبلاً. أحدق فيها كل ليلة. هند الصغرى، ومريم الوسطى، مفيدة الكبرى. تحتضنهم أمي، وأبي في خلفية الصورة يبدو ناشراً جناحيه مثل نسر. شقيقاتي شبيهات بأمي. وجوه بيضاوية. جبهات شامخة وفسيحة ومشدودة والعيون داكنة السواد تمتزج فيها السخرية بالإدانة.

أنا شبيه بأبي. رأسي كبيرة وصلبة، وشعري أسود وأجعد مثل صوف الخروف وجبهتي حقل خريفي تعصف به الأنواء، والعينان رماديتان، البياض المحيط بالحدقتين يؤصل هذا الرماد، ويصبح داكناً.. ضارباً إلى الزرقة.

الوصول إلى البحر بات قريباً. عشق مجنون يدفعني للجنوح عن السكة. أجنح، وأقف أمام واجهات محل "والت ديزني" للألعاب. أنظر إليها مشدوهاً.

عرائس، حيوانات، قطارات، جنود، بنادق، رشاشات، دبابات. أدخل إلى هذا العالم – المحرم عليَّ دخوله – عنوة. أتوغل فيه وأنتشر بين غاباته السمراء البكر التي لم تخربها أقدام المتحضرين. أجلس تحت شجرة جوز هند. أراقب حركات السعادين البهلوانية وأضحك. تداعبني السعادين وترميني بثمار جوز الهند. لو تشرفني ثانية بالانتساب إليها!

يقول لي (الخواجة قواديس) صاحب المحل:

صباح الخير يا شاطر. كيف حال أمك ؟

أتمنطق بالرشاش وأسدد البارودة وأصرع عسكر، "الفرنساوية". تقبلني أمي. وتقول لي:

أصبح في البيت رجل.

وتحكي لي عن بطل تحدى الموت وقتل بينما كان يهرب كيسين من الطحين لأولاده الجياع.

أنظر إلى "الخواجه قواديس"، وأتوسل إليه بصمت ليعيرني الرشاش الرمادي المخطط بالأسود والمعلق في صدر الواجهة أتذكر العيب، ولا يفهم (الخواجة) توسلاتي ويدس في جيبي قطعة نقود من فئة العشرة قروش، ويقول لي وهو يغمزني:

سلّم على أمك.

أتجاهل القروش العشرة بكبرياء. وأعود إلى سكتي وأنا ألعن الخواجة وعسكر "الفرنساوية".

أقلّد صوت الترام: ترن.. ترن، وأبتعد وأنا أخشخش بالقروش العشرة. والسيوف والتروس. تقرقع كلها في جيبي ثقيلة وتكاد أن تثقبه. تخطر لي فكرة جهنمية. أخرج القروش العشرة من جيبي وأضعها على سكة الترام. وأنتظر مرور العجلات المستعجلة فوقها. كنت على يقين أن القروش العشرة ستصبح خمسين قرشاً بعد أن ترقّ وتتمدد، وأشتري بها أشياء كثيرة.

كما توقعت، أصبحت القروش العشرة بحجم النصف ليرة بعد مرور عجلات الترام فوقها. ألتقطها على عجل ولا أبالي بسخونتها. أذهب إلى بائع الفلافل أناوله النقود وأنا ألتهم السندويشة على عجل. يرمي البائع النقود في وجهي:

يا كذاب. يا غشاش.. يا مزوّر النقود. سأسلّمك للعسكري.

أهرب وأنا أضع البقية الباقية من السندويشة في فمي. وأبتعد.

السكة انتهت على رصيف البحر. أقفز فوق الرمل وأسافر إلى الزرقة. أراقب النوارس التي تهبط من علو وتهف فوق الزبد. أبحث بين الصخور الرطبة المعشوشبة المطلة على البحر عن أصداف. اقتلعها وألتهمها مع الدم الذي يسيل من أظفاري. أنظر إلى البعيد وأنا أتحسس نكهة الأصداف. للأصداف نكهة الحكايا والسفر.

وأصبح كل ذلك: محارات ويود ودماء وزرقة وبواخر وصيادين ومنارات.

* * *

يقطب "المسيو ديكارت" ويأمرني:

أغمض عينيك.

وأغمض عيني. تمضي فترة أخال أنها أبدية في ظلامها. تمر أمامي طوابير عساكر "الفرنساوية" وهي تسدد بنادقها على جموع الناس الذين خرجوا في مظاهرة يحتجون فيها على فقدان الطحين، وتطلق عليهم. ترتد الطلقات إلى قلبي. أرتعد وتفر العصافير من عيني المغلقتين.

يضحك المسيو ديكارت، ولا أفهم معنى لهذا الضحك الفرنساوي. ثم يأمرني:

افتح عينيك.

افتح عيني، يصفعني ظلام.

أنادي: أمي.. أمي.

تعانقني أمي وتأخذني إلى المطبخ وتفرغ في صحني بقايا الطعام من الصحون قبل أن تباشر في غسلها. وأشبع حتى أصاب بعسر هضم، وألعق الصحن بلساني. وأقول لأمي:

انظري.. لقد وفرت عليك غسله. يوم القيامة. ستشكرني الصحون وتقول لي: هنيئاً لك يا لاحس قعري.

* * *

أمي تعبة وأنا متوتر وشبعان. نمشي بخطاً ثقيلة.

الوقت مساء. غيوم خفيفة في السماء. والأرض حارة تعبق بالهموم. أتخلص من يد أمي وأقفز إلى وسط الشارع وأمشي على سكة الترام. تغضب أمي وتناديني كي أمشي إلى جانبها حتى لا يدهسني الترام.

أقول لها: لا تخافي يا أماه. أنا والترام أصدقاء، أتنحّى له عن سكته عندما أسمع رنينه الحار.

تتراءى لي محلات "والت ديزني". أفقد اتزاني وأطير إليها. ما أن يلمحني "الخواجه قواديس" حتى يخرج من المحل هاشا باشا ومرحباً.

يقول لي وهو ينظر إلى أمي: عفاك يا شاطر.

ثم يسلم على أمي ويدعوها لشرب فنجان من القهوة داخل المحل. أسبق أمي إلى الداخل قبل أن أسمع جوابها. ويصبح المحل بكل ما فيه.. ملكي. وأتوزع بين عوالم مسحورة وجنيات والهة وحوريات وحيوانات. تمر ساعات طويلة وأنا مخدر بالأحلام. أدعك عيني. هبط الليل والظلام في كل مكان، باستثناء نور خفيف معلق فوق رأسي. أجول في السواد، أسمع أنيناً وتأوهات وتنهدات قريبة. تطل علي كاهنات بابل من كوات برجهن العالي، ويقهقهن. ألمح في قمة البرج عينين رماديتين تبرقان. أخطف الرشاش الرمادي المخطط بالأسود وأندفع إلى الخارج.

يستقبلني الليل ندياً. أمشي على سكة الترام.. وحيداً.

دمشق /١٩٨١

الجرد الحنون

"أنا مجنونة كعمتي "شمسة" بائعة النرجس البري التي كانت زوجة لرجل "قبضاي". وكان هذا "القبضاي" يعيرها على الدوام، بقصر قامتها وسذاجتها. وكان لا يكف عن نعتها "بالأرنبة" لأنها كانت تنجب توائم في كل مرة.

وكانت عمتي "شمسة" لا تبالي.

فهي تحب رجلها "القبضاي" والنرجس وطولها وخصبها.

وكانت تعتبر تقريع زوجها لها نوعاً من الغزل الخفي:

الزوج "القبضاي" لا يعرف كلمات الغزل الرقيقة، لأن لسانه سميك وقاسٍ مثل ساعديه. وإذا كان يعرف مثل هذه الكلمات، فمن حقه أن يضن بها عليها، لأنها لا تليق به. من أجل أن يبقى في نظرها "قبضاياً".

مسكينة عمتي "شمسة" كانت مخطئة في تقديرها، وساذجة أيضاً.

بعلها "القبضاي" كان يعني ما يقول حرفياً. وكان متضايقاً فعلاً من قصر قامتها وسذاجتها وخصوبتها. طلقها بعد رفقه عمر. وتزوج من امرأة طويلة وماكرة ومسدودة. وعلى أثر هذه الصدمة فقدت عمتي "شمسة" عقلها.

الآن.. ورصانتي جبال، ومضرب للأمثال

– حالة لا أحسد عليها – لأنني عرجاء وقرعاء وخرساء.

أنا لم أخلق مشوهة هكذا.

كنت أقلد العصافير وأسابق الريح.. وشعري سنابل. من أجل هذا عشقني حبيبي. ومن باب التحسب للجنون وفحشه وأخطاره، حرقوا شعري، جوفوا ركبتي من الغضروف تخلى النطق عني.. ورحل بعيداً.

بدأ جنوني عندما استلمت برقية تنعي موت حبيبي في الحرب. كنت في الحديقة أنتظره مع الفراشات، وأقطف الورد الجوري وأفرطه على شفتي لألقاه بشفاه مخضّبة. بداية الجنون كان رجفة.. صعقة كهربائية. لحظة وعي كاملة مفاجئة. والخيال مخدر بالأحلام. تعربشت على شجرة الرمان بحزني، وبعثت قبلاتي في الهواء. قبلات كثيرة ويتيمة لكل الناس الذين قتلوا واستشهدوا دون وداع. ثم انتحبت.

أنا لم أقصد أن أكشف عن عورتي. الحق كل الحق على شجرة الرمان. كانت عالية وفروعها شائكة متشابكة، مزقت ملابسي. حبيبي قبل أن يذهب إلى الحرب طلب مني قبلة.

كدت أعطيه شفتيَّ ليخضبهما حباً. كبتُّ هذه الرغبة القاتلة في إلحاحها عملاً بنصائح أمي:

- الفم.. كالفرج، كلاهما عورة.

- ولكن يا أمي من الفم ناكل ونضحك ونغني، ومن الفرج ننجب الأطفال!

حبيبي رحل دون قبلة. وفمي يعبق بالورد الجوري. ورجال عشيرتي كلهم رصينون و"قبضايات". تجمهروا تحت شجرة الرمان. تنحنحوا.. همهموا.. وتوعدوا.. وضعوا سلماً من خلفي - ناحية الغروب - وألبسوني شوالاً، وربطوا الشوال من فمه:

- هكذا يصطادون الكواسر.

في الشوال ضاعت قبلي، وابيضت شفتاي.

جرجروا الشوال إلى الجرود وأنا محشوة فيه.

قيدوا عنقي بجنزير إلى جذع شجرة "زعرور". صبوا الكاز على شعري وأحرقوه. رائحة الشواء المتصاعدة من احتراقي، جذبت حيوانات الجرد، واختلط عوائي بعوائها.

النار تحرقني.. وأنبض أشواقاً، أحمِّل رياح الجرد قبلاتي.

تناولت حجراً وضربت به أبي "القبضاي"، لأنه لم يقبلني قبلة واحدة في طفولتي، ولم يبتسم لي في صباي، صفقت من الفرح عندما رأيته يسقط على الأرض مغشياً عليه من الألم. لم أصفق طويلاً لأن أبي سرعان ما عاد إليه وعيه وحمل خيزرانته وجلدني بها. غاصت الخيزرانة في ركبتي، جوفتها من الغضروف وتناثر سائل أبيض منها.

الروح بيضاء.

أطلقت عواء أعاده الجرد إلي عارياً مع الريح.

جاء الليل وذهب "القبضايات" وتركوني وحيدة مع بعض كسرات من الخبز. هم "قبضايات" ومن حقهم أن يشبعوا ويرتوواويناموا ويستريحوا.

ضبع من ضباع الجرد لونه أسود مثل الوجوه التي لم تغتسل بالمطر. اقترب مني وتفرسني بعينيه الواثقتين ونظراته المقتحمة والمفترسة.

أنكسر على بعضي... وأستسلم.

دار الضبع حولي، شمني، أطلق صيحة ثم رحل.

عنقي مذبوح، وشعري محروق، وركبتي مجوفة. والورد الجوري يبس دماً على شفتي. والضباع لا تحب الجيف دائماً.

أصوات الضباع والرياح والعتمة، ترصع ليل الجرد بالأنس. عز على الليل أن يتركني وحيدة، وحمل إليّ ابن آوى.

تأملني بحدقتين دامعتين. هربت ودرت بجنزيري واختبأت خلف الشجرة. تركني ومضى..

أقضم كسرات الخبز، أقلد أصوات الحيوانات وأنين الجرد. أسافر إلى حبيبي وأزرع الجرد قبلاً. يضايقني الجنزير حول عنقي. أدخل يدي لأبعد عن رقبتي ذبحه، أجرب أن أرتاح. أنبض ألماً، وأعوّي.

الأيام تمر ثقيلة.. يابسة.. وبطيئة.

صباح ما حمل إلي غيوماً رمادية ورياحاً باردة، و"قبضايات" يحملون فؤوساً وعصياً وسياطاً.

أدخلت حجراً مدبباً في فجوة ركبتي. وناديت "القبضايات" ليبعدوا عني هجمات الوجع والبرد.

رد علي "القبضايات" بفؤوسهم وعصيهم وسياطهم.

اغتسلت بدمي.. وأحرقتني حرارته.

وما عدت أحس بالألم.

الأرواح في الجرد حرة وطليقة، وأصوات الضباع وبنات آوى، نواقيس أنس في وحشة الجرد. ركبتي المجوفة أصبحت كهفاً لمخلوقات بيضاء رخوة. أدس أصبعي في التجويف وأتسلى بهرسها. أقسمها إلى نصفين وأراقبها مدهوشة وأنا أرى كل نصف يتحرك على حدة.

روح الدودة لا تتمركز في مكان معين. ليس للدودة قلب ولا شفتان. عواطفي بيادر راحلة في الليل. أنتظر العتمة لتحمل لي أنس أصدقائي. وليل الجرد مشبع بروائح الجلود اللامعة الوبر.

حمل إلي ليل الجرد الأخير صديقي ابن آوى. اقترب مني ومسدت شعره. نفخ على ركبتي المجوفة بأنفاسه الحارة حتى فرغها من الديدان. وبقي طوال الليل يدور حولي ويبكي ويطلق عواء ممزقاً.

في الصباح جاء "القبضايات" وحلو قيدي. مشيت إلى البيت خلفهم وأنا أعرج بوقار.

وفي مكان ما، كان الجرد معتكفاً على جراحه... يبكي.

بيروت /١٩٧٤.

وكان اسمي الشاطر حسن

اسمي: الشاطر حسن.

"عمري: عشرون

علاماتي الفارقة: تغضن في الجبين، وشرخ في القلب.

عيوبي: الأحلام".

هذه آخر ليلة أقضيها في بيتي الذي ولدت فيه، ورسمت أحلامي على سقفه. سأرحل وأترك ضحكاتي وأناتي معرشة في طحالب جدرانه.

عمري عشرون. وهذه مرحلة حاسمة في رأيي.

(٢٠) رقم ينتهي بالصفر. يتوقف الإنسان أمام كل مرحلة من مراحل عمره تنتهي بالصفر. يغوص متأملاً في أعماق نفسه، يتلفت حوله، ويتساءل بمرارة:

هل عشت حقاً كل هذه السنين ؟

ويستغرب أن يكون قد فعل ذلك!!

في العشرين، يكتشف أمثالي فجأة، أن سقف البيت الذي يعيشون فيه، أصبح منخفضاً بالقياس إلى قاماتهم الطويلة والنحيلة وأحلامهم الحارة. وحتى يحموا رؤوسهم من الارتطام ونزيف الشج، وبالتالي أدمغتهم من الارتجاج، وظهورهم من آلام الانحناء، يحلمون بعالم فسيح رحب. وعندما تتأجج هذه الأحلام، يشرعون عصا الترحال.. ويرحلون.

ليلة الرحيل طويلة. أطول من كل ليالي العمر مجتمعة. أحلامي ضاقت بي، وأنا أريد أن أتصالح معها بسرعة وأتحد كلياً بها. فأنا أجوف ووحيد دونها. فأسي

مأجور، أقطع به حطباً لغيري، ومدفأتي بلا حطب. بعد ساعات ينبلج الصبح، والصباح رباح، وأنطلق من تحت هذا السقف المنخفض، وأنشلع من جدرانه الطحلبية. أنا محزون بعض الشيء لأنني سأترك أمي وحيدة. أحسم هذا الأمر وأقول أنها تعودت على الفراق. وإن لم تتعود فيجب أن تفعل ذلك وترضخ له عن طيب خاطر لأن الملكية – الحب – ليس من حق زوجات وأمهات الحطابين.

يبقى التفسير الظاهري لأحلامي، والذي أتيت على ذكره، معقولاً ومقبولاً، أما التفسير الباطني لها ؟ يقول لي عقلي: هس يا حمار.

أطبق فمي بأسناني وشفتي، وأستعيد أحلامي بخيالي. هدفي الغامض من الرحيل هو البحث عن "طاقية الإخفاء".

في حال العثور عليها، أعتمرها وأختفي. وأحل مشاكلي مشاكل أهلي وجيراني ووطني والعالم بأيام معدودة، أعيد التوازن إلى هذا العالم المقلوب، وأعيد له المعقولية أيضاً. ولن أتبجح عندما أقوم بهذا العمل العظيم، لأن القيام به – وأشهد بالله – دين في عنقي، وواجب علي التضحية وفعل الخير من الواجب أن يبقيا طي الكتمان، وإلا فقدا معانيهما وغاياتهما.

وأنا أحب الجندي المجهول الذي يموت بلا ضجيج. له رحاب السموات.. وقلبي وواجبي يدفعني إلى وضع الناس أمام مسؤولياتهم الجديدة في الحفاظ على الخير. نيتي حسنة والحمد لله، والخلاص لا يكون فردياً.

لي صديق عزيز على نفسي اسمه "المهلهل" ولقبه المجنون. سمي صديقي بالمهلهل، لأنه مهلهل العواطف والأحاسيس والثياب. ولقب بالمجنون لأنه يعشق التاريخ ويتقمص كل يوم شخصية من شخصياته العريقة. رجاني هذا المهلهل المقطوع من شجرة التاريخ بفأس غير آدمية. أن أبقى بجانبه ولا أرحل. وبكى كالأطفال عندما رأى إصراري على الرحيل وعنادي متوقداً في عيني. أحزنني بكاؤه وصراخه، وبقصد التخفيف عنه، بحت له بأحلامي وفردتها عصفوراً أمامه.

ابتهج ورقص وطاف فرحه زبداً غطى شفتيه وذقنه. وتوسل إلي كي أسرع في العودة عندما أعثر على "طاقية الإخفاء". وأن أعيره الطاقية لليلة واحدة حتى يتقمص القوة والتكنولوجيا ويقتل البرابرة. وأقسمت له بأنني سأعيره الطاقية.

مهنتي حطاب. أحرس الغابة. أقطع الأخشاب. وبيتي بلا ناطور ومدفأتي بلا حطب.

حلمي بدأ منذ زمن بعيد، عندما حضر الجندرما وأخذوا أبي وشفطوا دجاجاتنا وغلالنا، وقالوا إنهّم سيقدمونها هدية للسلطان عبد الحميد في عيد ميلاده "الخمسمائة".

اخترع أبي ضربة فأس جديدة يزلزل وقعها الغابة ويفتح قلوب الحطابين وشرايينهم على بعضها وتولد التحاماً بينها وبين الأرض؛ وقالوا عنه بسبب هذا: إنّه هدّام. بعد اختفاء أبي من حسن حظي أنني ورثت عنه فأسه وحدة ضرباتها. ودمه وقلبه أيضاً. أقبض على الفأس وبضربة واحدة أقطع أضخم جذع.

يكبر حلمي، ينتشر في الغابة عرساً تحمله العصافير إلى أعشاشها وفضائها. والسوط يشرط ملابسي ولحمي ويأمرني لأمسك الفأس بيدي اليسرى وإلا..؟ وأنا حريص على تحقيق حلمي، وحرصي على حياتي نابع من هذا.

زفرة محروقة خرجت من أحشائي وأنا أرى انبلاج الفجر. استيقظت أمي وغسلت وجهي بدموعها:

سامحيني يا أمي. خدعتك عندما قلت لك إنّني سأرحل إلى بلاد الله الواسعة طلباً للرزق، وأعود ومعي مال وفير، وأتزوج وأنجب، وأضمن لك شيخوخة هانئة ومريحة. تركت لك "طاقية الإخفاء" مفاجأة.

عجلي يا أماه، صري زوادتي واربطيها بالفأس، الفأس ضرورة من ضرورات البحث والترحال، وهويتي أيضاً.

حملت صرتي وفأسي. قبلت أمي وطلبت منها الدعاء والرضا والتجلد.

فوجئت بصديقي المهلهل مذبوحاً على باب الدار. سقطت الفأس من يدي وتبعثرت الزوادة.

عدت أدراجي خائفاً. كشت قامتي وأصبح السقف شاهقاً عليها.

بيروت /١٩٨٠

الصبية والأخطبوط

"نموت قبل أن نستوفي حقنا من الطفولة"

-١-

في صباح شاحب من الخريف. وجدت صبية جثة هامدة بين صخور الشاطئ، عرفت من سروالها "الشيت" بأنها هند بنت أم هند.

لأن وجهها كان ممحواً.

ندبتها النسوة قائلات:

يا مكسورة الخاطر.

-٢-

تركض إلى البحر مفجوعة ومرتعشة وجميلة مثل حورية. والبحر مالح وعميق، ولكنه أزرق ورحب يغري بأشياء كثيرة. اللعب والمرح والضحك والتأمل والتنهدات والبكاء والنوم، وتبكي هند. تثقب دموعها الزبد. تجلس على حافة البحر وتحفر حفرة في الرمل وتندس فيها. تتنهنه من الذي كان وسبّب أوجاع قلبها:

ذلك الرجل، عمها، سيد البيت الذي كانت تناديه بابا. يستغل غياب أمها، يحاصرها، ويقرص حلمتيها. ثم يبطحها أرضاً ويعتليها وهي تلبس سروالها "الشيت". ويشخر، ويبقعه باللزوجة والدم.

وثديها بحجم التينة الشتوية. وحلمته صغيرة، وساقاها نحيلان كالقصب، وسروالها طويل وفضفاض ومالح مثل مياه البحر.

تقفز فوق موجة صغيرة. تسبح بملابسها. تتطهر وتذهب البقع عن سروالها ويصبح نظيفاً.

مياه البحر تكوي حلمتيها وتتألم. تجلس على صخرة تنقط ماء وملحاً، تعصر ملابسها وشعرها.

بودها أن تنزع ملابسها وتنشرها على الصخرة لكي تجف. همت أن تتعرى. رأت أخطبوطاً ضخماً يتسلق الصخرة. شدت دكة سروالها وأسرعت إلى البحر.

دغدغتها الأمواج والأماني: لو تكون مثل السمكة، جسد ناعم ومصقول وأملس، بلا نتوءات على الصدر أو تجويف بين الفخذين. ترى لماذا لم يخلقها الله سمكة! إنها تحب الله ؟

للسمكة البحر كله والزبد واللؤلؤ والمرجان والإسفنج وهي ليس عندها إلا أشياء صغيرة ومرهقة. ملابس بالية وتجاويف في الرأس والجسد تسبب لها هماً وغماً ووجعاً وأطراف تعرقل أحلامها، وجدران سوداء تضغط على صدرها، وسقف سميك لا ينقل فرح المطر والعصافير، وأرض ترابية رطبة تمتص دفئها وتجمد أطرافها. وذلك الإنسان الذي يقتحمها بجحوظ كرشه وعينيه في الغياب، يقرص حلمتيها ويعتليها ويهرسها ويشخر، ويبقعها باللزوجة والدم.

ينغرف قلبها من الهم.. وتسبح.

مياه البحر تمتص ثقلها، تمحو تجاويفها، وتدوخ.. تستلقي على ظهرها مثل قارب وتنام فوق سرير البحر. المياه تهتز من تحتها وتشعر بخدر لذيذ.

لم يكن لها سرير في يوم من الأيام. فراشها "حشية" من قش وتبن وقسوته تعلم على جنبيها.

تراقب السماء المسكونة بالزرقة والنوارس، والسماء كالبحر.. واسعة وعميقة الزرقة. وهي صغيرة صغيرة مثل رأس الدبوس بالقياس إلى هذا الامتداد والعمق الأزرق. هي والنوارس سواء.. للنوارس حزنها أيضاً.

يثقل عليها النعاس والهم. تغفو وتحلم أنها عروسة البحر، ملونة ومصقولة وجميلة. بلا نتوءات.. أو تجاويف.

تغوص. رغبة ملحة تشدها إلى القاع. تهبط رويداً.. رويداً. تأوي إلى كهف من اللؤلؤ والمرجان. وتنام فوق فرشة من الإسفنج، رخوة.. رخوة.. مثل رغوة الصابون.

دمشق/ ١٩٨١

وحشة

شعرت المرأة بالوحشة. واصطكت من البرد.

- لو يسافر الليل إلى بلاد العشاق والشعراء. النوافذ والأبواب كتيمة. مصاريعها حديد. والخريف لم يأت بعد!

ترى من أين يجيء كل هذا البرد الذي يجلد العظام ويخترق شغاف القلب ويحرق حقول الأقحوان ؟

حملقت المرأة في الفراغ. سمعت نباحاً بعيداً لكلاب شاردة.

- لو كانت تملك جرأة الكلاب وحريتها لأعلنت وحشتها على الملأ بأعلى صوتها.

كيف؟ وفمها مليء بمياه آسنة، فطوره وطحالبه تعرش على جسدها. وتهرش، يتمزق الجلد ولا تنام.

نباح الكلاب يعمق وحشة الليل.

- لو.. لو.. عو.. عو..

مستعصيات تراودها بين الحين والآخر.

هربت المرأة من مستحيلاتها المجنونة إلى عد بلاطات الغرفة التي تعدها كل يوم مئات المرات ولا تحفظ عددها.

ذاكرتها رخوة في الحساب.. والزمن رخو.. شعرت برغبة في التدخين. مدت يدها إلى علبة سجائرها. كانت فارغة.

شراهة التدخين والاحتراق، كانت منذ أن كان الصمت والبرد.

نهضت تبحث عن علبة سجائره. ربما قد نسيها هذه المرة ولم يخبئها في مكان تجهله.. ربما تحت وسادته، أو في جيب منامته.

أعياها البحث.

تضاعف حبها للتدخين وعشقها للسيجارة منذ أن قرأت عن أخطارها:

كل سيجارة تقصر العمر خمس دقائق.

المدخنون أكثر عرضة للإصابة بالسرطانات.

– وما أطولك أيها العمر !!

اختلقت لبعلها الأعذار حتى لا ترتكب حماقة.

– له الحق أن يخبئ علبة سجائره ويخفيها عن ناظريها. هي تدخن ثلاث علب "حمرا" في اليوم ثمنها خمس ليرات وربع. وهو ليس عنده معمل سجائر. هي موظفة عند الحكومة، وكان يجب أن تحتاط لهذا النفاد والانقطاع الليلي وتشتري حاجتها من الاحتراق.

ذرعت أرض الغرفة كالمجنونة؛ واستقطبت السيجارة كل جوعها التاريخي؛ وأصبحت الحياة سيجارة تقربها من نفسها والآخرين.

حدثت نفسها والجدران:

من تبتغي العيش الكريم عليها أن تتصحر ضد الارتعاش وتتحرر من عبودية الرغبة التي تطرد الضوء من العينين واليقين من القلب. الملك لله.. وللرجل أيضاً. وهما يباركان حقها في عفتها وكرامتها.

ولكن ما مصير أمة يستمد أقوياؤها قوتهم من قهر الأطفال والضعفاء، وقيمهم وشرفهم من مكان التبول ؟

ركبتها موجة من الذعر، وتذكرت إيمانها القديم للسيطرة على نفسها:

من يولد من نطفة الفناء ومحكوم بالموت له بعض الحق في الحرية. تحقيق رغبة محروقة.. تدخين سيجارة، ولا يدفع أكثر من ثمن سيجارة.

اهتدت أخيراً إلى إسكات جنون الرغبة، تناولت عقباً ممسوخاً من صحن السيجارة، أشعلته وعبت منه بنهم وملأت رئتيها. سحرها الطيف الدخاني الذي نهض وتمطى في فراغ الغرفة مثل روح بيضاء، ترسم احتضاراً.. وتمضي.

أحرق العقب إصبعيها، ولم تبال بهذا الاحتراق الطفيف. تلة من الأعقاب الممسوخة كانت حصيلة العمر الذي مضى. وأنها تعتز بثروة الأعقاب هذه. ومن أجل أن تعيد اللمعان والانبهار إلى ما أعطي لها، كانت تتخيله جديداً ونظيفاً وشامخاً وعابقاً بالبراءة. وكأنها اختارته بملء إرادتها الواعية. ومع الزمن فقدت القدرة على التخيل. وعندما أصبح لديها مجال للاختيار كان الوقت متأخراً.

تجلس على الأريكة مهدودة، تحدق في الفراغ. ينفذ الفراغ إلى نسغها، وتدخن عقباً آخر. تسمع شخيراً من غرفة النوم. حاولت مراراً أن تعتاد على ضجة هذا الإنسان الذكوري الليلي الداوي في قلب العتمة، وأن تضيفه إلى قدرها كأساس متين، يبعث القوة والأمان في النفس.

ولكنه بقي.. مع البرد.

أرجعت عدم تعودها بعد عشرين عاماً من التكرار، إلى ضعف في إرادتها، وخلل في جهازها العصبي. نومها متقطع، بين الإغفاءة والأخرى تفيق على صراخها. وكل الذين تعرفهم ويعرفونها يحسدونها على سعادتها.

من أين يأتي هذا الصراخ إذن ؟

كانت قد قرأت عن امرأة إسبانية هجرها النوم منذ ثلاثين سنة، ولكنها لم تحس بوطأة الليل وثقل الأرق وفداحته، لأنها كانت تراقب حبيبها النائم طيلة هذه الثلاثين وهو يحلم ويبتسم. وعندما مات حبيبها جثم الليل على صدرها كالجبل وعذبتها مرارة الأرق.

- لو يسافر الليل إلى بلاد العشاق والشعراء..

أشار عقرب الساعة إلى الثانية بعد منتصف الليل. أدركت المرأة أن الوقت متأخر جداً. وعليها أن تأخذ قسطاً من النسيان.

وأطفأت الأنوار.

دمشق/ ١٩٨٤

امرأة ورجل

كان شتاء، وطريق سفر، ومسافران. كانا على وشك التعب.

امرأة ورجل التقيا صدفة، كما يلتقي المسافرون الذين يسافرون وحدهم في الوحشة كأنهما يعرفان بعضهما من أيام نوح.

سوت المرأة عصبتها، رفعتها قليلاً عن جبينها لكي يصل المسافر إلى عينيها ويعرف.. كم كانتا جميلتين. ثم فتحت صرتها وسحبت منها منديلاً مطرزاً بألوان زاهية احتفظت به عمراً في صندوق لمثل هذه المناسبة. وكان معتقاً برائحة التفاح والسفرجل والصعتر. وتناولت من الصرة كعكة مدورة على شكل عجلة.. قسمتها إلى نصفين، وناولت الرجل نصفاً فاحت رائحة اليانسون والتفاح والسفرجل والصعتر، لفحت وجهيهما واستقرت كحلاً حاراً في عيونهما، ودمعا معاً.

مسحت المرأة دموعها بمنديلها، ومسح الرجل دموعه بكمه، وحدق فيها محاولاً أن يتذكر فيما إذا كان قد التقاها من قبل، سحابة بخور، أو ناسكة ترقص على أطلال المعابد والمدن التي كان يجوبها في الليل ؟

قالت المرأة لقلبها: ربما كان زوربا حصانك البري الذي أصابه خسوف في عينيه من كثرة ما حدق في الخوف.. وعد النجوم.

وكان المسافر ينظر إليها ويتسلل عبر مسامها كالينابيع، ويزيل عنها تراكم السنين والغبار. وهي تنظر إليه مثل العصفور الدوري. تنقر إلفه، وتتلفت حولها بقلق ثم تستقر عيناها على حذائه. كان حذاؤه زورقاً في بحر مخنوق الأمواج. رفعت رموشها إلى السماء وأطلت على عصافير وجزر زرقاء ترتعش في العبوس وتنشف كلما هبت الريح.

همس قلب الرجل: الطريق لازال طويلاً.

ونقلت إليه مسام المرأة برودة المقعد الخشبي الذي كانا يجلسان عليه. مد يده إليه. وكان مبلولاً.

تأملت المرأة يده، وكانت بستة أصابع..

وشهقت: يا إلهي!!

هتفت أصابع الرجل المبلولة: إنه من تأثير المطر. قطرات المطر يطول جفافها في الوديان.. لذا تبقى دائمة الخضرة.

ركن إليها وركنت إليه. وتكلما كثيراً دون أن ينبسا. حكى لها حكايته، وحكت له حكايتها. لامها على طول اختبائها، ولامته على طول غيابه، وأوجعته بقصتها المحزنة وبأسرارها المسكونة بالسحر.. وبكى.

ومسحت المرأة عينيها بكمه.

أشفق عليها لأن رأسها كان معصوباً وأنفها أحمر ورموشها ثقيلة ومبتلة، وتفوح من صرتها رائحة اليانسون والتفاح والسفرجل والصعتر. وسمته "أبو شفيق".

وأشفقت عليه لأن قدميه كانتا أكبر من حذائه، وجسده أوسع من ملابسه، وعنده في كل يد سبابتان. وأحد جفنيه كان مكسوراً، وسماها "أم شفيق".

فكّت "أم شفيق" عصبتها وبارحتها أوجاع الرأس. و"أبو شفيق" أجهد نفسه ليسوي جفنه المكسور.

أخرجت المرأة من صرتها بخوراً وتمائم وأصدافاً وحدوة حصان وناب غزال، وعقدتها في منديلها، وخبأتها في صدره. استقام جفنه المكسور، وأصبح مثل جفن النسر.

تحركت شفاههما معاً لأول مرة منذ أن التقيا: تهجأت اسمه في نفس اللحظة التي كان يناديها..

... وكان "شفيق" أغنية السواقي والمطر والجياد التي تركض في جميع الفصول.

دمشق/ ١٩٨٥

الجنين الذي ذبح أمه

-١-

عندما أحست فاطمة برفرفة أجنحة خافتة تضرب جدران بطنها ركبها الهم.

عند فاطمة أولاد بعدد أصابع اليد، ولا معيل لهم سواها. ولن تطالبهم بشيء عندما يكبرون. إذ لا فائدة ترتجى من مطالب صعبة التحقيق، نحملها للآخرين رغماً عنهم. كما أنه من الوقاحة أن نطالب الأولاد بمكافأتنا على تقصيرنا وقصورنا في حقهم.

وفاطمة واقعية. ومطالبها لا تتعدى حدود الشبع والإفراج عن العصافير المذعورة المحبوسة في قفص القلب.

والوطن عطشان، ورجاله لن يصبحوا علماء أو عباقرة، إلا إذا صبّوا عنتهم فيك يا فاطمة، وجسدك مهدود من حمل الرجال والأطفال.

لجأت فاطمة إلى جارتها وسألتها عن أسهل وأرخص وأضمن طريقة للإجهاض.

قالت لها:

ازرعي بيت رحمك بشروش "الخبيزة".

وشروش الخبيزة لها قساوة الصخر ولحم فاطمة طري وحساس مثل بؤبؤ العين.

تألمت فاطمة ورقصت مثل طير ذبيح:

- اخرج أيها الصغير، لا خير في هذا العالم، أقسم لك بأنه شقي وتعيس. ارحمني.. أنا الساكنة في معبد الجرح، والمتعبة على درب المجدلية.

أخ...

والجنين لا يصدق أمه، ولا يبالي بأوجاعها. ويزداد التصاقاً وتمترساً في بيته. ويأبى أن يفارقه.

وألم فاطمة لا يوصف. يأكل اللحم، ينقر العظام ويفلقها ويسحب نخاعها. يجوف الروح ويسعرها صراخاً.

لم تتحمل فاطمة الآلام التي سببتها لها شروش "الخبيزة" ومن حلاوة الروح، سحبتها من بيت رحمها. وكانت الشروش تقطر دماً.

لم تيئس. هناك ألف طريقة وطريقة للإجهاض، لجأت فاطمة إلى إحداها. وشربت طنجرة من مغلي الكينا والجنزبيل والقرفة، ونقعت جسدها في حوض ماء تصل حرارته إلى درجة الغليان. بقبق جلدها وتسلخ. جاشت أمعاؤها وانفرطت وزنرها الألم من جديد. سكاكين تمتد من أسفل البطن وتمزق الحجاب الحاجز. والجنين يسخر من محاولات أمه يتشبّث بأحشائها بعناد وإصرار أكثر من السابق. اسودت الدنيا في عيني فاطمة، وركبت رأسها الذي كان يدور، ولجأت إلى طريقة ثالثة للخلاص من جنينها العنيد.

كانت هذه الطريقة لا تخلو من القسوة والعبث والتحدي. قرفصت ونكشت بيت رحمها "بسيخ اللحمة". تقاطر الدم من كوعها وهي تحفر وتجوف وتمزق.

زغردت فاطمة عندما رأت الدم ينفر منها. ثم سقطت "لحمة" صغيرة بحجم الإصبع وطافت فوق بركة الدم التي كانت تسبح فيها فاطمة.

- إلى الجحيم أيها العنيد القاسي. قلت لك إنني ساكنة في معبد الجرح ومتعبة على درب المجدليه، وأن لا خير في هذا العالم، لم تصدقني. يا من أوجعتني كثيراً وأبيت ألا أن تتعمّد بذبحي.

-٢-

ترحم الأولاد الخمسة على أخيهم الذي ذبحته أمهم "بسيخ اللحمة"، وجاء قبل أوانه بخمسة شهور. وبكوه بدموع صامتة ومدرارة أحرقت وجوههم الشاحبة والمغبرة وحفرت قنوات فيها وسحّت من أسفل ذقونهم.

يجهلون اسم أخيهم المقتول، واسم أبيه، كما كانوا يجهلون اسم أبيهم أيضاً.

مرة واحدة فقط، تجرؤوا وسألوا أمهم عنه. تفرست في وجوههم بغضب، ثم أشارت لهم بإصبعها إلى خرابة تعج بالنفايات تطل نافذتهم عليها. وتحاشت النظر إلى عيونهم العشرة التي امتلأت بالذعر وتنكست أهدابها.

-٣-

دماء فاطمة لازالت تلهث بخاراً، وتنبض بعنف من مكان الذبح. تتساءل فاطمة وهي تتأرجح بين الصحو والضباب:

كيف استطاع جسدها اختزان وحمل كل هذه الدماء السخية الفوارة والقرمزية، دون أن ينفجر؟

تتناول الجارة وسادة تدسها بين فخذي فاطمة لتوقف نزيفها.

غشاوة بيضاء حجبت فاطمة عن العالم.. وغابت.

-٤-

يلتقط الأولاد أخاهم المقتول. يسجونه في علبة صدئة كانوا قد عثروا عليها في الخرابة. يغطونه بأوراق الزلزلخت. وشيعوه في مأتم خاشع، وساروا رتلاً حزيناً إلى الخرابة. حفروا حفرة صغيرة تحت شجرة الزلزلخت، وواروا النعش الصغير التراب. ثم جلسوا صامتين دامعين. كانت الخرابة منتفخة بالأبخرة والذباب والقيظ.. وساكنة.

تناهى إليهم صوت عويل وبكاء جارتهم.

خرجوا عن صمتهم وبصقوا على أيديهم وأزالوا الدم عنها.. ثم ركضوا.

كانت فاطمة تطفو فوق بركة دم، شاحبة وفمها مزموم وعيناها كبيرتان. لم يسبق لهم رؤية عينين بهذا الاتساع الممزق انتحبوا وهم يقتربون منها أكثر.

وتقرمزوا بدمائها.

دمشق/ ١٩٨٠

حكاية ولد من جيل يأجوج ومأجوج

كنت جائعاً.

رسمت على دفتري أرغفة خبز مستطيلة ومستديرة.

امتلأ دفتري خبزاً، وبقيت جائعاً.

عندما قصفت قريتنا الجنوبية، وتهدم بيتنا. أصابتني شظية في رأسي. لم أسعف في حينه، وتقرح جرحي ونزّ، واستمر هكذا لمدة شهر أو أكثر. هذه المدة التي قضيناها في الملاجئ والسير والبحث عن مأوى والانتظار أمام الحواجز الثابتة والطيارة التي كانت تسألنا عن هوياتنا. وكنا نلجأ إلى الكذب حيناً والمراوغة حيناً آخر، كي ننجو من مصير الذبح ع الهوية. وكنا بالفعل قد تركنا هويتنا في قريتنا. أخوتي تحملوا مشاق التهجير بصبر وشجاعة، لأنهم كانوا أكبر مني، ولم يصابوا بشظايا في رؤوسهم. إلا أنا.. فقد كنت ولازلت أنعق وأبعق من الجوع الذي كان إحساسي به يفوق إحساسي بألم جرحي الذي كان ينزّ ويتفسخ. قطع الأهل أملهم من شفائي وتوقعوا موتي بين لحظة وأخرى. غرغرينا، حمى، جوع، عطش، خوف وتعب، والحرب الأهلية على أشدها.

والحصول على رغيف أو شربة ماء أو مأوى، معجزة من أكبر المعجزات وهموم جديدة تضاف إلى قائمة همومنا.

لم أمت!

قال أبي: أطفال الفقراء مثل الصبار.

استقر بنا المقام في قرية تقع على مشارف البحر. أشفق علينا أهلها، وسمحوا لنا بالإقامة في بيت شبه متداع ومهجور. رافق استقرارنا تطورات جديدة

حدثت في محيط أسرتنا. من هذه التطورات تحوير اسمي من سعيد إلى ديدو. من جهتي لم يكن أمامي أي خيار، لأنني ولد جائع همه الوحيد هو الحصول على الطعام. حتى لو سرقوا مني اسمي فلن أبالي.

قالت أمي:

اسم ديدو ذو رنة موسيقية محببة. وتدليعي به له فوائد جمَّة وعظيمة:

أولاً: إنّه تدليع مجاني لا خسارة من ورائه.

ثانياً: هو تقليد للذوات الذين يحبون تدليع أبنائهم وكلابهم بنفس الأسماء.

ثالثاً: اسم ديدو يوحي أن صاحب هذا الاسم من الشبعانين المتوردي الوجوه.

رابعاً: إن وقع اسمي الجديد على أذني سوف يبهج نفسي ويفرحها ويجعل حواسي خدرة ومسترخية. وأعود إلى نموي الطبيعي أسوة ببقية الأولاد الذين تنمو أجسادهم بصورة متناسقة مع رؤوسهم، خلافاً لما يحدث لي. فجمجمتي تنمو باطراد على حساب جسدي حتى أصبحت وكأنها مركبة تركيباً، وليست لي. نمويّ الغلط هذا، كان مصدر ذعر للذوات الذين كانوا يستغفرون الله ويتعوذون من الشيطان الرجيم عندما كانت أبصارهم تقع علي. ويقولون عني أنني من جيل ياجوج وماجوج الذي سيغزو العالم مثل الجراد ويغرقه في الخراب. متجاهلين السبب الرئيسي لنموي الغلط.

أرنو إلى البيت المجاور لبيتنا. أحبس أنفاسي، يتحشرج صدري ملهوفاً وأنا أترقب خروج صاحب البيت ليحييني بابتسامته العذبة التي كان أنسها يبهرني. لم يسبق لي أن رأيت في حياتي ابتسامة فيها كل هذا الضوء. وأيقنت أن هناك شموساً أخرى غير الشمس المعلقة في السماء. كنت أعرف أن الجار الذي أترقب طلته كل يوم منذ ساعات الفجر الأولى، سوف يناديني بصوته الرخيم ذي البحة الحنون، والتي أحببت اسمي الجديد من خلالها:

– ديدو..

وأركض إليه كبرق، وأنا أقصف من شدة الفرح.

يتأملني حزيناً، يربت على كتفي، وأحس أنني أسبح بمياه دافئة.

يطلب مني جاري أن أشتري له الصحف، وينقدني ليرة ورقية تطقطق من جدتها. كمكافأة.

كان جاري يلقب بـ "أبو سعدى"، ولكن الجيران قالوا هذا اسمه الحركي.

وسواءً كان "أبو سعدى" اسمه الحقيقي أو الحركي، فأنا أحبه بهذا الاسم أو غيره. إضافة إلى الشموس التي كانت تسطع من ابتسامته والحنان الذي كان يقطر من يديه وصوته، فقد أجاد "أبو سعدى" الرسم، وكتابة الشعر، وصيد العصافير. وعندما وقعت الحرب الأهلية. كان "أبو سعدى" مستغرقاً بهذه الأشياء كلياً.

وقال له أهالي القرية:

لابد من الالتزام الفعلي يا "أبو سعدى" الكلمات تخرس، والألوان تبهت عندما يلعلع الرصاص.

انخرط "أبو سعدى" في صفوف المقاتلين، وكان أكثرهم جرأة وأشدهم حباً.

باعتباري أمياً لا يعرف القراءة والكتابة، ولا يفقه شيئاً من كلام الصحف، كنت أنتظر "أبو سعدى" ليسرد لي الأخبار الهامة بطريقته الخاصة. كنت آمل أن تنقشع غيوم الحرب وتنفرج الأحوال، ونعود إلى بيتنا وأرضنا وبقرتنا التي تركناها حاملاً في شهرها الأخير. لن نتذوق شمندورها، ولكن لا بأس، سنتذوق حليبها الدافئ، وأضع فمي على ضرعها.. وأشفط. أدعو إلى ربي أن تكون ضروعها سالمة من الشظايا والتقرح.

يقرأ "أبو سعدى" أفكاري، ويقول لي:

لا يصح إلا الصحيح يا ديدو.

ثم يحدثني عن دوره في هذه الحرب:

أنا لست قاتلاً. من أجلك يا ديدو، ومن أجل كل أطفال القرية أحمل "الكلاشين". لم أقتل أحداً، ولكني لن أقف مكتوف اليدين إذا ما تعرضت قريتنا للخطر.

ثم يطلب مني أن أقبع إلى جانبه ساكناً حتى يصطاد لي عصفوراً. أستجيب لطلبه، وأقبع ساكناً مثل الخلد. أتأمل الصنوبرات الشامخة، وأتمنى أن أكون شجرة. أناجي ربي ليسوق لي عصفوراً سميناً إلى شجرة قريبة. ترفرف "بوبانه"[١] وتحط على بلانه يابسة. يسدد "أبو سعدى" ويضغط على زناد البارودة وتخر "البوبانه" صريعة ممزقة. أركض فرحاً ألتقطها. أضمها وأشمها وأقلبها بين يدي، وأهم أن أبتلعها بريشها وبحبات الخردق التي جندلتها يأتيني صوت "أبو سعدى" معاتباً:

- لا يا ديدو.. لن تتذوق طعمها إذا أكلتها بريشها. انتفها أولاً ثم اشوها على النار. لأكل "البوبانه" طقوسه يا ديدو.

ويناولني رغيفاً.

أمسك "البوبانه" بيد، والرغيف باليد الثانية. أشويها، وأدسها بين الفينة والأخرى بالرغيف حتى لا يذهب شحمها ودهنها هدراً.

بعد الشي.. كان قلبي ينقبض. "البوبانه" تقلصت وتحولت إلى حبة زيتون صغيرة. ألفها بالرغيف حزيناً.. وأقضم. وأتذوق لأول مرة نكهة العصافير.

قال لي "أبو سعدى": إنني موهوب في الرسم. وأعطاني دفتراً وأقلاماً ملونة. ووعدني أن يحضر لي عند عودته "مشكاكاً" من العصافير.

رسمت أرغفة خبز.. وبقيت جائعاً.

خيم الليل و"أبو سعدى" تأخر.

وما عاد بعدها إلى داره أبداً.

دمشق/ ١٩٨٠

---

(١) **البوبانة:** أصغر أنواع العصافير.

رقية

-١-

كبرت إلى الأربعين. عدت لتوي من المشوار وأنا ألهث. مسكت أنفاسي، وتذكرت أنني عشت.

ياسين في زنزانة. وأنا في زنزانة.

في يوم.. في عام.. في فرح. سيشملنا العفو والبراءة.

ويأخذني ياسين إلى البحر. وتزفني النوارس والأمواج إليه:

- مبروك عليك ياسينك يا رقية.

ونفرح.. ونضحك في عناق الموج المتحرر من أعنّة الحصار.

-٢-

أنا رقية التي كانت تخاف من حالها وخيالها وتسكنها رعدة وتتعثر بلسانها ونظراتها ووجيب قلبها، وتحب عرائس الجبصين والأراجيح والطابات والبحر والنجوم وشرائط الحرير الملونة المعقودة على مزارات الأولياء، وترتدي مريولها الأزرق ولحم قدميها في فصول الدنيا الأربعة (كانت عمتي بهية تخيط لي مريولاً في كل موسم برد. له جيب كبير في وسطه، وكنت أختلس النجوم كل ليلة وأحشرها فيه. ويحترق من شدة حرارتها ولمعانها. وتوبخني عمتي:

- أحرقت جيب مريولك يا رقية يا شقية. متى تكفين عن هذه العادة ؟

ولا تصدقني عندما أحكي لها عن نجومي التي أحرقته.

وحده كان ياسين يصدقني.. وأنا أيضاً كنت أصدقه عندما يحكي لي عن البحر ومدنه المسحورة القابعة في أجواف الحيتان).

الكبار لا يعيرون أفراحنا أية أهمية، ويمدون المسافات المزروعة بالقفر بين بعضهم وبيننا.

كنت على جهل مطبق بالأسباب التي جعلتني مرعوبة. إلى أن قالت لي أمي ذات يوم إنّها لم تنجبني من بطنها.. وإنما من زفراتها.

وياسين قالت له أمه الكلام ذاته.

وهكذا كان:

عندما خلقني الله كان مستعجلاً جداً لم يقصد بي شراً، وإن كان قد وضع قلبي مكان عقلي، وعقلي مكان قلبي. فلأنه مثلي.. مغرم بالطابات والعرائس والأراجيح والبحر.

-٣-

أنا التي كانت رقية الصغيرة.

كبرت أربعة عشر عاماً. بدأ البرد يجمد يدي.. ولا أستطيع أن أفردها كحمامة لأمسك الطابة وحبل الأرجوحة وقلبي الخائف. وأطويها على حنان كان من الممكن أن يكسبني طراوة النمو إلى أعلى. كما أنني ما عرفت البحر الذي حكى لي ياسين عنه. لذلك لم أتعلم السباحة وبقيت أغرق في شبر ماء. ويتوحل مريولي ووجنتاي وأهدابي. أصلي بقلبٍ محروق كي تصبح العيون من حولي بحاراً فيروزية، تخلصني من لعنة الخوف والوحل وقصوري. أما عن النجوم.. آه.. سرقها العسكر مني وغطوها بالتكنولوجيا والدخان. وكانت العجوز أم شاهين كلما سمعت هدير طائرة، ترفع ظهرها المكسور وعينيها المزمومتين إلى السماء.. وترثي زرقتها في عيني.

- يا لطيف.. أخر وقت.. القيامة أقرب إلينا من أنفاسنا.

وهكذا..

استبدلت بالنجوم البعيدة القبور القريبة. لم أجد صعوبة في ذلك لأنني زفرة. ما عاد احترق جيب مريولي. رائحة شواء سكنت أنفي بقيت طويلاً أجهل مصدرها.

.. ربما كان كبدي!!

كان بيتنا يطل على المقبرة. وكانت المقبرة مدرستي وملعبي. وقبورها دروسي وأساتذتي. تعلمت القراءة والكتابة من شواهد القبور البيضاء المنقوشة بالمراثي ذات الحروف السوداء. وحشتي وفضولي دفعاني إلى التعلم والاجتهاد، كي أتعرف على هويات الناس الذين يرقدون بصمت. ولا يتثاءبون أو يتهامسون أو يحلمون.

وأجدت نسخ المراثي الحزينة على ظهر أوراق النعوات التي كنت أعثر عليها في المقبرة. وكان خطي جميلاً.. لا يقل إتقاناً وجمالاً عن كتابات الشواهد. حتى أنه أصبح بإمكاني أن أكتب مرثية لنفسي:

(هنا ترقد رقية التي ما عرفت البحر... عارية من مريولها الأزرق).

كم أحببت هؤلاء الناس الصامتين الذين علموني القراءة والكتابة بالمجان! ولم يهزؤوا بي أو يضربوني أو يتهموني بالغباء والجنون.

ذات صباح، قبل أن أنطلق إلى يومي، وجدت بقع دم على سروالي. أخافني الدم! وأظلمت الدنيا في عيني:

- ستموتين يا رقية. لن تكون لك شاهدة بيضاء تعرف ؟؟ ولا آهة في مرثية. الزفرات يا رقية لا تؤرخ على شواهد القبور. تضيع في الهواء. شهقة. عجلي إلى المقبرة ونامي فيها.. أصبحت ميتة.

في طريقي إلى المقبرة. كان إحساسي أنني ميتة. ونسيت قلم الكوبياء الذي كنت أنسخ به المراثي. خفقة بحرية وشوشوت قلبي وحملتني إلى غرفة صغيرة تقع في مدخل المقبرة يسكنها الشيخ مسعود الذي يسهر على راحة الأموات ويحرص عليها. تمددت على أرض الغرفة... وأغمضت:

- بسم الله الرحمن الرحيم.

وكان صوت مسعود يأتيني من وراء موتي.

رفعني مسعود عن الأرض ومددني على طراحة.

– لا أريد أن أموت... أرجوك يا شيخي افعل شيئاً من أجلي حرام أن تموت البنات قبل أن يتعلمن السباحة ويكتشفن المدن المسحورة في أجواف الحيتان. "اقترابي من الموت الذي يخصني وحدي فجرّ حنيني للبحر".

– العني الشيطان يا ابنتي.

– رقية.

وسكب مسعود ماء في طاسة قرأ عليها أكثر من ساعة بشفتيه. وكان يتأملني بحواسه الخمس حتى تعب. سكب الماء فوق رأسي وسال على وجهي وعنقي ومريولي واستقرت بضع قطرات منه في سرتي.

شهقت:

– يا إلهي... أنا عندي سرة!!

وكان إحساسي بهذا الاكتشاف.. مدهشاً. المياه أنعشتني، وشعرت بالخدر من تأثير مشاعر تتدافع مثل أنفاس الجياد الراكضة. ثم لا تلبث أن تنطحن وتتفتت كالصخور تحت ثقل عجلات مدحلة قاسية.

نظرت إلى النافذة حيث كنت أجلس متأملة القبور.. وكانت بعيدة. أبعد من المسافة الحقيقية التي تفصلها عني.

– يجب ألّا تموتي يا رقية الآن. أمامك مشوار طويل. لا تصدقي الكبار الذين ينشفّون بحرك ويهدّون مدنك المسحورة. ياسين أقسم لك أنها موجودة، وعندما يعود سوف يحضر لك لؤلؤة منها.

– ستبرئين يا رقية.

قال مسعود وهو يحدق بي.

ركضت كأنني أتخلص من كابوس. أمرجح رأسي في الشمس.. وأحتار:

كيف تنقلب سحنة الإنسان من حمل وديع فمه عشب. إلى وحش فمه لحم ودم ؟

اختبأت بين القبور الشاهقة التي كان مسعود يفرش فوقها مظلة خضراء كلما توسطت الشمس كبد السماء، حتى لا تبهت مراثيها وتذبل أعشابها وزهورها. لمحت امرأة عجوزاً، ربما في الثمانين تناجي قبراً.

قلت: مسكينة.. لا بد من أنها وحيدة.

كان هناك شاب، ربما في العشرين، يتلصص على المرأة العجوز. ملابسه مقطعة ومبقعة بالألوان، ويحمل سطلاً بيده. هاجم الشاب المرأة وعراها من ملابسها ودلق السطل فوقها، وكان فيه دهان زهري اللون، أصبحت العجوز عروساً.

– سوف يطرشونك يا رقية مثل الجدران عندما تصبحين عتيقة.

لم تعجبني الطريقة التي طرش بها الشاب المرأة العجوز. الجدران تطرش بتأنٍّ ومهارة. لماذا تطرش العجائز بفوضوية ؟

أرخى الشاب سرواله وانبطح فوق العجوز. لم تصدر عن العجوز أية مقاومة أو احتجاج. ربما لأنها متعبة، وهو لم يتعب بعد، أو ربما عقد لسانها الخوف. أو ربما.. ماتت!!

كدت أن أصرخ. تداركت الأمر وأغلقت فمي بيدي. رفع الشاب سرواله وفتح حقيبة المرأة وأخذ محفظة نقودها وهرب. صرخت المرأة واستغاثت. كدت أن أهرع إليها (لكي أفهمها أن الشاب أخذ أجرة الطرش، وأنّ كل شيء بثمن). قوة كانت تدفعني لأبقى بعيدة عن مشاكل الأحياء لأنني لا أفهمها. وليس عندي مقدرة أو سلطة على حلها. عندما جاء الشيخ مسعود كانت المرأة تنتحب. ورمى جلبابه عليها.

– كنت عذراء. اغتصبني مجنون مهووس، وسرق نقودي.

تسللت إلى البيت وأنا أشك بصحة ما رأيته لأنه كان أكبر من مجال رؤيتي ومقدرتي على الفهم.

كانت أمي تقرفص أمام طبق الغسيل والعرق يتصبب منها:

– تعالي ساعديني. أصبحت بطول الحورة "طول وهبل".

كنت جائعة ونسيت بقع الدم. تناولت قصعة الفخّار وذهبت إلى ولي مبارك مقامه أخضر وعمامته خضراء. وقفت ضمن طابور الناس بأدب إلى أن جاء دوري، وملأت قصعتي بالحساء الساخن الذي كان يوزع مجاناً على الجائعين من قبل أصحاب النعم. وأنا في طريقي إلى البيت لعقت من الحساء حتى لا يندلق. تغمس أنفي وسال على ذقني أدامه ورسم دائرة بنية حول فمي.

- أنت بنت فجعانة.. تباً لك.

قالت أمي وهي تتناول القصعة من يدي وتنظر إلى وجهي. تقلصت شهيتي للأكل.. وما عدت راغبة في المزيد.

في الليل آلمتني بقع الدم اليابسة على سروالي. نزعته ومشيت همساً على رؤوس أصابعي. فركت البقع بالصابون والماء. وبقيت في مكانها ثابتة الألوان. شهقت بالهموم والبكاء. سمعتني أمي ونهضت وخطفت السروال من يدي.. وزغردت.

- أصبحت عروساً يا رقية.

ومنذ ذلك اليوم الدامي. منعتني أمي من الخروج لأنني كبرت إلى الأربعة عشر مثل القمر.

بعد أيام اشتاقت إلي المقبرة. وجاء مسعود إلينا، وقبل أن يدخل همساً في موضوع يخصني. بشر أمي أن مأواها الجنة مثل كل النساء الصالحات الصابرات. غمزتني أمي حتى أخرج من الغرفة وأحضر إبريقاً من المياه الباردة لعمي الشيخ مسعود، الذي كان عطشان ويغص بجفافه.

قال مسعود لأمي: يشرفني أن تكوني حماتي.

وكان من الواجب أن أفرح لهذا النبأ لأنني سوف أكون قريبة من المقبرة وذات شأن فيها. بل ربما نصبت نفسي ذات يوم ملكة عليها.

ياسين كان ينغص علي هذا الفرح.

قرقرت المياه الباردة في حلق الشيخ مسعود وتدفقت إلى جوفه كأنه قربة ضخمة، وكركر بطنه.

اشتقت إلى الحمار وهو يدلي برأسه إلى الماء ويعب منه بصمت.

- ٤ -

أنا رقية المرعوبة. كبرت إلى الثلاثين في بيت زوجي مسعود. وكان عندنا غرفة للنوم وغرفة للخبز اليابس.

لم يمنحني مسعود ولداً. وما أطعمني في يوم من الأيام رغيفاً ساخناً.

الذين يشتغلون بالمقابر ويجاورون الأموات.. يحملون برودتهم وعقمهم. وفشل مسعود رغم جهوده الكبيرة في هذا المجال. أن يعوض الذين رحلوا عما فاتهم من متع.. وخصب.

لم أتذمر. أنا شهقة. رائحة شواء تسكن أنينها.

مسعود قدري. الله وأمي اختاراه لي. رضخت لمشيئة من هم أكبر مني.. وأقوى. مسعود معه نقود وشحيح. كان القرش الذي يدخل جيبه لا يخرج منه أبداً. وكنت أذكره أننا محكومون بالموت، وأن الموت تجربة لا بد أن يمر بها جميع البشر، وعندما نموت لا نأخذ معنا سوى "قطنة" صغيرة يسدون بها منافذ أبداننا. وأتضرع إليه كي يشتري لي رغيفاً ساخناً، وكان يتجاهل تضرعاتي وأنيني وصوت الفئران التي تبدأ قرضها للخبز اليابس في الليل. وكان يغيظني عندما ينكر وجودها.

شكوت همي إلى أمي. أحضرت لي قنينة سم الفار من عند العطار. ودفعت ثمنها من عبها. دهنت الخبز اليابس بالسم ووضعته على عتبة غرفة المؤونة. وكنت أمني نفسي في ليلة هادئة زاخرة بالأحلام. لم أخبر زوجي لأنني كنت متأكدة أنه سيعارض هذا الإسراف والهدر.. وينكر وجود الفئران، وطوال الليل بقيت الفئران تقضم: تراك.. تراك. وما أغمض لي جفن، وندبت سوء طالعي.

في الصباح كان زوجي مسعود ممدداً على عتبة غرفة المؤونة وفي فمه قضمة خبز يابس عليها سم فار!!

حزنت عليه، وبكيته كثيراً وتقرح وجهي. حتى ولو كان لا يشبه أبي الذي مات قبل أن أعرفه. مسعود كان "عشرة عمر". والعشرة لا تهون أبداً على رقية المرعوبة.

بعد يومين من موت مسعود، دشرت في المقبرة على هواي. تذكرت المرأة العجوز التي فقدت بكارتها بين القبور، وكان نزفي أغزر من نزفها..

الدنيا ليل. انظر إلى تيه النجوم في السماء. ناداني صوت:

– رقية.

برقت نجومي وشممت رائحة البحر. خفت من هذه النشوة المفاجئة.

لا أحد يعرفك يا رقية.. من يناديك في الليل ؟

– رقية.

ناداني الصوت ثانية. التفت، وكان ياسين.

غاص قلبي، وتفجر حنيني للبحر.

– أنت أنت يا رقية. هل تذكرين عندما كنا نركب خشبة ونتخيلها حصاناً ونطير؟

عيب يا ياسين أن تهزأ بامرأة كبرت إلى الثلاثين.

– أنا لست رقية.

أنكرت نفسي وأصررت على إنكاري.

– التي كانت تخاف من حالها وخيالها لا تكبر أبداً يا رقية. ما أتعس الناس الذين ينكرون أنفسهم أمام أصدقائهم!

كشفتني يا ياسين!! يا لقلة حيلتي ووهن دثاري.

اختبأت خلف جفني.. وبكيت. اقترب مني ياسين ودس في كفي لؤلؤة. وكان بياض اللؤلؤة يرتعش ضوءاً وينعكس على حزني ويشتته.

تركت ياسين يمسكني من يدي. ومشينا طويلاً حتى تعبنا كان يحدثني عن البحر والجزر المحشورة بالنوارس والمحارات وشباك الصيادين.

وحدثته عن الخبز اليابس والفئران والسم.

أخذني إلى بيته، ونمت على الكنبة ونام على الأرض. في الصباح كنت منشرحة، لأنّ بيت ياسين مرسوم بألوان الأحلام والبحر. ناولني ياسين رغيفاً

ساخناً كان قد أحضره لي قبل أن أصحو من النوم. لفحتني مواسم الصيف والحنطة ودحرت رائحة الشواء التي سكنت أنفي.

عندما خرجنا سوية، قذفنا الناس بقمامة ألسنتهم وفضلاتهم. واسمعونا كلاماً أحسست بثقل وقع معانيه التي كنت أجهلها.

ياسين بجانبك يا رقية.. لا تخافي. ماذا يهمّ إذا كان العالم ضدك؟ وعدك أنه سيأخذك إلى البحر، ياسين لا يكذب. هيا أسرعي الخطا ولا تبالي.

في الطريق اعترضنا رجال لا نعرفهم.

– أنت رقية ؟

–....

– تنامين عند عشيقك ولم يمض يومان على وفاة زوجك ؟ كان يجب عليك الدخول في "العدة" مثلما تفعل النساء الفاضلات.

– من تقتل زوجها بمساعدة عشيقها تستحق الشنق.

حاول ياسين أن يخبرهم بأنني لست رقية التي يبحثون عنها.. ولم يصدقوه.

ووضعوا "الكلابشات" في أيدينا.

دمشق/١٩٨٥

أبجدية الذاكرة

(قصص)

الكابوس

أنا «الشهلا»..

زرقة البحار تشوب سوادي.

قلبي يخفق كسربٍ من العصافير.. وجيبه أعلى من صوتي.

أرسم له طائرة ملونة بذيل طويل وفضاء من حلم لأخفف من عناء صخبه... و يرقص على هواه، وينخرط في سرب الطيور المهاجرة إلى ضفاف معشوشبة الحنين.

أحمد الله صباحاً ومساءً لأنه خلقني (في أحسن تكوين) وأعطاني كل هذا الزخم من الصبر والدموع و بعض الومضات الواجفة من الجنون والفرح الكوني.

أنا (معيوبة)، والحلم من أكبر زلاتي القاصمة. أحلم أكثر مما أمشي وأنام، شاردة الذهن دائماً مشدودة إلى وهم ما متأصل في خلايا روحي وحبيبات جلدي، مزيج من ملح ورحيق، وغالباً ما تفوتني تطورات الحياة من حولي، وإذا ما فاجأتني عجلة الزمن في جنونها وانطحانها.. أحزن وأكاد أن أصعق كلياً من غفلتي وقلة حيلتي. أتحول إلى فم أبكم يطلق عواء مبهماً لا ينتمي إلى فصيلة الكلاب.. أو البشر!

أمشي إلى حلمي همساً على رؤوس أصابعي وأنا مسبوعة بنداءاته العارية، وفي لحظة اشتعال وامض منفلت عن الرصد عيّرتني نجمة بسوادي وهي تغمزني بعينها.

تحدّيتها واقفة، لبست تاجاً من الغيم، وتأبطت صرّة ملابسي وأشواقي وحنيني واتجهت صوب المدينة. ما التفتّ أبداً إلى الخلف حتى لا أتسمّر في مكاني.. وأبكي! كان الأفق يفتح لي ذراعيه و يناديني:

ربما صادفت حبيبي في أحد منعطفات المدينة أو على سقالات عماراتها يدهن واجهاتها ويلونها بالربيع.

حبيبي يحب الربيع وأنا مثله تنفرني الأشياء الواجمة.

أعوام من الشوك وأنا أنتظره على وخزها. كان قد وعدني وهو يقسم بشرفه و شاربيه أن يعود ويتزوجني على كتاب الله وسنة رسوله بعد أن يجمع مهري و ثمن (مرقد عنزة).. وننام على وسادة واحدة، وإذا كان يشخر في نومه لن يضايقني شخيره فالشخير سمفونية التعب وهو مكمل لوجودي و متناغم مع إيقاعاته. أقسم أنني لن أشكو من ذلك أبداً ولا من صوته المكدود الذي يطالبني أنا وحدي بما يخجل أو يخاف من مطالبة الآخرين به «عجاج» مطحون ومتخلخل، ومن واجبي أن أفعل أي شيء من أجله ليبقى فارسي وخيمتي وستري.

لم يسبق له أن كذب عليّ، فهو يعشقني وأنا أعشقه أكثر، واشتقت إليه أكثر، واشتقت إليه أكثر مما أشتاق لأي أحد حتى لو كانت أمي التي حملتني في بطنها تسعة أشهر.

ركبت حافلة صغيرة لونها أسود وخصرها محزوز بشريط أبيض. دفعت للسائق بعضاً من قروشي التي كنت قد جمعتها من تحويش الزيتون والحصيد وشغل الإبرة والسنارة جلست على مقعد مبقور المساند، وعلى ظهر المقعد المقابل، خربشات، حروف وأسماء وقلوب تخترقها سهام والدم ينقط منها.

أوجعني قلبي..

ودواليب السيارة تأكل المسافات مثل دواليب الحلم.السفوح والمنبسطات والوهاد تدبر لحظة قدومها هاربة من عيني. هياكل الأشجار المحروقة تثير فيّ أشجان العالم، يوجعني سوادها، احترقت ولا تزال شامخة الكبرياء، شاهدة بكماء تنطق بأهوال الزمن الذي مرّ عليها. كأنها جوقة من النساء الأرامل تشدو مراثي الخصب وأعياده الماضية، جزر صغيرة لشجيرات محسورة الخضرة تنبثق من سواد الاحتراق لتؤكد على قوة الخصب واستمراره.

دهشت و تلعثمت مشاعري بدفقات من السخونة المتفجّرة في الشرايين. لم أتوقع أن تكون المدينة بمثل هذا القرب.!

الجهل بالجغرافية ليس عيباً لامرأة قروية مثلي.

في أول المشي وأول النطق كانت حدود قريتي هي حدود العالم، واليوم محت دواليب السيارات ومحركات الطائرات الحدود. ضاعت قريتي في المسافات وأنا لا أحمل ساعة في معصمي أو بوصلة في جيبي، ولا نعلق على حائط بيتنا ساعة تتكتك برتابة تأكل الأعصاب لتنبهنا إلى موعد الركض. شروق الشمس وصياح الديك ساعتنا وكدّنا.. غروبها نومنا.

قلت، المدينة جاءَت إليّ، شوقي إلى حبيبي قرّبها مني.

كان المساء يرخي شعره الأشيب والحافلة تتلوى في جبّ ضيق، عماراته الشاهقة تكتظ على جانبيه وترمي بظلالها الموحشة على جسده المنخور بالحفر.

علق أحد الركاب قائلاً:

مصير القرى أن تلتهمها المدينة. المدينة تأتي إلى القرية في اكتظاظ البشر و نزقهم و حبّهم للتفرد والسيطرة. لا أحد بات يطيق العيش مع أحد حتى مع نفسه.

قال آخر:

التراب حنون أقرب إلى طبيعة البشر من الإسمنت والحديد لأنهم مجبولون به، الله خلقنا من حفنات التراب أصفر وأحمر وأسود وأسمر. كنت أصغي وأتعلم لأناقش عجاج في مثل هذه المواضيع ليعرف أنني أعرف.. وجديرة بحمل أسمه.

ترجلت من الحافلة، مشيت وأنا ضائعة. توقفت عند منعطف متعدد الاتجاهات، سويّت هندامي ونفضت الغبار عن تنورتي ولمعت حذائي بأذيالها الطويلة.

كنت عطشانة.

ترى أي الدروب يقودني إلى حبيبي؟ كانت جدتي تقول (كل الدروب تؤدي إلى الطاحون) وفي المدينة لا يوجد طاحون على حد علمي. «أم محمود» جاءت

إلى المدينة قبلي بسنوات طويلة ولفظت أنفاسها وهي (عالسلم) بينما كانت تصوين حيطان بيت الست زمردة.

أغمضت عيني وعددت للعشرة. قلت، سأسألك أول طريق تحط عليه نظراتي، انحرفت إلى اليسار ومشيت بخطى ثقيلة ومترددة، لم أتجرأ أن أسأل أحداً عن حبيبي.

الوجوه كابية ورمادية كأنها بلا طفولة أو أحلام.

في المدينة لا يسلم الناس على بعضهم!

تعبت من المشي وكانت الشمس على وشك الغياب. وجدت نفسي في حديقة. أشجار وقمامة ومقاعد خشبية مخلّعة وبركة ماء آسنة تتوسطها نافورة تنفث قطرات شحيحة.

تربعت فوق العشب، فردت صرّتي وأكلت (منقوشة كشك) غصصت لأنني كنت عطشى ونافورة الماء بعيدة عن فمي لا تصل يدي إليها مهما مددت جذعي. غطيت فمي بمنديلي وعببت من البركة حتى أرتوي. جاشت نفسي وعافت الأكل. أخرجت صورة (عجاج) من عبّي كانت نديّة ومدروزة بدقات قلبي (والخال) بشعيراته المجعدة على كرسي خدّه كان ممحّواً! توسلت إليه أن يأتيني بسرعة و يضمني إلى صدره قبل هبوط الليل لأنني خائفة:

أضواء النيون المعلقة على أسطح البنايات تضيء وتنطفئ بسرعة يعكس ضوؤها أطيافاً قزحية تمتد إلى مسافات بعيدة تنبض بأسماء من نور: برادات، غسالات، ويسكي، دخان، شامبو. وقبل أن تلفظ هذه الأسماء أنفاسها وتتلاشى تشحب الأشياء وتموت الظلال وتنتابني وحشة.

عيون المدينة لا تشبه عيون قريتي فهي ملفّقة الانبهار مستعارة البهجة... وعيون قريتي نجوم صغيرة تضيء دروبها وأحزانها وتصبغ جفونها المتعبة بالأحلام.

كانت أمي قد حذرتني من المجيء إلى المدينة:

ما ذنبي إذا كان نداء قلبي أعلى من صوتها وأكثر إقناعاً من كل تحذيراتها؟ ليس في بيتنا رجل. هجرنا أبي وتزوج بأخرى أكثر شباباً ونضارة

من أمي، وكلبنا (سعران) بعوائه الليلي المسحوب من ذاكرة الخوف يعمق سراديب وحشتنا.

تئن الجدران وتتقشر في غياب الظلال الوارفة. ظلّ الرجال يلونّها بالتفاح، ولابد أن ألقى حبيبي ليوسدني أنفاسه، أنام متوردة في خميلة العطر وأحلم أنني ملكة الفراشات.

خيّم الظلام وهجم البرد. وخزتني عظامي، التففت بتنّورتي وضعت صرّة ملابسي تحت رأسي وتكومّت على بعضي. كأنني سمعت وقع أقدام تقترب مني يرافقها أنين مخنوق وضحك مبتور من مكان سحيق كأنه خارج الزمن.

سقسقني الخوف دالية ممحولة العناقيد. عطست وخرّت أنفاسي من البرد. غفوت.. أو هكذا خيّل لي.

رجلان يرفلان بزعانف أسماك القرش، ينتعلان أحذية مطاطية سوداء هامسة ومتفرعة النهايات تشبه (شفاطات) الأخطبوط.. فاجأني وأنا وسنانة. نهضت كمئذنة وأنا أخفي خوفي تحت جلدي و كان التيه يرتشف قطراتي ويقصف مفاصلي.. ويشوّشني. ربطت جأشي كما تعودت أن أفعل كلّما سمعت صوت (الواوي) يزحف من عمق الليل إلى وسادتي.

اقترب مني أحدهم وشفط وجهي بنظراته. طلب مني بلهجة قرشيّة حادة الأنياب، هويتي ووصفاً دقيقاً للبطن الذي حملني والأصابع التي دغدغته والظهر الذي أنزلني والعلامات الفارقة لكل منهما والتي يمكن أن تشوّش السمع والبصر والذاكرة!

فردت صرتي وتظاهرت بالبحث عن هويّتي التي كنت واثقة أنها محفورة على جبيني.

قلت: لقد أضعتها و أنا في طريقي إلى المدينة...

توسلت إليهما أن يتركاني وشأني، فأنا طوال عمري لم أقترف ذنباً بحق إنسان أو نملة، وكل ذنبي أنني عشقت حبيبي.

أما بخصوص العلامات الفارقة للبطن الذي حملني والظهر الذي أنزلني. أبي له شاربان وفي شفته السفلى آثار ندبة خلفتها رقصة السيف والترس التي كان يرقصها مع عديله في الأعراس.

كان مولعاً بالفروسية والنساء وشرب العرق وأمي كانت على نقيضه تماماً، مزمومة ومصرورة ومتأزمة مع أن بطنها كان أبيض ومستديراً ورخواً كالعجين الذي كانت تعجنه جدتي في الليل وترسم تعاويذها على سطحه للبركة:

بطن أمي في غاية الحنو والجمال إلى درجة أنني أحببت الإقامة فيه إلى الأبد!

سألني الرجل: ألم تلاحظي علامات فارقة في تكويره وبياضه؟

كأنه يعرف بطن أمي و شاهده عن كثب!! لذلك لم أكذب عليه وقلت:

أجل.. كان هناك حبّة زيتون سوداء مختبئة في تلافيف السرة تنضح زيتاً باستمرار، وأنا صغيرة كنت أرفع ثوب أمي وأغمس لقمتي بها أيام القحط كما كان يعرف أبي.

يبتلع الرجلان جحوظهما المندلق كأحشاء متورمّة:

كأنني سمعت دوي انفجارات لبراكين و عواء لم يصل إلى حد الزئير أو الألم!

يرفع أحدهما صراخه على رمح صوته:

وأنت.. هل لديك مثل تلك الزيتونة ؟

لا..

كذبت ولم أخبرهما عن (كبش) التوت الشامي الذي يغطي حلمة ثديي الأيسر و كانت أمي في أحد الأيام وهي تحممني قالت لي إنني عندما كنت في بطنها ركبتها شهوة التوت الشامي في عزّ البرد غامت عيناها وحكت ثديها عن غير قصد و نبتت ثمرة من التوت مكان الحك على جسدي.

قولي الحقيقة.. ألا تخفين شيئاً تحت ملابسك ؟

لا أملك سوى جلدي ورائحتي وبعض الجراح المنقوعة بماء القلب!

ويحك يا امرأة تتحدثين بالألغاز والشمس تضحك لنا كل يوم وتمنحنا الصحة والبركة والسعادة ؟

مزقا صرتّي وبعثرا محتوياتها. التقط أحدهما صورة حبيبي قربّها من عينيه وسلط مصباحه الكهربائي على وجه (عجاج)

كأنني رأيت هذه الخلقة من قبل.

وبلهفة عارمة كأمواج البحر قلت:

أرجوك أن تدلني على مكانه

ضحك ضحكة ماجنة شاركه فيها زميله:

قلت إنّك امرأة خالية من العلامات الفارقة دعينا نتأكد بأنفسنا من ذلك.

تعاونا على هتكي، شبحاني على الأرض خلف جذع شجرة يابسة. هوت قبضاتهما على فمي لتخنق صراخه.

انحسرت ملابسي عن فاكهتي المهربة. تلمظ الشفاه قبل أن تقضم ثمرة التوت الشامي وتقتلعها من شروشها. غبت عن الوعي ونسيت حكايا طفولتي ومواويل جدتي وسرّة أمي واسم حبيبي. سترت عورتي بأسمالي الممزقة، اتكأت على ما تبقى لي من طولي، لملمت ذاكرتي وأشيائي المبعثرة.

لم تكن صورة عجاج بينهما. سرت وأنا محلولة الرباط والجأش والشعر. كان ثديي المقضوم التوت يولول من آلام يتمه، وطريقي تحف به من جانبيه ورود حمراء زرعت في مساكب من الأعماق المرمرية. أثناء مروري بها نهض ثديي المذبوح من غيبوبة الألم. ضحكت الورود لي حتى تندّيت بالماء.

تركت خلفي تلماً من الورد.

١٩٩٦

من شباك السيارة

خفف السرعة من فضلك.

منذ ثلاثين سنة سقط رأي في هذا البيت العالي الذي كنت أخاف عليه من نسمة الهوا.

سنديانة وتينة شتوية و شجرة أجاص.. وبيتنا يتربع على مشارفها.

كان بيتنا..

الدرجات العشرون التي تؤدي إلى السطحية، معشوشبة.. رائحتها بحر وأقدام معروقة.

كنت أعشق نوافذ بيتنا المدهونة باللون الأحمر وخزانة جهاز أمي المسطحة المرايا وكتب أبي الصفراء المكدسة على سطحها والتي كتب على أغلفتها الداخلية تاريخ زواجه وميلادي وميلاد أخوتي ورحيل جدي.

هؤلاء الناس الذين يسهرون الآن على سطيحتنا ويتضاحكون كأنني لا أعرفهم ولا يعرفونني!

بيتنا عندما هجرناه خلّعت الريح أبوابه ونوافذه. يقولون إنّ ابن عمي استولى على البيت وشفط ذكرياتنا، سرق جهاز أمي ومزق كتب أبي ومحا تواريخنا، لأنني لم أتزوجه أنا، تزوج بابنة المرأة الشريرة التي حرضت زوجها على قتل أخيه.

رزق ابن عمي بصبيان وبنات وابنته الكبرى سقطت من أحد شبابيكنا الحمراء.. وماتت لأنه سرق بيتنا و تركنا بلا بيت!

١٩٩٠

غزالة

لم تتزوج غزالة!

شارفت على العشرين وكانت أجمل من القمر.

وفي قرية غزالة تتزوج البنات في أول سن البلوغ، وفي العشرين يصبحن زوجات وقورات وأمهات ناضجات.

حكاية غزالة حملتها الريح من الشفاة الهامسة إلى الأقاصي:

عامر باس غزالة من فمها وقرصها من زندها.

كانت غزالة في المخيّم الصيفي تغني للصغار وتعلّمهم رسم الشمس والعصافير.

وكان عامر هناك أيضاً.

خفق قلبها لفتوته وعضلاته المفتولة ونظراته الولهى المقدامة.

واستحلاها عامر.

ولأنهما كذلك انهارت قلاع الدفاع، الخوف والحشمة. صارت الشمس برتقالة والقلب عصفور.

باس عامر غزالة وحدث ما حدث.

طعم شفاه عامر تسرّب إلى دمها وصارت حرارة غزالة فوق الأربعين!

قالت غزالة لصديقتها: إنها غابت عن الوعي وارتفعت عن الأرض وصارت نجمة في السماء عندما باسها عامر.

كانت غزالة فرحة تخب مثل مهرة تتخر الغيم من أنفاسها.

حكت لأمها ما حدث لها وأمها أخبرت أباها الذي ثار وغضب وتجهمت غزالة كثيراً.

حبست في البيت ومنعت من المخيّم والمدرسة، وكان النوم يجافيها.. ويحترق جسدها كلما تذكرت عامر.

بعد ثلاثة أعوام صارت غزالة في العشرين.

ذهبت في زيارة إلى المخيم مع قريبة لها. التقت بعامر وتجاهلته في بادئ الأمر ثم سلمت عليه ببرود مفتعل.

قالت غزالة لقريبتها: خفت أن أقول له اشتقت إليك..

لقد كبرت غزالة و صارت تخاف من الحب!

١٩٩٧

خلود

مشطت الرمل بأصابعها، حفرت سطوراً وكتبت:

شاطئ ولا ضحك

بحر ولا صخب

بواخر ولا سفر

الحاضر يصبح أمساً

أسافر إلى السفر بالذكريات

سألها: ماذا تكتبين؟

أجابت: أكتب رسالة إلى البحر لتقرأها أسماكه وحورياته وأمواجه العزوبية.

قال: أريد أن أكتب رسالة إلى البحر ولكنني لا أستطيع ما لم تكوني بعيدة عنّي.

قالت: لماذا؟

قال: لا أستطيع أن أكتب عن البحر وهو يحتلني أحب أن أتنفّسه وأسرقه قطرة قطرة.

قالت: أرمي نفسي في البحر وأغوص فيه بلا عودة.

قال: أرثيك بقصيدة تخلّدك ملكة البحر والعشق.

ضحكت المرأة. فلشت جسدها على رمال الشاطئ، رنت إلى النجوم وقالت: أحبك.

عبأت السماء في عينيها وخبأت رائحة الرجل في حبلها السرّي. تحولت إلى جنية مسكونة بالأسرار والسحر.

نهضت إلى البحر كي تفسح المجال لحبيبها أن يكتب قصيدة تخلدها ملكة البحر والعشق.

سألها: إلى أين ؟

قالت: لو كنت أعرف أن موتي سيخلدني على هذا النحو لتمنيت أن أولد ميتة!.

١٩٨٦

صفصافة المطر

«لطيفة» يا ماسة الليل والأحزان.

حضورك أنس وانبهار.. وغيابك عتمة.

يا إلهي كم تشبهين اسمك أيتها المرأة الطيبة!

عيناك البحريتان وقامتك الصفصافة منارة حب في جنون العواصف وانطفاء المصابيح.

في العشرين كنت فجراً من طلّ وورود وعصافير. صبيّة الصعتر والنرجس والوزّال، تثاؤب العطر.

كنت كل هذا عندما هجرك الزوج.

في انحسار المدّ تموت القلوب والأحلام، وأنت صفصافة المطر وظلك هطول.

بعد هجران الزوج فقدت وحيدك في حادث سيارة.

استسلمت لقدرك قلت: الله يعطي ويأخذ متى يشاء.

وطريق الجنة يمر من خروم الصبر وشفاه الجراح، وبسنارتك السحرية تحوكين قفازات للعرائس من خيوط الشرانق. وتطرزين الحنان المهاجر والحب المفقود.

أشياؤك الصغيرة و البسيطة تنطق بك، دافئة و زخمة الحضور:

بساطك المقلّم بالأزرق والأصفر. طراريحك ومساندك فرشتك ولحافك ووسائدك، طبق القش المجدول من سيقان السنابل، صندوقك الخشبي ودستك

النحاسي وزلعك الفخارية. همس مجبول بصبوة العناق. روائح مسك تتكثف دمعاً مرصوصاً على جدران مخدعك الكلسية.

عندما كنت تعطشين تطلبين من (سلوى) ابنة أخيك أن تملأ لك الإبريق الفخاري من عين الضيعة، وكنت عن طيب نيّة «تتفّين» من بين لثتك الدرداء بصقة صغيرة على حجر أصفر لامع جاثم على باب مخدعك تستعملينه لرص الزيتون والقيلولة.

تقولين لسلوى:

إذا تأخرت في ملء الإبريق تجفّ البصقة وتدوِّد أذنك.

بين مخدعك والعين عشرة مصاطب زيتون وكروم تخص أخاك مصطفى الذي كان وحيداً على خمسة «أناتي». التركة آلت إليه مع معصرة الزيتون وكرم التفاح حقل اليمام.

تصدق عليك باستثمار ست شجرات زيتون و ثلاث دوالي بعد أن أكل كلام الناس وجهه.

تنطلق سلوى حافية القدمين تتخطى المصاطب وهي تقفز مثل الأرنب البريّ ، يداها الصغيرتان تعانقان الإبريق ذا «الزلومة» الطويلة لا تعير انتباها لعصفور يقفز أو نبتة بريَة اكتظت بطنين النحل. كما أنها لا تبالي بالأشواك والحصى التي كانت توجع قدميها وتدميها.

كان همهّا منصباً على ملء الإبريق بسرعة والعودة إليك قبل أن تجف بصقتك و تدوِّد أذنها. سلوى تحب أذنها وتخاف عليها، دونها لا تعرف اسمها الذي تناديها به الأشياء من حولها، شفاه الحكايا وحناجر الريح وعيون المطر وأغاني العصافير و الجنادب.

تقول سلوى: لا بأس إن جرحت الأشواك والحصى قدمي. جروح الجلد تلتئم بسرعة ولكن إذا ما أكلت الديدان أذني لن تنبت لي أذن جديدة وقد أبقى في العاشرة ولا أكبر أبداً. تعود إليك سلوى وهي ترشح بالماء من شدة ركضها، أول ما تحط عيناها على الحجر.«تفّتك» لم تجف فقاعاتها البيضاء بعد.

تقولين لها: عفاك يا شاطرة، تعالي.

تلحق بك، تهبط خلفك بضع درجات إلى مخدعك.

تفتحين النمليّة.. وتطلبين منها أن تفتح فمها وتغلق عينيها. رائحة عطر وتفاح وسفرجل وقرفة تخترق مسامها. تغرفين ملعقة من إحدى الزلع الفخارية وتصبيّنها في فمها. تذوب سلوى من طيب مذاقها وحلاوة طعمها.. تنتشي روحها بالسكرّ. تسألك عن اسم تلك الحلوى اللذيذة.

تقولين لها: إنها حلوى «أبلع وأسكت»!

«علّمك الزمن أن الأسئلة «ارتداد» يجلب النقمة، والأجوبة تتخطّى السؤال إلى يقين الأقوياء ولا تمس قلق السؤال».

١٩٩٢

الضيف المنتظر

داهمها المرض، زرع شفاهه المحمومة في أنحائها. نهب جسمها بالبثور من طول القعود. باتت في حالة تأهب قصوى وصحو دائم. لا يعرف جفنها طعم النوم أو الاسترخاء. كأنها مستنفرة لمهمة مجهولة غامضة تتطلب حضوراً ويقظة! كانت تخاف أن يأتيها الموت ويباغتها وهي مغمضة وهي كانت تريد أن تحدق فيه و تتعرف عليه وتتوسل إليه كي يرأف بحالها.

تمل من الاستلقاء، وتجلس على السرير مهدلة الكتفين محدوبة الظهر وقدماها تتدليان منها مثل لحى يابسة.

خمس وسبعون عاماً قطعتها «أم عبد الله» بالتمام والكمال كعجلة منهوبة بطاقتها الذاتية.. إلى دوران لا يعرف الكلل أو الملل. قطار تاه عن إشارات التوقف والوقوف ومحطات التزود بالوقود. لسانها المسنون بأقذع الألفاظ وأحطّها كان سلاحها الوحيد الذي تشهره وتدافع به عن نفسها على امتداد ساعات الدوران والصحو ونهنهة النكران والتعب.

دزينة من البنين والبنات كأنها أنجبتهم من كمها أو بطة رجلها. لم تهنأ يوماً براحة «النفاس»، دلاله وأفراحه وزغاريده ومستلزماته من الكراوية أو البوظة أو غيرها من الطيبات، تلك التي تتوّج أنوثتها بإكليل أمومتها المعطاءة. احتفال طقسي يريحها من عناء الحمل والولادة لمدة سبعة أيام على الأقل.. ولكن هيهات.. مثل هذا الترف ليس لأمثالها.

دائماً يأتيها المخاض وهي في معمعة انهماكها بالأعباء المنزلية يخرج الوليد منها مستعجلاً إلى النور، تلتقفه الأرض قبل وصول «الداية» ومنذ تلك اللحظة يصبح من مسؤولية الأرض. يتعلم الزحف والمشي والحكي والمشاغبة..

ويكبر، والبيت في غياب الاهتمامات الصغيرة يتحول إلى فوضى. فردات أحذية منثورة كالفطور من عتبة الباب إلى صدر البيت. ملابس وشراشف ومناشف مبعثرة في الممرات والزوايا، صراخ وزعيق يصدع الرأس. كان العثور على فردة حذاء أو جوارب أو قميص يتطلب خاتم المارد ليقوم بهذه المهمة الصعبة.

لأن «أم عبد الله مضنوكة» وهمّها منصب على الغسيل والطبخ والنفخ كان الأولاد يذهبون إلى مدارسهم في أغلب الأحيان دون كلسات.. أو يرتدون صدرية المدرسة على جلودهم مباشرة.

لم تلتفت أم عبد الله إلى عمرها.. مر كأنه منام.

كبر الأولاد وتزوجوا. مات أبو عبد الله، وفجأة بدأ البرد يرعش عظامها. الوحدة تجلب معها صقيع الموت والأمراض والآهات والحسرات.. والكل يهرب من «النق» إلى مشاغله. بناتها وزعن أدوارهن بينها وبين بيوتهن.

«و يا نَفَسْ طلع ما نزل». كانت أم عبدالله تخاف أن تموت في الليل وهي وحيدة. وتستغرق في ذاكرتها:

يخيّل إليها أنها جاءت من اليونان وعندما تموت ستعود إليها ثانية، تصف لبنتها وهي الأميّة جزر اليونان، بحارها وجبالها ومعابدها! وإلى أن يحين موعد الرحيل لا بد لها من الانتظار. تلقي شالها الصوفي المخّرم على كتفها تفرد كفيها في حضنها وترثي يديها:

حيف عليكما يا «دياتّي» يا من صنعتما أفضل الكبب والمحاشي والسجقات وورق العنب.

كأنها سمعت يدها اليمنى تقول لها:

أنا لم أتعب و لكنك خذلتني.

غضبت أم عبد الله وتبرأت من يدها، وضعتها خلف ظهرها وشخصت بأبصارها إلى الضيف المنتظر!

١٩٩٦

الأغصان العارية

يا المسكونة بهاجس الفقدان..لا شيء يستحق التملك والامتلاك.

الدرب قصير والجسد تراب والروح غيمة بيضاء.

شرّعي مصاريعك على البحر وارقصي وجودك حتى ولو كانت كينونتك سراباً واكتفاؤك مذلة. مشّطي أهداب الغياب بأصابع توقك إلى معانقة الشمس عندما تصبح برتقالة مضرجة باحتراقها وهي تتوارى خلف الأفق.

يا التي ذاكرتها صندوق «باندورا»، لماذا تصرّين على طفولتك كأنك لم تكبري بعد؟ أنت كبيرة بما فيه الكفاية لتتعلّمي فن المناورة والضحك على الذقون. العبي لحظاتك الثكلى من غزارة الحليب حتى ولو كان الحصان خشبياً والدمية خروقاً. فهذا الكون البهي يمنحنا غزارة في يباس الحلمات!

وتقولين أن الحزن يشبهك؟ ما أروع ما أبدع الخالق!

ما همّ إذا لم يعلقوا لك خرزة زرقاء درءاً للعيون الحاسدة؟ ما نفع الخرز الأزرق إذا كانت الرؤوس جماجم والعيون مأكولة:

الفرح ينبثق من بعاق الحرمان نوافير صاخبة ترقص على زخم الأحلام النائية، وإخوتك الصغار يتراشقون بوسائد النوم المحشوة بالنخالة، يتزوبع المكان برذاذ القشور والأصوات الزاعقة التي ترعف طفولتها في حركات يائسة ومجنونة والجارة أم عبدو تداري وجع ركبتيها بالكي، برأس مسمار يتوهج بالحريق تثقب تحت ركبتيها، تفتح مجرى للألم وتسده بحبّة حمص مسلوقة، وأمك تضع العلق على صدرها ليوسع مجاريها التنفسية. الناس الذين يسكنون في أقبية تحت الأرض يتآكلون من الرطوبة بالتدريج.

يا المسكونة بهاجس الفقدان..هيا ساعديني في إعادة ترتيب الموجودات والأشياء التي تطالها يداك وفق قانون وجودها الطبيعي.

ربما يصبح العالم أكثر نظافة وأقل قسوة و فوضى. تعالي نزيل الغبار والقشور ونلمع بدمعنا المرايا والوجوه والأرضيات والأحذية (النظافة من الإيمان) والمحافظة عليها مهمة بالغة التعقيد مثل (لعنة سيزيف)!

ألا تريدين مشاركتي عبثي؟ يا التي ولدت كأنها هرمة هزي جذعك المتخشب والعبي (ايروبك) مثل نساء التلفزيون العصريّات. لين المفاصل ضرورة حياتية قصوى. الركوع والانحناء والتقوس والزحف إذا اقتضى الأمر.

الحركة بركة والسكون موت واندثار، الطاقة تدمر صاحبها إذا لم يفتح لها منافذ في سراديبه السريّة، لماذا تتجاهلين قيمة ذاتك وأنت أنت؟ ما العيب في أن تهربي إلى سطح البيت تنشدين الخلوة مع كتاب (الأجنحة المتكسرة) أو كتاب (ماجدولين)؟ تصهلين وجودك دمعاً على صفحات الكتاب وأنت لست سلمى كرامة أو ماجدولين! وكأنك تشمين مصيرك من خلالهما، لا داعي لكل هذا التشاؤم، ما همّ إذا كان حذاء سندريلا ضيقاً على قدميك وأنت ممدودة على حصيرك في ظل المدخنة ؟ في أحلامك تفصّلين لقدمك أجنحة من غيم!

في عمق نشيجك تفتح زهرة، يرمي لك محمد من السطح المقابل ورقة ربطها إلى حجر يعرض عليك فيها صداقته:

وجاركم (أبو عبدو) الاسكافي قال لك: (الحجر أنثى وذكر). للوهلة الأولى ظننت أن الرسالة بعثها لك أحد الملائكة من السماء. محمد يعرض عليك صداقته، والصداقة تجعل الإنسان أقلّ حزناً و بكاء، وأنت كلما لمحته تهرب حواسك منك ويدبّ فيك الخرس، تبدين كأنك بلهاء لا تفقه شيئاً من أمور هذه الدنيا! وأنت تعرفين و لكنك لا تعرفين أنك تعرفين!!

تجرأت أخيراً وكتبت له أنه لا مانع لديك أن يكون صديقك. مططت قامتك إلى طول المدخنة و حبست أنفاسك ورميت له بالرد. طوّح الهواء بالورقة بعيداً كجناح طائر وسقطت في الجبّ الواقع بين العمارتين...

يا لغبائك وقلة حيلتك! لقد نسيت أن تربطيها إلى حجر..

يا المسكونة بهاجس الفقدان.

في الليل تهج عليك الظلمة بأشباحها الخرافية.

يجعدّك السهاد والكوابيس تفتحين ثغرة في بطن الليل و تسرقين جسدك إلى الحكاية، يناولك محمد رسالة زرقاء وأنت في طريقك إلى المدرسة. يا إلهي كم تحبين البحر!

تضعين المغلف في حقيبتك وتؤجلين قراءة الرسالة إلى ذلك الوقت الذي تكونين فيه على حصيرك في ظل المدخنة.

بوصولك إلى المدرسة دسست الرسالة في كتاب ووضعت حقيبتك على المقعد.

أثناء تواجدك في الفرصة تسلل أحدهم إلى الصف وسرق رسالتك وسلمها للمديرة. لقد تماديت في شرودك بدرس الحساب وكانت أصابعك تعانق الرسالة دون علم منك!

استدعتك الآنسة (فائزة)، وقفت أمامها منكسرة مثل غصن معلق في الهواء. سألتك عن مصدر الرسالة، قلت لها من محمد ابن الجيران. أنبتك بشدة لأنك سمحت له أن يتمادى في بوحه و يعلن عن إعجابه بك بالقلم العريض.

ثم ألقت على مسامعك درساً في الحشمة و الأخلاق بينما هي تمزق الرسالة دون أن تطلعك على ما جاء فيها.

من يومها كففت عن الصعود إلى السطح وصرت تقرئين تحت الطاولة.

قصصت خصلة من شعرك الطويل وخبأتها في مغلف مع صورة لك وأنت تضحكين. عندما صادفت محمد لم تناوليه المغلف مباشرة. تظاهرت أنه سقط منك سهواً..

وهرولت كأن جيوش العالم تلاحقك.

١٩٩٨

عقدة مستفحلة

(أنا خائف.. إذن أنا غير موجود).

وأنا يوسف بن أبي يوسف صانع الأقفاص من سيقان القصب. شاب طويل عريض في عقدي الرابع متزوج ولي ثلاثة أولاد، طيب القلب أكثر من اللازم وتصرفاتي لا تخلو من طفولة متحكمة في ردود أفعالي وعفويتي تطفح من مسامي كالعشب الطازج. هكذا الله خلقني و سوف أبقى هكذا حتى رحيلي من هذا العالم.

لا أستطيع أن أزيف مشاعري وأدعي البطولة والفخامة، فما أنا سوى إنسان خائف مصاب (بعقدة الكلب). عقدتي هذه مستعصية الحل.. كأنني ولدت من نطفتها واستفحلت مع الأيام، تضخمت وصارت أكبر مني، ولو قدر لي أن أعيش لحظات هانئة مسترخية دون خوف.. ربما أصبح ذا شأن يطابق قامتي. القهر يكسر الظهر يحولني إلى كائن هلامي مترجرج.

راودتني هذه الأفكار بعدما عدت إلى بيتي مرضوضاً وخائباً وخجلاً من صديقي سامر الذي جاء إلى دمشق في زيارة خاطفة و كنت قد هاتفته ووعدته أن أزوره في الثامنة مساءً:

الكلب الرابض في مدخل حارة سامر حال بيني وبين تلك الزيارة. كلب سلوقي عريض الشدقين ضامر البطن ما إن لمحني كشّر عن أنيابه وأطلق نباحه في أعصابي، لحق بي وأنا أركض اختبأت في دكان، ساعتها تجرأت وقلت له: (وشت يا أخونا).

نظر إلى صاحب الدكان نظرة لا تخلو من معنى، وحتى أثبت له صحة عقلي طلبت منه أن يزن لي كيلو بندورة، تمنّيتُ من كل جوارحي أن يتأخر

صاحب الدكان في تلبية حاجتي، ولأنني كنت زبونه الوحيد لبّى طلبي بسرعة، وحتى أطيل مدة مكوثي في الدكان ريثما يذهب الكلب، اشتريت أيضاً خياراً وكوسا وملوخية:

ربما ذهب الكلب قلت لنفسي.

حملت تلك المشتريات، دخلت الحارة وأنا خائف، مشيت بهمس مجبول بنداءات السلامة، قرأت آية الكرسي والمعوذات. نداءاتي لم تجد نفعاً ووقع المحظور. عدت أدراجي مسرعاً كالريح وتبعثرت محتويات الأكياس في أرجاء الحارة. دعست على البندورة والملوخية وكدت أتزحلق من طولي والكلب يلحق بي ولا يكف عن النباح.. وصلت إلى الشارع قبل أن أمكنّه من عضّي!

خوفي من الكلاب لم يأت من وهم، فللكلاب أنيابها القاسية على تاريخي! إذا ما صادفت كلباً و أنا برفقة زوجتي أتركها وأهرب، تقول لي يا عيب الشوم أنت رجل؟ أحاول أن أثبت لها رجولتي في مجالات أخرى كي تظل تحسب لي حساباً... وتهابني.

في عيد رأس السنة كانت الكلاب لي بالمرصاد.. وشرشحتني. كنت عائداً إلى منزلي في الساعة الثانية بعد منتصف الليل وأنا أختال كالطاووس بملابسي الجديدة و قلبي يدمدم بلحن البشائر.

ما إن اقتربت من ساحة منزلي حتى سمعت صوتاً نسائياً:

- الحمد لله الذي بعث لنا أخيراً برجل.

حرمتان تقبعان في زاوية من زوايا الساحة ترتعدان من الخوف، والرجل المعني هو أنا..! استنجدتا بي لأطرد الكلب الذي كان يجلس على باب منزلهما. تسمّرت في مكاني..ماذا أفعل يا ربي؟ من العار والشنار ألاّ ألبّي نداءهما، شهامتي وأخلاقي تأبى ذلك. تحسرّت على كلاب أيام زمان التي كانت لا تعض مهما عضها الجوع، ليس ككلاب هذه الأيام التي تكشر عن أنيابها ونباحها وتعضّ لتثبت تفوقها الكلبي!

وبمنتهى الحذر والرقة والتهذيب اقتربت من الكلب و قلت له (ويشت يا أخونا).

كلامي المهذب أيقظ حواسه وسعاره هبّ على قوائمه وركض خلفي. خلعت باباً خشبياً واختبأت خلفه وأنا أضغط على مثانتي حتى لا أفسد ملابس العيد وتسخر منّي زوجتي. كان الباب الخشبي يفضي إلى درج في أعلاه باب خرج منه رجل حاملاً هراوة و هو يصرخ حرامي.. حرامي.

بالتأكيد لن يصدقني إذا قلت له إنني لست لصاً وأنا خائف من الكلب. وليت هارباً قبل أن أمكن هراوة الرجل مني واعتليت عموداً كهربائياً في الوقت الذي كان فيه الكلب يمزق ملابس المرأتين.

مقابل العامود الكهربائي الذي اعتليته نافذة مضيئة تطلع إلي رجل من خلالها وساطني بنظرات تقدح شراراً:

(يا عرص عم تبصبص على حريمي سألقنك درساً لن تنساه) كالكنغر قفزت بثقلي عن عمود الكهرباء، رضّت قدماي وروحي، هرولت إلى منزلي وسط شتائم المرأتين:

– روح الله يلعن أبوك..

فتحت الباب و أنا ألهث حمدت الله أن زوجتي نائمة.

نمت وأنا أصطك من الخوف والبرد وأشياء أخرى أخجل أن أسميها تتدرج كلها في قاموس الخوف.

(أنا يوسف بن أبي يوسف صانع الأقفاص من عيدان القصب. أهمس من تحت وسادتي وجلدي ولساني: لعن الله الكلاب).

١٩٩٩

أبو الشهدا

في قرية (عقربا) يسمونه أبو الشهدا.

عنده سبع بنات و الصبيان استشهدوا بالحرب.

لم يبكهم..

ربما افتقدهم في أعراس القرية وتلك الجلسات المسائية التي يتكئ فيها الرجال على تعبهم وهمومهم وأحلامهم و يبوحون بها لبعضهم.

فاطمة، إحدى بناته طالبة في المرحلة الابتدائية.

اشتركت فاطمة في مسابقة الجري وسبقت كل المشتركات وفازت بالمرتبة الأولى واستحقت الميدالية من تلك الميداليات التي تمنح عادة للفائزين والفائزات وبيّضت وجه أبيها، وأكّدت له أن البنات أوسمة ونياشين مثل الصبيان الذين يكبرون و يذهبون إلى الحرب ويستشهدون.

(ربما ذهب أبو الشهدا إلى حقله وبكى وصدح بموال قديم تعوّد أن يغنيه كلما اختلطت الأفراح بملوحة الدمعة)

لم تستلم فاطمة ميداليتها التي استحقتها. إدارة المدرسة احتفظت بها.

صعد الدم إلى رأس أبي الشهدا وكانت الدنيا برداً.

ترك قريته وجاء إلى دمشق وهو يزفر حسرات وبخاراً مثل ذلك البخار الذي تخلفه أنفاس الحصان في السهوب الثلجية. وهو ليس حصاناً..

تضاريس أرض سمراء مدسوسة في شقوقه. طمي على الرأس والملابس وتحت الأظافر وما بين الأصابع. إنها تضاريسه. هو الرجل البسيط المفطور على أنين الصفصاف ومواويل الدمع وأعراس الزهر والحنطة.

باح أبو الشهدا لمسؤول الرياضة في مديرية التربية بهمومه التي تقصم ظهره:

هم الميدالية ثقيل مثل هم الأرض و ضرورتها كالهواء وهي من حق الفائزات كما النياشين والأوسمة من حق الأبطال و فاطمة حزينة لأنها حرمت من ميداليتها ربما لا تستطيع أن تركض بعد اليوم حرام أن تحرم فاطمة من الركض.

وحمّله أبو الشهدا مسؤولية يتم بناته السبع لأنه سينتزع الميدالية بما تبقى له من عمر إذ لا قيمة للأعمار بلا ميداليات أو أوسمة.

في اليوم التالي قلّدت فاطمة ميداليتها في حفل مدرسي كبير، لبست فوزها و صفقوا لها.

زغرد أبو الشهدا كأن أبناءه الأربعة عادوا من الحرب منتصرين..

١٩٨٥

أبجدية الذاكرة

١- (شوارب جدّي)

عندما تشيخ النخلة يتكثف الزمن في قامتها، يغزر جذعها من تناوب الحرّ والقرّ، تفرد لحاها كالأراجيح تتسلّى الريح بمداعبتها وتمشيطها:

وجدّي (بو علي) كان يشبه النخلة. في الثمانين من عمره بقي صلبه مشدوداً إلى أفنائه البيضاء بجاذبية العشق.(شوارب) في نقاء الثلج تغطي شفته العليا تتأرجح بالضحك والغضب كلما انفعل. في قيلولته يفتل أطرافها إلى الأعلى، يضعها بين إبهامه وسبابته حتى تأخذ شكل مقود دراجة. كان يرقيها من العيون الحاسدة وداء الوطاويط والثعالب. يفعل ذلك كلما أراد أن يفكر بأمر هام، وفي كل مرة كنّا نداهمه فيها وهو يفتلها، كان يكرر قوله المأثور: لا تثقوا بحليق الشوارب يا أولاد، علاقة الشكل بالمضمون وحدة لا تتجزأ مثل عنترة و أشعاره.

كثف جدي (بو علي وجوده في شواربه حتى خيّل إلينا أنها أصبحت أثقل من جسمه وكنّا نتعجب كيف يقوى رأسه على حملها؟ فكان إذا أراد أن يقسم على أمر ما يمسكها بأصابعه و يقول:

أحلقها من جمامها ولا أكون ابن امرأة إن لم أفعل.

(عندما يعم القحط و تمحل المواسم كان يستدين ويوقّع بها)!

وأبي لا يشبه جدي وإن كان قد دأب على تربية (شنبه) بشكل مهذب وأنيق وبسبب هذا تحوّل من مقود دراجة إلى ما يشبه حواجب غانية، ورغم هذا التطور الحضاري خفّ وزن أبي وصار يتكئ على جذع جدي ويتمسك بشواربه كلما ارتكب معصية وزلت قدمه حتى كاد أن يقتلع شوارب جدّي من شروشها ويمسخ هيبته ووقاره من كثرة الزلات والانزلاق!

وأخي الذي حافظ على تراث الشوارب في العائلة، لا يشبه أبي ولا يتأرجح بشوارب جدي. ترك شواربه كالأدغال تنمو على هواها، وأعاد لشوارب جدي عزّها لأنه كان يعرف خطواته و لا ينادي شوارب جدي كي تسعفه في المحن.

والرجل الذي خطب ودّي لا يشبه جدي ولا أبي ولا أخي.. ولا يشبهني! حذا حذو المتأنقين ونتف شواربه من جذورها، تنكر بزي عنترة وسرق أمجاده وصفعني بها!

٢- (حمار جدي):

كان جدي (فارس) يمتطي حماره (الأبرش) مباعداً مابين ساقيه فوق (الخرج) المليئ بالسحاحير وأحمال الحطب والحشيش، وكان (الأبرش) الذي يدب على أربع يمهد بحوافره طريق الحقل والبيدر يخطّها كشريان ضيق وسط الأشواك والصخور والحصى، وكان يقوم بهذه المسؤوليات الملقاة على ظهره ضجة تصدع الرأس أو ينفث سموماً تحرق مجاري التنفس.

واسطة نقل جدي (الأبرش) لا محرك آلياً لها. وقودها الحشيش، والتبن والشعير، والمسلة والعصا لها فعل البنزين والرسن واللجام بدلاً من الفرامل.

و جدّي كان مجحفاً عندما(أطلق على حماره اسم (الأبرش)، لم يراع لونه الأسود الداكن.. ربما فعل ذلك لأن شعره (محلوط) في بعض الأماكن بسبب عقوره التي كانت تتناثر على طول عموده الفقري وتغطي مؤخرته كاشفة عن لحم أحمر كالمرجان، وفي قيلولته النادرة كثيراً ما كانت تمتلئ بالذباب ولا يصل ذيله إليها كي يهشّه عنها! ورغم ذلك كان الأبرش لا يشكو من عقوره و ثقل أحماله، كما أنه لا يحتج أبداً على طعامه سواء كان تبناً أم شعيراً، ولكن من ينظر إليه و يتمعن في عينيه الواسعتين و يبحر في دمع بياضهما الشفاف، يستشف معاناة حقيقية صامتة وتأخذه الشفقة به أحياناً كثيرة، فهو (حمار ابن حمار) بردعته مرقّعة، لا طوق أزرق أو جرس يزين رقبته، وإنما حبل بثخن الإبهام يلتف حولها كمشنقة و يحزها مشكلاً طوقاً (أحلس أملس).

للأبرش رائحة حرمان يابسة.

يمشي باستكانة ثقيلة إذا ما فاقت أحماله طاقته على الحمل، يبحّ صوت جدّي وهو يقرّعه ويستعجله (حا..حا..). يتعب الأبرش من الاستعجال، تسترخي

أذناه على طنين جارف يقف حائلاً بينها وبين أوامر جدّي. يكيل له جدّي الصاع صاعين، يخرج (مسلّة) من (الخرج) وينعر بها رقبة الأبرش ومؤخرته.. يهرول الأبرش بقفزات يائسة.

عيب الأبرش يتجلّى بكونه عاطفياً أكثر من اللزوم. وفي بعض الأحيان يفقد السيطرة كلياً على زمام مشاعره المكبوتة.

لذلك كان لا بد له أن يدفع ثمن هذا الشطط الذي كانت تؤججه (أتان) الشيخ هاني، فإذا صادف ولمحها وجدي يمتطيه سرعان ما تتسع فتحتا منخريه ويشنف أذنيه، يرفع رأسه ويشد رقبته كالزرافة مطلقاً نهيقاً متواصلاً ويضحك كاشفاً عن أسنان كابية وهو يطلق ريحاً متواتراً مع إيقاع ضحكه ونهيقه. يرفع قائمتيه الأماميتين كراقصة باليه ويرمي بجدّي و حمله على الأرض ويركض شبقاً إلى أتانه متحرراً من عبودية كبته وحرمانه.

يلعنه جدي وهو يبذل جهداً كبيراً للحاق به ومسكه من رسنه، يتوعده بالعقاب و الموت.. وغالباً ما كان يفلح جدي في بتر وصال العشق قبل أن يتمكن الأبرش من عناق أتانه وشمّها وضمّها. ينهال عليه ضرباً ولطماً ولبطاً ونعراً ليعيده إلى وضعه السابق.. حماراً. يطأطئ الأبرش رأسه إلى الأرض ودموع غزيرة تسكن عينيه.

٣- (نبوءات جدتي:)

وأنا بعمر البراعم. كنت أعتقد أن النجوم تدمع لفراق إنسان جميل كالقمر رحل قبل أن يكمل دورته الفلكية. بنيت هذا الاعتقاد على نبوءات جدتي التي كان لا ينقطع سيل تدفقها. فلكل ظاهرة أو حدث يدهشني ويبهرني و يتعتعني حكاية مقنعة حتى ولو كان أبطالها من الجن والأقزام.. والمردة!

كانت للأحلام أعيادها وللهمسات الصغيرة الحائرة قواميسها في الصدور الحانية. كانت ليالي القرية الهادئة والصافية كرنفالاً للنجوم وأعراس الجنادب وآهات العشاق. أبواب الأحلام مشرعة على قبة السماء المسكونة بالأرواح والسحر والأطياف الخجولة.. الأمنيات والرغبات تسافر إليها برمشة عين.

أطلّ على قبة السماء قبل أن أنام من نافذتي في عبّ جدتي ونحن نفترش (السطيحه). أعد النجوم بخفقات رموشي الحائرة ولا أتجرأ على مدّ إصبعي خوفاً من الثآليل.

جدتي تقول إنّ العد يمحق البركة والغزارة وينمي الطمع والحسد ويثألل الأصابع والقلوب ويجعل الإنسان في غاية الدمامة والقبح.. وأنا أحب أن أبقى جميلة.. كجدتي.

في كرنفال الضوء وغناء الجنادب تدمع نجمة خيطاً من نور ينساب على أذيالها كما تنساب الدمعة على الخدّ وينقّط أحياناً على خدّ نجمة مجاورة. أسأل جدتي: لماذا تبكي النجمة ؟

تقول: إن إنساناً جميلاً قد رحل. تحكي لي عن عصام الذي فخخ جسده بالبارود وذهب إلى الجنة. رحل وهو محمول على رفّ الأجنحة. على فراقه دمعت النجوم وتشظى الصخر من عويل النساء.

عصام الذي فخخ جسده بالبارود واندفع مشتعلاً واقتحم معسكراً للجنود الأعداء الذين يستبيحون الوطن ومقدساته صار حكاية طرزتها الأمهات والجدات على الشفاه ووسائد النوم.

تغفو جدتي وفمها ينبض بالدعاء على الأعداء:

(الله يقطع بذارهم و يمحي آثارهم و يسبي حريمهم و ييتم صغارهم) رائحة الحليب المتصاعدة من عبّها على وقع أنفاسهم تلفحني بالحنان.

وميض النجوم يلجم رقادي.

ربما كانت النجوم بعدد القلوب الواجفة.. وغزيرة كشعر ضفائر جدتي.صوت يخترق صمت الليل ويسكت غناء الجنادب، إنه صوت أمين الأعمى ينعى موت أحد الأشخاص في إحدى القرى المجاورة:

ياسامعين الصوت صلّوا على النبي..

وجدتي النائمة التي كانت تعرف طوالع الناس وأقدارهم من بريق عيونهم وقاماتهم وهالات النجوم المجدولة في أفلاكهم بالكاد فتحت عينيها وقالت (رحل شاهين الله يرحمه) وغرقت بالنوم من جديد.

ابتهلت إلى السماء كي تنقل إلي فراسة جدتي حتى لا يصعقني موتي!

٤ - بيت جدي:

تعمد جدي رحمه الله أن يكون باب بيتنا على شكل حدوة حصان ينحني الداخل إليه قبل ولوجه عتبة الدار:

جدّي كان يجلّ انحناء القامات أثناء الصلاة ومداعبة الأطفال وولوج المنازل.

وزوّار جدي الذين كانت قاماتهم مشدودة ومستقيمة كالرماح لا يأنفون من هذا التقليد الذي اخترعه جدّي، ينحنون، تصبح جذوعهم في لين الخيزران عندما يأتون لزيارتنا. وأنا أيضاً عندما كبرت و أصبحت نخلة كنت أحني قامتي في دخولي وخروجي من الباب، هذه الليونة حمتني من أوجاع الانكسار.

ولا شيء يبقى على حاله...

مات جدي وشحّ زوارنا بالتدريج، طواهم الردى مثل جدّي، وأبي الذي كان مشغولاً بنظم الشعر وفبركة الأحلام، لم يعر مثل هذا الأمر أدنى اهتمام، وأمي صارت تغنّي من قلب حزين:

(ما أكثر الأصحاب لمّا كان كَرْمي دبس

وما أقلّ الأصحاب لما صار كَرْمي يبس)

أصابع الوحشة تصفع الوجوه بالكآبة.

وأنا عندما ضقت ذرعاً بها حملت قلبي على أصابعي وسرقت نفسي إلى الباب. كتبت بالطبشور على وجهه الكالح من التقطيب عبارة: أهلا وسهلاً.

انغلت حروفي في شقوقه اليابسة وانمحت عبارتي مخلفة طيفاً حليبياً منسياً.

كانت عليّة بيتنا شرنقة بيضاء. أغزل من خيوط الشمس المنعكسة على نوافذها حكاية حلم مضى، أصيغها عقداً على وقع خطوات وأصوات العابرين الذين لا يولون باب بيتنا وقفة قصيرة أو ينتبهون لانحنائه الذي يشبه غمر عناق.

في أحد الأيام وبينما كنت أراقب سرب الحمام الذي اتخذ من العليّة مكاناً آمناً لأعشاشه، تناهى إلي خبب خطوات جواد تعلو وترتفع مع النسائم إلى

عليتي. مددت عنقي من النافذة لمحت فارساً يمتطي جواداً، طرق باب بيتنا بقوةّ كأنه يطرق باب قلعة كي ينبئ جنودها بقدومه!

طرت كيمامة من العلية إلى أرض الدار:

كان الباب يبكي..

لمّا فتحته طالعتني سحنة رجل غريب لا يمت إلينا بصلة قرابة أو جيرة أو معرفة.

جفّت روحي وأنا أحدّق فيه بينما كان يتفرسني ويفترسني بنظرات شرهة ومريبة.

مسح شفتيه بلسانه وسألني عن أبي واستأذنني بالدخول. أفسحت له الطريق.. لم يترجل عن حصانه وأمره بالركوع وولج عتبتنا على صهوة حصانه الزاحف تاركاً وراءه خيطاً من الذبح! رعف قلبي صراخاً على ركبتي الجواد الممحوتين!

ما خطبك أيها الغريب ربما أخطأت الطريق؟ ركب الجياد الممحوّة تنحر أعناق السرائر والحرائر.

طلبت منه أن يغادرنا لأننا لا نحبّ الغرباء.

انفرج فمه عن اعتذار مرغم و قال إنه سيداوي جراح الجواد.

سألته:

كيف ستعيد إليه صهيله ؟ إنه ينخر إنه ينخر أنيناً على كبريائه..

تهدل الغريب مثل راية مهترئة، سحب حصانه الذي كان يعرج من غرّته ولم يحن قامته عند خروجه من باب الدار لأنه كان أقصر من زوّار جدّي!

٥- نبوءات العّرافة:

قالت لي العرافة وهي تحدق في جبيني المدبوغ بالشمس:

هوى مكتوب على توق مشبوب لا يترك خلفه غير التآكل والدمار.

كيف.. وجبيني لوح الأبجدية الأولى من خربش عليه قدري دون علم منّي؟

تهجأتني العرافة من دهشاتي:

لا سبيل البتة لتحاشي الأقدار المسحوبة من بطون الرمل وأظلاف البعير وأحشاء الطير وحيض السائبة. بعد الشبوب ستهمدين وتدخلين في سباتك الشتوي.

أزوغ من قدري الذي تنبأت به العرافة وأمتهن الهروب.. وصوتها بقي يدق كنواقيس في هجعة الجسد.

مشيت في ظل الحيطان التي دبَّ التآكل في علوّها واكتظّت بالشعارات والصور، توقفت وأسندت ظهري إلى عمود خشبي منخور تتدلى منه الأسلاك وتتقاطع كشرايين سائبة في الهواء تتأرجح على امتداد الخفافيش.

تسلّقني خفاش، وكانت انفجارات الصواريخ وأزير الرصاص وعربدات الزعران السكرانين على خطوط وهمية تشطرني مع المدينة إلى نصفين، أنا والوطن سيان، البحر لي والشمس والقمر والهواء والأرض، ولكنني لا أملك صك ملكية يخولني للعيش في فسحة أمان كي أحب وأعشق وأغني وأفكر.

رائحة الخفاش عتمة ودم، عيناه مسمولتان، راداره الغريزي يقوده إلى فريسته ويمتصها.. ينتفخ ويسدّ علي منافذ عيني.

حملت آخر نقطة من دمي، استللت ضوئي من تحت جفوني.. و بقرته. ديدان تفوق عدد شعر رأسي انبثقت من رائحته، تركته يرفل بالهسيس وأنا أسدّ أنفي وأتوارى في غابة الصراخ والخوف.

يزنرني الليل على أعتاب الوسن طيفاً من غيم وشجن تذبحني الدروب اللولبية والزمن يبريني بأصابعه الخشنة.

أجدف شبقاً لاحتراقي قبل حلول موسم السبات والبرد. تجذبني مرآتي إلى

صفحتها. أنزلق فوقها كدمعة ساخنة وأهوي إلى قاعها وأكتشف يا للهول!! أنني لا زلت امرأة!

أهمد إلى حين، أفتح الكتاب أطوي جسدي وأدخل إليه وأنام في سفينه شراعية على ترانيم الموج.

سفر

في السفر ينام المتعبون وهم يأملون أن يطول مشوارهم كي يرتاحوا من لعنات تطاردهم. فالوصول يعني الحصار والضيق والضجر... وليس بإمكانهم دائماً اختراع مشاوير جديدة ليناموا على هدهدة الدواليب.

صديقتي التي كانت مسافرة من دمشق إلى بيروت في سيارة تتسع لخمسة ركاب كانت منكودة الحظ من بنات جنسها أيضاً!

فالركاب الأربعة كانوا (أناتي) متحذلقات وثرثارات أكثر من الثرثرة، وفضوليات بوقاحة، كأنهن لا يمتنّ بصلة إلى جنس صديقتي المسافرة التي تعشق الوشوشات الهامسة والصمت.

بإصرار وعزيمة لا تعرف التراجع أصدرن أوامرهن لصديقتي أن تجلس بجانب السائق.. واحتللن شبابيك السيارة.

لم تبد صديقتي أية معارضة فهي لا تستطيع أن تدافع عن حقها في هجمة الطمع والأنانية والقسوة، ولأنها كانت تعبة وتود أن ترتاح، اتهمها حبيبها بالخيانة لأنها تعشق أبطال القصص والروايات أكثر منه ومارس عليها أقسى أنواع الاستجواب وأحط وسائله لينتزع منها هذا الاعتراف. دافعت عن نفسها وحلقت شعرها وحاجبيها بالشفرة وقصت أهدابها وصبغت وجهها بالشحّار وقالت له (حلّ عني إنني لست امرأة).

ليالي طويلة لازمها فيها الأرق تناولت خلالها كميات لا بأس بها من المهدئات والمنومات بلا طائل.. بالها بقي مشغولاً بأشياء لا تجد لها مبرراً أو تفسيراً، وهي من كثرة ما جابهت قوى همجيّة تقمصت بشراً كفّت عن الأخذ والرد وتنازلت عن حقّها في الدفاع عن نفسها ورفعت رايتها البيضاء.

حشرت جسدها بين إحداهن والسائق وكان مقعدها لا ظهر له لتسند ظهرها إليه!

انهمكت النسوة في أحاديث لا نهاية لها. كن يزعقن معاً عن الموضة والأزياء الدارجة في بيروت بعد الحرب، وعن المساحيق والكريمات التي تعيد للوجه شبابه ونضارته.

أسلمت صديقتي نفسها للنعاس.. وعندما كرجت دواليب السيارة كانت قد غفت تماماً، فهي في السفر كانت تسمع دائماً صوت هدير البحر، ومقعدها بين مقعد السائق ومقعد المرأة بلا ظهر. مال عنقها ونام رأسها على كتف السائق!

ضحكت عليها النسوة وهي نائمة وتهامسن حول سلوكها الشائن الذي تتصاعد رائحته من أنفاسها!

امرأة تنام على كتف رجل غريب في السفر لا بدّ أنها امرأة ساقطة!

وبينما كنّ يثرثرن حول الشرف كانت صديقتي غارقة في أحلامها إلى أن استفاقت على صوتها وهو ينادي: يا أمي..

الشجرة.. بيتي

الشجرة امرأة حكمت عليها الأقدار بالإقامة الجبرية في وطن ولادتها ومنبتها وعشقها وإذا ملّت من هذه الإقامة الجبرية وعنّ على بالها التنقل والسفر مدّت جذورها كالشرايين في كل الاتجاهات متنقلة على هواها في سراديبها السرّية موغلة في وحشتها الوارفة وخصبها الأبدي وفي حالة أوجاعها القصوى يطغى صفيرها المأتمي على عويل الريح.

وكما للشجرة قامتها المتميزة، لها اسمها ولغتها، همسها ورقصتها وأنينها وبكاؤها لا يفهمه إلا من زرعت فيه عشقها وشبّ على الكبر في أفيائها.

لبعض الأشجار العملاقة صراخها الليلي الذي يقضّ مضاجع النيام. تنطلق حناجر الأجداد الذين زرعوها عبر مساماتها كجوقة مأتمية إذا ما عرتها من شموخها يد آثمة استعداداً لذبحها.

وأنا كامرأة ريفية ربطت مصيري بمصير الشجرة إذا ما اختفت من حياتي فقدت مقومات وجودي، تأرجحت بفروعها لأصبح طويلة القامة مثلها. وعلى جذعها تهجأت اسمي وطفولتي وقلبي ولعبت مع الفراشات والعصافير والزيزان في فيئها.

.. وشلعتني رياح الغربة من قريتي إلى المدينة.

ضيعت خطواتي ودربي وعشعش فيَّ حزن العصافير عندما تخرّب أعشاشها.

في المدينة بحثت عن بيت تجاوره الأشجار، كلّت قدماي وداخ رأسي، ولمّا لم أعثر على ذلك البيت اقتنعت بآخر تطلّ إحدى نوافذه على الشجرة (زنزلخت) جذعها محنيّ من قسوة الإسمنت الذي كان يحاصرها من خاصرتها ويعلو على أفنانها الخضراء.

كنت أشرّع نافذتي عليها وأهمس لها بأسراري وفي الليل أدير لها وجهي وأنا مستلقية على سريري، أحاورها وأغنّي لها، تكبر أوراقها النحيلة وتصبح

بحجم الكفّ وتتحول إلى غابة. في الصباح أفتح عيني على نداوة أوراقها وأقول لها: صباح الخير أيتها الخضراء.

تهتز فروعها طرباً.. ولا أحد يصدقني عندما أقول له أن شجرتي تتحول في الليل إلى غابة!

ولأنني امرأة بسيطة لم أستطع التمييز بين بيوت المدينة المتشابهة.. لذلك علّمت بيتي بتلك الشجرة حتى لا أتوه عنه وأضيع.

مرّت سنوات كبرت فيها الشجرة، وفي إحدى الأماسي تهتُ عن بيتي، بحثت عنه في الحي كله و لم أعثر عليه، صديقتي التي كانت ترافقني طافت بسيارتها كل حارات المنطقة التي يقع فيها بيتي، ولما سألتني إن كنت حديثة العهد بالسكن فيها، أجبتها إنني أقطن فيها منذ خمسة عشر عاماً. فقعت صديقتي من الضحك وكادت السيارة أن تجنح بنا نحو الموت.

سألتني وهي تشهق بدموع ضحكها: هل من المعقول أن يضيع إنسان عاقل بيته بعدما سكن فيه كل هذه المدّة الطويلة؟

شرحت لها الأمر حتى لا تتمادى في سخريتها وتتّهمني بالغباء، قلت لها: لم أكن أرى في الحي كله إلا الشجرة. لذلك أنا على جهل تام بتفاصيله وعماراته وناسه الذين يشبهون بيوتهم!

وسألتني، إذا كان قد سبق لي أن ضعت عن بيتي قبل هذه المرّة؟

أجبتها بالنفي، شجرة (الزنزلخت) أمام نافذتي هي دليلي وهي الآن ليست موجودة، كيف أستدل على بيتي إذن؟ الأشجار لا ترحل مثل البني آدم، ترى ماذا حل بشجرتي ؟

رجوت من صديقتي أن تتركني وحدي ليقودني قلبي إلى رائحة الشجرة:

في البدء حسبت اختفاءها مؤامرة دنيئة تحكم عليّ بالضياع والتشرد والاختناق والغربة، وبينما كنت أتحسس طريقي في العتمة اصطدمت قدماي ببقايا قشور وأوراق مفلوشة على طول الرصيف تفوع منها رائحة (الزنزلخت) كانت شجرتي مقطوعة من جمامها.

١٩٩١

لبن العصفورة

عندما شحّ البياض في عروق الماء وقرّح الملح الأهداب. ذبلت زهرة النرجس في صدرها ونامت أوراقها.

قال لها حزيناً وهو يحدق فيها ويشرب وجهها إنه سيفعل المستحيل من أجلها، يركب الأهوال ويسافر إلى (جوّات السبع بحور) ليحضر لها (لبن العصفورة) حتى يشرّش البياض في بيادر العتمة ويطفح أديمها برغوة الحليب.

ولما سألته، لماذا إلى (جوات السبع بحور) والعصافير على مرمى العناق وغبش الأنفاس؟ قال لها، عصافيرنا ليست لبونة، هي نحيلة واجفة الريش كئيبة المناقير وبيوضها صغيرة، كبؤبؤ العين.

قالت له، ومع ذلك فهي عندما تعطش تحلب الماء من حويصلاتها ويباس الأرض، تحني رؤوسها وتدلي بمناقيرها الصغيرة.. ثم ترفع تضّرعها إلى السماء. وهي سمعت عن أهل البلاد (جوات السبع بحور) أنهم بعلومهم الغزيرة والمتطورة في هندسة الجينات يمسخون الكواسر ويدجنون العصافير.. يحلبونها حتى تمصل دمعاً.

وتيسير زوج أختي زهرة يستحلب لها لبن العصافير من قصائده الشعرية. تجمعه زهرة شهقة – قطرة في قارورة عطرها و تكحل بها عينيها. تتوهج كطيف ضوء يتسرّب من ثقب المفتاح.

وجارنا أبو عبده على مدى عشر سنوات وفي كل عيد يرقع لأم عبده حذاء عرسها لا تملك غيره، يغيّر لونه ويصبغه بلون العيد، يلّفه بورق الجرايد ويضعه في كيس نايلون، ويقدمه لزوجته قائلاً: مبروك حذاء العروس على قدميك يا حنونتي،

تحمر أم عبده خجلاً ويدق قلبها كأنها في ليلة دخلتها، تتفتح وردة جورية على خدها: هو ليس بشاعر، ولا يجيد إلا ترقيع الأحذية وتلميعها. وألحّ على السفر..

هناك في بلاد (جوات السبع بحور) سيشتغل عتالاً في الموانئ أو نادلاً في المطاعم أو مهرجاً.. ويعود إليها مثقلاً بلبن العصافير، يشتري لها بيتاً وحديقة وأحذية وفساتين وعطوراً وكل ما يتوق إليه الحرمان من شبع وترف.

كتبت له رسائل عدة دسّتها في حقيبة ملابسه وطبعت عليها شفاهها وقلبها مع زجاجة ماء الورود وطوقٍ من الياسمين حتى لا ينساها.

في وداعه وقفت دامعة على إفريز البحر و ظلت تلّوح له بمنديلها حتى أصبح المركب كرأس دبوس ينغرز في نزيف الشفق. حكت أرنبة أنفها من حريق الملح وسارت في اتجاه الصخور التي تمدّ أقدامها في الماء، التقطت صدفة لونها الداكن منهوب بعروق البياض، قربتها من أذنها،جاءتها رسائل وحكايات على لفح الهدير. قال لها علاء الدين، أصبحت مارداً في بلاد الأقزام بفضل مصباحي السحري. وأخبرتها شهرزاد عن زوجة الصياد الطماعة التي حوّلها جشعها إلى بقرة.

تململت زهرة النرجس في صدرها و أحدثت نغماً يشبه القيثارة، كتبت الرسالة إلى حبيبها تستعجله المجيء لأنها وجدت لبن العصفور، وأخبرته كيف تلّون نسغ البياض أمام عينيها المحدقتين بالآتي، فدكونة وجهها انقشعت من ترنيخ الحكايا. وختمت رسالتها قائلة، إنه عندما يحضر سيجدها تشع كماسة من هدير نسغ الوطن البكر في عروق الروح لأن لبن العصافير ينزّ من شدوها، وريثما يعود إليها ستفتح النافذة كل صباح وتقطف اللبن من شجرة العصافير التي تنسدل أغصانها على النافذة!

دمشق١٩٩٢

من عالم فيرجينيا وولف

أطلّ الصباح برأسه من النافذة مكللاً بالأعراس. غمر الضوء الغرفة وأشياءها وطبع قبلة شوق على جسدها الباهت. انعكست ظلاله الفسيحة عناقاً على الحيطان الضيّقة ووسعتها إلى الحديقة العابقة بألوان الورد وأنفاسه الفاقعة.

الغرفة مثل بقية الغرف. جزء من بيت كبير مصممة بطريقة عصرية فذة قوامها المتانة والكتامة... معدومة المسامات حتى تبقى بعيدة عن نشّ الضوء والهواء والماء.

جوّها مبستر الأنفاس واللهاث والحركة:

(جرثومة الضوء تمحق الهوام، العثّ والتآكل والاهتراء، والضوء دائماً يسرق حاله لتأكيد عيونه الواسعة). وفي هذه المرة، مثل كل المرَات السابقة واللاحقة. تسلل الضوء إلى نحلة صفراء مكحلة بالأسود. كانت النحلة مكوّمة بخدرها الكسول على زهرة محنطة تحتل زاوية بارزة من زوايا الغرفة.

نبضت النحلة وكبر حجمها. فرشت أجنحتها الرقيقة ودارت في أنحاء الغرفة وهي تهزج بالطنين المموسق الألحان. أسرعت إلى النافذة محاولة اختراقها إلى الحديقة.

ارتطمت و تزحلقت على زجاجها ووقعت على قفاها. كان زجاج النافذة مذبوح الشفافية إلى درجة أنفاس الصباح لا تترك غبشها على وجهه مهما كانت مثقلة ودامعة! كأنه مصيدة غير مرئية مصنعة ضد عوامل الطبيعة وبهجة فصولها لقتل النحلات التي تتحداه إلى الأريج. وعلى إفريز النافذة رعفت النحلة أشواقها للربيع الذي يدغدغها ويناديها من خلف الزجاج.

طارت من جديد، دارت دورة في الغرفة وعادت إلى النافذة بزخم وإصرار، تسكنها رغبة قاتلة الإلحاح في تخطي زجاجها.. أو إحداث ثقب صغير فيه يتّسع لجناحيها! وكما في المحاولة الأولى اصطدمت بالزجاج ووقعت. كان وجع رضوض الزجاج المفلوشة على جسدها، أقسى في هذه المرّة، وبينما هي على هذه الحال ضحكت لها زهرات الحديقة من خلف زجاج النافذة.. ونادتها. نبض جسدها المرضوض بالرحيق. دبت فيها قوةّ سحرية طارت على أثرها. رسمت بطيرانها الموجوع مدارات إهليلجية كأنها الكون.. ولما تأكدت من صلابتها وحتمية عشقها، عادت إلى النافذة و كررت المحاولة،لم ترحم نفسها.. ووقعت. خيط حليبي رفيع مسحوب من أحشائها خلفته مكان تزحلقها على الزجاج، وغرقت في سبات جراحها ونداء الزهر يلفحها بأعياده القادمة.

في هذيان غيبوبتها واحتضارها مرق طيفها وهو يتخطّى الزجاج إلى الحديقة وينشب إبر أشواقه في رحيقها... ويثمل. باكتمال الحلم همد جسدها ونام على سرير من رحيق. جيش من النمل شم رائحة الضّحية خرج من سراديبه ومكامنه، زحف إلى النحلة، لعق شهدها وامتصه حتى آخر قطرة. جف جسدها وتشظّى من اليباس.. وسحبه النمل بسهولة إلى أوكاره.

١٩٩١

دوران

كنت على الشرفة.. و الشمس تضحك.

جمع غفير من أبناء القرية تغصّ بهم دروبها الضيقة، يهزجون. بالأغاني ويزخمون بالرقص، دبكة، سيف وترس. وصوت طبل أعلى من رؤوسهم.

العروس و العريس في المقدمة، العروس في ثوبها الأبيض، والعريس في طقمه الأسود، والناس على الشرفات ينثرون الرز والورود على العروسين. في بيت مجاور. شرفة فارغة وأصص يابسة وصوت نحيب متقطع:

مات الذي خطبني عندما كنت في الرابعة عشرة!

١٩٩٤

مشهد

على الرصيف الرمادي ثمة ولد مشعث يفترش الأرض ويضع أمامه ميزاناً ينادي على الناس العابرين كي يزنوا.. أثقالهم.

مرّ به امرأة و رجل.

الرجل كان مستعجلاً و يسبق المرأة التي كانت تمشي الهوينا وتتفرج على الدنيا من حولها بغبطة شديدة تنسيها آلام حذائها الضيق:

صارت في الثلاثين ولازالت تجهل نمرة رجلها! قدمها لا تستقر على حال، مرّة تتورم وتكبر، ومرة أخرى تكشّ وتضمر.

وللحذاء علاقة بالرأس! ورأسها أكبر من رأس النعامة و جيدها أقصر من جيد الزرافة وقامتها أدنى من درفة الشباك وعيناها.. أوسع من البحر..

لبّت المرأة نداء الولد، صعدت إلى الميزان بعدما نزعت حذاءها.

قال لها الولد: ٦٥ كيلو

شهقت وناولته عشر ليرات.

افتقد الرجل المرأة، تلفت حوله فلم يجدها، عاد أدراجه وكانت تحاول إدخال قدميها في الحذاء، نظرت إليه وشّمت رائحة غضب مكبوت يفوح من وجهه، طعجت حذاءها وانتعلته مثل الشحاطة، قالت بحنان: لو لم يخترعوا الأحذية!

قال لها الرجل مؤنباّ: أنا أعرف وزنك أكثر من الميزان.

وأضاف بثقة ٦٥ كيلو!

قالت- و لكنني لم أزن نفسي منذ أن تزوجنا

قال- كان ذلك منذ عشر سنوات.

قالت- يومها كان وزني خمسين كيلو ورشيقة مثل غصن البان.

قال- الزيادة أفضل من النقصان احمدي الله على هذه النعمة، نصف سكان المعمورة يعانون من الجوع وسوء التغذية، ولو كنت في السودان أو الصومال لتمنيت أن تكوني سمينة مثل عيدي أمين.

لملمت المرأة جسدها ومشت إلى جانبه، لفّت زندها حول كوعه محاولة أن تحافظ على إيقاع خطواتها مع خطواته حتى لا تشعر بثقل وزنها.. وتتعب!

١٩٩٩

إجهاض

غرفة الطبيب رائحتها عقاقير وألم. على مكتبه جمجمة فاغرة العينين ومأكولة.

دخل الطبيب بآلاته وهو يرتدي ملابس بيضاء وقفازات مطاطية شفافة. صعدت المرأة إلى سرير ضيّق مغطّى بالمشمّع في نهايته ترتفع حلقتان دائريتان.

رفع الطبيب ساقي المرأة ووضع كل ساق على حدة في الحلقة الدائرية. صارت المرأة مشبوحة تماماً وعورتها ظاهرة للعيان كما خلقها الله.

أدخل الطبيب آلة حديدية في فتحتها راح يبرمها ويوسعها بالتدريج أن انفتحت هوةّ أشبه بالمغارة. أمسك الطبيب بالمقص وقص شيئاً حياً كان ملتصقاً في رحم المرأة. صرخت المرأة من قاعها وتدفق الدم كالشلال إلى دلو كان تحتها.

الفتاة التي كانت برفقة أمها أغمضت عينيها ونبحت من الخوف.

إجهاضان حدثا في اللحظة نفسها!

١٩٩٩

احتفالية تشبه العيد

أنا والعم (أبو حاتم) والقطة نعشق المهلبية.

والعمة أم حاتم تطبخها لنا باستمرار، وكانت النملية لا تخلو من وجود زباديها البيضاء المفروشة في أنحائها كالأقمار.

والعم (أبو حلتم) تتآكل يداه شوقاً لصنع مهلبية على ذوقه، وكنت وإياه والقطة نتحين خروج العمة أم حاتم من البيت لزيارة بناتها.. ونغرق في معمعة المهلبية. وللعم (أبو حاتم) قدم واحدة. هكذا عرفته دائماً حتى خيّل إليّ أنه خلق هكذا، حزنت من أجله وتمنيت أن أعيره إحدى قدمي.. ولكنها كانت صغيرة بالنسبة لجثته الكبيرة. قال لي العم (أبو حاتم) إنه فقد قدمه اليمنى في حرب ٤٨ وقبلها كانت له قدمان مثلي.

فقدانه لقدمه كان تحدياً لإرادته، كرامته وعزة نفسه تأبيان أن يكون عالة على الحياة. تعلمّ خياطة العباءات والدشاديش والصايات. وعمل في سوق الخياطين... ذاع صيته. عدا إتقانه لمهنته، كان محباً للناس كريم النفس واليد، يدعو جيرانه وأصحابه كل مساء خميس على وليمة خواريف مكتفه أو جداء بالزيت. تحضر المطربة أنغام صديقة العم (أبو حاتم) الروحية وهي ترتدي فستاناً فاقعاً ورقيقاً يكشف عن صدرها وزنديها حتى ولو كانت الوليمة في عزّ كوانين، وما إن تبدأ بالغناء حتى ترتفع صيحات الله أكبر وتتمايل الطرابيش والنراجيل على آهات يا ليل، وكنت أنا والعمة أم حاتم نحبس أنفاسنا في المخدع، محرم علينا الدخول إلى غرفة الضيوف حيث الرجال يسلطنون على صوت أنغام. وأم حاتم كلما ارتفع التصفيق وصيحات الإعجاب من صالون الضيوف. يقطر الغيظ من يديها المسلوقتين كالشوندر من كثرة ولائم (العم أبو حاتم) تبربر بكلام هامس، ربما كانت تغار من أنغام وتعتبرها ضرتّها دون أن تبوح بذلك. يشتد غيظها ويؤلمها رأسها، تعصبه بمنديل تلفّه بإحكام حول صدغيها. وتطلب مني أن أدخل مفتاح (باب

الزقاق) الحديدي الأسود بين رأسها والعصابة، أمسكه من حلقته الدائرية التي تشبه الفم ونهايته التي تشبه المشط و أبرم العصبة بعزم و قوة حتى يقفل رأسها و يصبح بعيداً عن الألم.

تجود أنغام ويطول السهر.

بيتنا في زقاق الحمراوي تطل نوافذه على قصر العظم، يحلف العم أبو حاتم على أنغام كي تنام عندنا. تفرش لها العمة أم حاتم شرشفاً على الصوفا، تدثرها ببطانية صوفية وتقول لها، الله يستر عليكي.

طقوس صنع المهلبية في غياب العمة تشبه طقوس العيد.

أجلب للعم (أبو حاتم) الذي كان يتربع في وسط المخدع حاجات المهلبية في المطبخ، كالمكوك أغدو وأروح وأنا أحمل إليه بابور الكاز وقطرميزات السكر والنشاء وزجاجة ماء الزهر وطنجرة الحليب والزبادي. أصعد على السلم وأقطف بضع أوراق من شجرة الليمون التي تظلل البحرة في أرض الدار. العم (أبو حاتم)يحب نكهتها في المهلبية. كانت القطة ترافقني تلوب معي في حركتي من المخدع إلى المطبخ و أحياناً أكاد أن أتعثر بها.

نغرق كلنا في معمعة المهلبية، ندعو إلى الله أن يتأخر مجيء العمة أم حاتم التي كانت لا تحب أن يتحول المخدع إلى مطبخ، وغالباً ما كانت تفاجئنا بحضورها، وكعادتها تبتلع غيظها وتقول للعم (أبو حاتم) بوجه باسم: أصلحك الله ماذا تشكو مهلبيتي؟

يقول لها وهو يغمرني بعينه: حلاوتها أكثر من اللازم والسكر تعلمين يضرّ بي لأن معي سكري.

في الحقيقة لم يكن هذا هو السبب الذي تعلل به عمّي لطبخ المهلبية. كان يشتاق إلى لمس الأشياء التي كانت بعيدة عنه.

بعد أن نصبّ المهلبية في الزبادي.نترك قليلاً منها في قعر الطنجرة ونضعه أمام القطة التي تبدأ بلعقه وهي ترفرف بذيلها فرحة.

١٩٩٩

عورات الزمن

ضربت كرشها بكفها ضربات متوالية كأنها التصفيق. كان منفوخاً كقربة ومتهدل الحواشي، الزمن يبعده عنها باستمرار حتى باتت لا ترى نقرة سرتها إلا في المرآة!

في الخمسين يشيخ الجلد والعضلات وتتقلص العظام.. والروح لا تزال تدور في أفلاك رغباتها الفطرية.

يدها لا تزال مفلوشة على كرشها تتحسس هرمه.

لم تفكر في يوم من الأيام أنه سيشيخ و يتهدل إلى هذا الحد البائس، فالشباب لا وقت لديه حتى يفكر بالشيخوخة، والموت تجربة تصيب الآخرين في اعتقاده.

كل شيء في الطبيعة يشيخ ويموت، والكرش لا يخرج عن قانون الطبيعة وسنة الكون. قلبت شفتها امتعاضاً وأسفاً، فلولا هذه الكرش لوجدت صديقاً أو زوجاً يشاركها أنفاسها بدلاً من جراب الفضلات هذا..

الشوق كان قاسياً، ضربات معول في أرض متشققة يابسة راح يهمد بالتدريج، تكوّر في زاوية وهو يلهث في رماده.

لماذا عنّ على بالها الصبا برونقه وجماله هذا المساء ؟ هي لم تفكر أبداً بعودة الشباب لأنها أكثر من ضجرة وتعبة لتعيد الكرة مرة أخرى و تقطع هذا الشوط الطويل والشائك من العصر والحصر والقهر والحرمان. ولكنها تسعى جاهدة لديمومة ما تبقى فيها من ماء الحياة.

كانت قد قرأت في جريدة أن زيت الزيتون يبعد الترهل والشيخوخة ومرض (الزهايمر). داومت على شرب فنجان قهوة من زيت الزيتون، (عالريق) لمدة عام.لم يفلح الزيت في ترميم ما تهدم وسبّب لها حالة إسهال، وجارها (أبو حسن) الطبيب العربي لم تفلح أعشابه المنقوعة بماء الورد في إزالة شباك العنكبوت التي كانت تتقاطع حول عينيها وفمها من كثرة التبصير في ورق الشدّة والسهر.

ترى من أين جاءها هذا الكرش وهي بالكاد تشبع اللقمة؟ قال لها الطبيب هذا من قلة الحركة. حلّ الكلمات المتقاطعة والتبصير بالشدة وقراءة الكتب ومشاهدة التلفزيون كانت هواياتها المفضلة تمارسها وهي متربعة على الديوان وأمامها طاولة تغصّ بالفشاشي ورماد السجائر و فناجين القهوة.

بعد ثلاثين سنة من التبصير والسهر جاءها الرجل في منامها على عصاه السحرية. مرض (الباركنسون) لم يعقه عن معانقتها واحتضانها، قالت له، كدت أنسى طعم العناق.

في الصباح اختفت صفرة وجهها ونسيت كرشها. ما افتتحت يومها بالتبصير كالعادة، وإنما راحت تجوب أرجاء المنزل وهي تبحث عن أشيائه، قميصه وبنطاله وجواربه وكانت تجزم أنه قد أخفاها عنها في مكان ما ليوفر عليها تعب غسلها وكيّها!

١٩٩٩

مفارقة

كان عبد الخالق.. مبهوراً.

بدلاً من أن يقطع رأس القط في ليلة العرس قال لزوجته سبحان الخالق:

(لمّا أراد الله خلق البشر استحضر جبالاً من طين وجبلاً من حلاوة، كان يمد يده إلى الطين ويكمش كمشة منه ثم يوشيها بلحسة حلاوة، تصبح إنساناً يطلقه ويقول له، اذهب أنت فلان الفلاني، وهكذا استمر الخالق في خلق البشر، كان يضيف للبعض لحستي حلاوة.. وينسى أن يضيف لحسة للبعض الآخر حتى استقام الخلق. نظر الخالق حواليه كانت لا تزال هناك بقيّة من حلاوة، كوّرها وعجنها بيديه حتى استقامت امرأة سمّاها سبحان الخالق، ثم التفت إلى بقية الطين وقحّطها وصنع منه إنساناً هو أنا (عبد الخالق)

صدقته سبحان الخالق، حزنت وطقت من البكاء.

١٩٩٩

للموت وجه أخر

استلم أنيس برقية من بيروت تنعى له وفاة أمه وتدعوه لحضور مراسم الدفن بأسرع ما يمكن. أنيس كان ابنها الوحيد بين خمس أخوات متزوجات، ومن الضروري أن يكون على رأس المأتم. غيمة من الحزن لا مست قلبه هنيهة لم يلبث أن كثّفها ضحكاً..

ارتدى طقمه الأسود الذي كان قد اشتراه من البالة ليتبختر به في المناسبات السعيدة ويضفي على مظهره نوعاً من الثراء والعظمة. عقد ربطة عنق مبرومة ومدعوكة كأن الكلب قد لاكها.. و

لعن ذلك الذي اخترع ربطة العنق. الأشياء المبتكرة خاصة تلك التي تضغط على العنق تسبب له ضيقاً وتفرض عليه سلوكاً مختلفاً من طبيعته يقنّن فيه الحكي وينمّقه كأنه يخرج من اللسان فقط. الإنسان يخترع وسائل عبوديته بنفسه، وترحم على أيام آدم وورقة التوت.

معه مئة ليرة فقط، هي آخر ما تبقى له من راتبه الذي تقاضاه من (أبو سليم) صاحب مكتب النجاح للعقارات. دسّ مئة الليرة في جيبه حمل حاله واتجه إلى الكراج.

في تلك الأيام من الستينات كانت أجرة الراكب من دمشق إلى بيروت بالتكاسي خمساً وعشرين ليرة.

كانت الشمس مشرقة والسماء بللور شفاف يعكس ضياءً باهراً غمره بالدفء. انفلش جسده في السيارة، وربطة العنق حالت بينه وبين الاسترخاء، أحس أن نعش أمه معلق بها، حلّها، وتهدّلت على صدره كطحالب يابسة.

كلما اقتربت السيارة من بيروت يعلو وجيب قلبه وتستفزه أعصابه، يتوتّر، تفوح منه رائحة حامضة. الواجبات الاجتماعية تدقّه بالمسامير وتشبحه على حائط بارد. حزنه الشخصي ملتصق بمشيمته، خصوصية تعودّ عليها يداريها بكأس من العرق، نشوة آنية تطفو على جثث المهزومين والمقتولين والأوطان السبية.. مآتم لانهاية لها شارك فيها طيلة أعوامه الخمسين.

طاف كيله..

قال لنفسه، كلنا سنموت آجلاً أم عاجلاً وحضوري مأتم أمي لن يعيدها إلى الحياة، لماذا يعقدون هذه المسألة ويصرّون على حضوري، أنا إن متّ سيان عندي إن حضر أولادي مأتمي أم لم يحضروا لأنني أكون قد رحلت ولن أحسّ بوجودهم.

وأم أنيس وأخواته الخمس كانوا يحلفون بحياته،هو الوحيد الغالي بالنسبة إليهن وإن كان قد رحل عنهن منذ ثلث قرن، يعلّقون صوره على أطر المرايا والحيطان. يلتقونه في الأعياد ودوداً ومرحاً، تأخذهن الحيرة من رائحة الحموضة التي كانت تفوح منه.

وصل أنيس إلى بيروت. وبدلاً من أن يستقل الحافلة إلى بيت العائلة طار إلى خمارة (أبو آرتين) طلب كأساً من العرق لينسى.. ويزيل همّ المآتم عن صدره، والكأس جرّ الكأس، ونسي أنيس حاله، ولماذا جاء إلى بيروت! انخرط في عربدة مع زبائن الحانة، حكى لهم حكاية الكنار الذي كان لا يكف عن الغناء وكيف قوّصه الملك لأنه أيقظه من نومه، وعن عنترة بن شداد الذي هرب دمه من الأهوال، وابيضّ جلده حتى أنكرته عبلاه..

كان أنيس يتدفق بالحكي. عندما حان موعد إغلاق الحانة. مترنحاً ذهب إلى شاطئ البحر، نام على الرمل حتى الظهيرة، لما أفاق كان مجبولاً بالرمل والرطوبة ومصدوعاً:

(راحت السكرة وجاءت الفكرة). نهض متكاسلاً. نفض حاله من الرمال، ضرب يده على جيوبه، كانت فارغة تماماً إلا من محرمة كلينكس كان أنيس قد

وضعها احتياطاً لمسح دموعه في مأتم أمه. سار في اتجاه الصخور، فك بنطاله وقضى حاجته، ارتاح وانجلى فكره!

حثّ خطاه إلى قريبه صالح ليستدين بعض المال،تعلل صالح بضيق الأحوال، عرض عليه أنيس أن يبيعه قطعة الأرض التي هي آخر ما تبقى له من إرث أبيه. استغلّ صالح هذه الفرصة وتهللّ وجهه، نقده ألفين من الليرات، وكانت قطعة الأرض تساوي أضعافاً مضاعفة. امتلأت جيوب أنيس بالنقود، ذهب إلى مركز البريد و أرسل برقية تعزية إلى أخواته.. ثم اتجه إلى خمارة (أبو آرتين)!.

١٩٩٩

العاشقات

ثلاث نسوة متشحات بالسواد تتقارب رؤوسهن بالهمس على باب المقبرة كأنهن أشباح خرافية وسط ظلال الليل و عويل الرياح.

المقبرة حجرية، غرفة مستطيلة بطول النعش، سقفها واطئ، إفريز حجري تتوسطه طاقة حديدية مقفولة تسمح بمرور النعش إلى الداخل، تنهض وسط حقل من الأشواك في قفر أجرد تكثر فيه الأفاعي والعقارب.

الأولى تحمل شمعة والثانية علبة كبريت والثالثة مفتاح المقبرة. النسوة الثلاث أعمارهن متقاربة:

ندى زوجة أبيه، مهيبة زوجته، فؤادة حبيبته، تتآكلهن الأحزان بدرجات متفاوتة على عماد الذي رحل في الخريف مع أوراق الشجر.

تقول فؤادة: ليتني متّ قبله وما عشت لهذه الساعة

وتقول ندى: من يردع عصا أبيه الشيخ عني؟

وتقول مهيبة: انكسر ظهري.

لخريف الطبيعة لون الصدأ.

وعماد كان مشتعلاً بالشباب، تدهور بسيارته إلى الوادي وانشطر جسده إلى نصفين.

النسوة الثلاث لم يصدقن رحيله لأنه رحل عنهن بلا وداع.. برمشة عين. ربما فعلن ذلك بعد زمن يمتد عمراً.

فؤادة كانت حبّة الأول قبل زواجه من مهيبة، وندى وافقت على الزواج من أبيه لأنه أبنه.

فؤادة سمراء مربوعة وأنفها صغير كحبة الفستق.

ومهيبة بيضاء وطويلة وأنفها طويل أيضاً.

وندى أطول من فؤادة لونها بني محروق وأنفها مفلطح تشكله بملقط الغسيل ليستقيم مثل أنف فؤادة.

كلهن محروقات الدمع بدرجات متفاوتة.

لم يودّعن عماد، ما شاهدن وجهه، ولا حتى نثرة من ظفره، نعشه كان مغلفاً بالمسامير والدم يقطر من حواشيه، وأبين أن يصدقن موته.

بعد مرور أسبوع على وفاته أقدمن على هذه المغامرة ليتأكدن من رحيله النهائي..

تقرب ندى الشمعة من ثقب المفتاح الذي تديره فؤادة بيد مرتعشة. ومهيبة تتفرس في الظلام خوفاً من أن يباغتهن أحد.

رفعت فؤادة رجلها اليمنى واعتلت إفريز المقبرة وفشخت إلى داخلها ومعها الشمعة والكبريت.

لهسيس الديدان دوي خانق ورائحة التجيّف التصقت بثياب فؤادة ومسامها واخترقت رئتيها وفلقت نخاعها الشوكي، كتمت أنفاسها ومنعت صوتها من الصراخ. استنهضت كل قوتها ومشاعر تحديهّا لتثبت للمرأتين أنها الأكثر عشقاً والعاشق لا يهاب المنايا. ذاك الهسيس وتلك الرائحة ستحملها فؤادة طوال عمرها.

مدّت مهيبة يدها بالمقص إلى فؤادة:

– قصي قصي له جيوبه وخذي المال ومفتاح البيت ولا تنسي محبسة وسنّه الذهبي.

وطلبت ندى منها: خصلة من شعر غرتّه الشقراء.

غطاء التابوت كان متوارياً بالرطوبة. رفعته فؤادة، أطلت على بقايا أدمية مبعثرة تنهشها الديدان، بصعوبة وجدت يده اليسرى ونزعت منها محبس الزواج وبينما كانت تفعل ذلك انفصل الساعد عن الكتف. نفضت يدها من الديدان ووضعت المحبس في جيبها. الجمجمة كانت بلا شفاه، تكشر لها عن أسنانها، لذلك لم تجد صعوبة في نزع السن الذهبية، قصت خصلة الشعر وانزلقت بين أصابعها كالحرير. ملابسه لا زالت جديدة وكذلك حذاؤه. بعكس جسده الذي اهترأ. كسرة بنطاله لازالت على حالها.

قصّت جيوبه وأخذت منها النقود ومفتاح البيت.

خرجت فؤادة من المقبرة ووزعت التذكارات على المرأتين بعد أن تأكدت أن الذي اقتحمت موته.. لم يكن حبيبها.

١٩٩٩

رحيل البجع

(قصص عربية)

عندما كنت صغيرة

كنت في الحارة ألعب بالدراجة مع ابن الجيران سامر وأخته سعاد.

قال سامر: اركبي خلفي وعانقيني من خصري.

صادفتني المرأة الكبيرة وأنا أهم بالركوب. شدَّتني من أذني وجرّتني إلى البيت، كانت تسرع في مشيتها، وأنا أحاول اللحاق بها مثل جرو صغير يئن من الألم.

زجرتني بقسوة:

- لا حق للبنات في اللعب.

- أحب الدراجة.

- ولا في الحب...

كانت القسوة تزمّ ملامحها، وتضيّق مدى إطلالتها على الآخرين تحفر أخاديد مبعثرة حول الفم، يصبح مزموماً كصرّة، وتبعد الشبه بينه وبين أن يكون فماً! هذه الفتحة القائمة في أعلى الذقن وأسفل الوجنتين، لها وظائف أخرى غير الأكل وإصدار الأوامر والنواهي، الضحك والغناء والقبل من مهماتها الضرورية والطبيعية.. وإلاّ استحالت إلى وكر رهيب، رائحته، ولسعاته، تسبب الأسى والذعر.

تحسست فمي خوفاً من عدوى الصرامة..

أحسست أن شفاهي تقلصت وصرمت. تمريت في المرآة حاولت أن أعيدها كما كانت. ضحكت..

كان ضحكي يشبه البكاء. الفم يبكي مثل العين أيضا!

وبسبب تلك الفتحة التي كانت تنذرني بالأهوال والموت، ابتليت بعبادة مشينة سببت لي رضوضا سافرة العيب والخجل، وهي «سلس سخي من البول والدموع» مزاريبي تفرز، وتتدفق كلما صممّت على لجمها وإغلاقها..

في الليل أبول تحتي وأغرق ملابسي وفراشي. تسح الرطوبة إلى نقرتي، أنهض في الصباح ملجومة الأحلام.. ثقيلة بمفرزاتي. أحسّ بخطايا العالم تقطر من ذنوبي وأنا أسحب أختي الصغيرة التي كانت تشاركني الفراش إلى مكاني. أبدل سروالي المبلول بسروالها الجاف، أنام مكانها، وأنا على يقين تام بأن المرأة الكبيرة لن تصدقني أبداً مهما توسلت إليها وأقسمت لها بأنني «لم أفعلها». وأن أختي الصغيرة هي التي فعلتها.

سوف تجلدني وتعضّني كما تفعل كل صباح، آه.. لو تنشقّ الأرض وتبتلعني قبل أن تفيق المرأة الكبيرة من نومها، وتبدأ طقوسها الصباحية.

خيوط الفجر المتسللة من النافذة إلى سريري، تعمّق إدانتي،تثبت جرمي وتفضحه، تحيل رطوبتي المبقعة على شرشفي إلى دائرة صفراء كبيرة مؤطرة باللون البني.

تفيق المرأة الكبيرة، تتوجّه إلى فراشي مباشرة كأنها رأته في منامها. تتحسس مكاني وهي تسوطني بنظراتها. تتكشف حيلتي، وارتجف مثل قصبة في مهب الريح.. وأتلعثم.. تجلدني، تغرز أسنانها الحادة في لحمي وفروة رأسي. ينزّ الدم من مسامي، وأخاف.. وبأمر من المرأة الكبيرة التي خلقها الله لقصاصي وتأديبي، أحمل فراشي على ظهري، وأصعد به إلى سطح المنزل. ينوء جسدي الصغير بثقله، أتعثر بخطواتي.. وأتكدم من الرضوض. أنشر فراشي في عين الشمس. أعود لأغسل شرشفي وملابسي. تواجهني صعوبة كبيرة في غسل الشرشف وعصره. كان حجمه كبيراً على راحتي. بعد أن أنتهي من دعكه بالصابون، وتفويحه بالماء، أمسك طرفه بأسناني، وأبرمه بيدي لأعصره من الماء، تتورم أصابعي، ويقرح الملح أهدابي.

ولا يبالي أحد بما يحدث لي...

قسوة العقاب تعلّم في العينين أكثر من الجسد. تطفئ مراياها وتشم الأحداق بالانكسار... العيون نوافذ الروح..

في المدرسة لا أرى أحرف الكلمات المكتوبة على السبورة بالطبشور! وعيناي واسعتان تحتلان نصف وجهي وتطلّ منها مرايا مكسورة، تؤنبني المعلمة:

عيناك كعيني البقرة... ولا ترين ما هو مكتوب على السبورة؟

... وفمي بقي مغلقاً ومصروماً... كأنه رسم رسماً على وجهي.

ولساني في مكمنه الحار والضيّق تسري فيه ارتعاشات الحمّى، وتزيد من جفافه وتشققه... وأصطك مع أسناني في عز الصيف!!

مساحة النظر.. أكلت مساحة النطق.

بكُمي ضايق المرأة الكبيرة.. قلقت على عونستي الآتية. طلبت من مدير المدرسة أن يعلّمني الحكي!!

أتحدث همساً إلى نفسي، ولا مخلوق على وجه الأرض سمع نطقي السليم سوى صديقتي(آنجيل). في غرفة الإدارة يحتجزونني ساعات بعد انتهاء دوام الطالبات.. ليعلموني الحكي.. وأعرق كثيراً من هذه المشقّة التي تتطلب تركيزاً وجهداً.

يطلب مني الأستاذ مروان قراءة الجملة التالية:

ركبت البنت على الدراجة!!

أتضوّر من الدهشة، تتسع عيناي، ويزداد جفاف حلقي. يلوب لساني في مكامن الحريق.. يشويه سعار النار.

كيف أحرك لساني وأدفع حريقي إلى خارجي؟ كنت أخاف أن أسبب الحرائق والمصائب والدمار، إذا ما تفوهت، أو ندهت حتى على الله، أو سميت الأشياء كما تنعكس في عيني وقلبي. المدير أبله لا يعرف هذا، وأنا أعرف أكثر منه. كيف يكتبون في الكتب المدرسية (ركبت البنت على الدراجة)؟ لو عرفت المرأة الكبيرة أن تعليمي للحكي يبدأ بهذه الجملة، لفضلت أن أبقى بكماء.. وعانساً، إلى الأبد:

ليس للبنات المؤدبات المطيعات الحق في ركوب الدراجات.

طال صمتي، والمدير ينتظر نطقي، ظنّ أن الجملة التي طلب مني نطقها لم تستحوذ على إعجابي، واستبدلها بجملة ثانية:

«لعبت البنت بالطابة»!

بكيت بحرقة لأنه تجاهلني إلى هذه الدرجة.

لامس شغافي دون اكتراث، وجرحتني هذه الملامسة أكثر مما كنت أتصوّر.. والأستاذ مروان يتصبب عرقاً.. وحناناً.

نطقت بهمس مضطرب:

الدراجة.. الطابة.

رغم أنني شهقت حروفها إلى الداخل، قال مزهواً بانتصاره:

- رخص الخبز!

لم أفهم ما يعنيه تماماً، ترى ماهي العلاقة بين نطقي والخبز؟؟ لابدّ أن معلمي على حق، لو نطق كل الجياع وأشهروا جوعهم.. لرخص الخبز وأصبح متوفراً لكل فم. ربما أحبني أحد، وسألني عن أسباب تقرح أهدابي وتوّرم أصابعي، إذا ما نطقت.

الدراجة.. الطابة. مباهج أراها وتسحرني، نطقت بها كأنني أناديها من بلاد بعيدة

أسقطت اللعب من نطقي!! اللعب صخب وخفة وتورد وجنتين ولهاث، وجسدي كأنه ليس لي، يابس كأنه مقطوع من جذع سنديانه هرمة، مفاصلي لا تطاوع إرادتي، وأنا لا زلت في العاشرة!!

«ساقية الشواغير، التي كانت تميّز مسقط رأسي، عبارة عن صخرة مفلوقة إلى نصفين متجاورين، بينهما مجرى ضيّق تتدفق مياهه الرقراقة العذبة إلى الوادي، كأنها دموع مقلتين، تسيل وتلتقي في مجرى واحد، يقولون إنه في زمن مضى كان يلتقي شاب وصبية في ذلك المكان الذي كان قفراً، ويلعبان بعيداً عن تجسس العيون ومكرها.. مسخهما الله إلى صخرتين متجاورتين تسحّان دمعاً سخياً، وتتواصلان من خلال حزنهما الأبدي. وإلى تلك الساقية ينسب الكبار أسباب انقصاف أعمار الصبايا، زهرة، مياسة، نورا، إنعام، هدى. كلهن قضين نحبهن بعد أن اغتسلن وتراشقن بمياه الساقية التي أصبحت منذ ذلك الحين، حكراً على الدّواب فقط!!».

قال لي معلمي «برافو»، وهو يزيح قطرات العرق عن صدغيه، بسبابته.

أسكرني إطراؤه، دون أن تغيب صورة المرأة الكبيرة لحظة واحدة عن عيني وذاكرتي، كانت هذه المرّة الأولى طيلة سنواتي العشر التي أسمع فيها كلمة إطراء! وكان لها وقع سحري جميل امتصتّه مسامي وهزجت بالندى. ولولا تلك الأشياء الثقيلة المحشوة في تلافيفي وذاكرتي... لطرت من الفرح على إيقاعها.. ورقصت.

عندما خرج من المدرسة في ذلك اليوم الذي أرّخت فيه «نطقي العلني». كنت أغنيّ للطابة والدراجة بصوت مسموع واضح النبرات، وجريء إلى حد ما. ويداي تطيران وتصطفقان كالأجنحة. كلمة واحدة فقط أحدثت كل هذا التحول في القلب واللسان والكيان!! يا إلهي.. ما أعظم سرّ خلقك! الإنسان كلمات.. يمشي ويضحك بالكلمة، يغني ويكبر بها.. ويُقتل أيضاً. آه لو عرفت المرأة الكبيرة هذا، ربما رأفت بحالي وتركتني أكبر على سجيتيّ.

بدا لي باب بيتنا في ذلك اليوم، كأنه باب قلعة عتيقة سوّسته الانكسارات وانحناء الهامات. خرس لساني على الفور، همدت حركاتي، استنفرني خوفي، حالة تأهب قصوى شلّت طفولتي وشطحت بي إلى الهرم. كانت أختي الصغيرة تلعب بدميتها الشقراء التي تشبه الملائكة.

لم تكن لي واحدة مثلها أبداً. لذلك كنت أختلس أشواقي إليها في الليل، أداعب شعرها الحريري على العتمة، ألثم خدها وشفاهها الوردية.. وأختي نائمة، وأنظار المرأة الكبيرة غافلة عنيّ. استقبلتني المرأة الكبيرة بوجه مأزوم التقاطيع، وكالعادة، طلبت مني الصعود إلى السطح لأحضر فراشي وشرشفي. أرزخ تحت شعور مرير بالدونية، وأنا أحمل فراشي على رأسي، أدفنه في الأرض كالنعامة، موهمة نفسي أنه لم يرني أحد الجيران، ويعرف أنني« فعلتها تحتي».

في اليوم التالي لاحظت أن صديقتي «آنجيل» التي كانت تشاركني مقعدي في الصف، تنهب خديها قرصاً عندما دخل الأستاذ مروان. حيّرتني «آنجيل» بقرص خدّيها وشوّشت تفكيري، ولأنها كانت متفوقة في شطارتها على كل بنات صفنا، قلت لنفسي، ربما ما تفعله بخديّها يزيد من حدّة ذكائها... وفعلت مثلها..

آلمت خديّ قرصاتي المجنونة، لم أترك مساحة رأس دبّوس على صفحتهما دون قرص. هكذا أصبحت أنا وآنجيل في درس الأستاذ مروان.. عابقتين بالاحمرار، مع خدر طفيف وساخن في الوجنات. الأستاذ مروان كان مليحاً على العموم، بشرته تميل إلى البياض مع شحوب طفيف. عيناه سوداوان وواسعتان، ونظراته لا تستقر على شيء محدد، فهي دائمة اللوبان، مثل عيون العصافير. وشعره أسود، يسترسل على جبهته عندما يعرق، ولولا شنبه الرفيع، لبدا كأنه طالب من طلاب مدرسة الذكور القريبة من مدرستنا، وكان قدّه النحيل، وتفاحته البارزة مع عظام وجنتيه، وهندامه البسيط والفوضوي، يتناسب مع حركاته القلقة.

دَرسنا في يوم «القرص»، كان عن «الأفعال الناقصة»، لم أستوعب منه شيئاً لانشغالي بتقليد «آنجيل».

حين رنّ الجرس معلناً انتهاء الدرس، كانت خدودنا أنا وآنجيل، بلون «الكلوة». الاحمرار القسري يخلف زرقة. على باب الصف بادرتني آنجيل غاضبة:

لماذا قرصت خديك؟

قلت لها إنني فعلت ذلك لأنني أقلدها.

قالت:

ما شأنك أنت بي؟ أنا أحب الأستاذ مروان، وأقرص خدي ليصبحا بلون الورد الجوري حتى يراني جميلة... ويحبني مثلما أحبه.

سألتها مدهوشة: تحبينه؟ ماذا يعني الحب؟

حملقت بي غير مصدقة. ولمّا تأكد لها غبائي المطلق في هذا المضمار، قالت:

أنا أحب الأستاذ مروان، وإذا ثابرت على قرص خديّ واجتهادي، ربما أحبني، ونتزوج عندما أكبر... وننجب الأطفال:

هل تعرفين يا «آنجيل» كيف تنجبين الأطفال؟ قالت:

عندما يعانق الرجل المرأة التي يحبها، وتعانق المرأة الرجل الذي تحبه، ينجبان أطفالاً في منتهى الروعة والجمال.

صدقت «آنجيل» لأنها كانت أكبر مني.. ومن الطبيعي أن تعرف أكثر. مات نطقي مجدداً، لأنها قلبت مفاهيمي السابقة والراسخة المتعلقة بإنجاب الأطفال. أمي التي كانت تنام وحدها، حتى ولو كان أبي غير مسافر، قالت لي، إنها وجدتني مصادفة تحت شجرة التين العارية في فصل الشتاء، وإنها وجدت أختي تحت الياسمينة في فصل الربيع، لذلك ترسخ لديّ اعتقاد، أن أشجار التين العارية تنجب البنات واسعات العيون، والياسمينات الضاحكات تنجب بنات قرمزيات الشفاه.

حسدت «آنجيل» على معارفها وشطارتها وعشقها، وتمنيت لو أنني كنت أعرف مثلها. ولكن من أين لي أن أعرف، والمرأة الكبيرة تعضّ على شفتها السفلى وتنهرني كلما زارتنا قريبة أو جارة، كي أتوارى عن الأنظار، حتى لا أسمع كلام «النسوان»؟؟ لذلك يستحيل عليّ أن أعرف مثل «آنجيل». وحدي.

أويت إلى فراشي وأنا متلبسة عشق «آنجيل»، غرقت وسادتي بمساكب الورد الجوري، حلمت بحقول فسيحة، وجياد بيضاء تندفع الرياح من أنوفها، وزرافات تسابق أعناقها طول الأشجار، وأيائل تستعرض رشاقتها وتعدو.

في الصباح، كان فراشي جافاً، ولم تجلدني أمي.

كنوز الخجل

عادة تنكس الأهداب، كأن عينيها مغلقتان ومستغرقتان في أحداث حلم لا ينتهي، ربما اكتسبتها من أمها، قبل النصيحة، وتصبح الرؤية لا تتعدى مجال الخطوة:

– انظري إلى الأرض دائماً، سواء كنت تمشين في الشارع، أو كنت تصغين إلى كلام الكبار.

وكانت «امتثال» تحب أن ترفع أهدابها إلى فوق أحياناً، وتتفرج على الشمس ومحلات الألعاب والملابس والحلوى وعيون محدثيها وأفواههم. إغراء الجاذبية لا يحول دون الطيران، الطيور تحط على الأرض... وتطير...

«وكانت أم «امتثال» قد أسبلت جفنيها في يوم عرسها وهي جالسة «عالأسكي». وسط الطبل والزمر والزغاريد كانت تحلق فوق حواجز العادات والتقاليد التي كانت تلزم العروس بإغماض عينيها في ليلة فرحها، وإلاّ اتهمت بالصفاقة والوقاحة وقلة الأدب... تأخذها أجنحة أحلامها إلى جنة العشاق التي تنزّ قبلاً وفراشات».

– وإشارات المرور، كيف أرى لونها الأحمر؟

– يا عبيطة... لست بحاجة أن ترفعي نظرك إليها، ما عليك سوى مراقبة الأقدام التي تتقدمك وتحيط بك. توقفي عندما تتوقف.. وهرولي عندما تهرول، تحركي على إيقاع خطواتها.

صارت «امتثال» «تدلي برأسها إلى الأرض كلما خرجت من البيت، حتى أن ذقنها كانت تدخل في تجويف نحرها كالوتد. تستغرق في تأمل الأقدام

وإيقاعاتها. ومن خلال الأحذية والخطوات، كانت تتعرف على جنس الناس وأعمارهم ومستواهم الاجتماعي وقدوم الأعياد. يدوخ رأسها من تنافر الخطوات والموديلات، تتفحص كل ما يعترض طريقها من أشياء ونفايات. أحياناً تتوقف فجأة وتحني جذعها لتلتقط مشبك شعر أو فردة حلق أو زراً.. وكان يفرحها كثيراً العثور على مثل هذه الأشياء. وعندما يكون الرصيف لامعاً ونظيفاً ومرتاحاً من عجقة المارة. كانت «امتثال» تحكم خطواتها داخل مربعاته الرمادية، وتقفز على رجل واحدة «كالكنغر» من بلاطة إلى أخرى، وتلعب.. وحدها.

ولأن للإطراق ثماراً إيجابية يحين قطافها بعد خبرة وصبر طويل. بدأت طريقة «امتثال» في المشي تعطي ثمارها، كان ذلك عندما ذهبت إلى «الفيجة» لملء الإبريق بالمياه الباردة، وبحكم العادة، فلحت الأرض بعينيها، حفر حول صنبور الماء تغص بالمياه الموحلة، مشكلة بركاً صغيرة. في إحدى هذه البرك لمحت «امتثال» منديلاً معقوداً على شكل صرّة. خاضت في الماء والتقطته على عجل ودسته في جيبها كأنه لها. ملأت إبريقها وعادت إلى البيت. رغم استعجالها ما تعثرت أبداً وكسرت الإبريق! بوصولها الملهوف إلى البيت، وضعت الإبريق على إفريز النافذة، انزلق وانكسر. كانت المرة الأولى التي كسرت فيها الإبريق، ناولت أمها الصرّة، التي فكت عقدتها بعد جهد. كانت ترشح ماء ووحلاً، فردت محتوياتها فوق حصيرة مجدولة من سيقان الحنطة. تحلّق أفراد الأسرة حول الحصيرة، نقود معدنية وورقية غطت مساحتها، عيون جاحظة وشروش رقاب نافرة، والكنز في الوسط يبدو كمعجزة صعبة التصديق. امتدت الأكف الصغيرة مرتعشة كاليراعات، لامست محتويات الكنز لتتأكد من وجوده، أكبر قطعة نقدية كانت من فئة المائة ليرة.. والباقي «فراطة».

نهرت الأم الأيدي الممتدة إلى الكنز، حتى لا تتمزق نقوده المبتلة.

ستة أفواه نفخت على النقود حتى طقطقت من الجفاف.

اشتروا لحمة وبندورة وبصلاً أخضر وخبزاً تنورياً وعلبة حلاوة سمسميّة ولوح صابون غار. تدافشوا وتضاحكوا وهم يغمسون لقيماتهم بالإدام الذي كان

يقطر من أصابعهم ويسيل على جوانب أفواههم ويشط من ذقونهم، تصايحوا وصخبوا وغنّوا وهم يغسلون جلودهم اليابسة بصابون الغار.

ومن يومها عشقت «امتثال» الإطراق.

في الصبح الباكر، وقبل خروج طوابير الأولاد إلى المدرسة، تفتح الباب وتتسلّ كنسمة. تحمل كيساً من النايلون... وتكنّس الأرض بأهدابها كانت تبحث عن معجزة أخرى، ولو صادفتها هذه المعجزة. سوف تشتري قبقاباً مطعّماً بالأصداف. كانت مشاويرها تكلل أحياناً بالعثور على نصف ليرة أو ليرة أو خمس ليرات مكسرة من كثرة طياتها المضغوطة.

في إحدى المرات، والمساء يرخي سدوله، وكيس «امتثال» خاو كمعدتها، لمحت في ضوء القمر، شيئاً فضياً، لامعاً ومستديراً، كان يشبه الليرة المعدنية في شكله. انحنت ومدت يدها لالتقاطه. التصقت أصابعها بمادة لزجة كثيفة الدبق سرعان ما تخثرت على أصابعها كالغراء!! ومن يومها صارت «امتثال» تتمعن أكثر في الأشياء التي تصادفها في دربها قبل أن تهجم عليها.. وتلتقطها.

تاج من شوك

تاج المرأة شعرها.. ومذبح النخلة رأسها.. جدائلي مشنقة.

يفصلون التيجان لرأسي القائظ على هواهم. يحصرونه في قالب ضيّق ومحدود كأنه قدم. تتورّم.. ويصدعني. الله زيّن رأسي بشعري.. ليغريني بالأنوثة، ويدفع عني هجمات القرّ والحرّ.

يلفحني احتراقي.

تتكدس الجعلان السوداء على باب غرفة نومي، أسحقها، صوت سحقها، يقزز عظامي، يقول أخي مؤنباً: الجعلان مقدسة، تحرسني في نومي، وتمنع أحلام المراهقة المجنونة من اجتياز عتبتي. أقول له: تلك كانت جعلاناً ذهبية..

وأكف عن قتلها حتى ولو كانت سوداء كالليل.

ألتقط الجعلان عن الأرض الباردة، أنيمها على كفيّ وأضعها على حافة النافذة. بعد لحظات تجف وتموت، لأنها لا تحب الشمس والشمس لا تحب السواد.

عشقي للشمس أمارس طقوسه سراً، يفضحني ويعلّم لونه الأبنوسي القاسي على جلدي، واللحم الأبيض يدر اللعاب أكثر، ويثير النهم الكامن في أعماق الجوع:

لحم السمك والدجاج أبيض..

دجاجات خالتي أم صلاح ينِفقن باستمرار، الواحدة تلو الأخرى، الديك الخمري ذو العرف الأحمر، يزرع منقاره الحاد في لحمهن أثناء عملية الجماع. في الصباح تذبح خالتي الدجاجة النازفة وتلعن الديك الشرس!

أنا ابتسام، عمري من عمر شجرة التفاح التي زرعها أبي في حديقة بيتنا، وطلب من أمي أن ترعاها وتسقيها، تتفيأ بظلها، ورجاها ألاّ تقطف ثمارها وهي فجّة.

التفاح شهي، رائحته مغرية كالموت، تسوط المسام العطشى بإبر العسل، تعشعش في خلايا الدماغ وشهقة الروح وبعاق الأحشاء.

كلنا نحب التفاح!

رحل أبي، وأمي قطفته فجّاً قبل الآوان، قضمته سرّاً، ولعنته جهراً، وأخي يوسف فعل مثلها، وعمتي الحاجة لطيفة، كانت تخزنه في صندوق ملابسها، كي تبعد «العثّ» عن جسدها. وأنا أحبّ أن أرسمه بألوانه الذبيحة والشاحبة.

– أجمل ما فيك شعرك!

يصرّون على هذه اللازمة الحتمية كالأقدار العمياء، بقوة الأوصياء، أصحاب الهيبة والنفوذ:

أن يبقى طويلاً مسكوباً على ظهري كالليل.. أو مضموماً كذيل مهرة.

– إن مددت يدك إلى شعرك، سوف نكسرها.

صوت يشوشّ إيقاعات الكون من حولي. تضيق حواسي، وتنسى وظائفها الطبيعية.. ولا أسمع غناء العصافير وهدير البحر وهسيس الريح وصوت المطر.

تراودني رغبة جامحة في مسك المقصّ، وقصّ أطراف شعري المتشققة واليابسة. يروعني خوفي على يدي من الكسر، وإذا كُسرت يدي لا سمح الله، من يحمي وجهي من الصفعات؟

دَغلي المشوش هذا، لعنة أبدية. يكسو رأسي، يطول ويغزر بلا إذن مني، مثله مثل بقيّة تكاويني التي تنمو وتتكور في غفلة عنّي. منابته تتحوّل إلى حناجر مقلوعة عندما يتخذ وسيلة لقاصي.. ويتحول إلى ليل مذبوح النجوم.

عندما خطبني عبد المنان، كرر اللازمة:

– أجمل ما فيك شعرك..

كتمت غيظي ورسمت ابتسامة رضى على شفاهي، لقد تعوّدت على هذا البخسان والنكران الذي اختصرني كليّ ب «شوشتي».

هو، عبد المنان، مثل الآخرين، لا يملك شيئاً من مزايا الفرسان وعلاماتهم الفارقة الذين ينقشونها على جباه الصبايا أفلاكاً. يذهب الفرسان إلى الحرب والصيد، والصبايا يحكن الصوف والتنتنا في انتظار عودتهم محملين بالطرائد والأوسمة.

أعلق مديتي على نحري، أسير إلى يومي حثيثاً، سأمتلك زمام شعري وأجزّه من منابته، وأفوّت عليهم فرصة متعتهم بإذلالي... ولا أعود جميلة في نظرهم، وأرتاح من عبودية أرهقتني سبعة عشر عاماً بالتمام والكمال.

توجعني ضفائري، أفيق من نومي على صراخ مكوّم في زغبها الذي نما بعد اقتلاع خصلات منها، توجعني فساتيني التي تضيق باستمرار عند النهدين والخصر، وينشمر طولها إلى ما فوق ركبتي.

الخلاص أقرب من الدمعة.. وأبعد من المجرّة!

إلى أن يحين يوم امتلاكي لشعري، أموّه رغباتي بطفولة مصطنعة، ساخرة من الشيب الذي بدا يغزو قلبي. جدّلته وحبست نهاياته بدبابيس لها شكل فراشة قزحية لأخفف من ثقله على كاهلي:

الحبال للربط والشنق.

وضفيرتاي من عمر أنفاسي الجنينيّة، مدموغتان بظلمة الرحم.. لا تشبهان أي ضفائر.. قاسيتان كذيول الأمهر، تتدليان إلى وركي بشماتة، تنطان عندما أنط، وتنامان عندما أنام.

يوسف زوج أمي، اختلس يده إلى شعري، ومشت أصابعه على طول انسيابه، حطت على وركي، وقال يوسف، آه...

لمحته الزوجة وهو يفعل ذلك.. ويتحشرج. دافع عن نفسه وقال، الشيطانة أغوتني. بسرعة استدركت ردة فعل الزوجة، حملت شعري وهربت حافية القدمين، سقطت على الدرج عدة مرات من شدة خوفي. والزوجة تلحق بي وتهبط خلفي

وبيدها علاقة ثياب خشبية، في وسطها سلك معدني على شكل علامة استفهام(؟)، ضفائري تنبض بذعر قلبي وتنط ورائي. يطوحها الخوف بعيدة عني. تمكنت الزوجة منها، شدتها إليها وبرمتها على كفها. أصبحت أنا في قاع الدرج، ضربتني بعلاقة الثياب، ذبح سلكها المعدني معصمي، وكان رأسي المسحوب على الدرج من ضفائره.. يسبقني ويبكي من جراء ارتطامه بالحجر! تركت جرحي فاغراً، تورمت شفتاه، حشوته بالبن حتى انقطع نزفه.. وخلف ندبة عميقة، كانت تنمو وتكبر مع الأيام، كلما كبرت. من قال أن الأيام تشفي الندوب؟ القضية ليست قضية زمن، تعلو صرخة الندبة بالذاكرة كلما حاولنا زرع وردة لتمويه بشاعة آثارها المحزوزة في عمقنا.

«عبد المنان» كاد يهلك من التعب وهو يركض وراء شعري. وضع علامة على باب بيتنا مثل حرامية علي بابا الذين كانوا يريدون سرقة كنوزه، في اليوم التالي جاء مع أمه وعمته وأخته الكبيرة وخطبني.

تحلّيت بالشجاعة.. ووافقت في الحال. لم أبال بسنواته الأربعين، ولا بشباك العنكبوت حول عينيه، متناسية تماماً عري رأسه من الشعر. أدركت بفطرتي أنه انتقائي ليعوّض عن «مَحله»!

حبس خاتم الخطبة إصبعي، وفرحت به كأنه خاتم المارد الذي سينقذني من عذابات شعري. أتأمله بإعجاب شديد وهو يغوص في دائرة من اللحم، أرفع يدي بمناسبة وغير مناسبة كي أظهره ببنصري على الملأ، ظناً مني أنني أصبحت إنسانة، لها رأي وكيان!! زرت صديقتي «ثريا» التي كان شعرها قصيراً مثل شعر الصبيان، كنت وأنا أحدثها أرفع يدي بحركة استعراضية، لمحت «ثريا» المحبس، وقالت لي مبروك، أخبرتها همساً أنني سأقص شعري مثلها:

مسكينة«ثريا» شارفت على العشرين، ولم يخطبها أحد!!

تبدّلت..

انتقلتُ من حالة الكمون والسكوت، إلى فاعلية الحركة ومسؤولياتها، من الموضوع.. إلى الذات.

لبست ثوب العروس، وتزينت بالغار. كانت عشتار تزفني إلى فصول الربيع الآتية، وشعري الذي حزمته على شكل سنابل قمح يعانق راسي ويبوح له بأغاني الوداع:

– لا بأس أن أصرّ عبد المنان في ليلة الدخلة أن تفرشي شعرك على وسادته لينيم رأسه ويحلم. رضخت لرغبته شهوراً وحنين أصابعك يتفاقم إلى المقص، فأنت لم تتزوجيه إلا من أجل قصّ شعرك، تحقيق رغبة صغيرة، ضريبتها العمر!! عبد المنان لم يسئ إليك، ولن يفعل إذا ما حققت رغبتك الدفينة هذه.فالرجل هو الرجل وبإمكانك أن تعوضي له عن غزارة شعرك، بغزارات أخرى. رضخت لرغبته طوال فصل الشتاء وكان شعرك وسادته، ولمّا جاء فصل الصيف قلت لنفسك، إن عبد المنان، نام وشبع نوماً على شعري:

في الصيف يجزون صوف الخروف..

كان عبد المنان غائباً. أمسكت المقص وحسمت عذاباتي. جززت شعري، وخصلاته المتهاوية إلى الأرض تأبى أن تفارقني، تعلق بقاياها على كتفي وصدغي. مسحت دمعتين وأنا أكنسها، وألقيتها في صندوق القمامة. وترحمت على جدتي التي كانت كلما مشطت شعرها، تجمع بقاياه العالقة بأسنان المشط وتبرمها على أصبعها مثل الكعكة، وتحشو بها وسادتها.

أتأمل نفسي بالمرآة،أضحك وأمدّ لساني، لأتأكد أن المرأة التي كانت قبالتي..هي أنا. غربة كصاعقة حاصرتني حتى الاختناق، وأنا مشدوهة بالمرأة الغريبة التي كانت تمدّ لي لسانها وتضحك! توسلت إليها أن تكف عن سخريتها، وتحبني كما أحبها. جارتني في نظراتها التي يمتزج فيها الانتصار بالانكسار،والضحك بالدمع. شففنا معاً،ورقصنا رقصة الطائر الذبيح. داهمنا عبد المنان ونحن نرقص. فغر فمه وارتبط لسانه، فك «قشاط» بنطاله وطواه الى نصفين، هربنا منه وكنا نمد لسانينا ونضحك، في ركضنا قلبنا الكنبات والطاولات والكراسي.تحطمت المزهريات وصورة العروس والعريس، وعبد المنان يركض خلفنا ويلوّح لنا «بقشاطه»، وينهرنا ويتوعدنا بصوته. اختبأنا خلف الأثاث المقلوب، ورحنا نلعب لعبة القط والفأر.

موت الوردة

مسكونة بطنين خرافي وأعياد خصب عتيقة.

في العيد لبست حذاءها الأخضر، وفستانها البنفسجي، جلست على الأريكة وانتظرته. جاءها على حصان طروادة؛

ببطن الحصان مؤامرة، أسلحة، وجنود!

والتاريخ رجل عجوز، ينطق بالأمس..

اصطحبها إلى المطعم، جلسا متقابلين، بينهما طاولة ومزهرية فيها وردة حمراء. استشفّته بنظراتها الطفولية الحالمة، واستشفها بخبراته السابقة واللاحقة.

همست شهرزاد في أذنها: الحياة تُشترى كل يوم بحكاية:

«ليل البارحة شاهدت نفسي في الحلم أتسلق جبلاً شاهقاً، أملس الجوانب. كنت أغرز أظافري كالكلاليب في خاصرته الملساء، وأصعد. خوفي من الهاوية كان يدفعني إلى الأعلى. وفجأة، أحسست بك خلفي، أمسكت بي، رجوتك أن تدعني لأن أظافري بالكاد تحملني، وأنت عندك مسدس وسكاكين، يمكنك بواسطتها أن تذبح خاصرة الجبل، أو تطلق عليها النار، وتحفر سلماً لصعودك. كان هذا قبل وصولي للقمة بقليل، مددت ساعدي إليها، انشقّ رأسها عن وتد حديدي أحكمت قبضتي حوله وصعدت إليها وحيدة».

ثار كعاصفة، زوبعتها رمالها، ترمّد وجهه من الغضب. قال لها، إنها تبحث عن بديل غيره!

كيف يتجرأ على مسخها بالخيانة؟ طفح جلدها بأورام حمراء مثل حبات الترمس، وصمتت. خباياها تنعكس على وجهها بوضوح، كأنه طفل اقترف ذنباً

لا يعرفه، ولا تريده أن يطل على أحزانها في العيد. تختلسه على عجل مثل المحكوم بالإعدام، الذي يكثّف عمره الباقي بلحظة، يا إلهي، ما أجمل تكاوينه! كأنه تمثال عاجي لإله قدّ من قرون الوعل. تُرى لماذا لا ينطبق خارجه على داخله؟ يحيّرها هذا التمويه بتعقيداته وغموضه. هاجس الفراق يحمل لها وحشة الآتي وضيمه، تذوب كشمعة في معبد مهجور. تضنيها الشكوك. يكذّب قلبها ومشاعرها، ويغلبها بحججه المنطقية إلى درجة أنها صارت تشك بأحاسيسها وقدراتها العقلية.

تعرف أنها «معيوبة»، غموضه يوقعها في مطبات وتناقضات كثيرة، بعيدة كل البعد عن رصانة امرأة في مثل سنّها. لطالما جابهها بأخطائها، وهو ساكن، لا يرمش له جفن، أو ترتعش له نبرة. يقلب المواقف، وتميل كفّة الميزان. يصبح الضحية، وهي الجلاد! وتعتذر منه.

يفسّرها حسب مفردات قاموسه التي لا تقبل التأويل أو الجدل.. وتتدرج مآخذه عليها في قائمة الكبائر. عفويتها وتناقضاتها، طيبتها ووداعتها، ومزاجيتها التي ترهقه كثيراً. يقسو عليها ويضربها لأقل هفوة.. ثم يصهرها عجينة في آتون عشقه!! يقول لها، إن جهنّم ملأى بالنوايا الحسنة.. وتعذره!! رجل يعصره الحصر والشكوك، منهوب بجوع عتيق للمرأة والسلطة والمال. كتب تاريخه على جسدها وصبّ قهره في أحشائها، الذنب ذنبها، تعرّت من جلدها أمامه، وباحت له بتفاصيل ماضيها وحاضرها، فعلت ذلك، لأنها أحبتّه، والصراحة هي دوحة المحبين، فما يبنى على الغموض والخداع، خسيس وقصير الأمد. قالت له، إنّ عشرات العشاق ركعوا على قدميها قبل أن تلتقيه، وإنه فارسهم الأبهى والأجمل! غطّى جرح كبريائه ورجولته المهانة، حتى تفرغ جرابها من محتواه وأسراره، وفعلت.. لعله يجاريها البوح، و«تدوزن» ايقاعها على إيقاعه!! ولكن.. هيهات أن يكون لها مثل هذا!

هو «سلطان»، رجل كتوم، متوازن جداً، كل شيء عنده بحساب. لا يخطئ قيد شعرة،في عقله سيناريو ومؤامرة جاهزة، يتمتع بصبر هائل وأناة مدروسة، وقدرة فذّة عاى المناقشة والمماحكة، ورد الصاع صاعين، لا يتحدث

عن نفسه أبداً، إذ يعتبر مثل هذا تعريضاً بمحرماته الشخصية. يقنّن ضحكه ومزاجه قدر الإمكان ليبقى مرهوب الجانب. لعن الساعة التي جمعته بها، دخلت عليه كالعاصفة تطلب عملاً، حركاتها الراقصة الهوجاء، أطارت وبعثرت الأوراق التي رتّبها على مكتبه. ولأنه يابس ومجفول، لم تصدر عنه ردة الفعل التي راودته، بقي كالطود في ثيابه، يتصنع العظمة.

أمامه طفلة في جسد امرأة! ياللهول!! ملعون أبوها وقبيلتها التي سمحت لها بكل هذا التمادي والفجور. السذاجة والعفوية لا وجود لها في قاموسه.حصّن نفسه من لعنتها. عذوبتها وحديثها الحار كفيلان بإذابة جليد العالم. لم يجفلها صمته وتحديقه المباشر في بياض أسنانها، تمادت أكثر، وخاطبته باسمه مباشرة، دون أن تسبق تسميتها ب «أستاذ» أو «سيد». هذه المرأة اللعنة بعينها، ترفع الكلفة بينها وبينه، وتحدثه كأنها تعرفه منذ أجيال عدّة؟ رفع الكلفة مرفوض حتى بين الأصدقاء، فما بالك إذا كان مثل هذا الأمر يتعلق بامرأة؟ الكلفة هي حصونها، وجدّيتها قلاعها. قالت له، إن معظم أصدقائها من الرجال، وإنّها ترحب به أن يكون صديقها ومعلمها، فهي محسودة ومكروهة من بنات جنسها، وإن المرأة هي أشدّ أعداء بنات جنسها، وليس الرجال.

لا بأس، قال لنفسه، سأروض هذه المرأة بحظيرتي، وألهبها بسياطي، وأريها نجوم الظهيرة. وأبصق على تفاهتها.

وافق أن تكون سكرتيرته على شرط أن ترتدي ملابس رصينة ومحشومة. تزوجها سراً بعدما بذرها بالوعود والأحلام. لم يماطل في وعوده، وأشبعها حباً وقتلاً! زياراته لها لم تخف وتتباعد مع تباعد الأيام. انتظارها له أطول من عمر الصبر، وحضوره سكينة مؤقتة. تخفق حوله مثل يراعة مشبوقة بالانتحار. يأتيها معفّراً، ملابسه مدعوكة، وشعره ملتصق ببعضه من إفرازاته الدهنية. تحممه كطفلها، تتحاشى أن تخدش جلده.. أو تدخل رغوة الصابون في عينيه. تدفن رأسها المتعب في صدره، تمرّغ دمعها بشعيراته، تزرع قلقها بين ضلوعه، لعلّ ضلعه الناقص، يكتمل ويكبر إلى آلامها. تتمنى لو توافيها منيتها وهي مطمئنة، لا تسأله عن سبب تأخيره، لأنها لا تحب أن يكذب عليها. ولأنه تخصّه وحده،

تمشي على صراطه وتحمل تعاويذه وشكوكه. تتشفّى من رحيقها بالتدريج. يحدّثها بلغة الأرقام الجارحة والفجّة عن الربح والخسارة. المعادلات الرياضية تربكها، والرومانسية في زمن الأصفار جريمة لا تغتفر. يطلب منها أن تكون «أخت الرجال»، وهي أختهم بالفعل، أمها أنجبت صبياناً وبنات.

يدربها على القسوة والقوّة، لتحسن الدفاع عن نفسها، إذا ما وجدت نفسها وحيدة في يوم من الأيام! تتبجح لإرضاء غروره، ألّا يقلق بشأنها، وأنها بفضله أصبحت أشطر من الشاطر حسن في اقتحام الجزر الصخرية والنائية، وتحدي الأقزام والمردة، وأنقى من الست بدور «جوّات السبع بحور» في عفتها وطهارتها، لو يصدقها! كيف تكون ذلك وهي من صنعه؟ الجهل بالأرقام يحتم خسارات.. ولا يراودها أي شعور بالندم.

يجامعها بثراء همجي ينعتق من حصره وانحصاره إلى الموت.. وتظلّ هي في قاع الاحتضار.. يرتدي ملابسه، يتعطرّ، ولا يأكل الكشك الذي كان يحبّه، تحاشياً لرائحة الثوم والبصل، وهي خلال ثلاثة أعوام، لا تعرف من رائحة أنفاسه سوى رائحة الثوم والبصل وبخر خراج ضرسه المنخور!! سكنتها هذه الرائحة المميزة وتعودت عليها، أحبتها لأنها عطرة.

الأمان شراع مسافر في لجّة أمواج عمياء.. وما أصعب تصنّع البهجة في العيد.

برد الطعام، طلب منها أن تأكل. وكانت تتأمل أوراق الوردة المتساقطة على الطاولة وتعدّها، قالت له، إن الوردة مثل بني آدم، إذا ما اقتلعت من خميلتها، سرعان ما تفقد أريجها وسحرها، تذبل.. وتموت. الفقدان مآتم القيم. عندما نفقد حبيباً أو صديقاً، نصعق من فقدانه لأننا نخسر قيماً متأصلة فينا، الوفاء، الشهامة، الصدق، الشجاعة، والفروسية.

تصبحين على خير يا مريم

«نَفَسٌ» في البيت، حتى ولو كان لقطّة، يخدش صقيع الوحدة، يفتح ثغره في وحشة الروح.

و« أبو حرب» ما عنده قطّة. أنفاس مريم أشرعة بيضاء مخرت عتمة الليل، حملت معها صوتها، وشالها الصوفي المخَرّم بالزنابق والعصافير، وأشياء كثيرة أخرى مكتنزة بالأسرار المهموسة.

يصطك «أبو حرب» في سريره، ينادي حفيف أذيالها التي تشبه رفّاً من العصافير:

. عجّلي يا مريم.. أنا بردان.

تتوارى زرقة الشفاه في تعويذة النداء.

كان «أبو حرب»، واثقاً بأنها تسمعه، وتتلكأ في إحضار كيس الماء الساخن له، تفعل ذلك متعمدة، حتى يبقى صوته مسكوناً بها.

ومريم، غائبة، حاضرة، موجودة، وليست موجودة، منذ عام رحلت عنه في سرعة الصوت، تعثرت بأذيالها عندما داست على «بَروة» صابون. وقعت على طولها وهي مهرولة إلى صوته. سافرت وحدها مكسورة الظهر، هذا الانكسار، شلّ تلويحات الوداع في يديها. تركت حقائب الذكريات مبعثرة في أنحاء المنزل، تنطق بالزمان، ويضجّ بها المكان، تتراقص أطيافها في رأس «أبو حرب»، وتندّيه بالماء. أوجاع الظهر المكسور، لازمته منذ رحيل مريم، انحنى، وانطوى على نفسه ككتاب منسي.

تشتد عليه وطأة الارتعاش، ويخفق هذياناً من الحمّى:لا تنسي يا مريم إغلاق النافذة الغربية، دّربسي درفتيها جيداً كي لا يشرد منها البرد إلى سريرك.

تلعب الريح بدرفتي النافذة، تطقطق وتئن مفاصلها الصدئة، تتطاير الستائر المهلهلة متأرجحة من الداخل للخارج، ترق وتتمزق من الريح وحرشفة الأخشاب والمسامير الناتئة.

ولا تأتي مريم..

و«أبو حرب»، لا يكلّ صوته عن النداء.

سوف تأتيه مريم من أسفارها على جناح صوته. تضع يدها على جبينه، وتمسح عرقه بباطن كفّها وترقيه من الأوجاع، تزول عنه أوجاع الحمى، وترتخي تغضّنات الجبين وتقلصات الألم.

تقول له:

– كفاك دلالاً يا رجل لا زالت لَبطتك تهدّ الحائط كأيام زمان.. إياك أن تقول قد وصلت إلى التسعين! أخاف عليك من العيون الحاسدة!

ينبض فم مريم بالأشواق إلى الأولاد والأحفاد. تلعن الغربة، وتكيل اللوم للمدينة التي سرقت أولادها منها وزوّجتهم من بناتها المتأنقات المتحذلقات. طبعتهم بطباعها القاسية، وأنستهم قريتهم وآباءهم وأمهاتهم وناسهم. باتوا لا يتذكرونهم سوى في الأعياد.

يثقل الكرى جفون «أبو حرب» ويغفو على أجراسها، تتمتم شفاهه بوهن:

. تصبحين على خير يا مريم.

يغرق في سبات عميق، وأحلامه تلهج بمريم وتفاصيلها. عَصبتها السوداء، وضفائرها المثلوجة برياح الزمن، سراويلها الطويلة، قدها النحيل، وتعويذات عنقها. يجيء الصباح وهو ثمل بأنفاس الحبق والغار، وما أن يفتح عينيه، حتى يصرخ ألماً من ظهره المكسور. يناديها من قاع صوته، ترتج الجدران ويتقشر كلسها في بعض الأماكن، تذعر الحشرات التي ملأت الزوايا واندست في طيات الفرش واللحف والملابس.. تتراكض فوق أرض البيت، ترسم شبكة خطوط انمحى عنها الغبار، كاشفة عن لون الأرض الإسمنتي الداكن.. منذ رحيل مريم. أهملت قواعد النظافة والتهوية ومواعيد الطعام

والزيارات والسهر. قلّت شهية «أبو حرب» للحياة، الطعام والناس والسهر. نهض من سريره بمشقة وهو يتأرجح. مفاصل الزمن خشبية نضبت زيوتها، مرونة العشب ونضارته سرقتها فراشات الربيع المنقوشة على جسد مريم. ظهره قنطرة العمر المتدرج في النزول. جمع ملابسه المتسخة في طست وقرفص تحت شجرة السنديان في باحة الدار ليغسلها، ورجاء يحدوه ألاّ يراه أحد من سكان القرية وهو على تلك الحالة، لا يحب الشماتة في «أرذل العمر». ما أن شمّر عن ساعديه حتى حدث ما كان يتوجس منه، فاجأه حفيده سمير، وبدلاً أن يحييه ويقول له، صباح الخير يا جدي دعني أقوم بذلك عنك، قهقه بوقاحة وقال له ساخراً:

– تزوج يا جدي.

كأنما لسعت «أبو حرب» أفعى، هبّ واقفاً ويداه تقطران ماءً، ورغوة:

– أنت وقح وقليل الأدب يا ولد، الحق ليس عليك وإنمّا على الذين ربّوك. أنا أتزوج على مريم؟ هيّا.. اغرب عن وجهي ولا تريني خلقتك بعد اليوم..

ذهب سمير دون كلمة اعتذار. عاد «أبو حرب» إلى غسيله مكسور الخاطر والظهر، دعكه كيفما كان ونشره على عجل. سلح عصفور على رأسه، أحس بسخونة السلحة تسقط على صلعته وتنزلق فوقها. لعن العصافير وطيشها، متناسياً ما كانت تعنيه سلحة العصفور على الرأس قبل رحيل مريم، كانت تبشّر بالخير والأفراح الآتية، بين ليلة وضحاها انقلبت الدنيا على قفاها، وصارت سلحة العصفور شؤماً! ملعون هذا الزمن، لم يعد فيه لأي شيء معنى.

نباتات الحبق والمردكوش والعطر في الحوض اصفرت أوراقها، وهزلت. رجته مريم أن يرشها بالماء إذا كان ظهره يؤلمه، ولا يستطيع حمل الدلو. ثم عاتبته قائلة:

– كنت قاسياً مع سمير لا تنس أنه شاب، وشبان هذه الأيام يحبون المزاح. من أجل خاطري اصفح عنه.. وسامحه.

في العيد جاء حرب من المدينة ترافقه زوجته الشابة التي تشبه الشجرة في طولها واخضرارها. وكان رأسها ملعباً للعصافير.

قطب «أبو حرب»، لم يفرد خلقته أبداً، ويهلل لقدومهما.

– سمعنا يا أبي أنك مريض، وجئنا لاصطحابك معنا..

شهق «أبو حرب»:

– و مريم.. هل أتركها وحيدة؟

حاول حرب إقناعه، بأنّ أمه قد ماتت منذ سنة.. وشبعت موتاً.

هل ماتت مريم حقاً كما يزعم ابنه؟ انه يكذب كعادته. ستون عاماً لازمته مريم ملازمة الروح للجسد.. ومحال أن تكون قد ماتت لأنها في كل مكان.

زوجة حرب أحضرت معها علبة «راحة ممسكة»، وضعت قطعة منها في فم «أبو حرب» وهي تلبسه ملابسه الجديدة. و«أبو حرب» كان يحبّ الراحة كثيراً. حلاوتها، اقتلعته من سريره كما تقتلع شجرة هرمة من تربتها. أُخذ عنوة إلى المدينة، من السيارة أطلّ برأسه على شبابيك البيت، لوّحت له مريم بمنديلها:

– لن أتأخر عليك أيتها الغالية.

وما طالت غيبته عنها..

في اليوم التالي، وكان الوقت قد تجاوز منتصف الليل، ولج أبو حرب محرابه. ضغط على زر الكهرباء، هربت الحشرات من وهج النور، وسحقت خطواته بعضاً منها. هوى بثقله على الطرّاحة في الغرفة الشتوية. نادى على مريم كي تأتيه على الفور، قبل أن ينسى تفاصيل مهمة وأحداثاً خارقة كان قد مرّ بها:

– لن تصدقي يا مريم ما حدث لي في المدينة. تركت حرب وزوجته وأولاده نياماً، وجئت لأخبرك بالعجب. لم يطاوعني قلبي لأنتظر حتى الصباح، أردتك أن تشاركيني مشاعري وهي طازجة. تصوّري في يوم واحد قضيته هناك، حققت خلاله ما لم أحققه في أعوامي التسعين! من أعلى قاسيون رأيت دمشق تتلألأ كعقد من الجواهر. ماذا؟ لا تعرفين الجواهر.. محال، وصورة الأميرة،

تلك التي كنّا نعلّقها على حيط مخدعنا من زمان، ألا تذكرين عقودها وأقراطها البديعة؟ تقولين إنها بلا وهج أو لمعان؟ تخيّلي حبات العقد مثل مصابيح الكهرباء في الليل، أجل.. إنها تشبه الجواهر إلى حدّ ما «آه» كم اشتهيتك أن تكوني معي. وبعده ذهبنا إلى المطعم. أكلت بالشوكة والسكين مثل أبناء المدن. هل تصدقين؟ والله العظيم فعلت ذلك دون أن «أشرشر» على قميصي، انظري إليه.. لماذا أغلقت جفونك يا مريم، هل نعست؟ دعيني أكمل لك القصّة وأخبرك بالأهم. افتحي أذنيك جيداً ولا تكذبيني كعادتك. لقد تحدثت بالهاتف مع أبننا سعيد في أميركا، ماذا؟ كأنك تشككين في كلامي، تقولين إن سمعي ثقيل، وأنا منذ عشر سنوات لا أتحدث بالهاتف من أجل هذا؟ أقسم بحياتك يا مريم، لقد سمعت صوت سعيد بوضوح شديد كأنه جالس أمامي مثلك الآن، وهو يبعث إليك بقبلاته ويقرئك السلام.

تعب «أبو حرب»، وضع رأسه على ركبة مريم، ونام في ملابس العيد.

رجل دافئ في موسم البرد

ركب الأستاذ محمود دراجته في زخّ المطر وهو حاسر الرأس. ولأنه لم يكن يرتدي معطفاً واقياً من البلل. أحكم إغلاق سترته على كراريس التلامذة خوفاً عليها من نشّ الماء.

أنتعش قلبه، وأسكره الأمل:

المطر يحمل معه الخير والبركة.

تمدّ الغراس الطريّة رؤوسها الوليدة إلى قلبه، وتغسله من شوائب دخيلة. قال: الله يبعث الخير. إذا استمر الهطول يشبع التراب، وترخص الدنيا، البندورة والثوم والبصل، وتقرقر المياه في الحنفيات، تملأ الخزانات.. يوّردني الترف كأمير.. وأستحم في الليل، وأنجو من مضايقات الزكام ومضاعفاته.

منذ أن صارت المياه تنقطع عن البيوت في الليل، والأستاذ محمود، وبقيّة عباد الله، يستحمون في النهار الذي كان يعرضهم في فصل الشتاء للفح الهواء البارد. كما أنه انقضى موسم الثوم، وما تذوّق نكهته الحارقة واللذيذة، سوى مرات قليلة تعدّ على الأصابع، وعندما سأل أحد التجار عن أسباب فقدان الثوم وندرته «عطر الفقراء» كما كان يسميّه. قال له التاجر، إنهم يصدرونه إلى «بلاد برا» بأكياس نايلون أنيقة بعدما يمشطون شوشته ويلمعون فصوصه. هجمة الأجانب على الثوم، ترافق مع هجمات الايدز والأورام. وعلى مرأى من العتّالين، والناس الكبار والصغار، الذي كان يعج بهم سوق الخضار، لعن الأستاذ محمود الإمبريالية والاستعمار، الذي يتآمر على فقراء العالم ويسرق منهم أقواتهم الضرورية التي تكسبهم مناعة ضد أمراض العصر وهزال الجوع:

لولا الثوم ما بُنيت أهرامات مصر، ولا انتصر جنود الإسكندر في معاركهم الطاحنة.

لعق الأستاذ محمود المطر عن شفتيه. أخرج من جيبه ملقطي غسيل صرم بهما كمّي بنطاله ليبعدهما عن جنازير العجلات والوحل. السماء مغبشة كبلور مجلود. ترى، أين بروق السماء التي كانت تهلل لرعودها؟ مطر بلا بروق ولا رعود، كأنه ليس مطراً، دموع تنزّ من محاجر سوداء. كم أنت ساذج يا محمود! ألا تعلم أن الإمبريالية صادرت بروق السماء وملح الأرض.

ضغط الأستاذ محمود على دواستي دراجته، كأنه يريد أن يهرب من الإمبريالية إلى آخر المعمورة. ولج الحواري الضيّقة مثل طير الحجل الذي أصابته طلقة في حوصلته. جدران كلسية بيضاء تعرش عليها الدوالي والياسمين، تحفّ به من الجانبين. بيوت طينيّة تتعانق شرفاتها في «العلالي» كالعشاق، وتلقي بظلالها على العابرين، تتهامس بأغنية حنان عتيقة بعيدة عن قسوة الحديد والإسمنت وجبروتها، على هديل اليمام المعشش في شبابيكها ومشربياتها. تستدر الإلفة ضروع تداعياته:

قم للمعلم وفّه التبجيلا..

يتقمصه «ديوجين»، يضيء كمصباح.. وتنتفخ أوداجه، طقطقة عارمة تتصاعد من قفصه الصدري كلما شهق، أفراح سافرت على متن الدمعة. تمادى في شروده. ضغط على مكابحه فجأة ووقع على الأرض. توحل بنطاله وحواشي سترته وكفّاه، ورضت ركبته اليسرى:

وكراريس التلامذة بقيت نظيفة ودافئة في عبّه.

أخرج منديله ومسح الوحل، قفز فوق حسراته وآلام ركبته المرضوضة.. إلى الدراجة. تأكد من سلامة مكابحها وهو يلعن شروده الذي كاد أن يودي بحياة قطة مسكينة. انطلق وهو يرثي لحال القطة:

للقطة روح مثل روحك يا محمود، ربما جحدت في أدوار سابقة بنعمة باريها وركبها الغرور، فمسخها الله قطة!!

استغفر الله العظيم..

اقشعر شعره من الرهبة والخشوع والبرد المنبعث من ملابسه المبتلة. معلم المدرسة يجب أن يحافظ على نظافة هندامه ولياقته مهما تردت أوضاعه الاجتماعية والمعيشية والنفسية.. كي يكون إيقاعه جميلاً ومحبباً في نفوس التلامذة. وحبّاً بتلامذته، كان ينيم بنطاله تحت فراشه، ويرتديه في الصباح، كأنه خرج من تحت المكوى. يلوّح الرضى أساريره وهو يرمق كسرة البنطال الحادة، متجاهلاً انتفاخ النسيج وتهلهله عند الركبتين:

حتى ولو ارتديت «حلة سيدنا يوسف» لن تصل إليك ومضة خاطفة من عزك الماضي!

«من علمني حرفاً كنت له عبداً»!!

يغشى من الضحك، يرقص مقود الدراجة. ينتبه إلى حاله فجأة. يزم فمه، حتى لا ينعته المارة بالجنون، نفسه تمجّ العبودية وتكره الذل. يرفض أن يكون تلامذته عبيداً، يريدهم سادة المستقبل، والعبيد من جمّ خوفهم وثقل أصفادهم، يتعثرون في سيرهم نحو الآتي. بالرؤوس، وليس بالجماجم يُبنى المستقبل.

ألم حاد انبعث من حنجرته، تنحنح وبصق خيّطاً من الدم. لعن الاستعمار والزكام الذي سدّ حلقه وجرحه، ثم ما لبث أن حمد ربه وشكره لأنه معلم ابتدائي. صديقه «أحمد» معلم الصف العاشر، منذ أن أكل «عَلقة» من أحد طلابه المهيمنين على الصف. كشّ وضمر وتهدل. تقلّص حجمه عما كان عليه. لم يتجرأ أحمد أن يرفع يده ويدافع عن نفسه.. ولو فعل، ربما فُصل من الحياة وليس من المدرسة فقط. أسلوب المسيح وغاندي، هو الأمثل في مقارعة الظلم، وشريعة حمورابي لا تليق بالعزّل. عشرون عاماً وهو يعلّم الصف الأول ابتدائي. تراجعت الأخلاق ومناهج التعليم، وبقي على حاله، يشعر دائماً برهبة المسؤولية الملقاة على عاتقه، يدخل الصف ويشرح دروسه اليومية، كأنه يشرحها لأول مرة دون أن تفتر عزيمته أو تعتريه هزيمة. يتواصل مع أهل تلامذته عبر الرسائل أحياناً، كلما اقتضت الضرورة. بالأمس كتب رسالة إلى أهل طارق، تفيض حروفها بالإخلاص والمحبة والمسؤولية. استهلها بديباجة مهذبة:

إلى أهل طارق الكرام. أسعد الله أوقاتكم؟

إن إبننا طارق يحك مؤخرته في كل الدروس. أرجو منكم عرضه على طبيب «يمكن يكون معه حرقُص». أرجو المعذرة على إزعاجكم، وتقبلوا مني فائق الاحترام.

كان «أبو طارق» قد تعلم على يديه أيضاً. ولم يتذكر الأستاذ محمود أنه كان يحك مؤخرته كما يفعل ابنه. كل شيء بات موبوءاً ومجرثماً، لعنة الله على الإمبريالية وعصر الديدان هذا. لو كان الأستاذ محمود على بيّنة من الأمر وعرف الحقيقة. ما أرسل الرسالة إلى أهل طارق إذا كان الحك الذي يلهي الولد عن دروسه، بريئاً من «الحرقص»، وكل ما في الأمر، أن البنطال كان ضيّقاً عليه، يدخل سرجه في شقّ إليته كلما رفع طارق إصبعه للإجابة.. وإصبعه كانت مرفوعة دائماً. شاطر ونبيه كوالده، وليس عند أهله اكتفاء ذاتي ليشتروا له بنطالاً جديداً كلما ضاق عليه القديم.. ويجنبّوه، الحكّ. كان على الأستاذ محمود أن يعرف هذا بحكم معايشته اليومية لتلامذته، وفراسته في وجوههم!

الدنيا غائمة والبرد قارص.

رذاذٌ أبيض يصفع وجهه، وتتخشب يداه على مقود الدراجة. في آخر الزقاق، انعطف إلى اليمين. مرّ بساحة صغيرة فيها مقهى واجهته زجاجية. أمام الواجهة مباشرة وقف بائع «سَحلَب». كان «السحلب» في الحلّة النحاسية، أبيض وحاراً. يتصاعد منه بخار كبخار الأساطير الذي ينشق عن جنيّة أو مارد يلبّي حاجات المحرومين. اقتربت الجنيّة من الأستاذ محمود وقالت له، اطلب وتمنّ. ابتلع ريقه وهو يتبعها مشدوهاً ويحدق في فقاعات «السحلب» الطافية على وجه الحلّة، والتي كانت تبقبق من الغليان. صار وجهاً لوجه أمام بائع «السحلب» الذي كان يحدّق فيه بغرابة! ذابت الجنيّة في البخار، وتراجع الأستاذ محمود عن اشتهاء «السحلب» متابعاً طريقه، وحزيناً على اختفاء الجنيّة.

أيام زمان، كان راتبه في الشهر «٢٥٠» ليرة، وثمن زبديّة «السحلب» ربع ليرة. كان يتذوقه كلما جاع إليه. في تلك الأيام الخوالي، كان خير الدنيا

وفيراً كتراب الأرض. تضاعف راتبه أكثر من مرة، وتضاعفت الغلاء والمتاعب والهموم والمسئوليات:

نصف دزينة من الأفواه قاطعة الأضراس، لا تمكنه من تذوق زبدية «سحلب».

متى تصبح واقعياً يا محمود و تمدّ رجليك على قد حصيرك؟ آن الآوان للاكتفاء برائحة الأشياء المحظور عليك تذوقها أو لمسها.

زملاؤك يعملون بشتى المهن غير التدريس. يسوقون التاكسيات، يبيعون الفاكهة والخضار، ويسمسرون، وأنت كأنك الأستاذ الوحيد في العالم الذي يريد أن يحافظ على هيبة الأستذة، يقاتل ويجوع من أجلها، ترفض أن تحذو حذوهم، رأسك يابس مثل الصخر. والكبرياء تتنافى مع در الحاجة وجوع الاشتهاء. تناطح الاستعمار بنافوخك الهش لأنك لا تريد أن تنتهي مثل صديقك أحمد، وتموت ضامراً. لشدّ ما تخاف الضمور!! في أوقات فراغك ترسم طيوراً، تصنع طيارات ورقيّة ملونة وأقفاصاً جميلة تكدّسها بالأمنيات والعصافير. يشتريها منك التجار بأثمان بخسة. لا توازي جهود صنعها وقيمتها الجمالية. الأحلام باتت أرخص من الفجل، والأجنحة ينتفونها ويحمّرونها ليعمروا بها الموائد الفخمة! أين أنت يا رجل، تعرف كل هذا.. وتتناساه؟ تزفر حسراتك في قفصك، وتتمنى بحرقة أن يصنعوا لك تمثالاً بحجم الجعران قبل توافيك المنية!

وصل الأستاذ محمود إلى مدرسته وهو يرشح بالماء.. وكراريس التلامذة، جافة ودافئة في عبّه. ترجل عن دراجته، وسوّى هندامه بيديه. نزع ملقطي الغسيل عن كم بنطاله، وقفل دراجته حتى لا يعبث بها الأولاد. دخل الباحة مع رنين الجرس، سارع وأخذ مكانه تحت سارية العَلَم. رفع صوته مع زملائه والتلامذة، وأنشدوا للعلم بشوق عارم وحماس منقطع النظير.. كأنه كان مسافراً إلى بلاد بعيدة.. لا تصل إليها حناجرهم؟

سونيا والجنرال

سونيا ذات الفم الأشقر والقد الفاره لم يسبق لها أن رأت جنرالاً عن كثب.. أو صافحته. كانت ترى الجنرالات في الصور، وتسحرها ملابسهم، وتخلل لبّها نياشينهم الذهبية بأشرطتها الزاهية والتي كانت تغطي صدورهم.

هيبة الجنرالات ووقارهم، وقع أقدامهم الثقيلة، تبعث الرعدة في مفاصلها بمجرد أن تتخيّل نفسها قريبة منهم. لذلك راح قلبها يدق كالطبول ويطعج مفاصلها بينما كانت تتحرف إلى طريق الجنرال بصحبة جارهم اسكندر الصغير.

وفم اسكندر واسع كمغارة علاء الدين، وإليته بارزة ومستديرة مثل طارة.

ثقيلاً كان ذلك المساء!

كانت سونيا تجلس إلى جانب اسكندر الصغير في سيارته الفارهة كأنها ذاهبة إلى نعيها.. وثرثراته تطغى على هدير السيارة. تجهل سونيا ماركة السيارة ونمرتها ومصدرها واسكندر كان قد أعارها «فستان» ابنته وحذاءها كي تظهر بمظهر محترم أمام الجنرال!

قالت أمها «لبّس العود بيجود ولبّس المكنسة بتصير ست النسا». وسونيا رغم نحولها، ليست عوداً أو مكنسة، وتليق بها كل الملابس الجميلة.

يتمايل اسكندر طرباً على أنغام أغنية بدوية، وسونيا تبحث عن اسمها في هدير الطبول والإيقاعات الناشزة. تمني نفسها بالحصول على وظيفة محترمة تلائم كفاءتها وشهادتها الجامعية التي حصلت عليها منذ عامين. تمقت الحاجة التي تجبرها على طرق أبواب عالية الأبراج والمقامات. خلال عامين استنفدت كل سبلها ومشاويرها. طرقت أبواباً عدة من أجل الوظيفة. ونفذ صبرها في النهاية، من كثرة ما تقدّمت بطلبات عمل إلى المعنيين الذين كان جوابهم في كل مرة، لا تعيينات في الوقت الحالي، وما عليها إلاّ انتظار مواعيد المسابقات.

الجنرال قبلتها الأخيرة.

- ضعي يديك وقدميك في مياه باردة، الجنرال سيحلّ لك هذه المشكلة.

قال لها اسكندر وهو يتلمظّ.

- لا أريد أن أتعيّن ضابطاً في الجيش.

ضحك من غفلتها، وباتت فجوات أضراسه المقلوعة كحفر صديدية.

- الجنرال لا تقتصر سلطته على الجيش فقط، يمكنه أن يرفع سماعة الهاتف ويعينك سفيرة أو وزيرة، وهذا يتوقف على شطارتك ومواهبك وأساليبك في إقناعه «في الامتحان يكرم المرء أو.. يهان».

الجنرالات يبعثون الرهبة في القلوب..

واسكندر، لا يبالي، كأن الجنرال أخوه في الرضاعة! بلغ تأزمها مداه، وبللها عرق بارد، رسم دائرة من الملح تحت الإبطين.

والفستان ليس لها..

انهال لومها على اسكندر لأنه زجّها في مثل هذا الموقف الصعب، وكان من الممكن أن يوفر عليها عذابها لو أنه غاب عنها في حلّ مشكلتها، وسأل الجنرال التماساً أو توصية من أجلها... واسكندر قال لها «ما حك جسمك مثل ظفرك». وهي لا أظافر لها!

انكمشت على نفسها كعصفور يخبئ رأسه تحت جناحه:

- لماذا أنت حزينة؟ حري بك أن ترقصي و«تفرفشي»، مقابلة الجنرال فرصة من فرص العمر النادرة، لا يحظى بها سوى الذين ولدوا في برج السعد.

وظلّ اسكندر يقهقه ويهتز كرشه خلف مقود السيارة.

تخيفها ضحكاته، يحيرها غموضه. ترى كيف وصل الجنرال وهو مجرد اسكندر الصغير؟ لا تعرف سونيا أبداً أنه كان مخضرماً بالجنرالات والصفقات التجارية! يعيش في بحبوحة ورخاء، وكل مؤهلاته قامة مضغوطة إلى أسفل وإلية مستديرة ورأس بلا جبين! وهي ابنة شاعر مغمور ينظم القصائد الوجدانية والعاطفية. بالأمس نظم معلّقة يمتدح فيها بطولة الجنرال وفتوحاته! حملتها في

حقيبة يدها، ونسيتها تماماً. تذكرت حكاية الذئب الأغبر الذي تزوج ظبية المروج وولدت جيلاً من الأقزام.

واسكندر لا يتعب فمه الواسع من الضحك وإسداء الأوامر. يطلب منها أن تكون رقيقة ومهذبة، ويحذرها من الرعونة والطيش:

– تذكري أنها فرصة العمر تدفنين بعدها الفقر إلى الأبد، الحظ لا يدق باب المرء سوى مرة واحدة في العمر.

نصائح اسكندر تشلع نفسها بالغثيان. ومهما قست عليها الظروف، وألحت الحاجة، وحاصرها الحرمان، لا تستطيع العمل بنصيحة ما لم تتجاوب مع مشاعرها وتفكيرها «اليد التي لا تستطيع عضّها قبّلها وادع عليها بالكسر» قول يحيّرها ويشوش صراحتها ووضوحها!

توسلت إلى اسكندر أن يكفّ عن نصحها لأنها تعرف أكثر مما يتوقع، وإذا كان جاداً حقاً في مسعاه، فما عليه سوى مساعدتها إذا ما داهمها النسيان وربط اللسان في حضور الجنرال:

– أرجوك يا عمي اسكندر.. لا تتركني وحيدة مع الجنرال.

وعدها اسكندر أن يفعل ذلك، وضغط بقدمه المتورمة على دواسة البنزين. فتحت سونيا شباك السيارة وتمنت الطيران من حصرها وهواجسها. النسيم برّد حرارتها وطيّر شعرها. كانت السماء صافية كوجه البحر في ليلة مقمرة، والأشجار تتلمظ عناق الشمس المندس في خضرتها. صف التلال البعيدة ظهر لسونيا كقطيع من النساء الحوامل، كأنهن في حال مخاض منذ الأزل. في الطبيعة ترتاح سونيا، يتحلل تعبها إلى خدر لذيذ، تتحرر من عبوديات وجفلات. تخضّر روحها كبرعم ينقط شهداً، وفي أحضانها المشرعة على المدى، تحسّ بالكمال، وأن العالم من حولها مسخّر لها ومنسجم مع تكوينها الأول.

باقتراب السيارة من سور بيت الجنرال، زعق زمورها، وانتزعت سونيا من بريّتها الآمنة:

– الجنرال ديمقراطي ومهذب، وليس «بعبعاً» قال لها اسكندر وهو ينظر إلى الحراس ويحييّهم.

لم تسمعه سونيا، كانت غارقة في لجة سوداء أضاعت فيها تركيزها. بحثت عن دبوس في قبّة ياقتها وغرزته بلحمها كي تستعيد إحساسها.

رحب حرس الجنرال باسكندر وفتحوا له باب الحديقة على مصراعيه وهم يرمقون سونيا بنظرات جريئة كأنها عارية من ملابسها. ترجلت من السيارة، وأنّت قدماها. لم تلاحظ أبداً جمال الطبيعة الذي كان يحف بها من كل جانب، حديقة الجنرال كأنها قطعة من جنّة شداد بن عاد. مساكب ورود من كل صنف ولون. نوافير مياه وأضواء قزحية يمتزج خريرها المتماوج، بالموسيقى وزقزقة العصافير. مقاعد مصقولة من مرمر أخضر، أراجيح ومظلات زاهية، كراسي ومناضد بلون الحليب، وسونيا في تلك اللحظة كانت مقطوعة عن نفسها وعما حولها. مستغرقة في ذهولها، كالمسبوعة سارت خلف اسكندر، مشدودة برسن يحزّ عنقها ويذبحه. عبرت ممراً ضيّقاً تحف به الأشجار كأنه دغل. توقفا أمام باب عريض من خشب الزان مقابضه ذهبية ويعلوه قوس حجري عتيق برزت منه رؤوس مرعبة لحيوانات أسطورية. قرع اسكندر جرس الباب، وفجأة خبط على رأسه لاعناً النسيان، حمل سونيا مسؤولية نسيان الهدية التي أحضرها للجنرال في السيارة، وبلمح البرق ركض واختفى بين الأشجار:

- آخ يا ميمتي..

صرخة متكاوسة الرهبة، مشلولة الصدى.

اختنقت سونيا بغصّات السكاكين، ذُبحت وتضرّجت، نسيت اسمها والسبب الذي جاء بها إلى مثل هذا المكان الموحش والبعيد، وقبل أن تلبّي نداء قدميها فُتح الباب وهفّت من داخل القصر رائحة خمور وعطور. قادها الحاجب إلى الجنرال الذي كان يجلس على كنبة زرقاء لها شكل الزورق، ويرتدي جلابية حريرية بيضاء موشاة بالقصب. الزورق ذكرها بنوح.. وتفاءلت بالخلاص! هدأ روعها قليلاً، مدت يدها المرتعشة إلى الجنرال، حيته بصمت وهمّت بالجلوس قبالته، شدّها إليه وأجلسها إلى جانبه.

تجشأ الجنرال.. وقتّنت سونيا شهيقها...

الجنرالات في الجلابيات غير الجنرالات في الصور. هم مثل بقية خلق الله، وديعون وأليفون لا يبعثون الرهبة في النفوس..

وكادت سونيا أن تنسى فعلاً أن الإنسان الذي كان يلاصقها.. جنرال! لو لم يخنق خصرها بيديه، ويعصرها مثل برتقالة، لغابت صورته الرسمية عن خيالها، وتحدثت إليه بطلاقة ومودة كما تتحدث إلى أبيها. الإكراه جبان ونذل، يقتل العواطف الإنسانية ويزرع مكانها الثأر والكراهية.

لأن رغبات الجنرالات أوامر فورية، يدخلون في لب الموضوع مباشرة، لا يلجؤون إلى اللف والدوران عبر مقدمات وتبريرات وديباجات منمقة كتلك التي يلجأ إليها المستلبون لإثبات جدارتهم وأهميتهم، مدّ الجنرال يده إلى صدرها وقرص حلمتها من فوق الفستان.

– آخ يا سيدي الجنرال إنك تؤلمني كثيراً هذه حلمتي التي سأرضع منها أولادي، وهي من ملح ودم وقداسة وليست زناداً.

لا تقتلني أرجوك..

والجنرال لا ينهزم في معمعة الأثداء واللحم، ولا تستعصي على فتوحاته قلاع الأنوثة والدموع. قال لنفسه ما هي إلاّ صبيّة مثل بقيّة الصبايا اللواتي يأتين إليه طوعاً وينفحهن بالهدايا الثمينة لقاء ما يقدمنه له من متعة وتسلية. وسونيا تتمنع بقصد الإغراء والدلال. كرر محاولته، أطبق شفتيه عل فمها، وصدته سونيا كحيوان جريح يدافع عما تبقى فيه من ماء الحياة. نشجت وعلا نشيجها، يحمل تضرعات واستغاثات مكلومة تتردد في أرجاء القصر كمرثية تنعى موت الصبية.

تراخى الجنرال مهزوماً. انكمش على نفسه، عصر صدغيه بيديه وهو يفكر بطريقة شريفة للانسحاب ينقذ فيها شرفه العسكري، الصبيّة إلى جانبه راية تنبض بالكبرياء والدمع، ومن الجبن أن يقتحمها أو يذلّها، ربما كانت هي كل ما تبقى من وطن!!

نهض مترنحاً مبهوظاً بإرثه. تناول من مكتبته كتاب «فتوحات خالد بن الوليد»، وكتب عليه «إلى سونيا..»؟؟

وديع.. والكلب

في الربيع تتجدد الطبيعة ودماء البشر.

تسللت الحياة من النافذة تعبق بالإشراق ورائحة الولادة.

قام وديع من نومه وهو يشعر بإعياء شديد من جراء المعارك الطاحنة التي خاضها في سريره. تعثرت قدماه بملاءة السرير ووقع على طوله. لعن الكلاب وآباءها وأجدادها. نهض مرضوضاً، غسل وجهه وارتدى ملابسه على مهل. أطلّ برأسه من النافذة مستنفراً حواسه، لفحته أنفاس الربيع.. وتاق حنيناً للانطلاق الكبير الذي يوازي سنّي حجزه. وهو لم يختر سجنه عن عمد، والظروف القاهرة كان لها النصيب الأكبر في أسره.

قالت له أمه وهي تناوله سندويشة الصعتر:

– هيا يا ولدي لقد سبقك أترابك إلى المدرسة.

بدت له المدرسة بعيدة كأنها في قارة أخرى، والوصول إليها محفوفاً بالأخطار والموت. كلب كبير داكن الوبر لاح له عند مفترق الطريق وهو يكشر عن أنيابه ويطلق نباحه الوعيد. غصّ وديع بلقيماته وشرب جرعة من الماء درءاً للاختناق:

– لن أذهب اليوم إلى المدرسة.

كان اضطرابه يشتد ويتنامى مع النباح.

– ما هو إلاّ كلب لا يعوي إلاّ على من يخافه!

استدار صوب أمه واللقمة ما زالت مرصوصة في بلعومه كالرصاص، سدّد إليها نظرات تعرف معناها جيداً. في الماضي كان يخافها وهي تخاف

أباه.. وأبوه يخاف الكلب! عدوى الخوف سريعة الانتقال كالحريق، وقلب الخائف ضامر من اليباس. بعد وفاة أبيه رقّ حال أمه، وهو ظلّ خائفاً.

– ما فات مات يا بني.

كيف يموت الماضي.. إنه نتاجه؟ أبوه مات بداء السكتة في عامه الأربعين! تُرى من المسؤول عن انقصاف شبابه، الكلب.. أم والده نفسه؟ أدار ظهره لأمه وعاد إلى النافذة يتحيّن قيلولة الكلب ليطلق قدميه للريح. بدت له صخرة الكلب الذي كان يحتمي بها كالقلاع الرومانية المنيعة محاطة بألسنة تنانين وأشداق خرافية!

يا له من كلب وغد!

الخوف حاصره بدائرة أضيق من أنفاسه، والعصافير لا تأبه بتكشيرة الكلب أو تبالي بنباحه. تهف من طيرانها على صخرته. تحط عليها وتفلّي أجسادها بمناقيرها. يقلّدها وديع في نومه ويجزم أن بإمكانه الطيران مثلها ولكنه ينتظر فرصته لإثبات مهارته في التحليق:

أجل بإمكانك أن تطير لو لم تبخس نفسك قدرها، أجلّها تجلّك. وكما قالت أمك، ما فات مات. لماذا تحلب الخوف من ضروع وهمية، تعصره وتستجدي إدراره لتنيخك أهواله وتهرسك كحشرة؟؟ هيّا اتخذ القرار المناسب لفتوتك وابدأ من جديد. اطرح عنك الأوهام قبل أن ترديك قتيلاً كأبيك. فهو بقدرة قادر عمّر للأربعين، ولو لم يكن في قوة الحصان وصبر أيوب لانقصف وهو فتي. كنت تختبئ وتراقبه وهو يسدّ حلق الكلب بالخفاء كلما مرّ به. شاهدته مراراً وهو يطعمه زوادته، وكانت أمك تتعجب من صفرته واشتداد هزاله، يوجعها قلبها عليه وتقول له، كأنك تأكل من مال الجامع يا رجل! ينهال عليها ضرباً وشتماً لأنها تذكره بعجزه، وأنت لا يمكنك أن تحذو حذوه لأنك تكره مبدأ الابتزاز، وليس عندك زوّادة، وتعلم أيضاً أنك لست الوحيد الذي ما عرف الأمان وبحبوحة معطياته، فهذه الأشياء الغارقة في ترفها الخاص لا تأتي المرء من تلقاء نفسها.. تناديك كي تمهد لها الطريق وتنتزعها من شراسة الأنياب وأشداق الوهم.

يتعالى النباح ويتساعر. يتوارى وديع ملتحفاً بهروبه وعجزه: «عيب يا رجل الأنين والعجز للمرضى والمعوقين، وأنت معافى.. نجاعة «الحسم» تضع حداً لأكداس الأنين والخور، واعلم أن الله لا يساعد إلا الذين يساعدون أنفسهم. في البكور تتحرّق شوقاً للانطلاق، هيا.. احمل رأسك وبأسك واخرج من حصارك إلى الكلب. أنشب فيه أظفار حقدك وكراهيتك واحتقارك وضيمك. مزّق شدقيه واسحق أنيابه. هه.. ما بالك تتردد من جديد؟ عيب يا وديع صرت طول الحورة وكبرت إلى الرجولة، والرجولة بلا كرامة ممسحة للأحذية والغبار.

خلال سبعة عشر عاماً طرحت الأشجار ثمارها سبع عشرة مرّة. مجدبة مواسمك، لا عشب فيها ولا ثمر. خشن صوتك وشعر ذقنك وصلب ظهرك، كل هذا النمو لا يصنع الرجال، أقدار الرجال وماهيتها من ثبات مواقفها وأفعالها. وأنت لا شيء.. تدور في حلقة مفرغة وأنت تزحف على ركبتيك. تجفل روحك ويصفر أديمك كلما سمعت عواء الكلب أو أهفّت إليك رائحته. أمك تجاوزت خوفها وقالت لك الكلب كلب وأنت رجل، يعني أنك مسلح بما هو أمضى من سلاح الأنياب حتى ولو كنت أعزل. تنسى كلام أمك والكتب لأنك مشتّت. تتلوّى على نفسك كدودة تنزّ بصاقاً. يهجم الكلب عليك في مخيلتك وتخافه أكثر مما لو كنت تراه ماثلاً بشدقيه أمام ناظريك، يفسد قيلولتك ويحرمك متع الاسترخاء. مئات المرات انتصرت فيها على الكلب بمعارك وهمية، ولكنك ما إن تفتح النافذة وتشم رائحته حتى يسقط قلبك بين قدميك.. وتتاور من جديد، تتخلّف عن المدرسة وركب الحياة، تتراجع في دروسك ويسخر منك أترابك، ولا تعيرك الصبايا التفاتاً لأنك متهدل ومنكسر. أوجاعك ترياقها الحسم، وكلما طالت المدة استفحل الداء واستعصى عليه الدواء، ويصبح تنفيذ القرار بحكم المستحيل. هيا امتطِ صهوة جراحك واقطع رأس الكلب. اتخاذ القرار لا يشبه نزهة أو شربة ماء.. هو ماضٍ وموجع كمشرط الأورام، استلّ مشرطك من روحك الطافحة بالدمع والأسى، وبجرأة الفارس أغمده في أورامك.. لا بأس إن تناثرت شظايا نخاعك بعدها، لأنك حققت وجودك، والرجل الرجل في الفصد والذبح لا يتفوه بـ«آخ..» لأنها تفسد الفصد وتفقده نجاعته وغايته. امتلاك النفس قفزة انتحارية، ونجاحك فيها يطوّب حياتك لك، اسمك وشرفك ووجودك وأفلاكك ودقات قلبك. يعمّدك فارساً. ويصبح بإمكانك

تحريك قدميك حسب رغبتك ومشيئتك، تتعلّم وتتنزه وتسافر وتغامر وتعشق. تتكيف مع الدنيا وأعراسها في لحظة تحقق الحرية. وتنتعش روحك طارحة عنها ثقل العار والإدانات، والدرب إليها مرهون بالخطوة الأولى باتجاه الذات وتحقيق رغباتها الصغيرة للوصول إلى الهدف الأسمى. عندها فقط تنتمي أفعالك إلى رأسك وأحاسيسك إلى قلبك وخطواتك على قدميك».

كانت أم وديع تراقب حركات ابنها المصحوبة بشتى الانفعالات وتتعوذ من الشيطان الرجيم. اقتربت منه:

– الساعة الثامنة إلاّ...

حمل وديع كتبه وانطلق كالسهم. اجتاز فناء الدار وسلك طريقاً ترابياً ضيّقاً مطرزاً بالأزهار البرية. اقترب من صخرة الكلب وسدد نظراته إليها، كانت مفتتة وكالحة وليس فيها شيء من عظمة القلاع الرومانية. وما إن شم الكلب رائحته حتى شب على قوائمه معترضاً طريقه، كشّر عن أنيابه وتساعر نباحه. جمد وديع مكانه: التراجع يعني الدمار والموت، تذكر الخطوة الأولى.. الولادة!! تقلّصت عضلات وجهه واشتعلت عيناه بالغضب، تناول حجراً وراح يتقدم نحو الكلب بخطوات ثابتة وقامة مشدودة وزبد القسوة يكسو ملامحه. كانت المرّة الأولى التي يرى فيها غريمه عن كثب، تفرس فيه وهو يتقدم نحوه، يتراجع الكلب خطوات كلما تقدم وديع خطوة، ولا يصدّ وديع عينيه!! كل هذا كان مغطّى بالنباح؟ ليس كل ما ينبح يعض إذن؟ آه.. لو يعود والده إلى الحياة أو تراه أمه! اندس الكلب كحشرة في جحره تحت الصخرة مصوباً نحوه عينين دامعتين، منذ تلك اللحظة عرف وديع أن خير وسيلة للدفاع عن النفس هي الهجوم، تبدلت ملامحه واكتسبت مظهراً جديداً لا يمت إلى القديم بصلة. رمى الحجر من يده وبصق وتابع طريقه إلى المدرسة.

العروس

نفخت «أم حدو» روحها وماتت في فراشها، وكانت أمنيتها أن تموت في مكّة عند «أبو حدو».

صرخة واهنة ندّت عن ضلوعها وهمدت أنفاسها.

وضلوع. أم حدو هيكل قداسة في عتق التعب والزيت والآس. ينفرج فمها عن ابتسامة طفلية كاشفاً عن لثّة مبريّة. والطِحال الشهوة والوحام على كرسي خدّها. تشمع وييس على الوجه الشاحب.

كانت «أم حدو» تصلي الفجر في الجامع، تتلو آيات من قصار السور وتدمجها في آية واحدة (لأن أم حدو أميّة لا يحاسبها الله على هذه الفوضى لأنها تتلو كلامه من جوارحها وصماصيم قلبها). في نهاية صلواتها تبتهل إلى الله بأشواق مفطورة:

- ياربي خذني إلى «أبو حدو» وباركني كما باركته..

وكانت هذه الأمنية أغلى على قلبها من كنوز الأرض قاطبة.

- الله يحب «أبو حدو» أكثر مني..

تقول للجيران والأقرباء. وتغبط نفسها كثيراً لأنها كانت زوجة لذلك الرجل الصالح.

- «أبو حدو» رحمه الله كانت نفسه خضراء، يحب الخمرة والضحك والفرفشه أكثر من الصلاة، ولكن قلبه كان في بياض الثلج، الله غفور رحيم.

قال لها شيخ الجامع:

- رضى الزوج من رضى الله، وهو أقدس فروض العبادة.

آه يا شيخ الوصايا الإلهية.. لو تعرف «أبو حدو»، رجّال قدّ الدنيا، ولولا «حليب السباع» لكان من أولياء الله الصالحين. كان عشق «أبو حدو» ينبع من شرش فطرتها، ليس عن خوف أو رهبة تمدّ حبلها السري إليه، يسكنها كروحها وتلهج به في عبادتها، يلازمها في نومها ويقظتها وغيابه وحضوره، وتدعو له بالهداية وطول العمر..

- كان الله في عون الرجال..

أحمال «أبو حدو» أثقل من جبال الصوان، مهنته صعبة وشاقة يلزمها صبر وعافية، شغل «العتالة» في الأصل من اختصاص الدواب. الله جعل قامة الإنسان منتصبة ليأكل من ثمار الأشجار العالية ويتأمل النجوم، وقامة الدواب منخفضة لتأكل من كلأ الأرض وتحمل الأثقال، الحاجة دفعت أبناء آدم إلى مزاحمة الدواب في مهنتها ورعيها. عدّة العتالة إلى حبل أثخن من الإبهام وعربة عتيقة مخلخلة الأخشاب يشدّها «أبو حدو» إلى ظهره ويجرّها متنقلاً بين سوق الخضار وسوق العمار، يشقل شوالات الخضرة وأطنان الحديد والإسمنت، يحملها على ظهر عربته الموصول بظهره، تئن أخشاب العربة، وتتمدد ضلوع «أبو حدو»، تنتفخ عضلاته، يعرق، ويتمرغ جلده وملابسه، في آخر النهار تفرغ العربة من أثقالها، ويفرغ «أبو حدو» من رحيقه، يكرجان معاً إلى خمّارة «العتّالين»:

- « كعبه أبيض يا شباب..».

يكرع كأس العرق دفعة واحدة، يطفئ عطشاً منغّلاً في سراديب التعب.

و« أم حدو» لا يغمض جفنها، تتوسّل إلى ملوك الإنس والجان ليأتيها «أبو حدوّ» على وميض البرق، تعبر توسلاتها جبالاً وأنهاراً وسماوات قبل أن تصل إلى «أبو حدو» الذي تندّيه زخات أشواق ملحاحة، وترنخّه المواويل. يعب كأسه الأخير ويغادر الحانة نشوان. الليل يصبغ عشاقه بالكحل، يستر عوراتهم ويخصب آلامهم، يقرّب البشر من مشاعرهم وطبيعتهم الأولى. تفيض مشاعر «أبو حدو» رقّة، وعذوبة. يسوق عربته على مهل. عتّالون. حرّاس، جامعو قمامة، متسكعون، يحييّهم «أبو حدو» تحية معرفة. النجوم بعيدة، لا تلمس

تلويحة الأيدي التي ترتفع بالسلامات كالرايات المتعبة، شحوب المصابيح يزيد في وحشة الصمت، وخطوات «أبو حدو» تعلو على صوت قرقعة الدواليب الأجش. «أم حدّو» تحس بإيقاعها كأنها نبضها، تصخب وتتضرّج كعروس. تهرع إلى «حدّو» النائم في سريره الخشبي الذي يشبه النعش الصغير. تسقيه ملعقة «ماء الغريب» حتى لا يفيق ويزاحم «أبو حدو» على عبّها.

تتوهج بالشموس وهي تساعد «أبو حدو» في خلع ملابسه وهمومه. تغسل له رأسه وقدميه، تجففه بمنشفة حنانها كأنه «حدّو». يتحلل تعبه ويتورد، تلبسه جلابيته بسرعة لأنها تخاف عليه من لفح الهواء.

الطعام جاهز على طبق القش المجدول بالآيات القرآنية يتصاعد منه بخار القلب، تلقّمه بحنان، وعقب كل لقمة «صحّة وهنا». بعد الطعام تطيب أنفاسه من تجشؤ الخمرة بكوب شاي معطر بالعنبر. يتثاءَب «أبو حدو» على وهجها ويسكر بسقسقة ينابيعها. وتصيبها عدواه. تركن إلى جانبه وتغرق برائحة أمنه وهي تلعن شياطين الغواية التي تحرق كبده ونقوده وتسرقه منها. تتوجه إلى الله بقلب مفعم بالإيمان ليهدي «أبو حدو» إلى صراطه المستقيم:

- «الله يستجيب لدعاء الولايا، ولا يستجيب لدعاء شرطي أو عريف أو صاحب طنبور أو جابٍ».

قال لها شيخ الجامع.

بعد ثلث قرن من التضرعات والدعوات والابتهالات والصلوات والصبر، استجاب الله لأم حدو، وطلّق «أبو حدو» المنكرات. سار على درب الهداية وأكمل فروضه الدينية بأداء فريضة الحج، أخذ أم حدو معه في ذلك الموسم ونام هناك إلى الأبد على أثر ضربة شمس ألمت به بينما كان يضرب إبليس، حسدته أم حدو على موته المبارك وتمنّت لنفسها مثله. الله تقبل توبة زوجها ونقله من حريق الجحيم وعذاباته إلى جنات النعيم.. والذي يختاره الله إلى جواره أثناء فريضة الحج، يذهب مباشرة إلى الجنة مهما عظمت ذنوبه!

عادت أم حدو وحدها من مكّة مسربلة بالرضى، مسكونة بالشوق والأحزان، وهاجس اللحاق بزوجها والنوم إلى جانبه.. يؤرقها.

حدّو بعد وفاة أبيه جدّد عربته وسار على خطاه.

تزوّج فخرية، وكانت لا تشبه أمه فخرية معتدة بنفسها، عنيدة وطموحة ولسانها طويل. ترفض قدرها وتلعن حظّها صبحاً ومساء. نفسها قصير «في رأس منخارها»، وبدلاً من أن تتجلّد بالصبر والقناعة وتتسلح بالحكمة والإيمان، تصبّ جام غضبها على حدّو، تتهمه بالتقصير وتنعته بأقذع الألفاظ:

– كار العتالة للدببة..

يتأثر حدو لرجولته ولقمة عيشه ويصفعها.

تتألم أم حدو بصمت، تتدخل لإصلاح ما انكسر بين الزوجين، تنهرها فخرية وتقول لها، لا تتدخلي فيما لا يعنيك! كيف لا يعنيها حدو ولدها وفخرية كنتّها «ومن أخذ ولدك صار ولدك»؟ يتنامى عندها هاجس اللحاق بزوجها:

شقيقتها رابعة ميسورة الحال. زوجها تاجر في سوق الحرير أنعم الله عليه بالمال والعيال وراحة البال. عند رابعة بيت فسيح وغرف عديدة وأشجار كبّاد ونارنج وبحرة ونوافير في أرض الدار. صرّت أم حدو حاجياتها، لبست ملاءتها وانتقلت إلى بيت أختها رابعة. عاشت هنا بلقمة عيشها، وجندت همتها وقواها وحبّها لخدمة رابعة وزوجها وأولادها وأحفادها وجيرانها. بالمقابل، كانت رابعة تنفحها مئة ليرة في آخر كل شهر لأنها رفعت عن كاهلها حملاً ثقيلاً.

تجمع أم حدو تعبها في صرّة وتسير وئيدة على طريق الحلم.

عند رابعة تلفزيون وغسالة كهربائية.

يبدأ اليوم بصلاة الفجر... وينتهي بنشيد التلفزيون ورفرفة العلم.

يوم الخميس تطرق أم حدو أبواب الأقارب والجيران في الحارة، تجمع غسيلهم وتكوّمه تلالاً على أرض الدار. يهدر صوت الغسالة وتتعوذ أم حدو من الشيطان الرجيم الذي يسكنها ويدير عجلتها.. ولا تقربها أبداً!

الغسيل كثير، زومه كالوحل تختلط فيه مفرزات أكثر من عشرين نفراً. تناول أم حدو سطول الماء إلى رابعة التي تعفيها من مهمة الاقتراب من الغسالة، وبعد آخر

زوم تتحني أم حدو على البحرة، تفوّح الغسيل وتسبّعه بالمياه الجارية وشفتاها تترنمان بأغاني الصبا. تصعد إلى السطح عشرات المرات لنشر الغسيل، تضطرم أشواقها إلى مكة، تحملها أجنحة «الستيتيات» الواقفة على حبال الغسيل.

لأن عند رابعة تلفزيون، في المساء ينحشر مخدع الجلوس بالمتفرجين. يأكلون البذر ويحتسون الشاي، وضجيجهم يعلو على صوت التلفزيون.

أم حدو لا تشاركهم أكل البزر أو الفرجة. لثتها عارية من الأسنان، ترتدي ملاءتها وتغطي وجهها بمنديل أسود، تخرج إلى أرض الدار، تمد رأسها بين حين وآخر إلى الحشد في المخدع من الشباك. ترمق من تحت برقعها مذيع التلفزيون بعينين خجولتين:

عيناه تحدق بها!!

– يا عيب الشوم، استح على حالك..

تؤنبه أم حدو ويموج المخدع بالضحك.

تعاتب أم حدو أختها رابعة وبقيّة النسوة الكاشفات السافرات على الرجال الغرباء.

– ما هي إلاّ صور... وليسوا رجالاً بلحمهم وشحمهم ونظراتهم. تمعن أم حدو نظرها في مذيع التلفزيون، والمذيع بدوره يحدق بها، ولا تصدق أختها رابعة!!

أعوام الانتظار طويلة طويلة.

تجمع أم حدو نقودها، وعند موسم الحج تودع أهلها وناسها:

– سامحوني.. اشتقت لزيارة مكة.. و«أبو حدو».

جهود تعبها ضئيلة لا توازي مصاريف الحج. تسافر بالبركة. تركب الباص، وفي مكة تخدم في بيت «المطوّف» لقاء إيوائها وإطعامها وطوافها.

تعود من الحج مبحوحة القلب والتضرعات، ومكسورة الخاطر.

لم ترقد إلى جانب «أبو حدو»!!

سبعة أعوام عجاف لم تخمد جذوة هذا الحلم. انحنى ظهرها كقوس، واتخذت خرزاته وضلوعه شكل صندوق بارز، وخلال تلك الأعوام حجّت أم حدو سبع مرات إلى مكة. لم يكتب لها في أي منها النوم إلى جانب «أبو حدو». وفي العام الثامن، وقبل حلول موسم الحج بشهر واحد، كانت أم حدو تعد عدتها للسفر وتغني «طلع البدر علينا..» نامت وماتت في فراشها. شاهدتها رابعة في منامها وهي تلبس فستاناً أبيض وتتأبط ذراع «ابو حدو» تحفّ بهما الرياحين وأنهار اللبن والعسل.

رحيل البجع

جلد صبحة مشبوب بزرقة الوشوم والكدمات المنسيّة.

من حقول البراكين تطلّ الخزامى والنرجس والبنفسج.

ترسم صبحة سوسنة على خدها، تزرع نجمة في عينيها، تسرق همسة من أصابع الفرح، وتموّه وشومها بالأحلام، جنيّة الليل تتربص لها على مفارق الحلم، تسرق مكحلته الفضيّة وتدرز وشومها بالوعول والخرز الأزرق.

في عماء السماء وتجهمّها، تكتئب صبحة، تتجمد وشومها وتغوص في جلدها. لو يشتاق إليها أحد ويحبّها أكثر من الليل! سنّها محيّر مثل وجودها، محاصرة بين الطفولة والشباب، لها قلب عصفور وعنق بجعة وهديل يمامة ونواح صفصافة، والبارحة عند انصرافها من المدرسة كانت أوصالها متجمّدة، ومسامها تتقلّص وتضيق مثل جلد منقوع بالثلج. تلبس صدريّة المدرسة فوق لحم جسمها، لا قميص ولا سروال ولا حتى جوارب تحصنّها من قسوة الطبيعة. توقفت أمام أحد حوانيت الملابس، ألصقت جبينها بالزجاج لتتأمل عن كثب قبّعة على شكل رأس أرنب من الفراء الناصع. سرى خدر لذيذ في أذنيها. مرّ بها حسن الطالب المغربي الذي كان يدرس في الجامعة ويسكن إلى جوارهم. أعربت له صبحة دون قصد منها عن إعجابها بالقبعة:

كأنّها رأس أرنب حقيقي!

وعدها حسن أن يقدمها هدية لها عندما يتخرج من الجامعة.

تركته ومضت. ما سمحت له أبداً بمرافقتها إلى البيت. ألسنة الجيران وأمها أوجع من سياط الصقيع على جسدها.

السماء غائمة. قطعان غزيرة من الخراف الرمادية والسوداء ترعى في حقولها. تقضم البياض وتنفث من بطونها رذاذاً دقيقاً كالملح يعصف بصبحة. يهزأ بجلدها ويخترقه إلى شروش العظم، يتقلّص وتتناثر فوقه حبيبات مخرومة بالدبابيس.

حفنة الدفء تندس تحت جناح عصفورة تضم فراخها.

وقطرة المطر يحملها ملاك وينقطها حيث شاء الله.

وصبحة تلبس صدريتها على لحم جسمها، قميصها وسروالها وجواربها، اختلطت بملابس إخوتها وضاعت في فوضى البيت. أو ربما تطايرت عن حبل الغسيل أو من الأبواب المشرعة أو النوافذ المخلّعة. تسع أخوات وأربعة أخوة (والحبل على الجرار).

لون صدرية صبحة من لون البحر ولكنها ليست واسعة ودافئة مثله. قماشها رقيق ونسيجها مهلهل.. وضيّقة!

البيت مثل خليّة النحل يعج بالطنين والصخب. صياح وضحك وبكاء ولعب وسباب وشتائم. تنسحب صبحة مع حقيبتها وتزحف تحت السرير تكتب واجباتها المدرسية وهي منبطحة على بطنها. تغفو على كتابها ويأخذها بساط الريح إلى البعيد.. البعيد.

دائماً تذهب صبحة إلى مدرستها (عالريق) وهي تلبس صدريتها على لحم جسمها، لم يسبق لجلدها أن تمرّد عليها من قبل! حنين مشبوب لترف الدفء يعذبها.. وتخونها إرادتها. تتخطّى باب المدرسة على مهلها، ربما تناديها إحدى الصديقات باسمها، تتأبط ذراعها وتدخلان إلى المدرسة سوية ويسري دفء ملابسها إلى صبحة. خاب أملها ولم يعرها أحد مثل هذا الاهتمام. تخطت باب المدرسة وهي تهذي من البرد. لم يكن لها صديق وفيّ غير جلدها، يلمّها ويضمها دون مقابل، يستر جوعها وصراخها وأحلامها، ولكنه في الأيام الأخيرة، تمرّد، وصار يطالب بحقّه، كأنه شلحها، تاركاً عظامها في عراء برد كوانين. كل ما حولها يدلل جِلده ويداريه بما توفر له من

سبل، الناس يرتدون الملابس الصوفية على اختلاف أنواعها، والعصافير ترتدي الريش، والخراف معاطف الصوف.

لا يد للعصافير والخراف في اختيار كسوتهم. ترى لماذا لم يخلقها الله عصفوراً أو خروفاً؟

رفعت صبحة عينيها إلى السماء رجتها أن ترسل لها شعاعاً على قدّها.

ومضت السماء بالبرق، هربت قطعان الخرفان الرمادية والسوداء، وتراصت في قطيع واحد، رفعت الريح صدرية صبحة وتلاعبت في أذيالها دخلت إلى نخاعها. تدحرجت صبحة كجذع يابس إلى حديقة صغيرة مقاعدها حجرية وأشجارها عملاقة عارية من دثارها مثلها تماماً! النهر يخترقها من أسفلها إلى أعلاها مخالفاً بذلك قوانين جريان الماء وهطول المطر. النهر عصى تلك القوانين واندفع مجنوناً بقوة أشواقه إلى البحر. تذكرت صبحة أن أنهار بلادها «تزيد من نسل النساء وتقطع نسل الجياد». أبوها معلم عمار وإخوتها وأخواتها «يأكلون شعر الذقن». الأجنّة تهرهر من أذيال أمها كالغبار.. مع أنها في خصام دائم مع أبيها الذي هرب من الفوضى إلى غرفة فوق السطح.

عاندت صبحة دفع الرياح وهي متخشبة تماماً، كرجت باتجاه المدرسة. مرت ببقعة أطلال مزروعة بالأوابد التاريخية. أسندت ظهرها إلى جدار مشروخ، طار عصفور كان مختبئاً فيه ملوحاً لها بجناحيه، هي تحب العصافير ولا تصدّق أن العنقاء أكلت الصبي عندما جاعت، وأن الشوحة تخطف البنات من أسرّتهن. سمعت صبحة من يناديها باسمها، ولم تصدق أذنيها، ظنت أن أذنيها تطنّان من هذيان البرد. اقتربت معلمتها التي كان لها نفس اسمها مسكت يدها واصطحبتها إلى المدرسة. أجلستها بجانب المدفأة. تمدد جلدها وانفلش باسترخاء، غفت صبحة وخطفتها الشوحة إلى كوكب يهزج بالأطفال، يدحرجون الشمس بأقدامهم مثل الطابة، شاركتهم صبحة اللعب وشاطت الشمس بقدميها.

رن الجرس ورافقت معلمتها إلى بيتها، ألبستها قميصاً وسروالاً وكنزة وجوارب صوفية حمراء. ملأت جيوبها بالقضامة والملبّس. تقرمزت صبحة من وهج الملابس والحنان وكادت أن تختفي وشومها الزرقاء.. حتى أن قامتها أصبحت أطول، الدفء لوّن خديّها وعروقها وشدها إلى أعلى. في طريق عودتها إلى البيت كانت تنط كالكنغر والحلوى ملء فمها وجيوبها:

- أين كنتِ يا عاهرة؟ استقبلتها أمها بلازمتها المعتادة! جاءَت بـ«المقشَّة»، صبت عليها الكاز، قدحت كبريتاً وأشعلتها. نزعت سروال صبحة الجديد وأحرقتها من عانتها. بقوّة اشتعال الألم ركضت صبحة في الشارع تسبقها ولاويلها، ورائحة شوائها تتصاعد على موجات صراخها. دخلت منزل جارهم حسن الغريب الذي أسرع وأطفأ اشتعالها وداوى حروقها وارتحل بها إلى بلاد بعيدة وهي أكبر من عمرها.

حدث ذات صباح

بعد زوال مفعول «الفاليوم» يعتريها اكتئاب، تطحنها وساوس وأوهام، ومن تأثير هذا، انشتر خدّها وفقد تناظره مع الخدّ الآخر، هبط مثل كرة أفرغت من الهواء.

قررت أن تعشق الله وحده!

أفرغت محتويات حقيبتها من المهدئات «فاليوم، لبيريوم، موديتان..» في المرحاض، وشدّت «السيفون». لملمت أوراقها عن مكتبها وغادرت عملها قبل انتهاء الدوام وهي تغطي خدها المشتور براحتها.

اسمها تاج تستمد قوتها من دلالاته ومعانيه، وملابس «البالة» تصيرها أميرة ترفل بعزّ أصحابها «الأجانب» الذين لبسوها قبلها.. وملوّها قبل أن تبلى. الإنسان يرفع قدر الأشياء مهما كانت متواضعة، وتكبر به، وملابس «السينيه» ربما تليق بصعلوك أكثر مما تليق بأمير!

هي «صباح»، والعتمة من حولها لا علاقة لها بقصر النظر.. أو مدّه. نظاراتها الطبيّة تؤكد لها صحة إبصارها وهي على أعتاب الخمسين. لأنها ملفوحة باسمها، نداءات البكور، أنضجت الشمس حنطتها باكراً، عشقت وتزوجت في أول موسم حصاد، وفي الموسم الثاني أنجبت «طارق» وفي الموسم الثالث عادت كما كانت وحيدة بعدما هجرها الزوج لفرط غلالها:

بطن السنبلة يغفر لها قساوة شوشتها.

لم يحاول أبداً أن يعرف هذا!!

لفحها هواء بارد، أحكمت لفّ الشال حول رقبتها وذقنها، غطت خدها المشتور علّ الدفء يعيده إلى كرسيه. مرّت بواجهة الصائغ مرور الكرام،

ما استوقفها أبداً القلب الذهبي المرصع بالماس الذي كان يتدّلى بسلسلة.. وكان عشقه محفوراً على جيدها من شدّة التمنّي.

لون الذهب لونها المفضل. ملابسها، طراريحها، ستائر غرفة نومها، كلها منسوجة بخيوط ذهبية بريقها يضفي شروقاً مستعاراً على وجودها المنسي ويميزها بتفردها حتى ولو كان البعض يستهجن أن تلجأ امرأة في الخمسين إلى تمويه غروبها بشروق مستعار! فالشمس لا تشرق في الليل على حدّ زعمهم.

كانت جائعة، فتحت حقيبتها وعدّت نقودها.. وجازفت.

دخلت إلى محل بائع السندويش وابتاعت سندويشة «همبرغر». اندست نتف اللحم في فراغات أسنانها، والأكل خارج المنزل ألذّ وأطيب، متع الحياة ومباهجها تفقد نكهتها دون مشاركة. تزيل بقايا اللحم من بين أسنانها برأس لسانها الطويل! يستقر اللسان في فجوة ضاحكها العلوي الأيمن، انخلع منذ خمس سنوات وخلّف فجوة سوداء في ضحكها. لم تسع إلى تركيب ضاحك اصطناعي مكانه، قد يكلّفها ذلك أربعة آلاف ليرة على الأقل، أكثر من راتبها الشهري.

امتلاء المعدة يوقظ الحنين إلى أشياء أخرى:

«ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان».

تعرج على المكتبة، تختار كتاب «فن الحب» و« الحريم السياسي». تتسكع قليلاً، تماطل في وصولها إلى البيت.

راداراتها شديدة الحساسية موجهّة إلى داخلها بدقة متناهية، بعدما حُشرت من خارجها صار العالم يتطاحن فيها بكوارثه الطبيعية والبشرية. شيفرة العقل المتطورة اختصرت الأسماء بالأرقام والأفعال بالاختصاصات. يتجسّد الماضي في الحاضر، والحاضر في الآتي، وعمرها يختصر المسافة بين النظر والقلب والعقل. في زيارتها الأولى للطبيب النفسي صفعته بأسئلتها الصعبة التي لم تجد جواباً لها؟ لماذا أصبح الديناصور ضبّاً والنمر هرّة والذئب كلباً؟ لماذا انقرضت الديناصورات؟ وما هو دور التدجين في ضمور المخلوقات والموجودات؟ باحت

له بآلام تقلّصها، تكلّس العظام وآلام المفاصل وتسارع دقات القلب. حللت بوحها بوعي فيلسوف، جسدتّه بريشة فنان، وترجمته قصيدة شفّافة الأحزان. طريقة بوحها أذهلت الطبيب، فهو لم يصادف في حياته المهنيّة أو العادية امرأة مثلها، صادقة وجريئة وعلى قدر كبير من المعرفة والنضج والوجع. حدثته عن الجسد بلغة الجسد ودون تصعيد معلّب أو فلسفة مجبولة بوقار تاريخي. فعلت ذلك ببساطة متناهية، دون ارتباك أو حرج الذي يرافق غالباً طرح هذه المواضيع، فهي لا ترى عيباً في الكشف عن أسرار مقدسة مغرقة في القدم، خلجات جسدها مسحوبة من نخاع روحها.

يصف لها الطبيب (فاليوم عيار ١٠).

مع تباشير الصباح تفتح صباح عينيها ونوافذها. يناديها الفجر كي تحتفل بأعياد اسمها. تشهق رذاذ الضوء المبلل بالندى، الحياة جميلة لولا تكلّس العظام وأشياء أخرى. يتناهى إليها صوت أذان الفجر. الجامع قريب من بيتها الذي ورثته عن أبيها ولمّها وآواها بعد طول تشرد. هذا البيت يقع في الطابق الأول من عمارة حديثة البناء تطل شرفته على حديقة عامة تكتظ فيها أشجار منحنية القامات من شدة الريح الغربية. تزيل من عينيها رذاذاً عالقاً بأهدابها. ترفع يدها إلى نقرتها، تمسّدها وتضغط على فقراتها، تسكن وخزات الألم المنفلت منها إلى الصدغين والكتفين، ترى من أين جاء هذا الرذاذ إلى أهدابها؟ تعزو سبب نسيانها أحلامها الليلة إلى «الفاليوم». قطار السفر يعبر أحلامها الليلية ويخلّف صفيره الحزين في أذنيها. تُمرّي وجهها وهي متكئة على الوسادة، بثياب طفل كانت قد دقّتها بالمسامير عند الأكمام والرقبة والنهايات.. صَلبتها على حيطان غرفتها وأبوابها. لأسباب قاهرة يصعب التعبير عنها. ملابس ضامرة ومغبّرة من طول المسافات والسفر. تغرق في لجّة أشواقها الحرّى. ينبثق طارق من ملابسه المعلقة على الجدار مثل قطرة مطر، يعبر المحيط بزورقه الورقي إلى صدرها. تندّي حلمتها دمعة حليب، ويزقزق عصفور على الشرفة، تمور أكوانها بدلالاتها التي تذغدغ الفجر وتوقظ الشمس من نومها.

تموت آلام المفاصل، يتموسق فحيح الصمت بالعناق والقُبل.

حلم يمضي بسرعة، ومضة برق تعري الفرح من دثاره. تمخرها آلامها من جديد، ترى هل ما حدث كان حلماً أم حقيقة؟ رائحة طارق في أنفاسها، تنفلت من كساح عظامها المتكلّسة وتتبع مسارات روحها في عملية طيران قسري.. وتسري إلى وحيدها:

عشرون عاماً تفصل طارق عن ملابسه المعلّقة على الجدار. وهي لا تريد أن تصدق هذه الحقيقة، خداع النفس لا بدّ منه لتؤكد صدق أمومتها... وأنها أنجبته من بطنها فعلاً!

الحقيقة مرة.. وإلاّ.. ما كانت تنطوي على كل هذا الألم.

كبر طارق، مخر أمواج البحر وحيداً مصحوباً بإرث باهظ الإدانات من قبل الأهل.. والأغراب. لم ينفصل عن مشيمة روحها، وإن كان لا يبعث لها بالرسائل أو يهاتفها، تختلق له الأعذار، ولا تلومه على جفوته، تعزوها إلى الغربة، قسوة ظروفها ومناخاتها، تفادح الحنين يشطر أشواقها بفأس بربرية. ترى لماذا تتكسر جسور التواصل بين الأبناء والأمهات عندما يشبون إلى الصبا؟ هل لأنهم ينتمون إلى المستقبل والأمهات يصبحن من مخلفات الماضي؟ معظم الأبناء يشبهون طارق، وأكثر الأمهات مثلها.

الصباح يولد من الظلمة، والبهجة من سراديب الحزن، والأمل من قاع اليأس. سارت إلى مشنقتها التي وصفها لها الطبيب لتخفيف آلام ديسك رقبتها. رأسها ثقيل ومن الطبيعي أن تُعطب القاعدة التي يتكئ عليها. أحكمت جهاز الديسك حول رقبتها.. وتدّلت! ما إن فعلت ذلك حتى اقتحمها شرطي من الشرفة، نطّ إليها بسرعة البرق وبدا كالأبكم وهو ينظر إليها مشدوهاً ويقوم بحركات صماء ومأزومة كأنه يستدعي بها فرقة النجدة. نزعت الجهاز عن رقبتها وهي مصعوقة من الخوف. كانت تحدق في الشرطي ببلاهة مصحوبة بالرجفة. من المؤكد أن لسانها الطويل هو السبب المباشر لاقتحامها في البكور!

صدق من قال(أن مقتل المرء بين لحييه وفكيّه) لو صدقت هذا من قبل! ولكن تقويم الاعوجاج باللسان هو من الأمور البديهية والواجبة على كل إنسان قبل استفحال الخطأ وتحوله إلى قاعدة الصح من طول الممارسة. تملأ فمها بالشتائم وتبصقها جهراً في وجوه مستحقيها. ومؤخراً كانت قد شتمت شخصاً متأنقاً ونافذاً ولامعاً شبهته بالحذاء، ونعتت آخر باللصوصية وثالثاً بالقوادة! وقالت عن امرأة «تفك مشنوقاً من حبل المشنقة» إنها مومس. أخطأ لسانها في تماديه، ليس من حقّها محاسبة الناس، الله يقوم بهذه المهمة عنها. الحديد يفشل أحياناً في تقويم الاعوجاج.

شرطي آخر نطّ إلى الغرفة، يبدو أنه استجاب لحركات زميله التي كان يقول له من خلالها، هنا امرأة مشنوقة. بادرا إلى الإعتذار منها، فهما لم يأتيا من أجلها. ولكن من أجل ابن الجيران الذي يتحرّش بصبيّة ويطلق عليها سهام قلبه الدامية.

خرج الشرطيان، ركضت في منامتها إلى كشك الهاتف وهي مشعثّة العواطف والشعر، هاتفت طبيبها النفسي وهي في أقصى درجات ذعرها واضطرابها، أمرها الطبيب ألّا تغادر مكانها، تكوّمت على الرصيف، واسترجعت بأجراس صوتها ما حدث لها. تجمع حولها بعض العابرين وعرضوا عليها المساعدة، جاء الطبيب ونقلها في سيارته إلى العيادة. تمددت وأعطاها حقنة مهدئة:

المهدئات أهم إنجاز حضاري.

قالت للطبيب.. وسكنت.

رعاف القرابين

لمّا هلّ عامها الرابع عشر، تفتّحت براعمها.. وعبقت. نزّ جسدها رحيقه الأول، ودمع قطرات وردية، بقعتها:

لقد أصبحت كبيرة.. في عداد النساء. وأمها في ذلك اليوم ذبحت دجاجة. بعد أن كتّفت جناحيها، حزّت عنقها بالسكين، همد الرأس بوريده المفتوح.. وتراخى ملويًّاً على خدّه. انتفض الجسد، ورقص مصفقاً بجناحيه على إيقاع نوافير الدم المتدفق من حشرجة الروح.

أغمضت «هند» عينيها وقالت: ياربي.. تذكرت المحارة التي صعدت من قاع ظلمة المحيط إلى وجهه الضاحك، فتحت شفتيها وسرقت قطرة مطر، ثم ضمتها بسرعة حتى لا يفسد الملح كنزها، وكيف عادت إلى قاع المحيط ونامت في سبات الموت.. لتنضج لؤلؤة.

وأم هند منهمكة في نتف ريش الدجاجة، زغردت الجارة أم عبدو:

- لقد أصبحت عروسة..

لو.. لو.. ليش.

وأذابت لها ملعقة كبيرة من «أضراس» النشاء في كأس ماء، وأرغمتها على تجرّعه:

- اشربيه حتى تصير بشرتك في نصوع الثلج.

وتجرّعته هند، رغماً عن أوامر معدتها التي كانت ترفضه وتدفعه إلى الخارج.

وقالت لها أم عبدو:

- تأرجحي بحافّة السقيفة كي تسرقي من النخلة طولها..

وتأرجحت..

ترّسب محلول النشاء مرصوصاً في بلعومها، آلمها إبطاها من ثقل التأرجح، ونصل الذبح في عنق الدجاجة، منصوباً في عينيها..

نامت.. جائعة!

خصوبة الصبّار

فتحيّة «طارة القمر». لونها الأبنوسي من خط الحريق، وبطنها بستان، في الليل تُزجي حاجبيها وعينيها بالكحل الأسود، وتصبغ شفتيها بالشهوة. ترتدي غلالة رقيقة من شفيف الدمع.. وتقهقه إلى آخر.. الهطول.

وفتحية عندها ست صبيان، طيور من زغب وحويصلات ودم وأفواه وضجيج. كلّهم خشنو العظام والجلد. رؤوسهم كبيرة وكثّة، زنودهم ثخينة، وأكفهم عريضة مثل راحات الخبز، وكواحلهم شديدة البروز مثل عقد السنديان، أمشاط أقدامهم عريضة مفلطحة، لونهم بنيّ محروق، وعيونهم غامقة الدكونة وغائرة في تضاريس وجوههم الشديدة البروز، باستثناء حسام، الأكبر بين اخوته، كانت بشرته قمحيّة، عيناه سماويّتين.. كان مختلفاً عنهم تماماً (مثلما كان فرخ بط أندرسن).

ولأن فتحية كانت واحة العتّالين والطنبرجيّة والسكارى، قالت: (البطن بستان يحمل أشكال وألوان). فعندما يغلي الدم في العروق، يستيقظ الحيوان وينشب أنيابه، يمزّق ويدمر ويبعثر، يشظّي الفاعلية ويشلّ الإرادة، وقدر فتحية، أن تهمد الحرائق، وتؤنسن الدم.. تؤاخيه مع مشنقة الروح!

طوابير ترسف بالتعب وأغلال الشهوة، تزحف في حجب الظلمة إليها تنشد «التطهّر»، وتسبح فتحية بالمني والعرق ورائحة الأنفاس الحامضة. قبل آذان الصباح بقليل، تكون قد أدّت ضريبة العيش حتى آخر قطرة من أنفاسها، تسكّر بابها، وتفتح نوافذ الهواء، تبدّل شراشف ومخدات السرير، تصوبن الأرض والحيطان.. وتستحمّ. تسبّع روحها بالدمع. تهجع إلى أولادها تغطّي بطونهم العارية حتى لا يصابوا بالبرد (حسام الأشقر يحيّرها!! ربما

كان أبوه صفوح المبيّض، عيناه زرقاوان، وشعره مثل شوشة كوز الذرة، ولكنها لم تجزم بالأمر، فالليل يمحو الملامح.. ولا تتذكر كل تلك الوجوه التي اقترفها أصحابها).

الصبيان الستة لا يعرفون آباءهم، وسجّلتهم فتحية بدائرة النفوس بكنية «عبد الله». حسام البكر كانت تعقد عليه آمالها الكبيرة، لمّا كبر ذهب إلى المدرسة نظيفاً ومرتباً مثل أبناء الأكابر، تخيّلته فتحية محامياً لامعاً، يدافع عنها ويحميها، مثل بطل فيلم السينما الذي كانت قد شاهدته عدة مرات.. فرّغت فيه صهاريج دمعها... ويقتصّ من الرجل الذي طلقّها وتنكر لها، لأنها.. عاقر!!

في المدرسة، تهامسوا، وتغامزوا، حول حسام.. ثم.. جهروا:

– عبد الله يعني ابن حرام.

قال لهم حسام:

– كلنا عبيد الله.

وضجّوا بالضحك.

في ذلك اليوم عاد حسام هامداً من المدرسة، وملابسه واسعة عليه. لم يتناول طعاماً أو ينبس بكلمة. بعدما كتب وظائفه، دخل إلى المرحاض وشرب سمّ الفأر... وسكت.

الحزن قارة لا ضفاف لها، وتقرّحت فتحية من يباس الملح. طلّقت الليل، وأغلقت بابها على نواحها المكتوم، وحتى تجنّب أبناءها الخمسة مصير حسام، باعت ما فوقها وتحتها واشترت رجلاً محترماً له اسم وكنية. نسب أبناءها إلى صلبه!

مدينة الإسكندر

(قصص)

الخوف

عقل العصفور صغير،والذي يغفر للعصفور صغر عقله «قدرته على الطيران» اسمي «رقية» وامي تناديني«يا هبلة»، مع أنني ساعدها الأيمن في تربية إخوتي الثمانية، وفي كل أعمال البيت، حتى تعودت اسمي الثاني وأحببته أكثر من اسمي الأول!!، ولو أنني خيرت بالأمر لاخترته كاسم حقيقي في تذكرة النفوس.

تقول أمي بأنها سمتني «رقية» تيمنا باسم مبارك..

اعرف أن لا قيمة للأسماء في تغير الأقدار، ولو كان اسمي «الست بدور» لما اختلف الأمر.

في عائلة ابي «شرش من الهبلنة» على حد زعم أمي، وبما أنني البكر فقد حافظت على هذا التراث: فقدرتي على الاستيعاب بطيئة، ولست أفهم الأشياء «عالطاير» وأحب أمي بشغف، فالفقر والترمل والإجهاد جعلت منها امرأة عصبية تصبّ نقمتها على رأسي وتحملني خطايا العالم وسوء الحظ الذي يلازمها. معذورة هي.. فأنا البكر، والبكر من الضروري أن يشارك أفراد العائلة مسراتهم وأحزانهم. كل هذه الهموم المبكرة كانت السبب في لجم لساني، وجعلتني ثقيلة النطق. يخيل إلي عندما تخرج نبرة صوتي من حلقي وبأنها مسحوبة من قاع قبر أسود، وبأنني سأنشقّ إذا تفوهت بكلمة. أسفت أمي من أجلي ولكنها لم تغير من وسلوكها تجاهي. فقط في الليل، عندما تنتهي أعمالنا البيتية ويخيم الصمت على المنزل بعد أن أنام وينام إخوتي، تتأملني وتبكي.

بعض الأهل نصحوا أمي بأن ترسلني إلى المدرسة «لتحل عقدة لساني». كنت يومها في الثانية عشرة من عمري. تقبلت أمي الفكرة بحماسة رغم نتائجها الشاقة بنسبة لها.

إن نسيت فإنني لا أنسى ذلك اليوم المشؤوم الذي ذهبت فيه إلى المدرسة، إنه يوم جديد لايشبه غيره من الأيام السابقة المتوالية الرتيبة المنهوكة التي كانت لا تدع لي فرصة للتفكير أو التأمل.

ضجت قاعة الصف بالضحك عندما دخلتها، ولم تجد نفعا زمجرة المعلمة ونهيها للطالبات.. الزجر موجود أينما حللت. فتاة عمرها أقل من نصف عمري قالت لصديقتها وهي تغالب ضحكها:

- يا لها من هبلة، كل هذا الطول.. و في الصف الأول ؟!

- اللواتي في مثل عمرها قطعن المرحلة الابتدائية..

أردت أن أقول لهن بأن الذنب ليس ذنبي، ولكن لساني مربوط، واستغربت كيف عرفت التلميذة الصغيرة اسمي!.. هل قرأته مكتوب على جبيني؟.. حتما أن المدرسة تعلم النبوغ المبكر. عرفت أنهن يضحكن من قامتي النحيلة، ومن ثيابي البالية المرقعة التي كنت أفخر بها قبل دخولي قاعة الصف، لأنني كنت على يقين بأنني أرتدي أفخر الملابس. فأمي تعبت في تحضيرها وسهرت حتًى الصباح وهي تخيطها وترقعها لتجعلني أظهر بمظهر لائق. مسكينة أمي..

كان ترتيبي في الجلوس في أقصى غرفة الصف على آخر مقعد إلى الجهة اليمنى، وفهمت فيما بعد أن هذه الجهة مخصصة للكسولات والبليدات.

المشاكل الجديدة التي واجهتني في المدرسة كانت أكثر تعقيدا وتشعباً من مشاكلنا البيتية، فصراخ أمي و ضربها وشتمها لي، كانت أشياء أليفة مثل أصابعي.

من هذه المشاكل: كيفية التعامل مع الطالبات اللواتي يشحن بوجوههن عني كأنني «جربانة»، واقتنعت بأنهن معذورات وأن سلوكهن طبيعي تجاهي طالما أنني مربوطة اللسان وبائسة، ومن المشاكل الأخرى: كيفية التعامل مع الدفتر والقلم، كنت أحسد ليونة أصابع الطالبات في مسك القلم.. والذي زاد الأمر تعقيدا هو ظني بأن لكل فرد يدا" يمنى وأخرى يسرى مختلفتين عن غيره.

أعرق وارتبك من جراء حيرتي هذه، حتًى نجحت أخيراً في تمييز يدي اليمنى عن اليسرى.. ففي كفي اليمنى شامة سوداء كبيرة..

إضافة إلى المدرسة وواجباتها ومشاكلها، كنت عندما أعود إلى البيت، أشمر عن ساعدي وأساعد أمي في الأعمال البيتية التي تراكمت خلال غيابي في المدرسة، وكنت أنام في ساعة متأخرة من الليل على دفتري الذي تفتلت أطرافه وبليت.

المدرسة لم تحلّ عقدة لساني بسهولة.. كان النطق مقرونا" بالضرب والشتائم تارة، وبالضحك تارة أخرى.

وفي أحد الأيام وأنا منكبة على دفتري نادت المعلمة:

– انت التي في آخر مقعد – وكانت تشير إلي – ما اسمك؟

تلونت من الخجل والخوف.. مفاجأة أذهلتني وأذعرتني إلى حد التهتهة..

– مالك تقفين كالبلهاء؟.. آلا تعرفين اسمك ؟!..

وددت أن أقول لها: إنك تعرفينه، إنه الاسم الذي نطقت به لتوك أيتها الآنسة، ولكنني لم أتفوه بكلمة، بقيت واقفة – كجدار أعزل وهش – أرتجف، وظهرت بقع زرقاء على يدي.

اقتربت مني المعلمة وهي تحمل مسطرة كبيرة، ولوحت بها في وجهي.

– ا..س.م...ي..هـ..ب..لة.. «نطقت وهيأت نفسي للشنق.»

فرقع الضحك من كل جانب، واهتزت المقاعد وابتلّت عيون الطالبات من شدته. المعلمة، كنت أراقبها باستجداء، حبست ضحكتها حتى لا تفقد مظهرها الجدي، وقالت برصانة فيها شيء من الحنان:

– اسمك، عبلة أم هبلة؟

– هبلة..«نطقتها بليونة.. وبحنان.. ودون ارتباك»

النذر

«معبودكم تحت قدمي»
الشيخ محي الدين العربي

أسوق «كبشاً» سمينا ويحرن..

أسحبه عنوة، اتشبث برسنه و صوفه، أهزه ولا يتزحزح، أتعب وأشعر بالدوار وأبرك إلى جانبه. تقديم القرابين ملحمة عتيقة – «الفنيقيون لونهم أحمر من الشمس والبحار والأصباغ. ذبحوا أطفالهم. قدموهم قرابين لبعل منحوت من حجر، مجوف باللعنة.» وتقديم القرابين عادة متأصلة فينا، تدفق نوافير الدم الأحمر يزيل كوابيس أزلية نرزح تحتها.. ونرتاح. الربط بين الدم والخطايا، بين اللحم وشفافية الملكوت، واقع يصعب تصديقه، ونصدقه في النهاية لأننا تعبنا من الذنوب التي رضعناها من أثداء أمهاتنا. صوف الكبش كثيف وحار، رائحته صيف وبراري، ووداعته تخفف من همومي، وحزنه المذعور يحملني رعباً يقصم الظهر.

قبلتي الشيخ محي الدين العربي، والفصل صيف، والحرارة لاهبة.

– نذراً علي أيها الشيخ العربي الجليل، أن أذبح لك كبشاً سميناً إن أنت باركتني وأصبحت امرأة ولوداً، أحشائي كئيبة بلا ثمر. كنت ملهوفة لدغدغة الأمومة ولوجه طفل يضحك للملائكة على الدوام، خمسة أعوام مرت على زواجي، والصمت له طعم الموت، والجفاف قسوة مبالغ فيها لامرأة مثلي، والبيت يلزمه مكاغاة ترسم على جدرانه ابتسامات، ونحن فقراء، نرغب في دزينة من الأولاد، ولا عجب في ذلك، فمن حقنا أن نجد تعويضاً يعزينا.. وهذا التعويض ليس سهل المنال دائما. «يأتي الطفل ويأتي رزقه معه.» ويمتلئ معجننا خبزاً

وخوابينا زيتاً وعسلاً، وتصبح الحياة لدنة وطرية بالأجساد الصغيرة وزقزقاتها الحلوة. وكنا نؤمن بالشيخ العربي الجليل ومعجزاته لأنه اكتشف نقطة الوجع عند أمثالنا عندما قال جملته الشهيرة: - «معبودكم تحت قدمي» ودفع حياته ثمناً لها. «آمن بالحجر تبرأ،» والشيخ الجليل مبارك، والإيمان به حق، والذهاب إلى طبيب يلزمه نقود والشيخ العربي يقف إلى جانب الضعفاء مجانا «مسكينة جدتي سارة أنجبت سبع بنات، وعقب كل إنجاب كان جدي ينهال عليها ضرباً بهراوته الغليظة لأنه كان يريد صبيا ذكرا يحمل هويته همومه ومعوله، وكانت جدتي تمضي أيام نفاسها يائسة وباكية، إذ كان جدي لا يقدم لها شيئاً لتسدّ رمقها به سوى «دبس الخروب».

نذرت جدتي سارة إن رزقها الله بولد أن تذهب زاحفة على بطنها إلى مقام الست، استجاب الله لدعائها ورزقت بخالي حسن الصغير. قبل أن تتم جدتي إسبوع نفاسها بدأت زحفها المنذور إلى مقام الست: والفرحة عارمة والمسافة طويلة، والطريق أشواك وأحجار، وبطن جدتي الرقيق والمهلهل من كثرة الإنجاب لم يتحمل مشقة الزحف الطويل، تقرح واهترأ، وماتت في اليوم التالي بعد أن وفت النذر. انقهر جدي لأن خالي حسن الصغير سيربى يتيماً

لم تمضِ فترة زمنية طويلة على زيارتي للشيخ العربي الجليل حتى تحققت المعجزة، ورقصت أحشائي مبتهجة بالضيف الجديد.

- «الحرمان علقم، والعلقم مرّ، وقطعة سكر بعد المرارة فرح هلع أخاف أن أفقده. ولكن لم الخوف؟

بركة الشيخ العربي هدية لو لم استحقها لما منحني إياها.

فأنا امرأة كغيري من النساء، الخوف لعنتي الأبدية. تنتابني رغبة قاتلة وملحة لغمر اللعنة وامتلاك بذرة »

يذهب أبو وديع إلى عمله وأذهب إلى سوق الماشية أساوم على كبش سمين، وتجار اللحم قساة، قلوبهم لا تعرف الرحمة، أعود إلى البيت خائبة. يقول أبو وديع والوهم يسحقه:

– لننتظر.. حتى يرخص اللحم. وننتظر شهرا".. شهرين.. وأسعار اللحم في ارتفاع.

– لنقتصد يا أبا وديع، لن نموت جوعا" إذا قطعنا عن أفواهنا بعض الطعام. نكتفي بوجبة واحدة ونجمع ثمن الكبش النذر. ربما ظننا الشيخ العربي كاذبين، الكذب حرام.. والحرام عيب، وفي هذه الحالة ربما استرجع الشيخ هديته لا سمح الله. النذر حق.

– ولكنك حامل. والحامل يجب أن تأكل عن اثنين.

– سأتغذى بالأمل والفرحة، وأطعم الصغير من حشاشتي.

«الوحام» كان قاسيا. قبل أن أمر بفترة الوحام، ظننت أن أمثالي من النساء لا تنطبق عليهن قاعدته، لأن أنفسهن تعرف حدودها التي خطّها الفقر بقسوة، فلا يحاولن تجاوز هذه الحدود «فالقناعة كنز لا يفنى» وبما أن الجوع كافر، فغالباً ما تتحطم هذه القاعدة و تقتلع هذه الحدود ببأس الأنياب الجائعة وضراوتها. «فالوحام» حكم على جميع نساء الأرض، يشتد ويتفاقم في وضع مثل وضعي. اشتهت نفسي ضروباً عديدة من الأطعمة الحلوة والحامضة على السواء،كأنني«مجاعة السفر برلك» كان رأسي يطن كأنه خلية من النحل، وتخور قدماي وأتقيأ سائلا أصفر وأدوخ. عيناي تندلقان فجأة إلى الأمام حتى تكاد أن تفارقا محجريهما وتقعا على الأرض عندما تدخل بيتنا رائحة مطبخ الجيران.

طلبت من أبي وديع، أن يسد أنفي ويعصب عيني ويقيد يدي خلال هذه الفترة، حتى لا أشم رائحة مطبخ الجيران ولا أرى عربات الفاكهة من النافذة، ولا ألمس وجهي أو جسدي.

حشرجة، انتفاضات ذبيحة. هذه الوداعة ما أن تلمح نصل السكين حتى تتحول إلى ضراوة ولكنها عزلاء. كبش سمين ممتلئ لحما وشحما ودهنا، علف أكثر من عام حتى باتت إليته ثقيلة ومستديرة كالكرة الأرضية، يغطيها صوف مشعث «بالبعر» ومبلل بالعرق،

يتعب المسكين من حملها، بل لا بد أنه حمل سمنتها كرها لأن هذه السمنة تعجل في مصيره.

الحرارة لاهبة. هي عذاب والعذاب حق.. من أجل عيني وديع.»

آلام في ظهري.. آلام في بطني.. قيء يجيش في معدتي. واستنكر الأمر الأخير: - «هل أنتهت فترة الوحام ؟»

لا.. يجب أن تبدأ اليوم.. غدا سأشبع و يأتي وديع طفلا معافى، وجهه كإطلالة القمر.

أجر الكبش بقوة، يخطو خطوتين ثم يبرك من جديد يغوص في أسفلت الشارع الحار دامعا من الرعب. استجمع قوتي واحتضنه لأنهضه عنوة. هو ثقيل..

أحسست رفرفة في بطني شبيهة بالاحتضار. ينقصم ظهري واصرخ من الألم. يسقط جنيني على الأرض صغيرا بلا صراخ.

يقول الكبش: ماع.. ماع..

الفطام

سأل المعلم التلاميذ:

- من يحمي الإنسان ؟

أجابوا بصوت واحد:

- البندقية.

إلا «منير» الصغير فقد تلكأ في الإجابة.. نزع «اللهاية» من فمه وقال:

- الله. قال الأستاذ:

- أحسنتم. واقترب من «منير» وقال له:

- كبرت «عاللهاية» يا منير - أصبح عمرك خمس سنوات.

ابتسم منير وخبأ «اللهاية» في كفه، وكرر القول.

- الله.. وأشار بإصبعه إلى الأعلى.

رن جرس المدرسة معلنا الفرصة. هلل الأولاد فرحين وتدافعوا إلى باحة المدرسة، وتعالى صياحهم وصخبهم وبدؤوا يلعبون: «محمد» يخرج من جيبه زجاجة صغيرة يفتحها ويدخل فيها أنبوباً، ويمتص منها قليلاً ثم يخرجه وينفخ فيه، فتتدافع منه فقاعات شفافة، تطير فوق رؤوس الأولاد الذين تحلقوا من حوله. تقول «حنان» بتوسل، وهي تراقب فقاعة من تلك الفقاعات:

- خذيني معك..

- ليتها تأخذنا معها

– إنها مجرد فقاعات صابون لا تقوى على حملنا

يتأملها الأستاذ بحزن و تدمع عيناه

في هذه الأثناء تمر طائرة و تلقي بثلاث قنابل على القرية، كان نصيب المدرسة واحدة منها.

«رأس منير الصغير كان منكساً إلى الأرض، وأسنانه «تكزّ» على اللهاية بقوة»

اختفت الضحكات وهوّم الصمت على ثغاء الطفولة، وانكسرت شفافية الفقاعات.

كتبت هذه القصة إثر قصف الطائرات الإسرائيلية لقرية عيترون الواقعة في جنوب لبنان عام ١٩٧٥.

الإصبع

منذ أيام قليلة تجاوز أبو محمود العقد السادس و أصبح مهموماً و قلقاً: الحياة قصيرة يا «أبو محمود» وهمومها لا تنتهي.

حاول أن يبتسم. وأن يرضخ للأمر الواقع. سرت قشعريرة باردة في جسده، وأحس بأنه سيسقط جثة هامدة: سيحال على التقاعد، ويفقد بذلك وظيفته التي مارسها منذ أكثر من ثلاثين سنة، وأفنى زهرة شبابه فيها «عامل تنظيفات ليلي في البلدية.» وهو يصر على أن جده لأمه تركي الأصل وأنه يمت بصلة قرابة إلى أحد السلاطين. كان يفخر بهذا النسب ويلعن الزمان وغدره. ولكنه شيئاً فشيئاً تعود على جور الزمان، وأصبح غدره أليفاً مثل المطر. وبدأ يحب مهنته ويخلص لها. فالحب معاشرة طويلة وألفة.

والعمل ضرورة حياتية ملحة لإطعام أسرة أفواه أفرادها تأكل حتى شعر الذقن.

الحي الذي عهد إلى «أبو محمود» بتنظيفه أصبح يعرفه شبراً شبراً، أكثر مما يعرف وجه زوجته، يعرف عدد حفره وبلاطاته، ولون أبوابه ونوافذه، وسكانه الأوائل الذين هرموا ورحلوا، والحاليين الذين شبوا وكبروا.

إنها الحياة.. يكنس من هنا

ووتتكوم الأقذار من هنا:

- لو أن كل شيء يتكاثر كالقمامة، المال مثلا..

لأصبح كل الناس أغنياء ولفقدت المدينة نظافتها بفقدانها عمال التنظيفات. والقذارة بشعة، ولن يعوض ذهب قارون عن النظافة.

لقد باغت مجيء العقد السادس أبا محمود، وبلبله. فهو رجل أميّ لا يعرف الحساب، ولا عدد السنوات التي قطعها خلف مكنسته. وعندما كان يسأل عن عمره كان يقول: ولدت في سنة منحوسة، تلك السنة التي عم فيها القحط، وأكل الطاعون الناس.

العقد السادس الذي تخطاه «أبو محمود» كان شوكة كبيرة تنغرس في قلبه بلا رحمة. فهو لا يريد أن يتقاعد. وما زال باستطاعته أن يعمل ويعمل. فهمّته لا تزال شديدة كما كانت منذ ثلاثين عاماً. فلماذا يتوقف؟ لم يحقق حلمه بعد: – ما أقصر العمر يا «أبو محمود »!.

يضرب المكنسة في الأرض، يضع كل ثقله عليها، يدفع بالقمامة إلى الأمام، فتتكوم شيئاً فشيئاً مؤلفة تلاً هرمياً يتدرج في التضخيم. ويتضخم وجع الحلم: يريد أن يبني غرفة في أعالي جبل قاسيون ويزرع أمامها نخلة و دالية و ياسمينة، وفي أواخر أيامه يجلس بينها ويدخن «النارجلية». وقاسيون صديق « أبو محمود» الودود، ومفجر حبه ومخزن همومه وأسراره. لطالما وقف في أعاليه يستنشق الهواء النظيف ويناجي ربه ليساعده على تحقيق حلمه: – لو تأخر مجيء العقد السادس لاستطاع أن يحقق الحلم ويكمل بناء الغرفة التي بدأها منذ زمن. واختياره لأعالي قاسيون يعود إلى العشق الذي بينه وبين ذلك الجبل. فالبيوت في هذا المكان أرخص ثمناً وأقل كلفة منها في المدينة. لأن الصعود يرهق القلوب ويقصر الأعمار. وإنسان هذا العصر حريص على صحة قلبه.

قرر «أبو محمود» أن يلتمس العون من وجهاء الحي الذي تولاه بالرعاية والتنظيف طيلة ثلاثين سنة. فالوجهاء كلمتهم مسموعة عند المسؤولين، ولا بد أن يستجيبوا لطلبه ويمدوا له يد المساعدة ويمددوا خدمته عاماً آخر. ربما في هذا العام يستطيع أن يكمل بناء الغرفة في أعالي قاسيون. كان متأكداً من ذلك: – الأحلام بعيدة المنال مثل النجوم بالنسبة لعمال التنظيفات. وعمال التنظيفات بشر ومن حقهم أن يحلموا. الله عندما خلق الناس، خلق معهم الهموم والأحلام.

خذل «أبو محمود» من قبل وجهاء الحي الذين طلب منهم المعونة والالتماس عند المسؤولين، قالوا له أنه أصبح هرماً.

بكى « أبو محمود» وتساقطت من عينه دموع كثيرة.

وانطلق يجر عربته بلا حماس، وسقطت المكنسة من يده مرات عدة. عضلاته فقدت مرونتها وارتخت. الحي قذر – مجت نفسه هذه القذارة غير المبررة. العالم كلما توغل في الحضارة، ازداد الحي الذي ينظفه قذارة، يدمدم بلحن تركي قديم، يلتقي بالساهرين العائدين إلى بيوتهم ولا يحييهم كعادته. يلفت نظره شيء ما يشع بين كومة القمامة، ينحني ليلتقط هذا الشيء، ثم يرميه مذعوراً وغير مصدق: إصبع بشرية فيها خاتم ماسي ثمين. تبلبلت أفكاره وازداد قلبه رهبة. التقط الأصبع مرة أخرى: – ربما كانت إصبعاً شمعياً أو إصبع دمية رماها الله في طريقه ليساعده على تحقيق حلمه، لم لا؟ فهو يؤمن بالمعجزات وبأن الله قادر على كل شيء. قلب الإصبع بين يديه متفحصاً. كانت إصبعاً شاحباً كالشمع وباردة. قاعدتها دهنية بيضاء متسخة. إصبع دقيقة ونحيلة، إنها بلا شك إصبع أنثوية؟ فأصابع الرجال غليظة وفيها خشونة وهذه الإصبع البيضاء الشاحبة ناعمة الملمس كالحرير ومسحوبة مثل خيط من الضوء. لعنة الله على قمامة هذه الأيام، فهي مختلفة كلياً عن قمامة الأيام الغابرة (فضلات طعام، زجاجات فارغة، بقايا حيض وإجهاض. أكياس بلاستكية شفافة مليئة بسائل أبيض، أصابع بشرية). ما أشد جنونك أيها العالم!

هل يعقل أن تتعب امرأة من حمل خمسة أصابع وتفكر ببتر واحدة منها؟ هل تكون هذه موضة أو صرعة جديدة لم يسمع بها «أبو محمود» من قبل؟ فإنسان هذا العصر أصبح من التعقيد بحيث لا يتوانى عن بتر أي شيء!!

ألم يبتر جاره محي الدين الشاب المتدين المهذب عضوه لأنه كان يشاهد كل ليلة أحلاماً «يا لطيف.. واستغفر الله العظيم وأتوب إليك يا ربي» ترهقه بالاغتسال مرات عدة كل ليلة وتضيع عليه صلاة الفجر أحياناً؟

«وأبو محمود» يستنكر عملية البتر لأنه بحاجة إلى جميع أصابعه حتى يستطيع أن يقبض على المكنسة بشكل جيد.

ولكن أبا محمود لم يقتنع بهذه الأمثلة والتعليلات التي خطرت على باله وهو يقلب الإصبع بين يديه: الخاتم يشع يا «أبو محمود». والإصبع ميتة، وغداً ستحال على التقاعد.

والغرفة.. المأوى والحلم.. سيرمى الإصبع في برميل القمامة، ويخبئ الخاتم في جيبه، ولا من رأى ولا من سمع. ربما كانت هذه فرصة العمر، وفرصة العمر نادرة ووحيدة لا يصادفها إلا المحظوظون. هم بنزع الخاتم من الإصبع، وتوقف: ربما كان في الأمر جريمة.

ارتجفت وأحس بأنه القاتل والسارق: – بريء.. بريء.. سمع وقع أقدام قريبة. وضع الإصبع في جيبه وتظاهر بالتنظيف. كان أحد العابرين، أحس «أبو محمود» بأن الإصبع أصبحت ممدودة ومشدودة بعزم مثل سلك ضخم، وأنها تكاد أن تخرق جيبه وتمتد إلى عينيه وتفقأهما.

أخرج الإصبع من جيبه ورماها في برميل القمامة، وأسرع يجر عربته متثاقلاً. وعلى بعد خطوات من برميل القمامة سقط جثة هامدة.

الوحوش تهجر الغابة

كان من عادتي أن أصلي قبل النوم صلاة حارة ودافئة، فالوحدة في الليل أظافر نسر شرسة، تفلح عالم الهموم الصغيرة وتعريه بقسوة، وتتركه لليل يهدهده بشماتة.

عمر صلاتي من عمر الخوف والجوع: لان الليل حار – كدماء عشتار. وأمي تستهويها الأزقة الشاحبة في الليل إلى حد الهوس، وأبي تستهويه الحانات. لو كانت لتلك الأزقة و الحانات جاذبيتها في النهار، لاسترحت من همومي ونمت باطمئنان. عادة الصلاة، درجت عليها منذ أن كانت أصابعي لينة وملساء كالحرير وقبل أن تستطيل وتتحول إلى مخالب سوداء، من أجل رؤية ليلة القدر، والذهاب إلى الجنة، والتكفير أولاً وأخيراً.

التكفير عن أي شيء؟؟ لا أعلم تماماً، ربما عن خطيئة أمي التي مات عشيقها بين أحضانها من شدة الحب. لتذهب روح عشيق أمي إلى الجنة، ولتصبح جبهة أبي، المتغضنة الكئيبة، شمساً ضاحكة، لكي يحس بوجود أمي ويمنحها حباً دافئاً تبحث عنه باستمرار، ولكي يحس الاثنان بوجودي، ومن أجل، أن يبرأ أخي الصغير من مرض الزحار، وأخيراً لكي أبرأ أنا من مرض التبول في الليل.. من أجل كل هذا كنت أصلي. كانت صلاتي مثل تراتيل كنائس مهجورة، وفي تلك الليلة صليت بحرارة وبعجز كسيح يريد أن يجد «عباً في الله»

أوراق الشجر وقلب أمي يتجددان باستمرار. وقلبي كاد أن ينفرط من الرعب في تلك الليلة. لأول مرة، أحسست بأن الله بعيد عني، أيكون قد رافق أمي في رحلتها الليلة؟.. بكى أخي الصغير فانغمرت إنساً ضممته إلى صدري، لو كنت أملك شيئاً غير قلبي وصلاتي لاشتريت له دواء. دثرته بالغطاء جيداً، وارتجفت وأنا أرى ظلي الكبير المنعكس على الحائط، وتمنيت أن أكون بحجمه

حتى اسند سقف بيتنا. عادت الطمأنينة إلى نفسي عندما تذكرت أن ظل الإله يملأ العالم، و بأنني عندما أذهب إليه سيختارني من بين ملايين خلقه ويضعني على يمينه ويقول لي: آن لك أن تستريحي يا بنية.

صليت لآخر مرة قبل أن أذهب إلى السرير، وكأنني كنت على علم بأنني أودع السماء إلى الأبد. كان للصمت وشوشات غامضة أسمعها لأول مرة. سحبتني من ذعري فراشة صغيرة تحوم حول الضوء: لو لم يهترئ جسدي من الجرب لقلدت هذه الفراشة، التي تدور في ثانية واحدة أكثر مما يتحرك الإنسان في سبعين سنة، أسرعت وأطفأت النور حتى لا تلاقي الفراشة المسكينة حتفها أمام بصري.

صار عمري أربعة عشر عاماً وأمي تقول: لو أقلعت عن عادة التبول في الفراش لكنت قد أصبحت أماً. كل تصميمي واستنجادي بالله والملائكة ليساعدوني على الإقلاع عن هذه العادة السيئة، كانت محاولات يائسة تذهب عبثاً، لأنني عندما أنام تسحبني الأحلام بعيداً إلى البراري والحقول الواسعة، وفي الصباح، لا تصدق أمي شيئاً من أحلامي، وتعيرني بأخي الصغير الذي يخجل أن يفعل مثل هذا.. ونصحتني أكثر من مرة أن لا أتناول شيئاً من الطعام والشراب قبل النوم، فكنت أقسم لها بأن الطعام نادر في معدتي كندرة حب أبي في قلبها. و بينما كنت أفكر بمأساتي، أحسست بخبطة قوية زلزلت أركان الغرفة: الإله.. النجوم.. القمر..، يرافقون أمي في رحلتها الليلية، ونسيت أن أقفل النافذة.. يا ويلتي.. صدم بصري ضوء بطارية صغيرة، ويد كبيرة و قاسية كممت فمي واقتلعت الحب من أعماقي إلى الأبد. يد الله مع الجماعة، وغرفتنا عارية لا تزورها غير الفراشات في الليل.

– ماذا يريد هذا اللص؟..

أنّت عظامي من الألم تحت ثقل الجسد الهائل الذي سقط فوق جسدي، وبحركة واحدة من يده أصبحت ملابسي نتفاً «وبلت» رغماً عني. أكلني، وتحول الألم إلى غيبوبة ضبابية، ندت عنه صرخة مسعورة مزّقت ستار الصمت: لو صرخت كل الحيوانات المسعورة في العالم صرخة واحدة لما أحدثت مثل ذلك الصوت.

– الوحش في الغابات يا ابنتي.. هكذا كانت تقول لي أمي!!

– لو كانت أرحامنا تنبت أبطالاً لما انقهرت.

ماريكا

لم أعد شامخة مثل رمح محارب..

مع أن مفاصلي ليست لينة، و قدرتي على الانحناء ليست أصيلة..

فتراثي هو «همجية كل العصور»

لأن وجهي جمر معتق.. احترقت أقنعتي، وسقطت براويظي.. صفعت بزجاجها السماء والريح والأرض:

– اسألوا النهر.. فهو خير شاهد على مسرحيتي..

– الحماة غاضبون.. مهلاً يا ماريكا..

– ليذهبوا إلى الجحيم وليفتشوا عن مصدر آخر لقيمهم غير جسدي الذي توسخ «وتسفلس» من كثرة ما تمسحوا به. ليفلسوا وليخترعوا قيما جديدة يبيعونها في السوق السوداء. ولكن يقيناً.. لا شيء يوازي قيمة اللحم الذي يباع بالدراهم... والشرف الذي يباع بالقناطير.

عصرت الليل بشفتي وصرت سوداء... متعتي بالألم والرقص تفوق متعتي بممارسة الحب مع رجل نظيف وناضج جنسياً ومادياً. وهذا سر احتفظ به لنفسي.

خرجت عارية من فم غول، وتزنرت بالنجوم، وغنيت للرجال الذين يمرقون كالسهم، ارقص وأصنع فلكا آخر ومداراً آخر للأرض.

هبطت إلى شاطئ البحر مع قبيلة من الرجال..

تعرينا وبدأنا بممارسة الحب، اشتعل الضوء الأحمر، وقفزت إلى البحر. سحبتني الأمواج بعيداً، وكان البحر حاراً في الأعماق.. ناجيت ملك البحر أن

يرأف بحال ماريكا التي لم يعلمها أهلها العوم، وأنا أختنق، تذكرت عروسة البحر والأمير الذي عشقته والذي لم يحس بوجودها لان نصفها الأسفل كان سمكة. دموعها خلفت زبد البحار.

التقطني صيادون، لفوني بشباكهم و أسعفوني، اخرجوا المياه من جوفي وبقى الملح:

– أنا عروسة البحر، اطلبوا وتمنوا، على شرط: هو أن تعيدوني إلى البحر لأن جسدي مثقل بالكرى..

وحراشفي من الداخل تؤلمني.

التربة سكين في حلق، العبرة مات أصحابها، وكانت هذه تجربتي الأولى.

قبل أن أصبح «ماريكا» كان أسمي «مريم» ولكن دون نخلة. وفي «دبشة عليق» مليئة بالأفاعي والعقارب السامة، كنت ابنة مطيعة تحترم مشاعر الآخرين وتحمر وجنتاها خجلاً إذا قبّلتهما الريح على غفلة منها..

في الخامسة عشرة أحببت جبران والمنفلوطي وابن الجيران، ومرة رمى لي الأخير بورقة زرقاء مرصّعة بالنجوم من النافذة.

فصنعت منها أجنحة ووضعت وسادتي مكاني في السرير «للتمويه».. وكان الليل سخياً مقطوع الضروع، وحبيبي يوشوشني، ويلعق المطر عن وجهي ويقول لي كلاماً حلواً.. اعتق من المزامير. وحدثت المفاجأة: كانت عاصفة بلورية الجسد، عيونها حفر بلا قاع شاهدتنا عشيرتي معاً: فجور العالم كله استيقظ في لحظات تجلّي الإله.. وخرست المزامير. علمت عشيرتي بالأمر، وشحذت سكاكينها و جاءت ترغي و تزبد، ضربوا حبيبي، و سحبتني النسوة من شعري إلى البيت و قلن – عاهرة.

– لم يمس غير يدي اقسم... تعاونت العشيرة على جلدي وتشريحي أياما «وكان الرعب». هتكوني.. عروني من جلدي.. ولم يبق في جوفي شيء لأتقيأه.. «مطحونة يا أنا.. وذراتي هباب اسود.. محكوم علي أن أعوم بالوحل وأن أختنق برائحة المجاري.. وأموت بحسرة «حبقة» فرخت في قلبي ولم أشمها.

وأنا لا أعرف العوم إلا فوق الزبد الأبيض. مجذافي قلبي.. وشراعي ابتسامة فيها كل لآلي البحار.

اهترأت من كثرة الاستجواب، وكشّ جلدي من كثرة ما اختبأت به.

نساء عشيرتي بعيونهن المترهلة، تجمعن حولي قائلات: «الله لا يكبرها.. ذبحها حلال»

«الاعتداء على قاصر» قصة لفقوها بمخيلاتهن التي ما عرفت غير السراديب والعفن. جاؤوا بطبيب...

– أنا مشاع لأصابع العلم والفضيلة. بعد أن حملق الطبيب ونقب ودسّ وتأمل وفكر وعرق قال:

– عذراً. وارتد الفضول إلى جحره خائباً دون ضحية.

قلبي ما عدت بحاجة إليه.

جاؤوني برجل ثري «تاجر غنم» تفوح منه رائحة الدهن والسمن والعلف:

– عريس لقطة سيغرقك في الحرير والديباج، وتأكلين الزبدة والعسل وتسمنين وتسمن العائلة كلها من ورائك. رجل محشوم ورزين تخطى سن الطيش والشباب سيدللك كما يدلل حملاً وديعاً. ومع أني أعرف جيداً مصير الحمل ومهمة الجزار، ووظيفة السكين، انحنت عنقي: «الخراف المرعوبة ستزداد نعجة مسلوخة». ساقوني إلى المسلخ بغلالة شفافة خجلت من عريها الفاضح، بعد أن نزعوا الشعر من جسدي، ورشوني بالعطور الزخمة، وطلوني بالأصباغ الفاقعة: «مآتم و عويل في أعماقي.. أيديهم «تعهّرني» من الخارج ومباهج العالم كلها لن تعيد إلي ومضة فرح بعد اليوم».

قبل ليلة الدخلة توددت العشيرة بشيبها وشبانها إلي، لأن مهري كان عمارة ضخمة في «جل الديب». وقصت عليّ أمي قصة الصبية التي تحاكي البدر جمالاً والتي تزوجت من رجل أعور ولم تكتشف أنه بعين واحدة لأنه كان يحضر دائماً إلى البيت وهو مغلول اليدين بالهدايا، وكانت الزوجة الحسناء لا تنظر إلى عينيه و إنما إلى يديه.

- «وأحب البحار والأهداب المالحة»

- المال هو كل شيء..

وابكي.. تركوني شبه عارية مع رجل غريب لم يسبق لي أن صادفته في حياتي، أو رأيته حتى في أحلامي. سترت عورتي بيدي، وضحك.. وارتعبت الأكباش.

- (أيتها الأكباش انيخي رقابك للسكين و لا ترتعبي.. للسكين طعم حار و لذيذ يفوق لذة طعم العشب الأخضر في بستان الذئب)..

- (مباركة الشرعية يا ماريكا.. العالم ماخور كبير.. ولست أول منتهكة فيه).

في الخارج كانوا ينتظرون المناديل الملطخة ليزغردوا..

- (لو انتهكتني كل الجيوش الفاتحة عبر التاريخ لما شعرت بالعار والمذلة كما شعرت في تلك الليلة).

الجدران.. الأثاث.. يحميان من البرد أولئك الذين يدفؤون عندما يتدثرون.

وأنا لا أدفأ، لأن جلدي كش من كثرة ما اختبأت فيه. في لحظات يأسي تكتسحني الأحلام مثل الطوفانً:

- أحلم بجزيرة خضراء أضواؤها عيون... وصخورها قلوب.. ورجلٍ أحبه، شاطىءٍ لوحته الشمس، يلملم النجوم ويزرع في كل قلب مقرح نجمة. يحترق في الحب والغضب، ثم اقتلع شعري واسحب أظافري وأمزق ثديّ حزناً عليه، وأضاجعه في أحلامي بطلاً وأشعر بالفخار..

أحلامي ليست نزقة، واحة أكل نخيلها الجراد، حمى بقاياها من رياح السموم.

* * *

- امسك بيدي أيها الليل.. و كن لي أباً رحيما.

- أنا مغلول ووحيد.. وعاجز عن حماية فراشة أجنحتها تنهدات.

- أنا امرأة بلا أحد... عيناي خوابي مليئة بالأصداف

لو لم توشَّ أيها الليل بعطر الغواني وضحكاتهن لكنت بلا سحر.. بلا قمر.

– قبلت أن تكوني ابنتي، كل بناتي متشابهات، يتحولن في النهاية إلى نجوم يؤنسن وحشتي، ويصبحن قطعة من جسدي.

هربت، غيرت بلدي و اسمي ولون شعري فقط، وأصبح الليل أبي – جسدي سقط – رأسي لا يزال معلقاً بذيل نجمة هاربة. الجاذبية تمطني وتصبح رقبتي ممراً للأقدام.. السماء مرتاحة، تنعس وهي تتفرج علي.

– «خف سندريلا حنون، حزن عليها عندما ضاع منها، ورفض كل الأقدام المزيفة»

أهديت الليل تراثي، وتعاملت معه بصراحة تصل أحياناً إلى درجة الوقاحة. لأنه لم يعد يحمر فيّ شيء خجلاً: ألم يكش جلدي من كثرة ما اختبأت فيه؟.

ويبقى الهوى قبض الريح. تجارة الهوى رأسمالها لحم مشفّى من كل شيء، والشاري واقعي لا يهتم بما هو تحت الجلد. ما تحت الجلد يبقى لي وحدي

تكور بطني وتركته متكوراً، لم ألجأ للإجهاض كالعادة «ما دام القتل حراماً » لِم لا يكون الهوى جدّاً؟

سأخلد الهوى وأنجب له حفيداً.. ليكن ولداً يحمل وشمَ ماريكا، يجرد سيفه من غمده ويذبح كل الذين تأمروا وشاركوا في سلخها وهي حية.

رفرفة العصافير في بطني تدغدغني، تشنج أحشائي عشقاً.

تمنيت أن أنجب قبيلة أممية المشاعر، والد طفلي أجهله، وعندما يكبر ويسألني عنه سأقول له بأنه ابني، وأن الأبناء في عصور الحب كانوا يتكنون بأمهاتهم.

الصراخ

أمتهنت « الصراخ» منذ اللحظة الأولى التي لفظني فيها رحم أمي.

– مهنة الصراخ مزعجة وخطرة يا سعدى..

– لا ذنب لي، أمي توحمت على الجوع عندما كنت في بطنها

سقط رأس سعدى في عز البرد بلا مظلة واقية أو كنزة صوفية تقي جسدها الصغير لسعات البرد المبكر، كان السقف يدلف، وجاءت محمرة الوجنات، ندية الأهداب، وفي عينيها مطر سخي، النسوة اللواتي حضرن ولادتها، لم ينظرن إلى رأسها الصغير المسربل بالمطر عندما سقط، وإنما تركزت نظراتهن على قسمها السفلي:

– ولد.. أم بنت ؟؟..

«أم مسعود» الجارة المسنة المصابة بالرمد الربيعي، همت أن تنطلق بزغرودة: إذ حسبت أن حبل السرة هو «حمامة الولد». لكزتها جارتها بكوعها منبهة.. وساد الصمت. وصراخ سعدى كان حاداً، اخترق الصمت وبدد هيبته.

تأخر نمو سعدى، ولكنها عرفت الأحلام: رغم تقوس ساقيها ونحولهما، كانت تركض إلى تحت السنديانة وتلتقط حبات «البلوط» وتصنع منها بلابل تدور بخفة ورشاقة، البلابل تدور ولا تدوخ لأن ليس لها عيون، ورأس سعدى يدوخ من مراقبة البلابل وهي تدور، وتتمغزل عيناها، وتصرخ صراخاً يخرج من أحشائها. تسكت أمها صراخها بقطعة سوداء جافة من خبز الذرة، تلتهمها سعدى بنهم وصعوبة، وتنام تحت السنديانة تلتحف الحزن وتحلم بأنها نجمة في السماء.

تفيق سعدى على صراخ أمها الموجوع، تركض إلى «مقام السيد» المكسو بالحرير، تصلي، وتقبل رخام «السيد» فتلسع برودة الرخام شفتيها. تناجي «السيد» أن

يشفي أمها المريضة بلا «عَلَق» لأنها تكره «العلق» وتخاف منه، وتتقيأ كل مرة عندما ترى «العلقات» في يد الحلاق أبي محمود، الذي كان يخرجها من علبة صدئة، وما أن يضعها على صدر أمها المريضة حتى تكبر ويتضاعف حجمها، وتصبح منتفخة ومتكورة، وتتدحرج عن صدر أمها وهي تلهث من الشبع، وتقع على الأرض وتتفقئ وتبصق دماً أسوداً.

أسرار الكون كبيرة.. وهي صغيرة.. ستدركها يوماً. وفي الليل يتأزم صراخ سعدى، لأن العلقة تكبر وتسد النوافذ والأبواب وفتحتي أنفها، ويصبح لحمها شريحة قرمزية لأنه يتحول إلى وليمة شهية للبق والبرغش والجرب.

بنت الجيران «سامية» متوردة البشرة، هفهافة الثياب – تطعمها أمها قسراً – تحمل السندويشة المدهونة بالزبد والعسل وتلحق بها إلى باب البيت وتتوسل إليها أن تأكلها.

تصرخ سعدى اندهاشاً: لماذا لا تأكل «سامية» ياترى ؟

– وشعرك أشقر مثل شعرها.

– ولكنه لا ينسدل على كتفي كالحرير، وإنما هو يابس كالحطب.

– وعيناك زرقاوان مثل عينيها.

– ولكنهما مظلمتان، تفرزان دائماً مادة بيضاء ولزجة، أجد صعوبة في فتحهما أثناء الصباح، تقترب أمي مني وتخرج ثديها وترش على رموشي اليابسة قطرات من حليبها...

تقضم «سامية» قضمة من السندويشة «بقلة إخلاص».

تقول سعدى: – إن الله سيحاسبها على هذا يوم القيامة.

ترمي سامية السندويشة على الأرض وتلعب بالكرة. تصلي سعدى بمرارة من أجل أن تتعب سامية، ولكن هذه الأخيرة، تضرب الكرة بالأرض و تمررها من تحت ساقيها برشاقة وتعد: واحد.. اثنان.. ثلاثة..

وعين على الكرة، ومليون عين على الرغيف المرمي على الأرض.

تصرخ سعدى صراخاً مسعوراً. تسقط الكرة من يدي سامية، وتهرب إلى البيت وهي ترتجف من الخوف.

تهرع سعدى إلى السندويشة وتعانقها وتشمها وتصبح ساخنة، تلتقط الكرة عن الأرض وتمسحها بأسمالها، تدخل إلى البيت بثروة حقيقية.

وفي اليوم التالي تبدأ صراخها من جديد: لماذا لا تأكل سامية ؟.

الهروب

كانت ليلة باردة اختفت فيها النجوم. خرجت لتوي من حفلة عند بعض الأصدقاء. كان رأسي مثقلاً بالخمرة والدفء وبأشياء أخرى ترسخ انتمائي إلى عالم.. غير أسطوري.

شعرت بارتخاء في جسدي، وبرغبة ملحة بأن تكون لدي عكازة لا تشتكي، اتكئ عليها وأنا ثملة، وتقودني في الوقت المناسب إلى عوالم النوارس البشرية. اعرف أن زمن السحر و المعجزات قد ولى، وتركني في القاع دون دليل، أنا مجبرة أن أحفر بأظافري (المتآكلة من سوء التغذية. والمرتعشة من الخوف) أدراجاً توصلني إلى حيث أشياء.

وقفت عند مفترق طرق، وانتابني ضياع حلزوني ترى أي من هذه الطرق أسلك؟. ضحكت من غبائي وقلت: كل الطرق تؤدي إلى روما رغم أنفي وأنف كل الباحثين عن مكان آخر.

تثالت خطواتي بجهد. أحد الأصدقاء لحق بي، تبرع في توصيلي إلى البيت، رفضت بإباء:

– أنا لست ثملة، وأعرف الطريق جيداً وأرغب أن أمشي بمفردي، ليغازلني المطر و يضاجعني الخوف في آخر المطاف.

– ما معنى نسياني للطريق الذي يقودني إلى المنزل (الجدران.. العائلة.. القهر)؟.

(من زمان كان عندنا دالية، وكنت أتأمل عناقيدها العالية وأتساءل: متى أكبر وأقطف عنقوداً منها ؟.)

– ستكبرين في بيت زوجك.

كبرت في قامة محدوبة لا تقوى على الانتصاب و قطف عناقيد زمان.)

قاعدة التناسي هذه حاولت أن أطبقها منذ زمن بعيد حتى لا أنحدر.

كثيرة بعدد شعر رأسي هي المرات التي ضعت فيها. (فمنذ صغري وقدماي وذاكرتي تتآمران علي.)

حدث مرة وأنا حديثة العهد بالمدينة أن أضعت باب بيتنا الأخضر، فبيوت المدينة كثيرة ومتشابهة، وشوارعها وأحياؤها معقدة، وهذا شيء لم آلفه في قريتي الصغيرة، ولما أعياني التعب وقفت باكية أنظر إلى الناس، علني أجد بينهم من يرشدني إلى بيتي. في باب إحدى الحانات كان يقف رجل طويل يرتدي «برنيطة» ويضع نظارات داكنة فوق عينيه، وفي يده كان يحمل «طابة» ملونة ويشير إلي لأذهب إليه، ويغريني بطريقة حاذقة تنسيني أنني ضائعة وجائعة، وتعيد إلي حلمي المزمن «بالطابة»: (- الذي يأخذ شيئاً من الغرباء، مهما كان هذا الشيء، هو إنسان عديم القيمة والشرف.) كان هذا شعار الناس في قريتي، يرددونه في الصباح والمساء.

ومن أجل هذا وأنا أطبق قاعدة التناسي، خوفاً من التجويف و الهزيمة، لأبقى مكتنزة بالأحلام، ومهزولة من الجوع، ومنتمية إلى قريتي.

نظرت إلى الرجل بتعال، وبقروية ضارية، وأشحت بوجهي عنه، وابتعدت وأنا اجهش بحزن أكثر مرارة.

استرعيت انتباه رجل يركب دراجة، توقف بقربي وسألني.. كان وجهه أليفاً.. صعدت خلفه وطاف بي أرجاء المدينة حتى عثرنا على باب بيتي الأخضر.

ضربتني الرياح الصقيعية وأعادتني إلى مفترق الطرق.. هرمة.

في الحقيقة كنت لا أنوي المجيئ إلى هذه الحفلة، ولكن الإغراءات أفسدت تصميمي في الابتعاد عن الناس والعزلة. صاحب الحفلة صديقي.. إنسان مثلي مبتور، يحلم بعكازة قمرية تقوده إلى عالم النوارس البشرية. والآخرون الموجودون في الحفلة كلهم أدباء وفنانون، ولكنهم ليسوا كما وصفهم لي صديقي مرة في رسالة: (المبدعون والمليونيرية بإمكانهم أن يتجددوا دائماً،) طبعاً لم يشملني تصنيف صديقي هذا..

– لماذا ثملت إلى هذه الدرجة؟.. ورحت ألوم نفسي وأفريها غضباً. ربما كان السبب بأنني شربت على معدة خاوية، وفتل رأسي بعد الكأس الأول، الأشياء بقيت ثابتة في أماكنها.

قلت على مسمع الحاضرين متبجحة:

– بعد الكأس الأول أنسى ما كان في رأسي من أفكار سابقة. (طبعاً هذا الشيء يسعى إليه جميع السكارى.)

قالوا باستغراب – كيف! ؟.. بربك أرشدينا..

قلت مشفقة: – طبعاً إنني أبالغ. هذا النسيان لا يحدث دائماً، عندما أشرب بقصد النسيان تتأكد الأشياء في ذاتي و تلح، ونادراً ما أثمل من أجل لا شيء.

عندها ظهرت أمارات الارتياح عليهم وتركتهم وأنا وحيدة.

البرد مسلات تنخرني وأنا ثملة و تائهة.

النجوم غرقى.. هي مثلي لا تجيد السباحة، ولكنها تضيء.

أنصلب على مفترق الطرق، تلولبني دوامة الضياع.

صديق صدوق قال لي يوماً: – لا تذهبي في الليل في مفردك إلى أي مكان. هذا الشيء يسيء إليك. كان هذا الصديق لا يكف عن نصحي، وكنت أتقبل نصائحه كأنها إنجيل، ولكنه لم يستمع إلى نصيحة واحدة مني.

شعرت برغبة في التقيؤ: – لا.. هذه فضيحة، امرأة تتقيأ في منتصف الليل، ووحدها؟ من يتحمل امرأة ثملة ؟.. من يتحمل امرأة واعية ؟..

تراجعت واتكأت على جدار، استجمعت براعتي الفلكية والجغرافية، حولت الطريق المسفوح أمامي إلى صليب، وحددت الجهات الأربع: – آه.. الشمال.. طريقي شمالي بارد وطويل، أصنامه الثلجية الممتدة على عرضي الطريق صنعتها الأيدي الضاحكة.

في هذه اللحظة تتكاثر الصلبان وتتقاطع، تتكسر وتتكدس كأضلاع موتى، تختلط الجهات الأربع واسقط في حفرة من المياه الآسنة.

كان يا مكان

في الموقد، الحطب يشتعل ويحدث طقطقة شبيهة بالعنين المشبوب، تحكي حكايا الشتاء والغابات، لهبه الدامي يعكس على الجدران الكلسية أشباحاً رمحيه عملاقة.

يدور الدفء في غرفتي ويدور.. ثم يتعب وينام معانقاً أشيائي الصغيرة: البسط.. التكايا.. البراويظ..، فتتصاعد منها رائحة زخمة: بخور فيه كل رحيق الغابات والعشب.

أشيائي الصغيرة، تصخب، تصدح بالغناء، أستمع إليها وأنذر دمعاً، تشفق علي، تصمت وتسترخي بترف، وتتفرد محتكرة لنفسها كل كنوز الماضي.

أيام الشتاء موحشة قاسية في الضواحي البعيدة، خاصة إذا كان الإنسان وحيداً.

– استجدي صوت عكازة له رفة الأجنحة المحتضرة. أصغي، وأنزرع أذان خلد وعيوناً فوسفورية في المسافات المقفرة المحيطة بالمنزل. أتعب من الوقوف والانتظار قرب النافذة. اجلس على جلد قرب الموقد أداعب قطتي، والقلب الذي يربخ على كنوزه ونفائسه، يمترس عليها ليتغذّى بها أيام الشح والبرد ينفتح على مصراعيه في أمسية شتوية، لهب موقدها، ورائحة براويظها وبسطها و تكاياها – تدمع العينين.

تبقى لي صور زمان أعلقها أيقونات، أفتح شرايين قلبي لأمدها بالزيت. انفلت الزمن من بين أصابعي.. تركها خشنة.

لا مجال للّوم عند ابنة الخمسين، والقلب يلح: الأحباب والأصدقاء ذهبوا بعيداً، يفصلني عنهم الزمن والزرقة والمدى. تموء قطتي..

– لقد كنت يوماً خصبة وجميلة كهذه الحبال السحرية الشفافة من المطر التي تسيل على زجاج نافذتي، وكان بيتي يضج أنساً، ويتزلزل حباً. الطبيعة في الخارج عابسة، الصقيع يحجر نسغ البراعم، والغيوم متكاثفة وعميقة، تمحو معالم التلال والجبال. لا حركة لا رائحة أنس، ما أشد حنيني لكليهما. أمسح صوف قطتي الأبيض، أمسح عينيها، وتموء. مواؤها مزيج من الاحتجاج والألفة، تذكرني بأنها موجودة وبأنها ضجرة وتلومني. هرمت مثلي، كلانا شاخ، ولكنها لم تعرف الحب، عندما يعربد جسدها بالحب، تخرمش الجدران والبسط والتكايا، تقتلع الوبر بأظافرها، وتعض على ذيلها، أفسر حركتها هذه بأنها دلالة على مجيء ضيوف.. وابتهج.

جميل أن يكون للإنسان في الشتاء موقد وقطة وأشياء صغيرة. قطتي وأنا أعين تدمع من وهج الجمر والوحدة. كلانا منقارا عصفورين مفتوحين على أخرهما باستغاثة يريدان حبّاً ذهبياً وسكراً حلو المذاقق يعشعش في الحلق، وأنس يفتح ثغره في الصمت. لو يطرق بابي أي عابر أو إنسان تائه، لأضأت له أصابعي شموعاً. ودعوته للعشاء، واحتساء الشاي قرب الموقد. أتكوم حوله، ونتسامر، احكي له عن أيام زمان.، وترقص أشيائي الصغيرة، وتزهر شجرة التفاح خارج النافذة.

في البدء كانت الكلمة.. الحب..

وأسرح ببصري إلى البعيد، و يلفني الثلج و تنعيني أشجار السرو.

كان يا مكان في قديم الزمان شاب حزين، دموعه أينما نقطت نبتت وردة أو شجرة أو سقسق ينبوع. أثناء تنقّله وترحاله، كانت تتبعه الحدائق والغابات، تمشي خلفه باكية. ذقنه يمامة بيضاء بأجنحة صيفية، و قلبه ربابة حزينة الأوتار. يغني فتطير الألحان صادحة يتعلق بها الأطفال والعصافير.

كان«صالح» دمعة محارب معلقة على ناصية. تشتاق لعناق الأمواج، ومداعبة سمك القرش. كان نجماً متألقاً ومحبوباً في عصره، وشهرته حملتها الطيور في حناجرها الدافئة، وباحت بها إلى بلدان بعيدة. غناؤه يطرز الأرض بالسوسن، ويرقرق دموع الفجر في الصخور البركانية السوداء ويتراكض الكبار

والصغار يمشون خلفه ويرددون غناءه وتصبح الحناجر مناجم نحاس، ويهدر التصفيق، وتهتز المدينة – ينتابها زلزال – ويختل توازن الأشياء.

القصور والأكواخ والعروش تصبح كلها على مستوى واحد. وهذا شيء رائع وعظيم طبعاً. ولكنه على قدر كبير من الخطورة يا صديقي..

سمع الملك «بصالح» وأمر عبيده و جنوده بتفريق الناس من حوله، ومنعهم من الغناء والتقليد، لأن الملك يحب الهدوء والصمت. ولكن الناس (الجوقة النحاسية الحناجر) الذين أحبوا صالحاً وحفظوا ألحانه عن ظهر قلب، كانت أعدادهم كبيرة بعدد النجوم. وفشل جنود الملك وعبيده في إخراس السيل الهادر المنطلق من الحناجر النحاسية، أطلقوا عليهم الرصاص تجرحت الألحان.. صارت دماً. وعندما مثل صالح بين يدي الملك، لم يرتعش له جفن، ولم ينحن ويقبل الأرض. كتم الملك هذه الإهانة وغطاها بابتسامة مفتعلة، وعرض عليه أن يكون مغني القصر ومنّاه بنعم كثيرة. وصالح لا يشعر بجمال ألحانه إلا من خلال ترديد الجوقة له، وهو يحب الأطفال والعصافير، ورفض عرض الملك. أمره الملك أن يغني، فغنى صالح لبلاده التعيسة، للأطفال.. للحب.. وللحرية. جن جنون الملك: (كيف يخالف مغن أوامره؟..) وقال لحراسه: – خذوه إلى السجن.

الحراس يطيعون الملك ويحترمون أوامره. أخذوا صالح إلى السجن.

السجن ضيق ومحشور، وفيه حراس غليظو القلوب، ينتعلون أحذية ضخمة نعالها مدروزة بالمسامير الكبيرة. وفي الزنزانة الصغيرة صارت عينا صالح دمعتين. وتهدر الحناجر النحاسية تغني لصالح وتطالب بحريته. الملك والعبيد اعتراهم الخوف من حدوث شوشرة في البلاد، وأعادوا لصالح حريته مكرهين، ولكن بشرط واحد هو أن يبتعد عن المدينة وينفى إلى الصحراء، ومن يومها تحولت الصحراء إلى غابة تتمايل وتصدح، لأن صوت صالح رخيم و دموعه غابات وخمائل ومروج وينابيع. الحيوانات، من أمكنة بعيدة، جاءت إلى الغابة مدفوعة بالحب والطراوة والإيمان. وتفجر عالم جديد مشحون بالنقاوة والحب.

– الحزن يا صديقي قادر على تفجير ينابيع صافية في الصخور الصماء. العصافير بكل أنواعها قلدت غناء صالح ببحته الحزينة والذي أجادها

– أكثر من زملائه الآخرين سمّي «كنار». وعين الملك ناطوراً للتجسس على صالح ورصد تنقلاته. الناطور ليس إنساناً شجاعاً ولكنه يحمل جنادات من الرصاص ومعه بندقية. نواطير الملك رعاديد أكثر من أبناء آوى. عندما كان صالح يلمح الناطور يتذكر أيام الزنزانة السوداء ويصرخ.. وتنتحب الغابة وتجهض ثمارها وأزهارها.

بعد رحيل صالح عن المدينة، كان كل مغن في صوته بحة يختفي. بعض الناس شربوا القطران ليذيبوا حناجرهم، والبعض الأخر تناسى الغناء أما الذين لم يستطيعوا خنق حناجرهم، ظلوا يهمسون من خلف الجدران، وأسرف الملك في تربية الضفادع وتدجينها

(يا شعبي الحبيب، طالما أنك تحب الغناء، قلد صوت الضفادع..) وصارت المدينة مستنقعاً.

وفي يوم من الأيام، حملت الرياح والغربة، فتاة كسيرة القلب إلى الغابة، صبية محملة بمكاتيب الشوق ومكاتيب الشوق محروقة الأطراف من اللهفة.. حروفها دموع وقبل.

استيقظت الغابة مبكرة وتمطت حتى كبرت رئتاها، وفتحت الورود أكمامها وتنهدت، وتسابقت العصافير لتزف الخبر إلى صالح، وأحاطت به وزقت بعضها حباً. وسمع في الغابة صوت تنهدات مثل رياح شتوية دفعت بالمراكب بعيداً، وعلى مقعد أخضر تحت أشجار السرو، كانت الصبية تجلس وتراقب البطات البرية بإعجاب وهي تسبح وتقول: – البطة تسبح في الماء ولا يبتلّ ريشها.

– البطة تغطس رأسها في الماء وهي مفتوحة العينين لتلتقط بمنقارها اللامع شيئاً تأكله.

– افتحي عينيك يا بهية ولا تخافي. غني.. العبي وتمرجحي، واغسلي وجهك من الدموع.

– إنسان الغابة، قلبه ربابة حنونة الأوتار

كانت بهية بنتاً رقيقة و حزينة الوجه وهشة، وتغرق في شبر ماء. جاءت إلى الغابة متحدية الخوف إذ شعرت بوحشة بعد رحيل صالح عن المدينة، لأن أغانيه كانت تطرز أحلامها وستائر نوافذها ووساداتها.

- (هناك جسور يا صديقي نقيمها من خلال قلوبنا تربطنا بالآخرين بالأشياء التي نحبها. الجسور ليست فقط من التراب والحجارة و الاسمنت. جسور القلوب هذه صافية وحميمية مثل النجوم.)

ولأن بهية تؤمن بالصدف وتحب الغناء، صدح صوت صالح ورنت بالغابة بحات متماوجة مثل ضباب الوديان تتصاعد وتنتحر فوق رؤوس الأشجار والسحب الغامقة البعيدة.

رنت إليه بهية و صدحت مع العصافير وسارت إلى جانبها، وتحت شجرة وارفة ظلالها عملاقة مبرقعة بالنور كان يجلس صالح. اقتربن منه وعطست لأن الشمس كانت محرقة في حدقتيه. جلست عند قدميه متعبدة تعبت من مطاردة الأشباح والعفاريت، وصار الأمان سحابة فضفاضة مشرعة.

كان لابتسامته طعم البخور في معابد الهند. وقصت عليه بهية بأنها منذ طفولتها، كانت ترضع الأحلام والحكايا من الحروف والصور والغناء، وبأنها تراه مستلقياً إلى جانبها كل ليلة وبينهما طفلة زرقاء العينين ذهبية الشعر:

- الطفلة في المنام دنيا جديدة...

بالحدس، والجسور المطرزة بالقلوب عرفت بأنها ستلقاه. ويدس صالح كفها المرتعشة بين كفيه ويقبلها ويقول: الحب من زمان كان يمارس في المعابد وكان الناس يتفاهمون بالغناء والرقص. كان يحن لتلك الأيام التي كان فيها الإنسان عصفوراً سريع الحركة ولم يكن مربوطاً أو مرصوداً أو متهماً.

- العالم لم يفصد منذ زمن طويل و المرأة هي المخلوق الحقيقي والأصيل الذي بقي فيه.

وضعت رأسها على صدره، كان قلبه يركض.. قالت:

- ما عدت أحلم بالسفر.

- السفر الداخلي هو المهم.

أحبها صالح حباً فيه طعم الغابات ووحشة البراري وكآبة القمر، وعرف بأنها هشة، وتغرق في شبر ماء، وعزلاء ليس لديها حام ولا سيف ولا بندقية،

قال لها بأنه سيكون محيطها وقدرها وحنانها وبأن حبه وشمٌ عميق مثل حفر الجدري وبقع البرص.

كانا في الظل، الغابة كلها تغني لهما أغنية عتيقة من عمر الغابات والمطر، وأصبحا يلتقيان كل يوم. وتتسهد بهية في الليل ويهرب نومها، لأن قلبها لم يجنح كثيراً نحو الشرق وينشوي بحرقة رماله من قبل.

(جبابرة العصور البدائية تصخب.. وتعربد.. ترقص رقصة الحرب بمطارقها الحجرية وسواعدها القوية السمراء. المارد لم يختنق، المارد فرح الأطفال بضحكته المجلجلة وصوته الداوي، وعندما يغضب سيزلزل القمقم ويفجر صمام الأمان. لأن المارد حي.. فرح بهية بحر. وهي تتسهد في الليل، والسهاد لجام الفرس الجامحة يقتلع رموش العينين. كثيراً ما نادت الفجر واستعجلته ليأتيها بأجنحته البيضاء ويحملها إلى حبيبها.)

وتذهب خلسةً إلى الغابة قبل الموعد بساعات، رغم أوامر الملك المشددة التي تمنع أي شخص من دخول الغابة، رمت بأوامر الملك عرض الحائط ولم تعد هشة مثل مزهرية الكريستال، صارت وتداً من أوتاد الغابة.

جواسيس الملك، عيونه في الطرقات و خلف الجدران نقلوا الخبر إليه.

– زمن اللعنة.. زمن الفجور.. صبية تذهب كل يوم وحدها إلى الغابة تتحدى الأوامر الملكية والقيم الأخلاقية ؟

– دعوها تذهب ربما يحبها و ينسى المهم أن ينسى ولا يفكر بالعودة إلى المدينة. لتبقى المدينة هادئة صلوا من أجل المدينة.

المدينة حزينة، حزنها غامض، شوارعها ضباب، سماؤها قاتمة، سكانها أشباح. (النحاس يصدأ، الدماء تصدأ والصدأ طلاء نهم يكثر في البلدان الضبابية ويحبه الملوك.)

يذهب فصل ويأتي أخر. فصول السنة تتوالى وتشيخ. وفي الغابة ثمة شيء أخضر فتي على الدوام. الزمن يختبئ ساكناً بين الأشجار، الحب يمحو من دفتر الغابة. ثلاثة أشهر متوالية كان صالح يلقى بهية كل يوم لقاء طويلاً ومتحداً، لا يعكر صفوه سوى فضول الناطور ولصلصته.

في الشتاء البرد طاعون، وصالح لا يعرف البرد، ولا يرتدي سترة، مجرد قميص تعب من شدة نزق الجسد الذي يلتصق به. جسده يفور، بطن الأرض يفور وتتطحن الحصى تحت أقدامها تصبح كقطع السكر في الأعياد، الأشجار تتطاول بأعنقتها، تتفلش بفروعها الكثيفة فوق رأسيهما حتى تمنع عنهما البرد، وتسمع أصوات وشوشات ويطل عليهما ربيع مبكر. كانت الغابة أعياداً بهيجة حتى في عز الصقيع والبرد، شبحان مضيئان يشتعلان في عالم أسود. النجوم جميلة لأنها تضيء وترشد المسافرين والتائهين، ويتعلق بها الأطفال بأصابعهم.

وفي يوم أبيض بينما كان الثلج يندف، جاءت بهية مبكرة إلى الغابة كعادتها، كانت الغابة بيضاء و ساكنة تصلي تحت الثلج.

الثلج أبيض.. ثوب العروس أبيض..

راحت تغني وتصفر وترقص فرحة، و تتخيل نفسها بثوب أبيض، آثار أقدامها تترك حفراً فوق الثلج مثل أقدام الغزلان. من خلال هذه الحفر الصغيرة تظهر الأرض بأعشابها الطرية، يتصاعد منها الدخان. البخار يخرج من فم بهية كقاطرة مسرعة و يصفر، بهية قطار يدور في الغابة يبحث عن أغان ومسافر وقبل. اعترض طريقها الناطور بلفحته التي تستر كل وجهه ما عدا عينيه، فك سرواله ولوح لها.. سقط الثلج عن الأشجار مذعوراً وصرخت بهية، جاء صالح سهماً يركض و اختفى الناطور وضحك الثلج من جديد.

– هيا بنا إلى الكوخ، سنجلس خلف الطاولة ونحتسي نبيذاً ونغني، غداً العيد.

– أنت عيدي.

كانت هذه هي المرة الأولى التي يدعوها إلى كوخه ، وفي الكوخ جلسا وراء الطاولة وغنى لها. العذوبة بحة فيها كل أفراح وأحزان القلب. قالت له بأنها تحبه أكثر من أمواج البحر وغناء العصافير، حملها بين ساعديه، وعلى جلود دافئة رائحتها عشب وحنين أحبا بعضهما، تلاحما، وصار العالم مرج فسيح وجياد شهباء نارية الحوافر تطير فيه.

الثلج في الخارج انصهر وهدر. وتفجرت ينابيع، ونبتت ينابيع سخية، وشفت السماء ورقّت مثل برقع وليد، وعكس ظل الإله، اقتربا منه وشربا من

ضيائه الذي اختلط بطعم البخور والغابات والثلج. خلف الطاولة لحظة رائعة ومقدسة تجمعت فيها كل أسرار الآلهة والطبيعة، اللحظة التي تحمل الفجر على متن باخرة الشمس.

(– في زمن الشح يا صديقي يكثر الطاعون و يغلي الجراد وتنتحر كل المشاعر بناب أسود، في زمن الشح لا تدمع العيون ولا تنقط الشفاه شهداً.)

وازدهرت الغابة أطفالاً، كلهم مثل أبيهم، دموعهم غابات وينابيع.

هرب الشح، هرب الجراد، الأنياب السوداء اقتلعها الطوفان الأزرق.

وعادت المدينة تغني..

نامت القطة، نامت الذكريات والحكايا..

أستجدي صوت عكازة له رفة الأجنحة المحتضرة..

أشتاق لرائحة أنس قريبة ألمسها بيدي، ولحفنة من الابتسامات تضيء وجهي.

طرق الباب، اختلطت الطرقات بصفير الرياح والغربة:

– هل أنا أتخيل ؟..

– هل أنا أحلم ؟... الأحلام تلح حتى في الخمسين ؟..

تتعالى الطرقات، أرقص وتقفز قطتي:

افتحي يا جدتي.

الهوية الناقصة

-١-

ألقيت نظرة أخيرة على البيت قبل أن أودعه إلى الأبد.

كانت دموع أطفالي ترشح من النافذة، عيناي محشورة بالدموع وقلبي ملجوم بالغصات، وأنا غبية.

سلخت عاطفتي (جلدي) ورميتها في برميل القمامة الذي يتجشأ تحت النافذة. طار الذباب الأزرق و تساقط جثثاً محروقة: - إلى الجحيم يا عاطفة.. يا امرأة يا..إ..ن..س..ا..ن..ة يا شرقاً مسكوناً بالتعاسة.

تزوجت وأنجبت، فالمرأة خصب في جميع الحالات:

- أبناء الحب مختلفون..

السوبرمان في الروايات فقط..

- الحب شيء والزواج شيء آخر

كلمات من الماضي.

وكان الليل: تيبس من الوحدة و الموت، الاختناق يبري أجنحتي. احمل بطانيتي وأجوب أرجاء المنزل بحثاً عن حنان له دفء محارة يبعد عني هول الكوابيس. المدينة كلها تنام، أتورم من الأرق، ابتلع حبوباً مهدئة تلجم جموحي وجنوني، واصفق للعلم الذي اخترع دواء للأوجاع. أعانق وسادتي مفجوعة ومهزومة، دموعي تفرطها حناناً بالرغم مني. أتذكر حكاية الإنسان الذي تحول إلى صرصار من الرعب والوحدة، وأنام مرهقة.

زوجي يغط في نومه، يعلو شخيره. يصرخ:

- يا بوليس.. حرامي..

أعرف أنه يحلم، الحرامي يريد النفيس، وأنا والأثاث قطع مهرومة لاخير فينا.

-٢-

قال لي صديق زوجي الحميم: - أنت امرأة مشبعة بالشمس والمطر والبحار في عينيك سحابة لم تمطر بعد.

ودعاني أن نتكاثف معاً في قبو معتق.

... والدهشة ملء الأحداق:

حقاً؟.. لم أواجه الشمس سوى في أحلامي. لم تطأ قدماي أعتاب البحر، فقط أسمع نقرات حبات المطر فوق السطوح.

- سأسبيك وأنتهك مقدساتي فيك يا المرأة المثيرة التي هي بحاجة إلى التكاثف.

أهلع.. أرتجف.. أرتد: ليلة الدخلة.. الزوج.. الطبيب.. المشرط.. الصرخة.. الألم. الوحش.. ثم الانفصال.

-٣-

أنا لا أمتلك شيئاً حتى ثيابي التي ارتديها.

- اسمعوا يا ناس، هي لا تحس بالملكية.

- الإحساس بالملكية شيء معنوي، امتلاء.. طمأنينة.. دفء.

وأنا ما أحسست يوماً بمتعة أن يكون للإنسان قلب يدق

أنا امرأة شرقية مباعة في المزاد العلني مكتوب على جبيني صرخات.

- أنا خائفة، لا سدّ يحميني من طوفان الرعب - القرين مهمته حماية ممتلكاته. - «أنا امرأة دمعة» قال: - إن للبيت رباً يحميه.

إلى الجحيم أنت وأرقك وأشباحك.

وأبكي... يا جدتي على «القرقور» الذي علفناه طيلة السنة وذبحناه في العيد.

قال: - وددت لو تؤمنين بي ولو لمرة واحدة، الإيمان يريحك.

- آه... الإيمان.. الومضات.. نصل إليه عن طريق الضوء والشفافية، بقدر ما يكون الآخر متجلياً وصافياً.

- ٤ -

قرأت، قد لا يكون الضوء إلا عذاباً من نوع آخر.

اصطك، تتفتت أسناني أرمي كتابي أرفع بطانيتي إلى ما فوق رأسي، لتأكيد عتمتي، ومن خلال جفني المطبقين بتشنج يأتيني الظلام مبرقعاً بالنور والنور صاف وأبيض. الضوء.. كيف أطفئه في عيني وأنام ؟.

يا جدتي أسعفيني بحكمتك التي أسعدت جدي

- الصبر.. القناعة.

- أنا أكلت لساني، والذي أكل لسانه يا جدتي، إنسانٌ مقهور.

أنا بلا لسان.. أعماقي ضجيج معارك ونزيف

- ٥ -

احلم: أسير فوق الرمال الحارة، أخترق الصحراء بتعاستي وسذاجتي.أتعب وأعطش. الجبال التي أحملها فوق ظهري ثقيلة. توجعني سياط الشمس، تسلخ جلدي الأبيض البض. تشرحه وتدميه. الصحراء واسعة بلا حدود. لونها صحراوي وآثار خطوات فرسانها ممحوّة. صادفت بدويا عجوزا وسألته:

- هل تعرف عنترة بن شداد ؟.

- هه.. هه.. مات من زمان..

- لي عشيرة كبيرة ولكن ليس عندي خيمة.

- هه.. هه.. أنتِ محظوظة.

- ألا يوجد واحة قريبة من هنا؟

- لا واحات قريبة.. لا واحات بعيدة.. الصحراء شربت جميع الواحات عندما عطشت.

- أكاد أن انقصف من العطش واليباس.

- حزي شرايينك واشربي.

- ومغارة النجم المذنب، أين هي؟.

- الصحراء جاعت وأكلتها

وهدني الجفاف، ومن خلال غشاوة بيضاء مغبرة، لمحت ثلاثة أشباح تتحرك في الصحراء، تركت العجوز وذهبت إليهم. كانوا يحملون نعشا تلتهم الصقور ما بداخله، سألتهم:

ماذا يوجد في النعش؟.

- جثمان جدنا نريد أن ندفنه في مسقط رأسه قبل مجيء الجراد.

- لماذا لا تغطون النعش ؟

- وصية جدنا أن تنهش الصقور كبده و أن يجابه شمس الصحراء

- لابد أنه كان مثقلاً بالذنوب..

- صه.. يا امرأة..

- أيها الأصدقاء. خذوني معكم، فأنا و حيدة وعطشى.

- أنت حرمة، وفي مسقط رأس جدنا قضوا على الحريم، حفظاً لأعراض الرجال.

- من أين جاء جدكم إذن؟.. وأنتم؟..

- من جذع نخلة صحراوية

- هراء..

- أتهينيننا يا حرمة ؟..

- جذع النخلة لا يلد رجالاً.

- أتكذبيننا و تكذبين صحراءنا ؟

- المرأة هي التي تلد الرجال

انهالوا علي بسكاكينهم.. قتلوني.. تركوني على الرمال الحارة كأحداق الشمس: واحة تنتظر مسافر ولدته امرأة.

قال: ملحدة.. غبية في المطبخ و الجنس. تسكنك كل العفاريت وملوك الجان.. طالق ثلاثاً.

كنت أشفق عليه، وكان صعباً عليه أن يفهم جنون الحلم وتهديم الغربة وتعاستها ونزيفها.

أنسل من البيت كجرذ حتى لا أسبب فضيحة.

أي تهديم اجتماعي سيسببه غبائي هذا له؟.

فتح الجيران النوافذ وقالوا: – مرتدة.

الشيخ (أبو...) الذي كان يجلس طول النهار خلف النافذة يتسلى بمراقبة الناس، بصق عندما رآني. لم أرد له التحية.

جارتي (أم..) ظهرت بقميص نومها الشفاف على الباب كشوال مليء باللحم، وعلى زنودها المتورمة من السمنة، رسمت دوائر زرقاء، – أشد زرقة من الدوائر التي تحيط بعيني – نظرت إلي وهي تمضغ اللبان، وفرقعت ضحكاً، وصفقت الباب في وجهي بانتصار، «هذه المدنية، كل شيء أصفر فيها،، أشجارها، ضحكاتها.. بلا براءة، وشتائمها بلا عذوبة».

نظرة ثانية وأخيرة ذهبت بالرغم مني إلى البيت قبل أن أبارحه إلى الأبد.

كانت دموع أطفالي ترشح من النافذة، وأنا محشورة بالدموع.. وغبية.

– لا حيلة لي يا صغاري إذا كنت أحمل هوية ناقصة:

– الاسم: حواء

– النوع: إنسانة

– المهنة: الحب

الخلاص

المقبرة تقع وسط المدينة، بيضاء ونائمة، سكانها بلا وجع. «أنا لست مؤمناً».

قبور ترابية شبه مندثرة، مسواة ومبرية الهياكل من الدعس والفصول، وأخرى رخامية تشمخ بشاهداتها البيضاء، طابع اللعنة هنا يقلل من هيبة الموت مع أنه واحد. الحياة ليست واحدة، انصباب اللعنات عشوائي، مطر بلا فصول. «أنا ملعون.. لم أعد شقياً بلعنتي».

خديجة اليوم زفت إلى القبر، نعشها الممدد يضحك في عين الشمس، لأنه سعيد بالامتلاء، ويضم عروس كل الأصبحة. عيناها الزرقاون تنعيان البحار والسماوات، وتقول هذا عقابك أيها العالم. ثغرها الأشقر يلعنني، يرجمني بحجارة كل العصور الحضارية.

القبور لا زالت أليفة كعهدي بها وخديجة، قطع دمعية غائرة في يباب الأرض.(في صغري كنت أمسك بيد خديجة أختي ونأتي إلى المقبرة، نبحث عن قبر أمنا. الأموات لا يرشدون من أضاع قبر أمه، نبكي من الخيبات، ونغرق في بحر من الألغاز المحيرة، نشبك أصابع أيدينا ببعضها البعض، ونستمر في السير والبحث، التعاسة تتبنى كل الذين أضاعوا قبور أمهاتهم، وهي أم قاتلة في إخلاصها. وأتهجأ وخديجة الحروف المكتوبة على الشواهد، نركب الأسماء، نجمع السنوات، نحصي الأعمار،. قبر أمنا بلا شاهدة.. بلا تاريخ.. نتذكر طيفها الشبيه بالحلم. كانت المقبرة قطعة منا، نحبها لأنها فسيحة و صامتة، و لأننا فقدنا أمنا. كنا نستعد للموت على طيبة خاطر.نحفر قبرين صغيرين متجاورين، ونغرس وردتين مكان الشاهدتين. عبثاً كنت أحاول أن أقنع خديجة، أن قبراً واحدا يكفينا لأننا لسنا كباراً. ولكنها كانت تصر بعناد على

التفرد، وكنت أحزن ويمضي النهار، ونتمنى أن ننام بجوار قبرينا، نعانق زهورها الصفراء، نجوع، الأموات لا يجوعون، لم نمت بعد، أمسك بيد خديجة أختي، ونمضي إلى البيت.)

صغيرا كنت متعلقاً بخديجة، تعلق طفل منهور ومقهور بدمية شقراء الابتسامة. لم أفطن أن هذا التعلق سينقلب إلى كارثة عندما نكبر.

خديجة وأنا توأمان، زمننا واحد، رحمنا واحد، حبلنا واحد.جئنا معاً، هي رأت النور قبلي بلحظات، تقدمتني في الولادة، ولكنها نضجت قبلي بكثير.. محاولتي في الركض كانت غير مجدية، التشوه دَبَّ في قدمي منذ الخطوة الأولى.

أنا اليوم في الجحيم، أطلق العنان للشياطين المسعورة في دمي، لترقص رقصة الانتصار على ركام الصعلكة. اليوم أضع حداً للاحتضار.. وأتجاوز الولادة: – (تسعة أشهر وأنا ملتصق بك يا خديجة، وسعيد بالرغم منك. اقترب وأداعب مواضع لحمك الشفاف. فرح الرحم هو فرحي الوحيد.)

حفار القبور منهمك مع معوله ورفشه في الحفر والتجويف، ضربات رفشه موجعة، ولا يبالي. الإخلاص في المهنة شيء أصيل عند حفاري القبور.

قبر العائلة الذي ننبشه اليوم، عثرنا عليه بصعوبة.

سنوات وسنوات وقبر أمي تراب ونسيان، استأنس القبر بأمي حتى صارت عظامها مكاحل منخورة لا خير فيها.

«ستجدد خديجة الموت، وتسحره بكل مفاتن العرائس».

اليوم ننتهك أسرار الأموات بالرغم منا «نصلي للعيون العمياء، نقبل الأيدي المسمولة الرحمة، نتغيّر من الانبطاح. وفي بقعة نائية من بحار مجهولة، نسرق حبة رمل بيضاء، و نسافر على متنها، ولا نصل أبداً».

عندما ماتت أمي لم أشارك في دفنها، لم أبكها، كنت صغيراً، وكانت خديجة بقربي، وأصابعها شموع ملونة، وأحلامها فراشات.

جنازة خديجة بسيطة، فقيرة الطقوس، قليلة المشيعين – سالم – خطيبها، يعانق النعش بدموعه المنفطرة، يلومها بعويل مفجوع لعدم إخلاصها: «في

صغري عاهدتني خديجة بأنها لن تتركني وحيداً، و نكثت بوعدها، لا قيمة لوعود امرأة.» كانت خديجة مهمة لكلينا. أهميتها بالنسبة لي تفوق حاجة سالم إليها، فسالم تجاوز الاحتضار إلى الولادة.

حفار القبور يستمر في الحفر، اتسعت الحفرة، هوى قلبي إليها «لن يؤذيك قلبي يا خديجة، فهو من دوني عصفور يقفز فوق الثلج».

مرة أخرى يبكي التراب. في العائلة مقدر علينا أن نموت شباباً، ونريح الأرض، وأقدامنا، وهذه وراثة من أمنا، لن أترحم عليها لهذا السبب. أبي يراقب حفار القبور بقلب متماسك، يتغبر سرواله، يبرش شارباه ويبهتان، يسقط ببصره إلى الحفرة ثم يرتد عنها: الموت تجربة تصيب الآخرين، حتى الذين هم من صلبنا، كلنا من صلب آدم، وآدم من تراب، لا خير في الموت.

وأبي قمة الخير عنده امرأة مرتاحة «الكفل». نحن لا نشابه أبانا، ولا نقدر النعمة. أنا وخديجة لم نستطع أن نعوض أبي عن جسد امرأة يحوم في فراشه ويحوله إلى ربيع في كل الفصول. فتزوج صبية صغيرة، نمرودة في النهار ونمرودة في الليل، ولقد ذقنا الأمرين من هذه النمرودة.

– ألوم أبي تارةً، و أحسده تارةً أخرى، وأحقد عليه غالباً على قناعاته وعلى مفاهيمه غير المهزوزة. في النهاية أنا الملوم. نفسي مصابة بعسر هضم على الدوام.

مراسم الدفن أطول مراسم في التاريخ. الرحم لا يلفظنا بسهولة، التراب لايوارينا بسهولة. لست حزيناً كما يخيل للمشيعين.. في جنازة أختي أنا موجع فقط «بداية النهاية صفر، الأشياء بعده واضحة وراسخة بلا اهتزاز لن اهتز».

صغاراً كنت وخديجة نتشارك في سرير واحد، وأبي وزوجته في سرير واحد أيضاً. أربعة أجساد، أربعة قلوب، أربعة جدران فقط، والليل محشور وقائظ. تعب وجوع ورغبات وعرق وأحلام ودهشة، والهواء مسجون وراء القضبان.. الشهداء فقط يغسلون صدورهم به.

نسكن في غرفة واحدة ونتظاهر بالنوم باكراً، نحن الصغار خوفاً من النهر والضرب والتأنيب، ولنخلي الجو للأزواج لممارسة الحب. لعنة الله على

الشعراء لماذا يحبون الليل؟. لأبي قوة بدنية خارقة ورثها عن مهنته، يفلح في زوجته، كما يفلح معوله في الأرض. أبصق على العائلة والفقر...

في البدء كان التعجب علامة استفهام كبيرة، تدور في الرأس مثل ذبابة زرقاء تدوخه بطنينها الهائل، وتمهر الحلق بوصمة الاختناق. «عالم الكبار ما أغباه، وما أتعسه يا خديجة».

ونتعذب يافعين، ننتحر ببطء انتحاراً شاحباً، نغرق ونضيع، لسنا من هذا العالم، ولا منذاك. نحن أبناء القضبان، والجو فسيح، والأرض تتمزع بالاتساع.

صغاراً كنا.. نحب الأحلام، أهرب إلى خديجة المكومة إلى جانبي مع أحلامها، أستجديها أن تعيرني أجنحتها وتخفف عني هول السقوط.

وزوجة أبي النمرودة، تسري الخطيئة إلى هياكل الآلهة. فكرت بذبحها مراراً ولم أفعل. كانت تكره خديجة الأنثى الشقراء الابتسامة، وتحبني أنا الذكر الداكن القسمات، تدخلني غرفتها في غياب أبي، تعريني والشعر زغب فوق صدري، تشدني والشبق نيران دموية، تنيمني فوق بطنها، وتطبق بفمها على شفتي وتؤلمني، اختنق برائحة أنفاسها، وانشده من العري: أحضى بسيوف وسكاكين ومدي وبلطات لا حصر لها، أشفى، أهرب من فوق بطنها، أبصق عليها، تشتمني وأضربها، تغرز أظافرها في جسدي، وأضغط على عنقها بكلتي يدي، ثم أتراجع. تتوعدني أخيراً بأن تشي لأبي بأنني المتحرش بها «يوسف لم يشته زليخة، ولكنها مزقت له قميصه.. وفرعون كان فحلاً».

هربت إلى الكتب، تفوقت في المدرسة، وكنت مقداماً في قهر نفسي. بقيت نصف رجل، وأمياً بشكل تعيس، لم أجرب الحب.. ولم أعرف المرأة. كنت أتآكل وأتهدم، تعزيت بخديجة. احترق في بلاد الثلج والعطش: عنين، عنتي صماء أتعذب في النهار، وأمارس العادة السرية في الليل، وأشيخ. لم أجرؤ على الحب، كان الحب نجمة قاتلة وراء الغسق، وجسد زوجة أبي «تألول» ضخم يتحرك في كافة الاتجاهات.

خديجة استطاعت أن تتلاءم، الجلد طبيعة إلهية في المرأة، استطاعت أن تشمخ وأن تسمو بأبراجها. كانت غماراً إلهياً تنسيني عنتي وتقتلع بإشراقها كل زوابعي العنيفة و أعود بقربها طفلاً فرحه الوحيد فرح الرحم.

تمترست خلف عنتي، وكان شعوري بالعجز لا طاقة لي على احتماله، هيأت نفسي لاشتهاء امرأة، كانت قريبة أمي، مثلت اختلائي بها ذهنياً عدة مرات، وفي كل مرة كنت انجح. واختليت بها بالفعل. أمرتها أن تتعرى، طلبت هذا بلا مقدمات، ولم أنسَ أن أقول لها بأنني أريد أن أصور مفاتن جسدها في قصيدة، حفظاً لكرامتي في حالة الفشل، وكلا الأمرين بدا لي مضحكاً. تعرت، وسخرت في النهاية من رجولتي الكسيحة، ومن موهبتي الشعرية. قالت لي بأني إنسان صعلوك وحقير. أمرتها بأن تكون محتشمة، وأن تخفف من سمنتها لتوحي بالشعر حقاً، ولتكون زوجة إن حالفها الحظ. كاذب الذي قال بإمكاننا التجاوز، والبدء من نقطة الصفر، عملية المسح هذه للجبال والشوارع، ليست إنسانية. رغبتي في التجاوز والخلاص كانت حميمية، ولكنني مشلول. صديقي «نبيل» في إحدى سهراتنا، وكنا في بار، صعد إلى الطاولة، وتبول، محققاً في ذلك تجاوزه الذي لم يرضِه.. انتحر بعد فترة ونعم بالخلاص.

اعتنقت الثورة.. أصبحت رجلاً ثورياً.. نسيت عنتي الفيزلوجية عندما شاركت الآخرين. الواقع والكتب قطعا إيماني بالغيبيات وزجاني في أمور حياتية شغلت بها إلى حين وأرخيت شعري وذقني على طريقة «غيفارا».

(وغيفارا.. مات)

النظريات رائعة، ولكنها لا تصنع الثورات، جذورنا سوداء، والهواء وراء القضبان، الشهداء فقط يغسلون صدورهم به. في النهاية أصابني شعور، كشعوري تجاه زوجة أبي. أنا رجل ثوري أعيش أقداري بليونة وبتبلد. فكرة تقبل بأني عبد مخصي أعجبتني.. كلنا عبيد مخصيون. الأعضاء التناسلية لا تحقق السيادة. قطعت شرايين يدي، وكنت في قرية نائية أعلم أبناءها، لم أجد هناك أمي ولا خديجة، لم أجد عروس كل الأصبحة. الموت أعظم الطرق التي تؤدي إلى السيادة، دفقة برودة، وبعده السلام، كتبت على الجدران بدمي: الإله.

أنقذت في آخر لحظة، وشتمت الطبيب الذي وصل شراييني المقطوعة. تألمت خديجة لشحوبي، بكت وعانقتني وعاتبتني. لم أبح في حياتي لقديس أو إنسان عن خفايا نفسي. كنت أخاف الشفقة والاحتقار، ولكني لم أخفِ شيئاً عن خديجة. في لحظات ضعفي ورأسي مثقل بالخمرة، كنت أسخر أمامها من نفسي بصوت عال لأنني كنت في تلك اللحظة، بحاجة إلى القسوة والاحتقار معاً.

وتنصحني خديجة بالحب.. والحب نجمة قاتلة وراء الغسق. وشعوري هرم وأنا عنين: العنف والجنس تعويضان عن مهزلة، كنت أعد نفسي متفوقاً في الأول، وتفوقي هذا لم ينسني فشلي في الآخر. وأغرق في الخمرة، أنمحي في سراديبها العبثية، لون الدم يفرقع فقاعات أكبر من الوهم وأجمل منه. أتحدى أصدقائي الحميمين، أشتمهم، أشهر قبضتي وأطيح بهم واحداً بعد الأخر.

وأصرخ فيهم: – غيفارا مات.. أيها التعساء.

يغفر لي الأصدقاء في اليوم التالي، ويقولون عني بأنني طفل يحب الغرائس الخضراء والثلج. ترجمة إيجابية لسلبيتي وانسدادي. «خديجة غرستي الرمحية الخضراء في بوار نفسي، وكان هذا يحمل بذور دمارها، ودمرتها في النهاية».

أنا لم اشته خديجة علناً، في اللاوعي كانت تتدفق امرأة. أحببتُ خديجة، واستنكرت... وقاومت مشروع زواجها بمن تحب بكل رجولتي الحاقدة، وفي النهاية وافقت مكرهاً على هذا الزواج. انهزمت باستسلام، لم يكن في نيتي الانقضاض أو الشر. أحبّت خديجة، ونسيت بأننا توأمان..فليكن..

حزمت حقائبي وعزمت على السفر، في ليلتي الأخيرة قبل السفر لم أنم، كنت اقرأ في كتاب، شاعر يوناني أحبط مشروعي، وغير رأي في السفر:

لا أرض جديدة يا صديقي هناك.

إنك يوم دمرت حياتك في هذا المكان

فقد دمرت قيمة حياتك في كل مكان آخر على وجه الأرض.

عصر البارحة كنت مريضاً بالفعل، و محموماً، جئت إلى البيت باكراً. دخلت خلسة «عادة من تراثنا»، لم يكن في البيت أحد سوى خديجة وخطيبها سالم، كانت خديجة بين أحضانه لاهثة الأنفاس، محمرة الوجنتين والشفتين أحرقتني الحمى، وأعمتني الغيرة.. اختلطت الصورة، كان الشبه كبيراً بين خديجة وزوجة أبي. مات الضوء.. تهرهر إطاره. ومثل أي شهم تنحنت، كنت محموماً وأتحرق شوقاً لذبح سالم.. تظاهرت باللامبالاة وبأني إنسان حضاري، تبادلت مع سالم حديثاً قصيراً قصدت التحقير من ورائه. كان سالم نداً صامداً، لم يشعر بأي حرج. أما خديجة فقد تجنبت نظراتي. عندما ذهب سالم، عادت الصورة و اختلطت من جديد بين خديجة وزوجة أبي:

– ما هو الحرام؟ وأخوض صراعاً سافراً في هذه المرة، حاولت أن أجد مبررات لأنفيه، وكانت مبرراتي لا حصر لها «لم أمس خديجة من قبل.. فرح الرحم هو الفرح الوحيد.» قطعت خديجة الصمت وحدثتني عن المستقبل والأطفال، فأجبتها بأن الأطفال مسوخ مشوهة.

قالت غاضبة: هذه صورة لنفسك. تفرست فيها بوقاحة، استيقظ الوحش في، ووحشي لم «يتأنسن». خجلت خديجة من وقاحتي، وتضايقت وغضبت. كانت طفلة وردود فعلها عفوية. نهضت وغيرت ملابسها وارتدت قميص نومها لتأوي إلى سريرها. اعترف بأن قميص نومها كان السبب المباشر لما حدث. الملابس النسائية هي المسؤولة عن معظم الجرائم والانحرافات الجنسية، كان أحمر وشفافاً، ومن خلاله رأيت سرتها الغارقة مثل بندقية في كومة من الثلج، انقلب الضياء إلى لحم.

– أنت فاتنة وجذابة.. أتذكرين لعبة العروس والعريس؟

– أنت وقح ومجنون وقليل أدب ومعقد وشاذ.

– أنا رجل حضاري.

كنت محموماً وانصببت في هستيريا من الضحك.

اقتربت منها لأستغفر شعرها الأشقر.. دفعتني بعيداً، هربت ولحقت بها، في الشارع كانت خديجة تركض إلى خلاصها، طوحت بها سيارة رفعتها عدة أمتار، ثم سقطت متكّومة على ظهر شاحنة، لم يخدشها الموت لأنه يريدها جميلة وعروساً رسم خيطاً أحمرَ على زاوية فمها، فكانت عروساً و شهيدة.

فتح النعش واختنقت أناشيدي، الكفن نحيل، نصل شفرة استله رجل مقدود كما يستلّ ريشة، ولم ينذبح، أوردته ظلت سمينة. انفجري أيتها الأوردة الصماء. الكفن المتماوج يصفق بعطوره وكنوزه، وجسد خديجة ممهور بالاستشهاد. تهرب خديجة بكفنها تنزل وتتعمق في النزول. تتمدد وتتجرف مع تيارات الصمت الكهفية الغامضة.. وتنام.

صار الصليب لحم طفل فوق أنيابي..

لا.. لن أندم.. ولن أموت إلا فرحاً..

التصقي بي أيتها الديدان، وانتحري يا آخر زنابق الفصول، جنازتك يا خديجة بلا زنابق.. وأنت شهيدة.

الطفل والوحل والقمر

مات زوجي.

والدموع صيف استوائي. والصحراء قارة ممحوّة الحدود علقنها بأهدابي، وتسليت بعد النجوم، وأكلتني الثآليل

ويكرج طفلي أمامي يشدني من تنورتي ويكاغي كسرب من الحساسين:

– ما.. ما..

عندئذ تلتمع نجمة، ويهرب الحوت مذعوراً..

قبل أن أرزق بصغيري «بشر» كان الأمل في صدري صرخة مرعوبة: عندما أصبحت الحكاية غولاً، والقناديل أشباحاً مرعبة، أقلعت عن السفر، وهجرت الرقص إلى الأبد.

وجاءني «بشر».. وسافرت في عينيه الدافئتين بزورق حزين وأنا أضمه إلى صدري وأحكي له حكاية (القدر المكتوب على الجبين):

– ستتزوجين محمود أفندي!

– أطع أباك وأمك!

– ستولدين في الألم، وفيه تعيشين!.

كنت أعمد صغيري بشحنات من العاطفة المنكمشة المرعوبة، وأنا أنظر إلى الجدران بحذر.

سيكبر «بشر» ويصبح طويلاً مثل النخلة، وتصبح قدماه زورقين دافئين.

وتغمرني قناعة بائسة..

مات زوجي..

كلماته و نظراته الأخيرة، توصيني «ببشر» الذي لم يكتب له، أن يعمله كيف يمترس الأبواب جيداً عند هبوب العاصفة، وكيف يحافظ على الغلال حتى لا تمتد إليها مناقير العصافير، وأيدي اللصوص.

وأنا امرأة، أجيد حكي الحكايا، والغناء بصوت مبحوح، ورتق الجوارب، والانتظار.

ومرت سنوات..

وفجأة عاودني حنين قديم، حنان سخي راح يقطر من شفتي، ومن رؤوس أصابعي. كان القمر بدراً، فأسدلت شعري على كتفي، وكحلت عيني، وارتديت فستاني الأبيض. سمرتني الدهشة للحظات، وأنا أنظر إلى نفسي في المرآة، وابتسمت: (حمداً لك يا ربي.. لا زلت امرأة!..)

خرجت إلى الحديقة، وعادت حكايا جدتي المسافرة، ورقصت على ضوء القمر. وعندما لمحني ابني، تغير لون عينيه، وماتت ألوان قوس القزح. ومن يومها وأنا أفتح عبي وذراعي وبشر يبتعد، ويركض متعثراً بخطواته الصغيرة، ويقفز قلبي أمامه مذعوراً، وتغفو الريح على زندي، ويتخثر الليل في مرجل أسود. وأغرق وسادتي بالدموع، أحكي لها حكاية الأبناء الذين جرحوا قلوب أمهاتهم بنعالهم الصغيرة، وهجروا أذرعتهم، وهربوا إلى ضفاف الأنهار ينصتون إلى نقيق الضفادع.

وعلى سطح بيتنا كان بشر يقضي معظم لياليه، يتلصلص علي، ويبصق على القمر. ومرة عندما لمحني حالمة، أغمض عينيه وطحن عظم ساعده.

مات زوجي.. وابني طحن عظم ساعده..

شيء عارم في صدري يعلو و يهبط كأمواج البحار، يحيل لعابي إلى صمغ، و شفتي إلى حصاتين من الملح.

ويبهت القمر في شرفتي السوداء، وأصرخ..

ولكن الجدران صماء وقاسية مثل حجر الصوان. وافتح ذراعي أعانق الريح وأحكي لها عن بشر الذي طحن عظم ساعده البغو مثل لب لوزة خضراء، لأنه لمحني حالمة.

لو لم يقطر الحنان من شفتي وأصابعي ويلوّن الليل...

لو لم تعد حكايا جدتي المسافرة، لما طحن ابني عظم ساعده ولبقيت عيناه شفافتين.

القمر أحب ابني والشرفة وداليتها، (وابني رفض تجبير ساعده المكسور، كان يطحن الألم بعناد و كبرياء تحت أسنانه، وفي عينيه رماد.)

أقفلت كل النوافذ، هدمت الشرفة، قلعت الدالية من جذورها، وخنقت القمر إلى الأبد.

في الشرق أطفال يخافون القمر!!..

وزاد إصرار بشر:

لا حاجة بي إلى سواعد سليمة.

قصصت شعري الطويل واقتلعت أهداب عيني، وصبغت وجهي بالأسود، صرخت، ضربت برأسي الحائط، ولولت، وتجمع الجيران.. امسكوا بابني وجبروا له ساعده المكسور، عندئذ ضاق وجهي بابتسامتي كما تضيق البيادر في مواسم الحصاد.

كبر «بشر» وكبر بنطاله وجواربه وحذاؤه وهمومه. أصبحت دماؤه حارة مثل ألوان الورد الجوري، وأحلامه ملحّة كآلام الولادة.

لو يعود طفلي ويشدني من تنورتي.

وأطرق بنظراتي إلى الأرض حتى لا تجرح ضياءه، وأفتح له ذراعي وهو يبتعد، وتنبت العروق في ساعديّ ويصبحان دالية يابسة، وتتحنّط الريح في عبي وتتعجن بالعرق والدموع، ويصبح وشماً بشفتين نابضتين بينهما سكين.

كبر بشر وأصبح عنده بندقية صيد، ودراجة يركبها كغمر من الريح.

وأبكي في غرفة جدرانها أقسى من رحى الصوان.

القمر غاب.. كان حكاية بلون الشفق تلون الليل.

ونظرات ابني ترجمني بالجمر، وينتصب الحزن عمود رخام في أحشائي.

أصابعي المفطورة تبحث بقهر وفجيعة عن شعرة من شعرات بشر سقطت على كنزته أو قميصه، لتلمسها وتصبح دافئة مثل حكاية.

وأتفنن في تحضير طعامه، وأسكر في رتق جواربه، وأدفأ في كيّ قمصانه.

انشغل «بشر» عدة أيام في تنظيف وصقل بندقيته، وعندما أصبحت لامعة، حشاها بالخرطوش الأحمر.

وأتساءل بهلع: – صغيري كان يرعبه صوت البالون عندما «يطق»، وتبكيه رؤية عصفور جريح. وعندما تصبح الأسئلة مدى تفري وتمزق، أقول لنفسي بأنه قد كبر فعلاً.

وفي صباح شاحب، وضع بندقيته على كتفه، وقبل أن ينطلق، اعترضته كحاجز من اليأس:

– لا تتركني وحيدة

– لك القمر أيتها الفاجرة.

سقطت على الأرض عندما صدمني بدراجته وانطلق كغمر من الريح. دفنت رأسي في الأرض وأنا انتحب:

(من يضع كمادات الخل على جبيني الملتهب؟..)

(من يضغط على صدغي المفتوحين بالألم؟.)

(من يبلل شفتي بقطرة ماء.. أو طعنة سكين؟.)

انكسر ظهري، وقامتي لن تنتصب بعد اليوم.

تابعت زحفي، وأنا أبحث بأنفي عن وردة سحقها ابني بدراجته وهو يطير.

وكان القمر حكاية بلون الوحل.

مدينة الإسكندر

عندما هوت الأبراج الشامخة في أعماقه، سقط الخضر عن جواده الأبيض، وأكلت الديدان عيني التنّين. وتصرّ الرياح حزينة تنعي موت «صنين».

– «الموت هو الخلاص الوحيد». ثم اتخذ موقفاً جدياً و فكر بعنف: – الشجاعة.. كيف يحصل عليها؟، و جوفه مليء بالخرق البالية.

حل ربطة عنقه وقهقه بجنون، ثم قفز من النافذة وركض يريد الهرب حتى من ظله. بعد قليل شعر بالتعب وأخذ يلهث، ثم تمدد بظل تينة عارية وأغمض عينيه. تجمعت من حوله الكلاب الشاردة، ولعقت ألسنتها اللزجة عرقه التعب:
– السماء عارية.. التينة عارية.. أعماقه

عارية.. آه أين أنت يا «بينلوب»؟. انتابته موجة من الدوار وجلس وتقيأ، تسمر في مكانه حتى لمح قرص الشمس يغرق في البحر. أطلق زفرة ملتاعة، ثم نفض الغبار والأشواك العالقة ببنطاله وسار باطمئنان بعد أن دفن ظله وتقيأه في القمة.

اثناء سيره تحاشى المرور في الشوارع ذات الأضواء، ودخل في زاروب مخنوق. تحرشت به غانية وشدته من كم سترته!

– هذه الليلة لن تفلت مني.

سحب من جيبه خمس ليرات، ودسها بين نهديها المكشوفين، انتزعتها بعصبية ورمتها بوجهه بغضب وكبرياء:

– نحن أيضاً نعيش بعرقنا.

كلماتها اخترقت عظامه، وشعر بالتفاهة ثم ابتسم متداركاً:

- ربما كان في الأمر سوء تفاهم، فأنا أطرق هذا الزاروب لأول مرة، أنا غريب لست من هذه المدينة.

أعاد الخمس ليرات إلى جيبه وتابع سيره. (لو كان لا يزال رجلاً لتصرف على غير هذا)

انفرج الزاروب عن حانة صغيرة فدخلها بلا تردد.

ارتفعت الأصوات: -(زبون جديد لحانة الدراويش). وحيوه بحرارة ومودة، ورفعوا كؤوسهم وتجرعوها دفعة واحدة. استغرب الأمر: «المدينة لغز حيره» ولعن المدينة وتناقضاتها.

تكوم على نفسه كجرذ أجرب، خاف أن ينقل الطاعون لأناس لا يستحقونه.

لزبائن الحانة أحلامهم وهمومهم، يقولون أن باستطاعتهم ملامسة الشمس، وقطف النجوم، والطيران، أما هو فقد كسر «دفه» منذ مجيئه إلى المدينة، وصار كل يوم يلمع حذاءه، ويحلق ذقنه ويعطرها مثل أي ابن مدينة مخضرم.

(آه.. لو يعلمون من أنت لبصقوا حتى جف لعابهم.)

تجرع كأسه وانساب السائل محرقاً يأكل جوفه. شاب صغير شاحب الوجه، كان يجلس بالقرب منه، يحكي بفخر وحماسة قصة «أسنانه المكسورة»:

- ذلك السائح - ملعون جده و أبوه - بعد أن حملت له حقيبته، ودللته على الفندق، رفض أن يعطيني أجرتي. صحيح أنني لا أجيد التكلم بلغة أجنبية، ولكنني أحسن الفهم. ثم راح يؤشر لي بيديه، ففهمت أنه يريد امرأة. ففقأت عينه، وكسرت أسناني. هذه الميناء سأنسفها يوماً «بالديناميت» وأرتاح.

(بنت هوى، وعتال، وكبرياء زخمة مثل حبات البرد، وأنت؟...)

وشرب حتى صارت الحانة حقلاً. وطرقت أذنيه أصوات حبيبة. دبكات وأهازيج، وعنين ناي مبحوح، وميجانا وعتابا. قبض على الكأس بفجيعه:

- كأسك يا حضرة..

تقصفت حبات المطر، وجفت الينابيع، وأمحلت المواسم، وذهب المرض بالقطيع. حدث هذا بعد زواجه بأشهر قليلة من «أم بهيج».

وعلق أهل القرية قائلين (الزواج وجوه وعتبات)، وكانوا يقصدون أن وجه أم بهيج نحس، جلب عليهم كل هذه المصائب. وأنبوه لأنه لم يتزوج من قريته وعشيرته، وسخروا منه لأنه تكنىّ باسمها أيضاً.

– ها.. ها.. لم تصدقهم يومها. يا لك من أبله مسكين، ذهب عقلك بغنجها، وبلفة وركها.

وقاتل أبو بهيج قتال الجبابرة الصناديد، من أجل أم بهيج. وحتى يخرس الألسنة التي كانت تتهمها، وليثبت لهم (إذا كان عطاء الطبيعة قد شح فزنوده خصبة، وقلبه أخضر.)

أشتغل معلم المدرسة، وحلاقاً، واسكافياً، وبنقل الحجارة جمع بين كل هذه المهام وأتقنها بمهارة. وعندما كان تلاميذه يحضرون إليه أحذيتهم العتيقة ليرقعها لهم، يرمقونه بنظرات يفهمها وحده، ويقول لهم:

– يا أولادي.. عندما تكبرون وتصبحون رجالاً، ستعرفون أن شقائق النعمان هي بهجة الحقول.

ومع كل هذا الدأب والتفاني، لم يُرضِ حبة قلبه وبؤبؤ عينه «أم بهيج» فكانت تقلب شفتها امتعاضاً «وتكشر»عندما يضع حصيلة يومه بين يديها:

– أريد مكحلة مذهبة، و ثوباً حريرياً أحمر.

– أعرف أنني ظلمتك أيتها الغالية، ولكن قليلاً من الصبر، وسأعوضك الكثير

علا ضجيج زبائن الحانة، وكأن الذكريات المحفوظة بشرنقة الآلم والغربة، قد استيقظت كلها دفعة واحدة.

– وضعوني على الخاوزق عندما تكلمت بالسياسة.

– طردني صاحب الغرفة، لأنني أغني قبل النوم وأبكي.

دمعت عيناه، وبقي صامتاً، وتمنى أن يخرق أذنيه.

(وأنت.. أخبرهم عن بطولاتك المجنحة.. شاركهم.)

لو صادفهم قبل أن تطأ قدمه المدينة لشاركهم أحاديثهم برأس مرفوع،.. (–أخ..)

وضرب جبينه بقبضته. لو كان اللوم ينفع لفضل العيش على مزبلة القرية، أو الصلب في اصطبل البهائم قبل أن يأتي إلى المدينة. ولكن لم يكن بإمكانه أن يفعل غير هذا أمام غنج أم بهيج وإصرارها على المكحلة الذهبية، والثوب الحريري الأحمر. خاصة بعد أن تلقى عرضاً مغرياً من أحد أقاربها الأغنياء:

- ما رأيك يا (أبو بهيج) أن تأتي معي إلى المدينة وتدفن الفقر إلى الأبد، حيث تقوم أنت بتدريس الأولاد، وزوجتك المحترمة تعاون الست؟.

كان كل شيء يهون في سبيل أم بهيج. ورقصت أم بهيج، وتلولب وركها من الفرح وزاد جاذبية. وعانقته في تلك الليلة، عناقاً دوخه، ولم يعرفه من قبل.

وتحول مجرى حياته في المدينة.. (النهر عندما يغير مجراه تتبدد مياهه عبثاً، ويشكل مستنقعاً أخضر كريه الرائحة.) وغرقت أم بهيج بتكحيل عينيها، بعد أن صار عندها «دزينة» من المكاحل الذهبية،و أثواب حريرية بعدد ألوان قوس القزح، ولكن وجهها صار عرف دجاجة مخنوقة. ولم تنسَ - أبا بهيج في غمرة مشاغلها الجديدة. كانت تتحفه أيضاً بربطات العنق، والجوارب.. والأحذية.. والبدلات:

- السروال ما عاد يليق بك يا أبا بهيج.

- أبو بهيج اسم قروي و فج.

- شاربك يجرح أنفي ووجنتي. وانصاع أبو بهيج لأوامرها: (عندما يهجر الإنسان سرواله، يصبح شبحاً بلا ظل. وعندما يحلق شاربيه اللذين كان يقسم بهما، يتحول إلى صعلوك. وعندما يغير اسمه، يصبح قواداً.)

- لا.. لا..

وقف صائحاً ومعربداً بجنون:

- أيها السادة، إن الشخص الذي أمامكم، كان رجلاً محترماً، وكان يملأ سرواله بحق وجدارة. أما الآن فقد أصبح...

خرس ولم يجرؤ أن يقول أكثر من هذا.

تعالت الأصوات ملحة:

– ماذا أصبح ؟.. قل ولا تخجل..

جمع شجاعته، وبنبرة خافتة، قال:

– أصبح فأراً.

وضجت الحانة بالضحك:

– يبدو أنك حديث العهد بالشرب..

– مسكين.. إنه يسكر من رائحة «الفلينة».

وهنا وصل أبو بهيج إلى ذروة انفعاله، فوقف مترنحاً، وضرب رأسه بالحائط، فهوت الزجاجات المرصوفة على الرف، وانغرست شظاياها في رأسه. وبيد مرتعشة رفع كأسه، وباليد الأخرى كان يناول صاحب الحانة رزمة من الأوراق النقدية، مغموسة بدمائه. وأمام النظرات الزائفة لرواد حانة الدراويش، أنفتح فمه كالجرح وهو يصرخ:

– في صحة مصلوب العصر..الإسكندر – ذي المليون قرن.

وتهاوى على المائدة كومة من اللحم والدم والكبرياء والمهاجرة.

انتحار العاصفة

العاصفة تولول..

أضلاع جدي تئن..

عندما سقط جدي من أعلى شجرة التوت، بينما كان «يمرشخ» أوراقها، لم تستطع العصافير أن تمسك به بمناقيرها البغوة، فقط تطاير زغبها و حط على رأس جدي مواسياً ومخففاً حدة السقطة.

- الأرض لا ترحم من يسقط يا أبا علي.. و لو أنك شتلت قلبك في يباسها، وحفرت لها في شرايينك سواقي تهدر.

أوراق التوت التي كان «يمرشخها أبو علي» كانت مكتنزة بأمواج الشمس، وقسوة الفصول. لأن «القزات» قضمت جميع الأوراق وفرغتها من النسغ الأخضر، صفرت القالات من العري، ولم يبقَ فيها سوى الأوراق الكابية، وهزلت «القزات» من الجوع.

جدي «أبو علي» يحب الحرير، السواعد تحرشفت تعبداً للأرض، وبقى الحرير في القلب. مغزل جدتي دار فصول السنة الماضية بصوفية مع خيوط الحرير اللامعة، اليوم يبكي أيام العز (اللولبية)

كان جسد جدي المدد على الأرض كبيراً. الأرض تتفيأ تحته وتستريح. لام جدي نفسه لعنف السقطة:

- ربما أوجعت الأرض، وأرعبت شروش الأشجار.

المرعوب لا يخصب يا «أبو علي».

وجدي طيلة سبعين عاماً لم يعرف الرعب.

حملوا «أبو علي» على ظهر بغل قوي، وتعب شبان القرية في نقله من مكانه إلى ظهر البغل، كان يقاوم هذه الشفقة وهذا الترف الذي لا مبرر له. لم يتعود أن يُحمل من قبل، كان يحمل دائماً وظهره قارة متنقلة.

تماسك أبو علي وانتصب دافعاً الشبان من حوله..

- (يا حيف عليك يا أبو علي.) وغاص في الألم، وهوى على الأرض ثانية، وغاب.. وعاد في غيبوبته ووجد نفسه محمولاً.

كم آلمه الترمل، هذا البتر المفاجئ، كان ينقل بصره بين السماء والأشجار، الإله وحده يعرف أن جدي كان يبكي.

شبان القرية، أطفالها، يلبسون الحزن يمشون من خلفه. هذه الوجوه التي ترافقه هو الذي صنع ابتسامتها من نوادره وحكاياه. وجدي المحمول يشت، يمشي في اتجاه معاكس.. يتيه في محيط السبعين. لم يولد وفي فمه ملعقة من فضة، وإنما ولد بملعقة خشبية مجوفة باللعنة: الفقر. كان ابن فلاح قوي السواعد متصوف في حبه للأرض، كان يحلم «أبو علي» بمرقد عنزة في قريته، وككل الشبان الطموحين الذين يولدون بلا ملاعق فضية.

سافر جدي في مطلع شبابه إلى المهجر، على ظهر باخرة محملة بالملح، اشتغل عتالاً على متنها لقاء نقله إلى ما وراء البحار، فهو لا يحسن القراءة والكتابة، رجل أمي يفهم لغة الريح والرعد والعواصف أكثر من كلام الكتب. كان يكره الكتب لأنها تبعد الناس عن الأرض، وأتعس لحظات حياته وأكثرها حرجاً هي (البصمة)، عندما كان يضطر أن يمهر بصمته على ورقة، قنينة من الكوبيا كانت لا تكفي لتغطية مساحة إبهامه الواسعة العميقة الأصلية الشقوق، إبهامه تاريخ يدفن الزمن في شقوقه هذه البصمة كانت تعذب جدي.

وفي (فنزويلا) كانت دهشته أوسع من البحار التي قطعها. عندما رأى البحر لأول مرة قال عنه (أزرق وعميق)

ظن جدي أن الإفرنج أناس ميسورون، الأرزاق والأموال تطفح عليهم من النوافذ والأبواب، وأراضيهم جنات عدن تخصب وحدها:

- الأرض لا يخصبها غير الحب

- المرأة لا يخصبها غير الحب

خاب أمل جدي: الإنسان هو الإنسان أينما كان، لعنة الفقر تلاحقه من السماء السابعة.

في المهجر اشتغل جدي فلاحاً، والذي أدهشه هناك حجم حبة القمح، حبلى ومنتفخة وبطنها حليبي متكور، تساوي بحجمها أضعاف حبة من قمحنا. قرر جدي عندما يعود إلى قريته أن يحمل (شوالاً من الحبوب) ويبذرها في مرقد عنزته، ويوزع على الأهل والجيران هدايا منها. وفي المهجر تعلم الأسبانية وأجاد الغناء بها أكثر من الكلام، خلف محراثه كان يغني، وعلى النورج كان يغني ويذوب حنيناً وأشواقاً إلى الوطن. وأحس بأهمية الكتابة.. تعلم الكتابة ضرورة، ولو كان يجيدها لكتب قصائد طويلة ومحروقة إلى وطنه وأهله.

السيدات الأسبانيات عناقيد خمرية شهية، فجرت أشواقه إلى المرأة وحاجته إليها، كبح جماح عواطفه (لا كرامة لإنسان إلا في وطنه، لا قيمة لإنسان إلا بين أهله، لا شأن لغريب منزرع في أرض غريبة)

كان مرقد عنزته هو الحلم يمشي فوق البحر..

وبعد سنوات طويلة من الغربة في المهجر، اشتاقت البلاد إلى أهلها، لملم «أبو علي» بعضه، وعدّ ثروته المتواضعة، الحلم يسير أخضر فوق البحر، والبحر أزرق وغميق يا «أبو علي». كانت ثروته التي جمعها في المهجر تكفي لشراء «مرقد عنزة » في وطنه.

لبس جدي حلمه.. وأبحر عائداً.

وصل موكب جدي إلى البيت، وفرشت له جدتي أم علي الفرشة التي تحتفظ بها في (اليوك) للأعزاء، فرشة زاهية الألوان كلسية الرائحة. لأول مرة يغرق أبو علي في ترف لا مبرر له. (على البيادر والسطحية والكروم) كان ينام قبل أن تتهشم أضلاعه، وبقي ظهره مستقيماً، رمحاً أشمَّ.

واحداً من أهل القرية المحيطين به هتف:

- يا أبا علي ارحم نفسك وأقلع عن تسلق الأشجار، تسلق الأشجار يلزمه رشاقة ومرونة اترك هذا الأمر لابنك علي.

وقال آخر: - آن لك أن تتعم بشيخوخة مريحة خصوصاً وأن الله (مفضلها) عليك. يتململ جدي احتجاجاً: - المسألة ليست بهذه البساطة أيها الناس.حبي للسنابل.. للأشجار.. للحرير.. لا يقدر بمال قارون، لا.. ليس من أجل الثروة أتسلق الأشجار، وأمرشخ أوراق التوت والملول والزنزلخت، علاقة وجود، والشعور بأهمية السواعد، والذات ككل.

ألا تعرفون أم أنكم تتجاهلون ؟!.. كم هو صعب على الإنسان عندما نمنعه من الحب.. من العشق.. من التعبد.. ماذا يبقى له إذن؟..

جاء (أيوب) مجبر العظام الشهير، فحصته العيون المترقبة: هل يمكن لأيوب أن يعيد للعاصفة أوتادها.. وصواريها؟.

تمتم أيوب وهو يشمر عن ساعديه ببسملة طويلة، وعرى الصدر العريض.. الصدر المحيط، وتحسس الأضلاع المطحونة، كأنه يتحسس كومة من حطب السنديان. لم يئن جدي.. القزات على السقالات العاريات كانت تئن. ويضغط أيوب على الأضلاع المهشمة - فتغوص في الرئة.

- أصلحك الله يا أيوب، لقد ارتكبت خطأ...

ليست كل الكسور كسوراً.. وليست كل العظام متشابهة، أخطأت التجبير يا أيوب.

صرخت عينا جدي

وانتحرت العاصفة.

وطن

بلا سقف.. بلا جدران

حزن البحر عندما كانت عيناي تشتي لفراق حبيبي، وصارت الميناء غربة عتيقة، عمرها من عمر الطوفان، صفير «البابور» حمل غربة ملايين السنين إلى قلبي، عصرت منديلي لألوح به لحبيبي المسافر «فتكسر متهدلاً» بالدموع واكتفيت بتلويح يدي حتى تعبت.

– أيتها الأمواج المسافرة اصنعي من زبدك «تعويذة» تقي حبيبي شر الحيتان النهمة.

تكومت: أحمل هموم الدنيا كلها فوق ظهري لا أحس بالعالم ولا بالناس الذين يهرولون من حولي.

أنا والميناء تعبان. البحر يذهب بالأحباب بعيداً،عندما تمحل المواسم وتهرب الأرض وتميد، وتهوي السقوف والجدران وتنطفئ أشعة الشمس في دم العيون، لعنت الغربة وساعتها و مسببها: (الرجل يريد أكثر من منارة شامخة تشد رأسه إلى الأعلى وتعكس ضياء جبينه.. يريد أرضاً وهوية ووطناً بسقف وجدران.)

لا تقولوا ماذا فعلت أيتها الصبية بحبيبك حتى هرب من ليالينا التي هي بحاجة إلى أقمار وأقمار؟. لا تتسرعوا بالحكم علي، فأنا فتاة ساذجة ومسكينة، حبيبي فقط لم يقس علي، أمي التي ربتني وجدتني في «صرة» على باب الجامع كتلة لحم مزرقة متشنجة من البرد، في نفس اليوم الذي ذبحت به «صبحة» بنت الشيخ «رسلان».

أسموني أنيسة، و ثقبوا أذني وعلقوا فيها أقراطاً وألفوا قصصاً وحكايات حول مولدي تفوق قصص ألف ليلة وليلة في أحداثها المثيرة: ذكور القرية كلهم آبائي.. من «حمدان» المبيض إلى «بديع» أفندي مختار القرية.. والأمر عندي سيان، فأنا أفاخر بأنني ابنة الحب، وكذلك حبيبي. والعيون تستنكر ابتسامتي الدائمة وتصبح الأفواه صرراً مزمومة تفوح منها رائحة كريهة، ولكن عبق أحراش ضيعتي يغسل هموم القلب.

الحب حرام.. الانتهاك المباح، ونساء ضيعتي متورمات من الرعب، متعبات من العبودية، وأمي في تلك الليلة التي صنعتني فيها كانت تحلق على سحابة مشرعة وسخية، تحضن العالم وترطب قساوته.

قال حبيبي وهو يضغط على يدي مودعاً:

سأذكر دائماً بأنك أعز مخلوقة التقيت بها في هذا العالم التعيس.

كان صوته بحراً مختنق الأصداف.

الضيعة التي كحلت عيني بشموسها كانت جنتي، وعالمي المخدر بروائح الصعتر والصنوبر والسنديان.

أشجارها امتداد لافراحي وأحزاني، ودواليها دموعي النامية، سنابلها حبات قلبي، وعيون أطفالها قناديلي في ليالي العتمة، وأناسها أهلي مع أنهم لا يرحبون دائماً بمثل هذه القرابة. كل شاب من شبان ضيعتي تمنى أن يفوز بي، ولكن أحداً لم يتجرأ على معاداة أهله من أجل فتاة وجدت في «صرة» على باب الجامع في نفس اليوم الذي ذبحت فيه «صبحة» بنت الشيخ رسلان.

وأنا الأبنة غير الشرعية لمدينة قرنت زوجها البحر، واستبدلته بملايين العشاق الصعاليك.. ولكنني ابنة الحب. ومدينتي مدينة الحقد والكراهية والدمار.

وتنوح «شروش» سنديانتي الضائعة. كان عالمي يومها قطرة طل مذبوحة بجناح فراشة، وغصتي كانت صغيرة، لأن الطيور المهاجرة تحمل كآبة السرو في مناقيرها اللامعة وتحت زغب أجنحتها الطرية، وتغني برقة وعذوبة للسماء والربيع.

وكبرت غصتي وأصبحت هرماً زجاجياً في حلقي، في ذلك اليوم الذي هربت فيه السماء والأرض والأشجار والعصافير، ضاعت معالم ضيعتي وغرقت في الدخان والذهول والعويل والصراخ، وانتحب الرعب أجراساً في ليل سرقت مكاحله الفضية. بكى الأطفال.. تعثرت النسوة.. وهرع الرجال إلى بنادقهم لأنهم من حمل ذنوبهم.

أصرخ:

– من احرق صورة الجد الذي أحببناه ببلاهة.. وغفونا ؟..

بطولات وشهامات الماضي طارت على أجنحة الخفافيش. ركضت والرعب سوط يجلد الريح من خلفي ويشدني من «تنورتي» الطويلة. عندما توقفت في وسط حقل فسيح لأحتمي بظل شجرة والتقط أنفاسي الهاربة، شاركت الأرض في عويلها وصراخها.

– آه يا وطني..الأرض دون حب قاتمة وحزينة.

– هل كنت أحلم..؟

في أحلامي عندما كانت تحدق بي الأهوال من كل جانب، كنت أصنع أجنحة وأطير: (احترقت السماء.. واهترأت أجنحة العصافير حزناً عليها).

الرعب كفن الأفراح التي حصدت. لو كنت أملك غير حنجرة مطحونة بالزجاج، لصرخت بأعلى صوتي: أعيدوني إلى «صرتي» التي وجدتموها على باب الجامع. عانقت الشجرة بعنف حتى لا تهرب وتتركني وحيدة، وخوفاً من ان تميد الأرض تحت قدمي وتنشرخ عن هوة وتبتلعني، جعت وكان جوعي ضارياً: الطعام.. الماء.. وزند طري مثل تفاحة أسند رأسي وأبكي.. وسقف له رائحة المطر.

* * *

إنسان قادم من بعيد.. من؟.. عوليس؟.. هه.. عوليس مات من أزمان وأزمان و«هيلانة» مهتوكة.

– آه أين أنت يا جدي ؟..

المرأة التي نزعت سروالها، ولوحت لك به في حرب «السفربلك» مقابل رغيف من الخبز، والتي أطعمتها زوادتك وبؤبؤ عينيك، ودثرتها بعباءتك، ثدياها يابسان،

وساقاها شارعان مصلوبان.. من يمسح شعرها بحنان ويسترها بعباءته ؟..

راح يقترب مني بخطوات مبعثرة، مجرجراً قدميه قسراً، وانطحن قلبي عندما راحت تتوضح لي معالمه المطموسة بالغبار في كل خطوة كان يخطوها باتجاهي.. صرخت بانشداه:

– عمر ؟...

وأجهشت في البكاء.

– آه يا حبيبي.. الإنسان لم يعد سيداً. لقد عاد الغول الذي أكل خروف جدتي..

بقايا إنسان.. يحمل بيرق الهزيمة والاندحار على أكتافه، زرع حبيبي قهره وغضبه أشواكاً تحت جلده وقال وهو ينظر إلي بحنان: كنت أبحث عنك يا أنيسة.. أنت وطني..

ودق ناقوس يتيم في صحرائي الموحشة.

وطني حزين.. وطني يحترق.. وحبيبي يحمل وطنه في عينيه. تمدد بقربي و رحت أتأمله: جسد طويل ومنهك، ذكرني بأشجار الحور عند هبوب العاصفة. احتويته بنظراتي وتحت مسام جلدي حتى لا يصيبه مكروه. ثم بللت أطراف ثوبي بلعابي ومسحت له و جهه، فتح عينيه وتناول يدي وقال وهو ينظر إلى قدمي:

– ياللقدمين الصغيرتين التعيستين..

فأسرعت ودفنتهما في التراب.

– لم يبق لي سواك يا أنيسة في هذا العالم.. تعالي ندفن كبرياءنا تحت هذه الشجرة.

– إنني جائعة

– تعالي.

ثم شدني من يدي، وانطلقنا نسند بعضنا بجهد، نرتمي على الأرض منبطحين، لنحتمي من سيل الدمار العشوائي المنصب فوق رأسنا. في الطريق صادفنا راع يلهب ظهر غنماته بعصاه انضممنا إليه وأطعمنا من زوادته.

في المدينة:

لا أهل.. لا أصدقاء.. الأحياء أموات فيك يا وطني.

أصبح الإنسان مبعثراً ومنفصلاً بعضه عن بعض. أنا وحبيبي نقاتل من أجل الانتماء إلى وطن وهوية يهدنا التعب و نبقى خارج الدائرة.

حبيبي «معلم مدرسة» وأنا ابنة غير شرعية، كلانا ينتسب إلى مدينة قرنت زوجها البحر.. أحياء محصودة بالدمار، مزروعة بالمتاريس، أطفال أشبه بهياكل عظمية وجماجمهم تاريخية يلهون: يربطون قدماً آدمية «ترتدي جورباً أحمر بخيط ويجرجرونها.

ويبقى ليل المدينة مدية جزار تنحر عنق صبية وردية الشفاه.

– لا تحزن يا حبيبي.. وقبلني بوحشية.

ويأكل حبيبي شفتي وأمارس نوعاً من اليوغا لأن جسد حبيبي مشرح.

قبل أن ينطلق «البابور» بحبيبي، أوصيته بأن يرمي «بتراثه» في البحر.. وينساني.. لأن البحر كبير، ويبتلع كل شيء.. فأجابني بأنه يحب البحر ولا يريد أن يسبب له التقزز..

ناولني منديله وسبحته حتى اذكره دائماً.. وحتى لا أشعر بوحدة أيام الشتاء

أصبح البحر مرآة زئبقية... صفير «بابور» قادم، حمل ومضة من الفرح إلى قلبي.. فرح دون أجنحة. (أحلام العودة رضعتها مع الحليب.)

ومادت أرض الميناء كأرجوحة، رفعت منديلي لألوح به للقادمين، ثم نكسته بسرعة وبصقت: (قادمون جدد.. غرباء..؟ لم يعودوا يبدون لي كنوزاً محملة بالأساطير والعوالم المسحورة، هياكل شمعية باهتة.. غزاة و قتلة.. ولم يبقَ فيك أحد يا وطني..)

نامت الشمس بألوانها الذبيحة فوق سرير البحر، وأقفر الميناء وأصبح جزيرة سوداء في قلب حوت. وخرج الصيادون بفوانيسهم المحتضرة إلى عرض البحر.. نبهني حارس الميناء مواسياً:

تأخر الوقت يا بنية.. هل ستنتظرين الأحباب الذين أخذهم البحر حتى يعودوا؟..

في أحشائي يبحر قادم جديد سأسميه البحر.. ليكون صلة وصل بيني وبين حبيبي..

وسأعلمه بأن الرجل الذي لا يغضب ليس شهماً ولا يستحق أن يكون إلهاً أو حبيباً.. وسأعلمه أيضاً كيف يخنق بمده كل الشطآن المتآكلة والهشة.. وكل الحوريات والأصداف الكسولة..

يوم هربت زينب

(وقصص أخرى)

قصص وروايات عربية

اعتدال رافع

"بكى الشيطان من الحيف الذي لحق به من جراء
نكران الجميل، تغمّست مسام زينب وثيابها بدموعه..
كادت أن تشفق عليه، وسألته:
لمَ تبكي أيها الرجيم وأنت سيّد العالم ؟
ردّ عليها محزوناً:
كل الناس تسير على دربي وتلعنني..
قالت له:
أنا أحب الله..
ضحك وقال لها:
أنت "حرمة"، ومن يتبع غوايتي يجب أن يكون
مدججاً بأسلحتي".

-١-

قبل مجيء الأخضر، وبعد عيد الفطر، وعقب هروب السجناء من سجن بيروت.

اختفت زينب مثل شهقة بين هدير الراجمات وانفجارات الصواريخ والقنابل ولعلعة الرصاص والألسن.. وأحزان البحر.

أغلقت باب غرفتها، وابتلعها الليل، كان قلبها مزقوقاً بالهموم، وحلقها جافا، ومعدتها خاوية، ونفسها مسدودة، تراكمت القمامة في فسحة العمارة وجفت خزانات المياه، وسرحت الجرذان ومرحت على هواها، وكانت في الأوقات التي تخلو فيها زينب إلى نفسها، تركض أمام بابها المشرع وترمقها بعيون خائفة متوسلة قبل أن تتسلّق الجدران بقوائمها الصغيرة إلى البيوت العالية.

وتقول زينب، وأساريرها تنطق بالغبطة:

الجرذان تخاف مني كأنني مليشيا!

صراع الأضداد للنشوء والارتقاء الذي اخترعه دارون، نسفته الحرب من جذوره، احترقت الأشجار، وهوت القامات، وتقوضت الأبنية.. وأقفر الزقاق من ضحك المنارات. تهدم ملعب التنس الذي كان ينسفح بمروجه الخضراء في آخره، وتحول إلى مكبّ للقمامة وقواعد للراجمات.

سكنت خطوات زينب، واختفى صوتها. ذابت كفص ملح في الطوفان.

عقبت "أم أرز" على اختفائها:

"الله لا يردها، كانت دايرة على حلّ شعرها".

وشعر زينب، قصير وكثيف ويابس مثل شعر القنفذ تصبغه بالأوكسجين كلما طال، لتموّه سنواتها الخمسين.

وتبعد أهوالها عن رأسها، وعند اختفائها، كان الأوكسجين قد انحسر من منبت شعرها إلى قرص رأسها.

ليس في الزاروب ماء، ومصابيحه مطفأة. الله عندما خلق العالم كتب اسمه على النور، ليميّز عباده بين السواد والبياض.. ويفرقوا بين ضحك الحليب وتجهم القطران!

للزينة وقت آخر يا زينب...

"شفطت" أم أرز بسيارتها، وأوقفتها في مكانها المعتاد أمام باب زينب، وعلى صوت هديرها، تقاطرت الجرذان من تحت خزانات المياه.. وانفلشت كزوبعة في ركضها المرعوب.

سحق جرذ تحت عجلة السيارة. ترجلت أم أرز من سيارتها بحيوية فائقة، ورمقت الباب بعينيها المكحولتين كأنها جواد فاز في حلبة السباق. شهق الباب المنخور وجعاً طاف من خرومه!

والملك سليمان كان قد بنى هيكله من أرز لبنان.. احترق الأرز وحلّت اللعنة بأحراشه وقممه..

– ٢ –

العصافير لا تعشعش في الكوى الواطئة..

وغرفة زينب منخفضة، لها كوتان محميتان بحديد متصالب تعلوه تنهدات وصدأ.

وزينب لا تهاب الموت.. أو الحرامية! فليس عندها مجوهرات أو دولارات أو ريالات أو حلي.. أو بكارة.

رأسها كبير وثقيل ومحرور، وجبينها بعرض الإصبعين، مظلم وضيق من قلة الضحك، وأسنانها الأمامية مثلمة كالمنشار من أكل «البزر»، لونها غامق مثل تراب البراكين.. وغرفتها كأنها مفصلة على قدها، سقفها يعلو قامتها بشبرين تقريباً عندما تقف على حيلها. صاحب العمارة «قارون»، كان قد بناها في الأصل لكلب الحراسة.. ولم يحسب حساباً لطول زينب أو عرضها (تدارك تقصيره الإنساني فيما بعد وكف عن أخذ أجرة الغرفة من زينب!)

كومة من الإسمنت والحديد لها شكل اللحد، تنبت كثؤلول رمادي بين زقاق مدروز بالخراب، وعمارة البحر.

سور كان لونه أخضر، قشرته عاديات الزمن، يزنر فسحة العمارة ويحاذي جدار الغرفة الخارجي، ويفصل العمارة عن أرض الزاروب المنهوبة بالحفر والانكسارات العنكبوتية.

فمنذ ذلك الثلاثاء الأسود من ربيع الخراب استفحل الموت وعم الدمار الشامل كل شبر من أرض الوطن، القيامة أصمت الآذان.. وكل من بقي على قيد الحياة، مشروع موت قادم.. وغرق في هديره الخاص المزكوم برائحة الفناء:

تنتهي الحروب عندما ينتهي الموت!

وزينب لم تغادر غرفتها من قبل.. أكثر من ثلث قرن وهي ملتصقة بأحشائها التصاق الظفر باللحم، وأن تختفي فجأة عن الأنظار، وهي لا تملك دفتر شيكات أو حقيبة سفر، فمثل هذا الأمر، لابد أن يثير الشكوك والامتعاض لدى سكان الزقاق بشكل عام.. وقاطني عمارة البحر بشكل خاص!

من يملأ خزاناتهم بالمياه ويكنس قماماتهم ويزودهم بالحاجيات ويفتح باب العمارة لزوارهم في الليل؟ خلال خمسة عشر عاماً، اختفى عشرات الآلاف قبلها، وغيابهم لم يترك الفراغ الذي أحدثه غياب زينب.

كانت أول من يفيق.. وآخر من ينام. في صحوها ونومها تهجس بالماء. تتحيّن مرور الصهاريج وبائعي الخضر والفواكه والأسماك. تنادي على النسوة في الطوابق العالية، فيخرجن إلى الشرفات، بعضهن يطلبن منها شراء الماء، والبعض الآخر يدلين سلالهن بالحبل لتملأها زينب بطلباتهن من الحاجيات. أحياناً يكافئنها على خدماتها المجانية بزيارة صباحية ويشربن "المتّة" عندها. يزرنها بالتقسيط، وعلى دفعات، لأن غرفتها ضيقة، وحافة سريرها المستعملة ككنبة.. لا تتسع لأكثر من اثنتين، والكرسي المركون إلى جانب السرير، مخصص لزينب. وبعد هذه الزيارة، يتهامسن حول البقع البنيّة المدبوغة على شرشف سريرها!!

قصف الألسن، أوجع من قصف الحرب، وأذنا زينب راداران كبيران مركبان على جانبي رأسها.

-٣-

عمارة البحر، عتيقة، مؤلفة من خمسة طوابق، محاطة بالشرفات العريضة التي تتدلى من حيطانها وسقوفها وأسوارها، أقفاص العصافير والنباتات. في الخمسينات كانت هذه الشرفات تطل على البحر، ومنذ أن بدأت العمارات تشهق حولها، غاب عنها البحر (شرفة أم نوح في الطابق الخامس، وشرفة فصيحة تحتها، تسرقان البحر من خلال شرخ طولي واقع بين عمارتين). ومصعد العمارة كان قد أعلن حرده عن الصعود والنزول منذ انطلاق أول قذيفة،

وسكان العمارة لم يستجيبوا لأم نوح ويتعاونوا على إصلاحه، وهي بحكم سنواتها السبعين عاجزة عن الصعود والنزول. صلّحته على حسابها، وكتبت على بابه "خطر الموت".

عدم التعاون بين الناس في السراء والضراء، كالسابق. تجلّى في أمور أخرى، ولم يتفق سكان العمارة أيضاً على شراء مولد كهربائي واحد وخزان مياه واحد يزودان العمارة بالنور والماء. أصبح كل بيت دولة مستقلة تحايلت على الحرب وظروفها ونظمت سبل عيشها في غياب السلطة والخدمات.

وامتلأت فسحة العمارة التي كانت من قبل ملعباً للأطفال، بخزانات الصفيح وأكوام القمامة، ورقصت أساساتها على هدير المولدات.. والحرب.

أم نوح تتقن لغة الإشارات التي تتفاهم بواسطتها مع فصيحة البكماء في منتهى السهولة. قالت لها بإشارات وتعابير أدركتها فصيحة "القلوب ما عادت على بعضها".

مدت فصيحة رأس لسانها من بين شفتيها وتفَّت، ثم ضربت بكفّها على قفاها: "إلى الجحيم.." كان هذا ما عنته تماماً.

وبعد ما كثرت حوادث السطو والذبح في الأسرّة، تعاون سكان العمارة واتفقوا على شراء باب حديدي لعمارتهم. كانوا يغلقونه في السابعة مساء وطوال يوم الأحد.

صبّوا مفتاحاً لزينب لتفتح لزوارهم الذين كانوا يأتونهم بعد السابعة. "أبو أرز" وعبده اللحام، كانا يطرقان بابها في عزّ الليل كي تعيرهما مفتاحها:

(يا عيب الشوم شرش الحيا طقّ من زينب.. تتحرش بالرجال في نصف الليل).

وزينب، قبل غياب التيار الكهربائي، كانت تفتح "شفّاط" المياه الذي هو أحد مخترعات الحرب، لملء خزاناتهم وبراميلهم.. كانت تفعل ذلك من تلقاء نفسها، وانقطاع التيار الكهربائي المتواصل، عفاها من هذه المهمة، وأوقع الخلاف بين سكان العمارة، إذ رفض كل بيت تغذية "لشفّاط" بمولده الكهربائي الخاص، خوفاً عليه من العطب والاحتراق. وصار يشتري برميل الماء بـ «٧٠٠» ليرة.

رضخت زينب مرغمة لواقع الحال.. وتكيّفت مع حرمانها وبؤسها، كانت تعلّله بالقدر حيناً (الذي لم يجد مكاناً في جبينها ليحفر عليه اسمها)، وبالجور في أحيان كثيرة، وبينها وبين حالها، كانت تتمرد على القدر والجور، وتغضب مثل بقيّة الخلق.

كانت لا تخاف الموت لأنها تعتقد أن ابن تسع لا يموت ابن عشر، وخواء القلوب أبشع من الموت بألف مرة:

عدم الخسارة هو ربح في حدّ ذاته يا زينب. متى تتعلمين الحساب وتتقنين جدول الضرب ؟

– ٤ –

نهار تفجيري..

ليل تفجيري..

يتوه محمد بن "أبو محمد" الفرّان عن قطيع الهروب، يتدحرج على أرض الزاروب، ويدحله كأنه مدحلة. يزرعه بخيوط لحمه المنسول الذي يتساقط عن عظمه. تصرخ زينب من قاعها:

(من جونيه إلى جون الرُكَبْ بالدم تعوم)، إنها القيامة التي تنبأ بها المسنون من أبناء ضيعتي، والتي كانوا قد قرؤوها في الكتب الصفراء.

نور فوسفوري باهر يسبق انفجار القذيفة. ترفع زينب كمّها إلى عينيها، لأنها لا تحب أن تواجه موتها بعيون جاحظة.

منذ فشل انتخاب رئيس الجمهورية، انتهى حوار المسلحين المتقاتلين على جانبي الخط الأخضر، وبدلاً من تبادل الحشيش والنكات والشتائم وأخبار النساء، صار الرصاص والصواريخ لغة الحوار بينهم. تحت شعارات مغرضة، انشطف دوّار الأونيسكو بالدم، وتبعثرت حقائب أولاد المدرسة، مجازر في السيارات والعمارات والأشجار وأعمدة الهاتف.

طيلة سنوات الحرب، لم يشهد الناس مثيلاً لهذا الخراب. الأشلاء البشرية امتزجت بقطع الحديد والزجاج وأغصان الأشجار وأسلاك الكهرباء.

هشّم القصف الأشجار ومشاتل الخضرة، حيث شكلت أوراق الأقحوان والزنبق والقرنفل، بساطاً متماوج الألوان كفّن الحطام وبقايا الجثث. اشتعلت الحرائق في كل مكان، وتوقفت الطائرات عن الهدير، والبواخر عن الصفير، وحوصرت المدينة.

تركض زينب حافية إلى كومة اللحم المنسول التي كانت تدحل أرض الزاروب وتئن. تشقل محمد وتسنده إلى صدرها بحنان الأم. تجلسه على سريرها، وتسقيه قنينة ببسي كولا، يتجرعها بنهم وهو ينتفض من الخوف. يقشر لحمه ويلوكه، ويناول زينب بعضاً منه، يقول لها (كلي.. إنه طيب ولذيذ..)

يطل "أبو أرز" برأسه من الباب، ويقول لزينب، (لا تفسدي الولد يا امرأة، لا زال بغواً).

لأن (أبو أرز)، يحمل "كلاشين" ويتمنطق بالذخيرة.

تكف زينب عن إسعاف محمد كلما تاه عن قطيع الركض وتدحرج على أرض الزاروب. فاللواتي يلدن من الأنفاس مثلها، يحملن همومهن وهموم غيرهن.. وتحلّ بهنَّ اللعنات.. وتفخخهن الأيام بعثراتها، ويحبلن بوحول الإدانات.

وزينب كانت قد ولدت من أنفاس أمها. عجائز قريتها قالوا لها، إن رأسها الكبير بجبهته الناتئة والضيقة، كان السبب في تمزيق حوض أمها التي لفظت أنفاسها مع دمها المذبوح، بعدما بصق رحمها زينب إلى النور:

قدومك نحس يا زينب:

يسوسها أبوها بـ "المسّاس" مع البقرة. ويتعقّر جلدها. في الحقل تهيم على وجهها مع البقرة. البقرة ترعى الحشيش الأخضر، تحوّله إلى حليب تحتقن دِرتها به، وزينب مفلطحة مثل أوراق الصبّار، ومنهوبة بالجفاف من قِلّة الحليب. يضرب أبوها الأرض بمعوله. يقلّب أحشاءَها الحَمراء، كأنه يبحث عن كنز سليمان.. شرر غزير يتطاير كلما اصطدم رأس المعول بالصخر.. يذكر زينب بالعيد، وتشتاق إلى أضواء الليل التي تشرقط نجوماً ضاحكة. تسرق خطواتها إلى مغارة النبع.

تدخل في رطوبتها الغائمة، وقلبها يرتعش من الظلام المكدس في عمقها. تخرج علبة كبريت من جيبها، وتقدح أعوادها، العود تلو العود، تمدّ يدها المتضرعة في العتمة، علّ جنيّة النبع تراها.. تهرع إليها وتأتيها بالأعياد، وتصيرها "سنيورة" مثل قريبتها بهيّة، بيضاء وهفهافة. تنضب علبة الكبريت، وتترمّد زينب مع انطفائها.. ولا تيئس من خروج جنيّة النبع يوماً إليها:

ربما كانت الجنيّة مشغولة بتمشيط شعر بناتها، أو حياكة الملابس الزاهية لهن.

تودع أمانيها في فم المغارة، وتصعد إلى سطحها.

أحياناً كانت تلقى بهيّة، تلعب معها، وتتراكضان حول النبع:

كانت زينب تحب بهية ولا تغار منها أبداً عندما يلقبونها بـ "السنيورة" ويقولون عن زينب إنها تشبه الجواري. عند بهيّة أم، وهي ليس عندها أم، والأم تعتني بأولادها وتصيّرهم حلوين "مثل القطايف"، والبنات الجميلات يتزوجن باكراً من العرسان الميسورين.

تطأطئ زينب رأسها، وتسوق البقرة الشبعانة.. بينما هي تخور من الجوع. في البيت يعاملها أبوها كعجل صغير وهو يتحسس لبدتها اليابسة:

لو كنت صبياً يا زينب..

يجزّ شعرها كما يجز صوف الأغنام، ويصبح رأسها أقرع كالبطيخة، تقمطه زينب بمنديل «الزوّادة».

-٥-

اقترن اسم زينب عند أم نوح بـ «الشحّار»، وكلما جاءَت سيرتها، وورد أسمها، تقول عنها «مشحّرة».

في صبيحة أول يوم من أيام عيد الفطر، خرج الناس من الملاجئ ليكحلوا عيونهم بشمس العيد، عادت أم أرز وأولادها وأحفادها من الجبل، وجميلة وأمها من قبرص، وفاطمة وأولادها من صيدا، عانق الرجال زوجاتهم وأولادهم بعد الغياب الذي حتمته الظروف الأمنية.. وذهبوا لشراء الحاجيات:

زينب وفصيحة وأم نوح "متاريس الزقاق" ما غادرنه أبداً إلى أي مكان طيلة سنوات الحرب. رأت زينب في منامها أن حوتاً ضخماً ابتلع القمر، ونفدت صناديق الشمع من رفوفها، وحالت العتمة بينها وبين عينيها. صعدت إلى أم نوح، وكانت فصيحة عندها ترتب لها السرير، وتضع الوسائد خلف ظهرها.

روت زينب حلمها لأم نوح التي "أبعدت "نفاخة" الأوكسجين عن فمها، وأسكتت سعالها إلى حين، وقالت لها مازحة:

– يا مشحّرة، أحلامك مثل خلقتك، لا تأكلي برغل ببندورة قبل النوم.

شمّرت فصيحة عن جسدها، ورقصت رقصة العيد وهي تترنم بخرس مخنوق ومبهم الألفاظ. حذت زينب حذوها، شلحت أحلامها خلف ظهرها.. ولبست بهجة العيد. ذهبت إلى السوق واستبضعت، أضافت إلى قائمة مشترياتها، الشوكولاتة والحلوى والكعك والبوالين وأضواء الليل. حشرت بضاعتها بصعوبة على رفوف غرفتها، وبعد الظهر زارت ابن عمها عبد الله في السجن.

منذ عام سجن عبد الله ظلماً.. ولا يزال ينتظر محاكمته، وأبواب المحاكم مغلقة، والقضاة محجوزون في بيوتهم. وخلال هذا العام لم تنقطع زينب عن زيارة عبد الله، كانت تزوره كلما سنحت لها الفرصة، وتأخذ له الصيّادية وشيخ المحشي واليبرق وغيره من أصناف المأكولات الطيّبة. أكل السجن لا تهضمه معدة الكلب، قال لها عبد الله.

فاصوليا بلحمة زنخة فيها إشعاع، ومجدّرة بأحجار. في إحدى تلك الزيارات، أهداها عبد الله جزداناً بالخرز الملوّن وعليه أرزة مكتوب تحتها (تراب الأرز أغلى من الذهب – ١٠٤٥٢ – كم٢).

– تسلَّ يا ابن عمي بشغل الخرز حتى يفرجها الله.

وناولته زينب خمسة آلاف ليرة أوراقها مجعّدة ورطبة.. كأنها كانت منقوعة ببخار دافئ. فمنذ تلك الليلة التي انهالت فيها بساطير المسلحين وأعقاب بنادقهم على بابها. وكادت أن تخلعه من مكانه وتطيح به إلى سريرها، فزّ شعرها على حيله، وقرصها. اختبأت في جلدها وهي مجلودة بسياط الرعب. أكثر من خمسة مسلحين اقتحموها واستباحوها، وكان لسانها مربوطاً عندما

سألوها، إذا كان عندها رجال أو سلاح أو خرطوش! بحشوا السرير وحشوة المخدّة. والرجل ليس بحجم الصرصار حتى يفعلوا ذلك، والأسلحة ثقيلة على الأسّرة وأحلامها. أخذوا نقودها المدسوسة في حشوة المخدّة، قلبوا محتويات الرفوف، وكسروا القناني، وتركوا زينب ساكتة، وغرفتها غارقة بسوائل البيرة والببسي والماء.

بعد تلك الحادثة، حرصت زينب على نقودها..

وتمادت في هذا الحرص، وبعد تفكير مضنٍ، اهتدت إلى مخبأ لا تصل إليه عيون اللصوص وبواريد المسلحين. قبل أن تنام، تسدل ستائر كوَّتها، تلف غلّتها وتضغطها في كيس صغير من النايلون، تدسه في بيت رحمها.. تجحظ عيناها، ويسح الدمع من مساماتها الواسعة. تزرع قبضتها في فمها لتخنق أنينها:

خرقت بكارتك يا هبلة..

يتجمع الدم في منتصف السرير "المفرد" عند مكان الطعج.. ويتبقع.. وتبهت أحلام زينب بسرير "مفرد ونصف أو مجوز" يتسع لاثنين يوشوشان بعضهما في الليل.

-٦-

أشارت الصحف بمنشيتاتها العريضة إلى هروب السجناء، ولم تشر أو تلمح عن اختفاء زينب.

وكانت زينب تحب أن ترى صورتها في الجريدة!

أم نوح وفصيحة كانتا يحدوهما أمل برجوعها:

ربما ذهبت إلى قريتها..

قالت أم نوح لفصيحة وهي ترفع سبابتها إلى أنفها (وكانت تعني بها شمّ الهوا).

نفت فصيحة هذا الافتراض، وقامت بعشرات الحركات الراقصة التي كانت تعني بها، أن زينب لم تذهب إلى القرية، فليس لها أحد هناك، وعبد الله هو كل أهلها، وزوجته لا تطيقها لأنها تغار منها.

تركت زينب قريتها بعد وفاة والدها. كانت في أول شبابها، ولم تعثر على ابن الحلال الذي يؤويها ويحميها. بهيّة تزوجت بشير وهي في الثالثة عشرة. وفي الرابعة عشرة أنجبت أرز، وبشير كان يمت بصلة قرابة بعيدة لقارون، ونال قسطاً لا بأس به من العلم، وأجاد اللغة الفرنسية. اشتغل بوكالة الأرز السياحية بعدما سكن المدينة، وسمّى أبنه باسمها.

قصدت زينب بهيّة، نامت عندها بضعة أيام (لو كان على وجهها قطرة ضوء لكان أبو أرز قد شغّلها في وكالته). أرسلها "أبو أرز" إلى سمسار كان يشغل العاطلين والعاطلات عن العمل، حسب أشكالهم وطعم لحومهم ومؤهلاتهم، وزينب لها قوّة ثور، شكلها مفلطح، وجلدها محرشف، ولحمها مرّ. مؤهلاتها الفطرية ساعدتها على إيجاد وظيفة في أحد المشافي. احتكاكها بالأحياء والأموات، وسّع مداركها القروية، وعلمها أموراً كثيرة غير المسح وإزالة الأوساخ ومخلفات المرضى. كانت تشنف أذنيها لكل ما يدور حولها من أحاديث وحوارات، وقفت على أخلاق أهل المدن وطباعهم وأمزجتهم وحنكتهم. درست تصرفاتهم عن كثب.. وأخذها العجب من شدّة التناقض بين الأقوال والأفعال.. وفي ساعات فراغها تأوي إلى سريرها، تتصفح المجلات والصحف التي كانت قد جمعتها من سلّات المهملات وتقرأ الأحداث من الصور. تتعزز ثقتها بنفسها، وتبقى زينب القروية.

وآه.. لو كانت لها حرية السنبلة!

استقلّت بسكنها عن المشفى، واستأجرت غرفتها الواطئة، جهزتها بسرير حديدي مثل أسرة الجنود، وخزانة بدرفتين وطاولة وكرسي، وعرفت الأحلام طريقها إلى رأسها مباشرة، دون أن تصطدم بصراخ أو أنين. أحلام أكبر من رأسها، وأعلى من سقفها، وأوسع من كوتي غرفتها. كانت تحلم بسرير «مفرد ونصف أو مجوز» يتسع لاثنين يوشوشان بعضهما في الليل، ومن همسهما يكرج الأطفال مسمطين بالضحك والبراءَة، وتتمادى في أحلامها، كأنها تصدقها.

تنسى شكلها وعلاماتها الفارقة، ولا تعيرها أهمية. في البداية كانت أم أرز تساعدها على هذا الشطط وتقول لها:

«كل قمحة مسوسة لها كيّال أعور».

ترتسم حول عينيها خطوط ضاحكة، وشفتها العليا المحزوزة بالشقوق الطولانية تنفرج عن تنهيده طويلة من أمواج القلب، تدفع قارب الحلم من قاع الغياب إلى جوقة الزبد والنوارس.. ويكتسي وجه زينب بطيف لضوء شاحب.

لما طالت الحرب المستشفيات وأصبحت هدفاً لنيران الميليشيات، تعذر على زينب الوصول إلى عملها. قبضت تعويضها من المشفى، واشترت صندوقي ببسي كولا، وماء صحة، وصندوق بيرة، وعشرة كروزات كبريت، وخمسين "دستة" شمع، وعشرين كروز سجائر.

فرشت بضاعتها على طاولة، أمام غرفتها في فسحة العمارة، وكانت تنفق بين ليلة وضحاها نظراً لتردي الأوضاع الأمنية الذي يحتم إغلاق الدكاكين.

وتتصدع زينب من تعقيد الحساب، لأنها لا تعرف جدول الضرب (أول عهدها بالتجارة باعت بضاعتها برأسمالها، وذهبت أتعابها سدى، وتعلمت فيما بعد كيف تحافظ على رأس المال، وتتصرف بالربح فقط).

اتهمتها أم أرز بنكران الجميل، وتعديها على حقوق الجيرة، عندما سمحت لنفسها أن تفتح دكاناً على حساب غيرها. دون إذن أو مشورة، تفرش "بسطتها" في المكان الذي تستخدمه أم أرز كمرآب لسيارتها!!

يتفاقم الخلاف بينها وبين أم أرز، وليس عند زينب رجل يتزنّر بالخرطوش ويتأبط "الكلاشين". نصبت الرفوف في غرفتها ورصفت بضاعتها فوقها. تركت لنفسها عدة أشبار تتحرك ضمنها. حشرت سريرها في الزاوية تحت الكوة مباشرة، تنام في الليل، وتستقبل زوارها عليه في النهار.

سيولة المال مهما كان متواضعة.. تولد قوّة مشبوبة بالاعتداد. وتصلب زينب وهي تحصي غلّتها بعيداً عن عيون الحاسدين. تعتريها أحلام الرحابة:

حمام فيه مرحاض إفرنجي، ومغطس أبيض كالحليب، تنقع فيه جسدها المحرشف.. وتطري شقوق قدميها الداميتين.

مفرقعات الحرب لم تفسح مجالاً لمفرقعات العيد.

الأسهم النارية وأضواء الليل، بدت كأنها ذكريات مهربة.

جنيّة النبع غارت من أحلام زينب قبل أن تلبّي توسلاتها بالأعياد، وتصيرها «سنيورة»!

ربما ذهبت إلى بلاد الحكايا والسنابل.

قذائف متوسطة وثقيلة من عيار ١٢٠ و١٥٥ مم، صواريخ غراد، جحيم ينهمر كالأمطار، طال الموت المدينة وقراها، وعمارة البحر، كأنما ضربها زلزال عنيف، ارتجت أرضيتها وسقوفها، هرهر زجاج نوافذها، وتشظّى، قذيفة سقطت على الطابق الأخير من العمارة المواجهة لها...

وأطاح بأثاثه إلى البحر. وغرفة زينب بقيت على حالها..

معظم أطفال الزقاق كانوا قد خرجوا مع ذويهم إلى كورنيش البحر ومدينة الملاهي، فاجأتهم هدايا العيد الثقيلة، وطاروا من أراجيحهم إلى البحر. ارتفعت أعمدة الدخان، وبدت المدينة محرومة يظللها رماد، وهواؤها امتزج برائحة الزرنيخ والبارود والشواء. بكاء الأطفال، وولاويل الأمهات هي الأصوات الوحيدة التي كانت ترتفع خلال فترة السكون الواقعة بين انفجارين.

تحت وابل القصف يودع الناس أقاربهم الذين يسافرون إلى قبرص، على متن سفن سريعة تبحر من خط متعرج لتفادي القذائف. ربابنة السفن، كانت سفنهم عتيقة، ووكالاتهم تدفع لهم خمسة آلاف دولار عن الرحلة الواحدة التي تستغرق أربعاً وعشرين ساعة تقريباً، وكان الواحد منهم في الماضي يتقاضى مئتي دولار في الشهر!!

نسوة وأطفال يهربون إلى الملجأ الواقع في أول الزاروب، والرجال يقبعون في زوايا البيوت وممراتها، يحرسونها من اللصوص الذين كانوا ينشطون في الانفلات الأمني.

زينب في فم غرفتها، تراقب الزاروب بعيون زائغة، لا أحد يحرس غرفتها أو يقلق على عليها.. والملجأ ليس لأمثالها. في أكثر الأحيان يتحاشون الجلوس إلى جانبها لأن رائحتها تشبه رائحة البقرة في تعشيرها، تشمّ زينب حالها.. ولا تصدقهم! كما أنها لا تحقد على البقرة التي زرعت خوارها في مسامعها، وكحلت عينيها بالقذال الأسود. تقلق على عبد الله، وتخاف عليه أن يموت مردوماً تحت أنقاض السجن.

تخرج فصيحة إلى شرفتها، تتعرّى حتى نخاعها، وتباشر رقصها الأسطوري على وهج القذائف، تقفز، وتطيح بجسدها في الهواء، ينتفض بإيقاعات مجنونة.. وتطير على صخب طبولها.

أم نوح تتشبث بسريرها، وتشتد نوبات سعالها، في غياب فصيحة، يدنو الموت منها، ويظلم كل شيء من حولها، تتكئ على خاصرتها، تخرج إلى الشرفة، وتسكب الماء على شرفة فصيحة التي ترد على رسالتها بأنينها المكبوت. تصعد إليها وهي مبللة ومصبوغة بدماء رقصها.

المرافق الحيوية في الزقاق مقفلة. مكتبة الجاحظ، وفرن أبو محمد، وصالون الحلاقة، وملحمة الأمل، ومصبغة الأمراء، ودكان أبو رشيد. تفرغ رفوف زينب من ثقلها باستثناء الشوكولاتة والبوالين وأضواء الليل. التي ظلت تنتظر الأولاد الذين أرادوا أن يعيشوا أعمارهم الطفولية، ولكن الكبار منعوهم..

-٨-

يتقولون بأصوات أعلى من الهمس:

زينب امرأة بلا شرف، تستغل غياب النسوة عن بيوتهن، لتدعو الرجال إلى مخدعها وتغريهم بشرب الويسكي والفودكا والبيرة والعرق.

الحق كله على نوح، لأنه قبل سفره إلى «بلاد بره» كان أول من أشار عليها بتوسيع تجارتها.. وتنويعها، وذلك بإضافة الفودكا إليها:

الذين يحملون السلاح يا زينب.. غير الذين يخترعون الأحلام والحكايات.. وينشدون الأغاني. أفضّلها فودكا روسية يا زينب.

وكان نوح يشرب قنينة فودكا قبل أن ينام، ويكتب عن النمل والصراصير والقوارض. غار منه "دالاس" وأمر زينب أن تضيف الويسكي الأميركية إلى قائمة مشترياتها. وأرز قال لها:

زحلة بلدنا والعرق مشروبنا!

ولمّا كان على التاجر أن يرضخ لطلبات زبائنه التعبين والمهيمنين. رضخت زينب.. وصارت أحلامها أكبر من رأسها، وأعلى من سقفها، وأوسع من كوتيها.

في البداية، وكل بداية صعبة، احتارت كيف تؤمن هذه المشروبات المختلفة، ذات المصادر والماركات المتعددة، فمعظمها بات مغشوشاً، مخلوطاً بالسبيرتو ومصبوغاً. خاصة وأنها لم تتذوق دمعة منها طوال عمرها ؟ استعانت بخبرة أرز الذي حمل لها الصناديق من عند البائع بسيارة "الرانج":

ومع عدم اقتناع زينب بجدوى السكر، وإيمانها بعذابات الصحو. اقتنعت بالسكر بعدما ناقشت هذا الموضوع مع نوح.. وأقحمت نفسها في مشاكل ليست قدها. وكان عليها أن تتحمل نتيجة خيارها.

عرق كسارة يا زينب

.. وايت هورس

.. بيرة المازة.

تتوسل زينب إليهم وهي تدعك عينيها من النعاس، أن يخففوا من ضجيجهم وبعاقهم وقرقعة أسلحتهم وبساطيرهم.

بعد انفراط عقد المليشيات، هرب «دالاس» و«جيفارا» إلى أمريكا، تنفست زينب الصعداء:

(الله لا يردهم كانوا حرامية..)

ولامت نفسها كثيراً لأنها كادت أن تنحاز إلى المعسكر الرأسمالي عندما قال لها «جيفارا» قبل هروبه:

– إذا نجحت ثورتنا يا زينب، سنؤممك مع دكانك.

ولكن نوح طمنها:

– لا علاقة للاشتراكية بالزعران.

– ٩ –

يجاهرون بأصوات مسموعة كهدير البحر:

زينب تحك حالها من فوق ملابسها. وتفوح منها رائحة شبيهة برائحة البقرة أيام تعشيرها. تفعل ذلك بلا خجل أمام زبائنها وزوارها!

في الحقيقة كانت زينب تفعل ذلك، بحركة لا شعورية، وبعفوية مطلقة. كالطفل الذي تعود على مصّ إصبعه، أو البنت التي تعودت على أكل أظافرها.

ومن هدير الراجمة سقط قلب وديعة ابنة السبعة عشر ربيعاً، وماتت وفي يدها "كمشة" ملح، كانت تريد أن تأخذها معها إلى الملجأ ليطبخوا معكرونة. شاركت زينب في مأتمها، وبكتها كأنها ابنتها، سدّ النسوة أنوفهن من رائحتها، ولم تنتبه زينب إلى ذلك لأنها كانت غاطسة في حزنها. رافقت الجثمان مع الرجال إلى مقبرة الشهداء تحت وابل القصف، حيث دفنت وديعة هناك بلا شاهدة توسط خميلة من الأعشاب والورود نمت من تلقاء نفسها في القذائف الفارغة.

«السماء حريق والأرض غريق».

الليل بفعل القذائف ذات الشهاب تحول إلى نهار، والنهار إلى حرائق ودخان. ثلاثون قذيفة في الدقيقة الواحدة كلها عمياء، لا تستثني حتى دور العجزة والأيتام، السيارات التي كانت تتوالد باستمرار أكثر من البشر، كأن لها النصيب الأكبر من هذه المجازر الجماعية. تضيق أنفاس الزقاق من حشرها على خاصرتيه. وسرقة السيارات، كسرقة الأرواح، كانت قائمة على قدم وساق. لا يوجد رئيس جمهورية، ولا أمن، ولا عمال بلدية. كانت القمامة سيدة الزقاق، لا تكنّس إلّا بقرار وزاري، واجتماعات الوزراء معلقة حتى إشعار آخر. كل صاحب سيارة، احتل مساحة من الزقاق على قد سيارته، وطوبها باسمه بعدما حددها بأوتاد حديدية

زرعها في الأرض، أو في براميل مصبوبة بالإسمنت، وأحاطها بالجنازير والأقفال. سرق الحرامية سيارة جميلة المرسيدس، وكانت عنابيّة اللون، رغم إحكام الجنازير من حولها. تعاطف سكان الزاروب مع جميلة وتأسفوا على فقدان سيارتها، ولعنوا سارقها.. لاموا زينب وحمّلوها المسؤولية، لأنها تشرع بابها وقلبها لكل الناس، بما فيهم أولاد الميليشيات، المتقاعدين، والجدد أيضاً، الذي كانوا يقصدونها لشراء حاجياتهم المتوفرة في دكانها، لابد أن أحداً منهم قد خلبت لبّه وأبصاره سيارة جميلة، حط عينه عليها.. وسرقها. وكان حري بزينب أن تفتح عينيها وتشنف أذنيها وتنتبه لدعسة النملة!!

ولكن..هيهات.. هي مشغولة بقلّة الأدب، وحك حالها (على عينك يا تاجر)، ونهمها للمال والرجال ليس له نهاية:

من أين لهم أن يعرفوا أن أحلامها بسرير "مفرد ونصف أو مجوز" كانت تبهت بالتدريج. في وحدتها وتأزم روحها، كانت تتخيل رجلاً يحبها ويغار عليها، رغم علاماتها الفارقة، وسنواتها الخمسين، يشبه عبد الله، ولكنه أطول منه وأعرض، لو لم يكن عبد لله نحيلاً، وأصغر منها بخمس سنوات، ربما كان من نصيبها، ولكن! عبد لله مسكين ودرويش بات يخاف من خياله، وهي تريد رجلاً قوياً يحضنها كما تحضن الأم رضيعها، بائع السمك الذي كان يجرّ عربته في استراحة الموت، يكنّ لها مودة، ويبيعها كيلو سمك السردين برأسماله، وزينب لا تبادله المشاعر، لأنه مفلطح ومحرشف مثلها..كأنه أخوها التوأم، وهي تحلم "بخواجة"، ترى وجهها في لمعان حذائه، حظها بائس مثل خلقتها، والله عندما وزع الحظوظ على عبيده، لم يحسب حسابها.

عبده اللحام زار جميلة ومعه «معلاق»، لازال قلبه يقطر دماً. أراد أن يواسيها عن حزنها بفقدان سيارتها، وأصبحت هداياه من اللحم شبه يومية، بوادر النعمة لا تخفى على أحد. ازدادت جميلة امتلاء، واستدار كفلها كإلية الخروف، والرجال أمثال عبده مهووسون بالمرأة الفراش واللحاف. صارت جميلة في الثلاثين، ووجهها مشدوداً كابنة العشرين، لا تبخس نفسها حقها في التغذية الداخلية والخارجية، إضافة إلى أكل المعاليق واللحم والزبدة والحليب والخضار

والفاكهة، كانت تدهن بشرتها بالكريمات الأجنبية المغذية ذوات الماركات العالمية الباهظة.. وتمسدها بأطراف أصابعها بحركات طولية ودائرية، لكي تبعد عن وجهها شباك العناكب. (جميلة وأمها، وعبده اللحام وأسرته سكنوا عمارة البحر أثناء حرب الضاحية، وحلّوا محل أسرتي عبد المسيح وعبد الصمد، اللذين هربا إلى الزقاق الشرقي. نوال عبد المسيح كانت طبيبة أطفال تهتف إلى أم نوح رغم تشويش خطوط الهاتف، تطمئن عليها وترسل لها الدواء وتسألها عن الجيران وبيتها الذي غادرته دون أن تأخذ قشّة منه وجمانة عبد الصمد كانت تسرق نفسها إلى عمارة البحر، تزور جيرانها الذين أمضت معهم عمراً.. وترنو إلى شرفة منزلها من بعيد).

وجميلة في لهفة انشغالها في البحث عن سيارتها، استعارت سيارة أحد معارفها، دهنت وجهها بالكريمات حتى بدا كأنه منقوع بالزيت، وذهبت مع عبده اللحام الذي كان ينتظرها في أخر الزقاق تحسباً للقيل والقال. عادت في آخر النهار خائبة، مشعثة ومغبرة. شاهدتها زينب من كوَّتها وهي تنزع محرمة الكلينكس من بين فخذيها قبل أن تترجل من السيارة:

زنى الأغنياء، وموت الفقراء..

ولم يسمع زينب غير الجدران.. والله.

في اليوم التالي حمل عبده «رأس خاروف نيفا» ملفوفاً بورق السولفان، مرّ كالسهم من أمام باب زينب، فاحت رائحة الشواء جوعها «كمشت كمشة بزر من جيبها، وأكلتها بقشورها». على رؤوس أصابعه صعد عبده إلى جميلة في الطابق الثالث، كأنما شعر أنه اقترف ذنباً بحق زوجته فاطمة، وإذا صادف ورأته صاعداً إليها، كانت فاطمة تغض أبصارها، كأنها لا تراه. تغلق بابها بهدوء، وتبكي وحدها. هي لا تزور الجيران سوى في المناسبات، ولا تسمح لأحد أن يتدخل في خصوصياتها. وكانت زينب تعاتبها على جفوتها، وتعتذر فاطمة منها، قائلة، إن الوقت يسرقها دائماً، فهي مشغولة دائماً ببيتها وأولادها، لأن فاطمة لا تحب الحكي ولا طق الحنك، لا تلمح لها زينب أبداً، عن علاقة زوجها بجميلة..

وهي تتجاهل هذه العلاقة، وتميّز وقع خطوات زوجها على درج العمارة من بين عشرات الخطوات، ومع ذلك لا تفتح بابها، وتتجسس عليه، لأنها على يقين بأن كل الرجال تفعل ذلك، وفي آخر المطاف تعود إلى أسرها وبيوتها.. نادمة! والمرأة الحكيمة العاقلة، هي التي تحسن التصرف وتعرف كيف تحافظ على أسرتها!! من أجل زوجها زارت جميلة بعد سرقة سيارتها، واستها قائلة:

– الروح أغلى من المال، فقدان الزوج أو الولد أفدح بكثير من فقدان السيارة.

ولما يئست جميلة في العثور على سيارتها المسروقة، وبحكم تعودها على المرسيدس، اشترت واحدة زرقاء اللون درءاً للعيون الحاسدة، ودفعت ثمنها ثلاثة آلاف دولار، وكانت لا تنام الليل.. كل خمس دقائق تخرج إلى الشرفة لتتفقدها، هذا القلق المضني، أحاط عينيها بهالتين من السواد لم تفلح مستحضرات التجميل في إخفائهما.

-١٠-

تفو..و.. و..هـ، زينب وقحة تتحشر بين الرجال لتحكّ حالها بأعضائهم، بحجّة شراء الخبز!!

بعد انقطاع خط الكهرباء، ونفاد مادة الفيول من معمل الذوق الحراري. تفاقمت أزمة الطحين والمحروقات، وخرج الرجال لتأمين الرغيف في زخم تساقط القذائف معرضين أنفسهم للهلاك. تجمعوا على باب الفرن وتدافعوا. كانت زينب بينهم، بقايا إنسان يحمل ملامح امرأة. عصروها كزبيبة، داسوا على قدميها وهرسوهما. استفزها الألم، ونادت على الشهامات المنقرضة. انفجار مباغت أكل استغاثاتها، صاروخ غراد سقط على الزقاق، وأصاب سيارة جميلة بشكل مباشر. انفلشت شظاياها على طابور الرغيف والسيارات والبيوت.. وتطايرت الأرغفة كالصحون الطائرة.

سيارات الإسعاف شقت طريقها بصعوبة وسط الدخان والحرائق.

في المشفى فتحت زينب عينيها كأنها في حلم.. تبددت ثقتها بعزرائيل الذي ظنته أنه نسيها وأسقطها من حسابه لأنه لا يريد «أن يخرب بيته».

كان المصابون مكدسين كالذبائح في دهليز المشفى، يصرخون ويئنون وسط بركة من الدم. تلمست زينب جسدها كي تتأكد من سلامته، شعرت بألم شديد في غضروف كاحلها، كانت شظية قد فلقته، وصارت تعرج، وتميل بثقلها إلى اليمين.

«أبو أرز» طارت عينه اليسرى، وعبده، حماه اكتنازه من الكسور، ورضّ في مواضع عدة.

خرج سكان الزاروب، وأزالوا الركام وهياكل السيارات المحروقة، وشطفوا الدماء عن أرض الزاروب تقرحت جفون جميلة من البكاء على سيارتها (عندما خطف أبوها في بداية الأحداث كانت في أول طلعتها، ولم تتقرّح عليه كما تقرّحت الآن):

مسكينة جميلة حظها من السيارات كحظها من الرجال، قالت أم جميلة لأم أرز في حضور زينب. أضافت، أن ابنتها مرصودة ومربوطة. دلّتها أم أرز على شيخ يفك الرصد والربط.

نسيت زينب نفسها وكاحلها المغطى بالجبصين. وشاركت المرأتين أحزانهما على جميلة.

أم أرز حظّها يضحك لها في أحلك الظروف، زوجها وأولادها مثل الخاتم في يدها، أبو أرز يخرطش الكلاشين بنفس السهولة التي يرف بها رمشه، يهدد كل من يقول لا، لزوجته، حتى الحرامية تخاف أن تقترب من سيارتها «البي أم» الحمراء، التي توقفها في فسحة العمارة أمام باب زينب، وتتعود زينب المشي بالعرض، ومسح الغبار عن رفرافها بتنورتها أثناء دخولها وخروجها..

الطمع يعمي البصر والبصيرة. وعين الإنسان لا يشبعها غير التراب، تتعجّب زينب كيف يجحد البشر بنعمة الباري وأرزاقه!! أرادت أن «تبق» البحصة وتقول لأم جميلة، إن حظ ابنتها يفلق الصخر، أحمد المكنسيان يصلح لها سيارتها مجانا، ومروان الحلاق يمشطها دون أن يتقاضى أجراً، وعبده يهديها المعاليق والنيفا والفتايل، وقلبه يهيم بها، ومن يحبّه الله، يحبّه عباده، ومع ذلك يفبركون العيب وينسبونه إليها.. كأنها هي التي أغرت آدم بأكل التفاحة!

أخبار الزقاق الشرقي ودعاياته على أنه "أوروبا الثانية" بأناقته ونظافته، هي التي أغرت قارون بالذهاب إلى هناك، استغنى عن عماراته وفنادقه ومرابعه الليلية في الزقاق الغربي، ونجا بحياته وكرامته من ابتزاز المليشيات وإذلالهم له على الحواجز. أرز كان يعمل محاسباً في أحد فنادقه، انضم إلى صديقه سعيد بن «أبو سعيد» بائع الخضار الذي أفتتح مليشيا على حسابه مع صديقه غسان بن أبي غسان السمسار. صار اسم سعيد «دالاس» وغسان «جيفارا»، وإذا كان سعيد يعرف «دالاس» من مسلسلات التلفزيون، فإن غسان كان يجهل من هو «جيفارا».. لا يعرف سوى أن لحيته كانت طويلة، وشعره كان مسترسلاً على كتفيه، وأرز لم يبدل اسمه لأنه أراد أن يشتهر به.

الاقتصاص من قارون كان بداية الانتقام، كان أرز يوقفه على الحاجز المسلح ويصوّب الكلاشين إلى صدره ويأمره بالترجل من السيارة وخلع بنطاله وحذائه.. ويعمد إلى إطلاق النار بين قدميه، يلوذ قارون بالفرار تاركاً سيارته وراءَه ولاعناً هذا الزمان الذي قلب المعادلة و«خربط» الأوراق.

مرافقه الواقعة في جب البحر استولى عليها «دالاس»، وحولّها إلى مرابع للقمار والدعارة، وشققه السكنية التي هجرها سكانها، وزعها على عشيقاته ومريديه. أكثر من ألفين سيرلنكية وفيلبينية، أتى بهن تجار الرقيق إلى الزقاق، واستخدموهن بشتى الأعمال. ارتفع صوت أكونيو احتجاجاً على ما آلت إليه أوضاع بنات جنسها اللواتي كن يتعرضن لشتى أنواع القهر والموت والابتزاز، ودعتهن للعودة إلى البلاد على نفقتها الخاصة.. ولا واحدة منهن لبّت دعوتها. والذكور منهم كانت أعدادهم لا تقل عن الإناث. ومعظمهم كان كسولاً عديم الفائدة كذكور النحل، يعيشون على أتعاب إناثهم. وفي عطلة يوم الأحد كان الجنسان يرتدون الملابس المزركشة فاقعة اللون، ويصلون للسيدة العذراء في كنيسة الزقاق، ويضفون على كآبته مظهراً يشبه الأعياد.

زغردت زينب لقوات الردع العربية السورية، ورشقتها بحفنات الرز لأنها وضعت حداً لتمادي الزعران وتحكمهم في حياة الناس. هرب كل من «دالاس» و«جيفارا» إلى أميركا وفي رصيدهما ملايين الدولارات.

قالت «الله لا يردهم كانوا حرامة»

في إحدى الليلي سمعت همساً ينساب عبر كوّتيها، وبحاسة الجوع التي لا تخطئ شمّت زينب رائحة عشق مشبوبة الأشواق. في اليوم التالي لم يفتح عبده ملحمته.

قالت لها فاطمة إنه سافر إلى قبرص من أجل فيزا وفي حال حصوله عليها سيرحلون إلى أميركا، لأن الحياة في الزقاق لم تعد تطاق. فاطمة صدقت زوجها، وعبده خدعها لأنه لم يذهب إلى قبرص من أجلها وأجل أولاده، استطاع الحصول على فيزتين، واحدة له، والثانية لجميلة، ودفع ألفي دولار للمرأة التي كانت تشتغل في السفارة، والتي يسَّرت له الحصول عليهما.

عاد عبده من قبرص وقبل أن تصل «فرحته إلى قرعته» وخزه قلبه وضاقت أنفاسه وازرق لونه، أخذته فاطمة إلى الطبيب الذي أشار عليها إدخاله المشفى فوراً لأن عبده معه ذبحة قلبية شديدة، وعاونها في نقله إليها، حيث وضع عبده في غرفة العناية الفائقة، قالت له فاطمة من خلال دموعها:

ليتني كنت بدلاً منك.

وتضرعت إلى الله أن يشفيه، ونذرت من أعماقها، أنه إذا شفي ستزوجه جميلة!! وخطفت نفسها إلى بيت جميلة، ربما كان لوجودها إلى جانب عبده، المفعول السحري لقلبه المذبوح.

توسلت إليها أن ترافقها إلى المشفى، واستحلفتها بأغلى ما عندها:

ربما إذا رآك تردّ له الروح.

استنكرت جميلة تصرفها، ونعتتها بالوقاحة، وطردتها، وشيعتها هي وأمها بألفاظ نابية لا تليق ب"أفواه النساء.

ولفظ عبده أنفاسه.

-١٣-

تجوب زينب الزقاق بحذائها المتآكل، وقدميها الملتهبتين بالشقوق، نادراً ما تبدل زيّها، تنورة حمراء مفروشة بزنبق متآكل، وكنزة سوداء كبا لونها من الطقس والعرق والفشاشي. أرباح تجارتها باتت لا تسدّ رمقها، وبضاعتها تتناقص أصنافها بالتدريج لأنها لا تملك الرأسمال الكافي لشرائها. تموّه عرجها وأحزانها بصوتها الذي يدوي بحرمانها. تلعن الحرب وجنرالاتها وميليشياتها الذين حوّلوا الزقاق إلى خراب، وفرغوه من المودة.. وحولوا ناسه إلى لصوص وقوادين وزناة وتجار وسماسرة ومتسولين ومقتولين.

(عندما كانوا يوزعون الإعاشات على سكان الزقاق التي يتبرع بها المحسنون، كان الأغنياء من سكانه يتصدرون الطابور بعدما يدفعون فقراءه إلى الخلف، مرة واحدة فقط حصلت زينب على حصتها من الإعاشة كاملة، أرز وسكر وعدس وزيت وسمنة وعلبة حليب وعلبة تمر):

آه.. لو كنت غير زينب الفقيرة والمستوحشة.. لو كان أبي قد أرسلني إلى المدرسة لنجحت أن أكون امرأة ذات قدر وقيمة، زعيمة نسوية، أو معلمة مدرسة، صوتي لا يحتاج إلى ميكرفون للوصول إلى آذان الناس لأنه جهوري. أكتمه عندما يجرحني صداه.. وأصبح كأن لا صوت لي ولا وجع ولا غضب. تتلاشى نبراتي في الحصار، وتذوب في أحشائي، تخلّف جفافاً وغصة.. وعندما أكون شبعانة، لا يعنيني ما يدور حولي من همس، يصبح الأمر سيان عندي.. سواء صدقوا أنني أنام وحدي في السرير.. أم لم يصدقوا..

يضيع صوتها في هدير المولدات والراجمات. سحابة سوداء خيمت على المدينة بزقاقيها. احترقت خزانات الوقود في الدورة بالصواريخ، ومحاولات الخبراء كانت تتركز على تنفيس الخزانات بمياه البحر بعدما فشلت محاولات تبريدها وقال الخبراء، إن هذا الفشل سيؤدي إلى كارثة بيئية، ذعر المواطنون وهجّوا إلى أماكن آمنة.

-١٤-

طرقات متوالية لجوجة على باب زينب:

زينب قنينة ماء.

... دستة شمع.

... علبة دخان.

... كروز دخان.

... كروز كبريت.

وزينب لا ترد على طلباتهم لأنها غائبة:

زينب غارت..

زينب هربت..

زينب ماتت..

الذي يموت لا يأخذ مفتاح بيته معه.

تكبر قصة اختفاء زينب وتنتشر في الزاروب، وتطغى على أخبار الحرب والوساطات.

سحابة من الذباب الأزرق تلتهم بقايا الجرذ الممعوس.. تمتص بقايا احمراره. فصيحة تقيأت على شرفتها وأنّت كحيوان جريح.غياب زينب وطلّتها الصباحية عن الزاروب يطفئ أنسه ويشل صمته. زينب "مشحرّة"، وهي تتعاطف معها، ولكن من يبالي بفصيحة ويحسب لها حساباً ؟ بكمٌ~ وجوع، وجسد تنفلت رغباته كما ينفلت الماء من الصنبور، رغبات فطرية وطازجة الولادة، لا يعقلنها العقل، ولا تخضع لقوانينه وسموّه! فصيحة تعتب على زينب لأنها كانت تعتقد أنها تخفي عنها غرامياتها، لأنها تؤمن أن كل النساء لكل الرجال. والنساء والرجال يحبّون ذلك.. ولكنهم يكذبون.

وفصيحة جاءَت من بطن أمها صمّاء، وتعلمت نطق كلمات ثلاث (الله، ماما، بابا). وكانت تلفظها بوضوح تام، وكان بإمكانها أن تتعلّم الحكي من حركة الشفاه، ولكنها لم تحب المدرسة ونظامها وحصرها. رقصت نُطقها المغلول، انتفاضات تشبه الذبح في فلاءات محلوقة بأسنان وحشية.

ماتت شقيقتها الكبرى قبل الحرب، ولازمت أم نوح كظلها، ونادتها، ماما، ولم تفارقها أبداً في اشتداد وحدتها ومرضها، ومن حاجة أم نوح إليها، تعلقت بها

تعلق الغريق بخشبة يسوقها الموج إليه وهو على شفا الغرق، وصارت أم نوح تحكي بالإشارات أكثر مما تحكي بلسانها. في حضور الجارات أو القريبات، تنسى لسانها و"تشوبر" بيديها، تسكب فصيحة المياه القذرة على شرفة أم أرز كلما نشرت غسيلها.. لأنها متكبرة ومغرورة وقاسية القلب وسليطة اللسان. وتمد لسانها لتهديدات أبو أرز لأنها تعرف دوائره "غرموله أثخن من ساعده"، وتحسد زوجته على هذه النعمة التي باتت لا تقدرها بعد أن طارت عينه وأصبح أعور. لأن دم فصيحة يغلي في كل الفصول، تلبس الشورت وبلوزة قطنية تكشف عن صدرها وزنديها، ولا تطيق الملابس الصوفية حتى في عزّ البرد لأنها تسبب لها الطفح الجلدي والحكة. تفقأ «حصرمة» في عيون النساء الغيورات والحسودات وجسدها لا زال مشدوداً ومسحوباً مثل شجرة الكاوتشوك رغم بلوغها الأربعين، فهي لم تتزوج وتتجب الأطفال الذين يرهلون الفضلات والجلد.

في حمّى القصف، وهيمنة الموت، تُسرق الحياة من خروم الإبر. تقوم فصيحة بجولة تفقدية على البيوت، تعرض خدماتها على حُماتها. وتساهم مساهمة فعالة في تخفيف الضغط عن الشبان.. ليصبحوا مرحين وأسوياء!

أشاعت أم أرز عن فصيحة أنها مصابة بمرض "السيدا"، ولفتت نظر أم نوح إلى البقع البنيّة والحمراء التي كانت تغطي عنق فصيحة وكتفيها:

احذري العدوى يا أم نوح.. إياك أن تشربي كأس ماء من يدها.

ولا تصدقها أم نوح.

في جحيم الحريق وكوابيس الموت، تباشر فصيحة رقصها الأسطوري على الشرفات، وهي مأخوذة كلياً باشتعال نجوم الظهيرة. حسدوها على رقصها وصممها الذي وفرّ عليها سماع دوي الحرب ونشرات الأخبار والأكاذيب والثرثرات، وتعاطي المهدئات والمنومات التي أصبحت في ضرورة الماء والرغيف. تنام ملء جفونها بعد احتضارات الجسد في تهويماته القصوى.. وتسخر من الذي يقول لها إنه لم يغمض له جفن.. وتدعي أنها تسمع هدير القصف ودبيب النمل وأصوات الأحياء والأموات، بأذنها اليسرى التي لم يتسرب العطب إليها!! ومع ذلك فإنها تنام لأنها قوية (تكوّر قبضتيها وتثني ساعديها وتنفخ عضلاتها، لتثبت صحة ذلك). كما أنها لا تعترف

بالموت. أمها وأبوها وأختها)، ينتهزون نومها، يأتون على رؤوس أصابعهم، وهم يلبسون كلسات النايلون في رؤوسهم ويغطون وجوههم. يقبلون جبينها، ويغطونها خوفاً عليها من البرد.

كما أن فشخاتها لا تتعب من الصعود والنزول على درج العمارة، بخفة ذوات الأجنحة تجتاز السبعين درجة. في نزولها تلملم أكياس القمامة وتحملها إلى الحاوية، وعندما اختفت زينب. حردت عن جمع القمامة. فشخت عن بقايا الجرذ، ومدّت رقبتها إلى كوّتها، خيّل إليها أنها رأت شبح زينب يرقص ويتلوى على السرير! ارتفع صوتها بنبرات حادة ومتقطعة، علّ زينب تردّ عليها. كانت الغرفة تتصاعد منها روائح العفونة والبول والعتمة. شدّت قبضة الباب ولبطته، صرّ خشبه المقروض من حواشيه، وطقطق قفله الإنكليزي.

بصقت على سيارة (البي إم)، وجالت على خزانات المياه، كانت فارغة، وديدان صغيرة تلتصق بقعرها وتتلوى من العطش. أنَّت كجرذ صغير نهنهه الوجع.

في تلك الأثناء وصل موزع الجرائد على عجلته، ناولها جريدة كانت ترسل إلى نوح، حتى بعد ذهابه إلى كندا، في أعقاب منعه من الكتابة عن النمل والصراصير والقوارض:

(ابن المقفع لقِّم أعضاءَه مشوية، وداعاً يا أمي.. هللت أم نوح لسفر وحيدها الذي كانت تخاف عليه من نسمة الهواء).

لم تصعد فصيحة إلى أم نوح مباشرة، ربما لا زالت نائمة. تصفحت الجريدة على شرفتها، ولم تعثر على صورة زينب!! كانت فصيحة تتظاهر دائماً بأنها تعرف القراءةَ والكتابة، بالعربية والإنكليزية والفرنسية، وأن صور الناس المطبوعة على صفحات الجرائد، تعرف أصحابهم بشحمهم ولحمهم، أكلت وشربت ورقصت معهم، حتى ريغان وغورباتشوف.. فهي جاءَت وإياهم من رحم واحد..

قطرات من الماء هبطت من شرفة أم نوح إلى شرفة فصيحة، بللت شعرها، وثقبت صورة ريغان في الجريدة. بعد تبلغها رسالة الماء الصباحية، تصعد إليها، إنها لم ترَ صورة زينب في الجريدة، وأنينها يتماوج مع حركاتها بإيقاع جنائزي (حكّت عورتها من فوق بنطالها، وكانت تعني زينب).

فردت أم نوح الجريدة على صفحة الوفيات، وترحمت عليهم، ثم على صفحة العملات الأجنبية.. انتابها سعال متواصل رافقه ارتفاع في درجة حرارتها. لعنت جميلة التي أشارت عليها استبدال دولاراتها بالليرة اللبنانية، زاعمة لها، أن قوتها الشرائية، ستعود إلى سابق عهدها التي كانت لها قبل الحرب. ومنذ أن عملت أم نوح بنصيحتها، أصبحت حرارتها مرتبطة بحرارة الدولار. (عندما صرفت دولاراتها الألفين، كان سعر الدولار ثلاثمائة وستين ليرة، وفي أقل من شهر ارتفع ثمنه إلى خمسمائة وخمسين ليرة. هذه الخسارة طرحتها مريضة في الفراش، وحمى الدولار والسعال، تشعل رئتيها).

ناولتها فصيحة "نقّاخة" الأوكسجين، ومسحت لها وجهها بالماء. هدأ سعالها، وقالت لها:

زينب "مشحرة".

ومسحت خدها بسبابتها دلالة على السواد.

أبو أرز هو الذي وشى بها.

ورسمت وتداً غليظاً بيدها.

-١٥-

هدأ الوضع الأمني نسبياً، ورخص الدولار.

بعد انحسار حرب الراجمات، بدأت تتجلي قضية هروب السجناء من سجن بيروت، وما كتبته الصحف، وبثته الإذاعات، أكدّ براءةَ زينب وابن عمها عبد الله من عملية الفرار الجماعي. لا زينب.. ولا ابن عمها، كانا يعرفان أحداً من المسلّحين الملتحين، الذين تسللوا إلى السجن وقتلوا حراسه، اقتحموا أبوابه، وأطلقوا سراح السجناء البالغ عددهم /١٨٩/ سجينا. فالظلام الدامس، وغياب الأنوار الكاشفة عن محيط السجن، سهلت عملية الهروب، وقوات الأمن عبر تسيير دورياتها تمكنت من اعتقال /١٠٣/ من الفارين على طريق الأوزاعي، و/٧٨/ اعتقلوا في شوارع بيروت، وواحد كان مختبئا في سرير زينب!!

نُسب هروب السجناء إلى أقرباء قابيل، قاتل سائق الشاحنة البعلبكي، الذي نصب له كميناً في الأحراش.. قتله وسلبه نقوده وساعة يده، وجرّه الطمع

إلى سرقة شاحنته، وهو لا يعرف قيادة الشاحنات. بعدما قطع جثة السائق ودفنها في الأحراش. لم يسمع النداء التاريخي:

(يا قابيل كن خائفاً أبداً، لا ترى أحداً إلا وخفت أن يقتلك).

غسل يديه من الدم، بدل ملابسه، وذهب إلى صديقه عبد الله في حلكة الليل. سرقه من نومه، وساقه إلى مكان الشاحنة. لم يبد عبد الله أية مقاومة كان تعباً ومجفولاً، وتبعه كأنه مسبوع ببول الغيلان.

طلب منه قابيل قيادة الشاحنة إلى مكان مهجور، على أن يتحاشى المرور بالحواجز المسلحة. قاد عبد الله الشاحنة في طريق وعرة، ملأى بالمطبات والمهاوير. توقف في دغل بعيد عن مكان وقوع الجريمة. وقبل أن يمضي دس قابيل في جيبه عشرة آلاف ليرة، وحذره من طول اللسان:

(إياك أن تفتح فمك أمام أي مخلوق حتى.. زوجتك).

هام عبد الله في الأحراش، والنجوم تنير دربه، والأشجار الجليلة في وقوفها وصمتها.. شاهدة على خطواته وأفعاله،ما خطر بباله أبداً أن وراء هذا الأمر جريمة قتل،وحسب أن قابيل أقدم على سرقة الشاحنة فقط.. وعلل هذه السرقة بضيق ذات اليد والجوع، ولكنه جائع أيضاً ولا يتجرأ أن يمد يده لرغيف خبز يخصّ غيره!! لذلك لم يبتهج بالخبز واللحم والخضار والفاكهة التي حملها معه إلى بيته،كان جثة يتفصد منها عرق بارد،لاذ بالصمت بينما كانت زوجته تدعو لقابيل بطول العمر ووفرة الأرزاق، وأولاده يتقافزون من حوله ويتخاطفون الموز والتفاح.

بعد أيام قليلة نبشت الكلاب الجائعة جثة السائق، وقبض على قابيل الذي باع الشاحنة بعد أن غيّر نمرتها ولونها، أثناء التحقيق معه وشى بعبد الله،وقال عنه إنه شريكه في الجريمة.. وعبد الله لا يقوى على قتل صرصار،الحرب اغتصبت قواه ،وأمثاله لا يملكون الجرأة والفصاحة للدفاع عن أنفسهم:

السجن الصغير أرحم من الغاب المنهوب يا عبد الله.

ولاذ بالصمت، ولم ينف التهمة عنه، لأنهم لن يصدقوه. لماذا ينفي التهمة؟ هو مذنب أيضاً، وكان حريّاً به أن لا ينقاد لقابيل، وإذا كان خوفه قد

منعه من هذا، كان يجب أن يخبر الجهات الأمنية ويدلها على مكان الشاحنة، أيخون صديقه قابيل ويستمر جائعاً، والقتل الجماعي صار عادة يومية، المقتولون تحوّلوا إلى أرقام من فيض عددهم وأسمائهم؟ لو أن جياع العالم تحولوا إلى لصوص وقتلة،لرمى الأغنياء ثرواتهم إلى البحر دون أن يتصدقوا بقرش منها على الفقراء.. وغرق العالم في ظلمة التخلف والبؤس.

قرأت أم نوح تفاصيل الجريمة في الجريدة، صعقت زينب لدى سماعها الخبر، ذهبت إلى السجن وهي تسح بالدمع، وأقسمت أمام الحراس، أن عبد الله مقتول هو الآخر، والمقتول لا قدرة له على القتل، واجهت عبد الله من خلف القضبان، طلّتها الحانية أدخلت الأمان إلى نفسه.. كأن غيمة بيضاء حطت على رأسه، قالت له:

(ولا يهمك يا ابن عمي أعرف أنك برئ).

ولأن القرش الأبيض لليوم الأسود أخرجت زينب نقودها من مكمنها الرطب وأعطتها لأبي أرز كي يعمل اللازم لإنقاذ عبد الله.

هاجم المسلحون السجن، والتصق عبد الله بزنزانته، فما كان من المسلحين إلّا أن أشهروا أسلحتهم في وجهه، وهددوه بالقتل إن هو لم يحذ حذو الآخرين ويطلق قدميه للريح. أذعن لتهديداتهم، وهرب. قفّة جلد وعظام وهموم، تتحسس طريق الخلاص على ضوء مشاعر ينوس في هبوب الخوف.

في الثانية بعد منتصف الليل نقر باب زينب.. بارتعاش شديد. منذ سرقة سيارة جميلة، صارت زينب تسمع مثل الخلد، وخمنت في البداية، صوت خربشة جرذ. ولمّا توالى أنين الأصابع على خشب الباب، تلكأت في الاستجابة، ربما كان أحد سكان العمارة قد نسي مفتاحه ويريد أن يستعير مفتاحها! شقت الباب ودهشت:

(ما الذي جاء بك في مثل هذه الساعة يا معترّ؟).

أطبقت شفاهها حتى لا تثير ريبة الليل، وخبأت عبد الله في السرير، وغطته بالشرشف إلى ما فوق رأسه، ثم تذكرت، وسألته إذا كان جائعاً، ولفت له "عروس زيت وزعتر) أكلها وهو تحت الشرشف. استنفرت زينب قواها، وقفت

وراء الباب، وكان صوت عبد الله الواهن بالكاد يصل إليها، لأنها كانت مسكونة بأصوات الإدانة والفضيحة.

في الصباح سيكتشف الجيران أنها تؤوي في فراشها رجلاً هارباً من العدالة، لا يوجد مخبأ أخر غير السرير، فالمطبخ مشترك مع المرحاض، ضيق ومحشور، والفراغ الوحيد الموجود فيه تحتله جرة الغاز.

طلب منها عبد الله أن تحضر له بطاقته الشخصية من الجبل، لأنه دونها لا يستطيع الذهاب إلى أي مكان.

بين النور والظلام رمشة عين..

عما قليل سيبزغ الفجر،وتصهل الأفواه بما تنضح به دواخلها.

الزمن الذي يفصل زينب عن الفجر.. دهر طويل

كسيح الخطا:

رجل في سريرك يا زينب!!يا عارك وخراب ديارك!الديار خربة والعار يجللها، ممَّ تخافين يا امرأة؟ اشتعلت السماء بنور فوسفوري، ورقصت الأرض، وقعت البضاعة عن الرفوف، وتشظت القناني. لم تتحرك زينب وبقيت كالصنم واقفة في مكانها، وتمنت في تلك اللحظة أن تسقط قذيفة على غرفتها وتمحق وجودها مع عبد الله. وجودهما أو عدمه.. سيان، لا يقدم ولا يؤخر شروق الشمس ودوران الكرة الأرضية.

كان كاحلها ينبض بالألم من طول الوقوف، وما تجرأت أبداً على الجلوس على حافة السرير حتى لاتلبس، ذنوبها.

لاحظت أن الشرشف يخفق صعوداً ونزولاً، سحبت الوسادة من تحت رأس عبد الله، ووضعتها فوق أنفاسه كي تخفف من حدة لهاثه.

لحظة هاربة من جحيم الترقب، كشفت الستر عن بصيرتها. هدأ روعها، وعاد عقلها إلى مكانه تقريباً. خرجت من غرفتها بهدوء، وأقفلت بابها بالمفتاح، ولكنها نسيت إسدال ستائر كوتيها. صعدت إلى أم نوح التي قالت لها بعد أن استمعت إلى تفاصيل ورطتها:

ولا يهمك يا زينب. دعي ابن عمك يصعد إلي، واعتبريه ضيفي ريثما نحضر له تذكرة نفوسه من القرية.

ثم رفعت سماعة الهاتف وتحدثت مع أبي أرز مطولاً، وقالت له زينب "مشحرة" يجب أن نساعدها، واستحثت همته ونخوته وطلبت منه أن يحضر لعبد الله تذكرة نفوسه.

مياه باردة قرقرت مهجة زينب التي كانت تتفحم ببطء، هجمت على أم نوح وأغرقتها بالقبل، ومن رائحة اليباس في أنفاسها، هجم السعال على أم نوح، فكّت زينب حصارها العاطفي، وسقتها ماء الزهر.

-١٦-

تقدمت أم أرز من إحدى الكوتين، وقد سيطر عليها فضول لجوج. ركزت نظراتها على السرير الذي كان ينبض مثل قلب خائف، رفعت حاجبها وغمزت بعينها، وتنحنحت.

إحم.. إحم.

فوضى من الاضطراب انداحت في السرير، وكاد عبد الله أن يسقط على الأرض. ضغط على نفسه بقوة، كي لا تنفلت سوائله المحصورة.

وصلت زينب في تلك اللحظة وقالت لها، صباح الخير، واعتذرت عن تقديم "المتّة" لها.

قالت لها أم أرز بنبرة آمرة مزقت أعصابها، إنها تريد شيئاً بارداً يرطب حلقها الجاف (كانت تتعمد اللعب بأعصاب زينب.. لفضحها، وإماطة اللثام عن العيب الذي ينام في سريرها).

تغوط عبد الله، وبال، عندما سمع لغط وفرملة سيارة لاندروفر. خرج الناس إلى شرفاتهم، وتجمهر المارون حول سيارة الرانج التي ترجل منها مسلّحان:

يوم القيامة تخرج الأفاعي والعقارب من فروج الزانيات.. وتطل الديدان من أثدائهن.

مهما فعل بنا ربنا قليل..

لولا هذا.. ما وقعت الحرب.

وزينب مشبوحة كذبيحة في ساحة الرجم، ولولا فصيحة التي كانت تدفع عنها الحصار والركلات، وصراخ أم نوح من شرفتها، لكانت هرستها الأقدام، وكدمتها الرضوض.

لبط أحد الرجلين الباب لبطة قوية وصاعقة أطاحت بدرفته على السرير، ونوفر الدم من أنف عبد الله، مسك به الرجلان وحملاه من تحت إبطيه إلى سيارة الرانج وهو يسحّ بمفرزاته.

صرخ الجميع:

تحيا العدالة..

أعادت زينب مع فصيحة درفة بابها إلى مكانها. دربسته من الداخل، وتوحدت مع نسيجها.. وفي أول الغسق نفرت كدمعة، وذابت في الهجير، والنسوة المتجمهرات على الشرفات منهمكات في الحديث عن الصراصير الشقراء التي قدمت إلى الزقاق مع قوات الناتو، والديمول الوطني الناجع في القضاء عليها.

انتهت

بيروت ١٩٩٠

بكاء الحواس

الحليب أبيض والفل والياسمين والثلج.

ثوب العروس أبيض.. والكفن.

الغيوم الصيفية، بيضاء، وعبق الوديان وأجنحة الملائكة وحيطان بيت جديّ.

ملاحف اللحف المرتبة في (اليوك) وشروال جدي الداخلي و(بشنوقة) جدتي، بيضاء، وبياضها يشوبه الأزرق من جراء تفويحها ب (النيلة).

أقماط سريري المكسورة الطيّات، بيضاء، وبياضها أنحله الاصفرار من طول الخباء:

النور منتهى البياض، مرآته، ورحيقه.

كل هذا الكون الغارق في طهارة نقية من فبركة الحواس التي تهولها وتلعثمها العتمة، غابت عني كأنني فحمة الشجن... وكأنني لا أعرفه، وما تسرَّبت انبهاراته إلى عيني أبداً، عندما طلبت مني معلمتي وأنا في الصف الأول ابتدائي، أن أذكر لها مثالاً عن البياض – كان درسنا يومها عن الألوان –

قلت لها وأنا أغمض وأتذكر:

رِجْل (قدم) أبي أكثر بياضاً من وجهي!

ابتسمت معلمتي.. ولم تسخر مني أبداً، أو تربكني بتعقيدات البياض.

الكيمونو الأخضر

ماتت أمي، وبقي كيمونوها المخملي الأخضر معلقاً في الخزانة، وكانت – رحمها الله – تدلّله أكثر مني:

أمي مثل كل الناس الذين يحرصون على أشيائهم الخاصة، ويتعلقون بها كتعويذة يتحصنون بها ضد الزمن.

في أيام البرد والصقيع، كانت أمي تلبس كيموناها، وتتبختر كعروس في ليلة جلوتها... وتبتهج روحها بالخضرة. وأنا كنت أسرق فرحي الطفولي من ملمسه، أضع كفّي الصغيرة فوقه، فتتزحلق على نعومته كالماء.

وفي أيام الشيخوخة وأوجاعها المديدة. كانت أمي ترتديه فوق قميص نومها كلما جاءَنا ضيوف أكابر.

عمر الكيمونو، من عمر الشباب. خيوطه تزخم برائحة الذكريات المعتقة كخمر الخوابي، ومن كثرة دلال أمي له، وحرصها على شبابه، بقي جديد (خلنج) من إبرته، لم يتجعد مثل أمي، ولونه ظلّ زاهيا. أصبح جزءاً من أمي ومقترناً بها أكثر من أبي، لا أتخيله دون وجود أمي بداخله، وكنت متأكدة، أنها إذا رحلت فإن كيموناها سيلحق بها أينما ذهبت لأنه لا يطيق فراقها نظراً للعشرة الطويلة بينهما. ولمّا جاء أجلها خاب أملي، رحلت أمي دونه، وبقي معلقاً في الخزانة.

رضخت للتقاليد السائدة في قريتي، جمعت ملابس أمي بعد وفاتها، ووزعتها على الفقراء والمحتاجين – استثنيت الكيمونو – وقلت، لأدعه ذكرى من رائحتها!

لبسته مرة في موسم البرد، وأثناء مروري قرب المدفأة، شفطته الحرارة.. واحترق!!

طقوس الجسد

عبد الله رجل ستّيني يبيع "مناقيش" الزعتر والكشك والجبن والقاورمة، والسبانخ. يصطلي بنار فرنه.. وكأن سعيره لا يكفيه!! يشرب النار إلى منتهى احتراقه، وينتشي بشبابه الذي يلاحقه بضراوة:

فيض من الصحة والعافية، ولبطته لا تزال تهدّ الحائط.

قبل الحرب، وهجمة الدولار. كان هذا العبد الله في وفاق مع نفسه وانسجام تام مع كونه، حقله وكديشه وبقرته ومحراثه ودجاجاته. يربط محراثه إلى كديشه، ويفلح الأرض، ينقيها من طحالبها، ويشتلها بغراسه. يقيلل تحت دالية، أو شجرة سنديان، يفرش زوادته (زيت زيتون وبندورة وبصل .. وبخبطة واحدة من قبضته يهرس فحل البصل). يأكل رغيفين من خبز الصاج، ينكب بوجهه على النبع.. ويغب الماء.. ويسكر بالميجانا والعتابا.

منذ أصابت لعنة الدولار ضيعته، انقلب كل شيء رأساً على عقب. باع كديشه وطرشه وذبح دجاجاته، اشترى سيارة، وافتتح فرنا، وأهمل حقله، واصطلى بالنار، نار الفرن ونار الدولار، ونار الجسد، يحمل الراحة الخشبية المحملة بأرغفة العجين والأدام، يسطحها فوق أرض الفرن بشبق الولهان، ينفرج فمه وجسده عن زخم لهطول يندّيه. يقلّب "مناقيشه" حتى يبقبق وسطها، وتتلوّن حواشيها كأجنحة الدبور. يتذمّر جسده بنشيد مبهم لعقوق بلا روادع.

في الواحدة ظهراً يغلق فرنه، يستحم ويهدأ نشيج الدم في عروقه إلى حين. بحلول المساء يذهب إلى محل الفيديو، يستأجر أفلاماً من النوع "الثقيل"، يدسها في جيوبه وعبّه، ويتورَّم من الانتفاخ! وفي حلكة الليل حيث يعلو نباح الكلاب ومواء القطط، يكون عبد الله غارقاً حتى شوشته مع بطل الفيلم وهو يلهث مع شاشة التلفاز ويغبشها!

وعبيدة زوجته، تغط بشخيرها في الغرفة المجاورة!

حكمة جدي التي ذهبت مثلاً..

"أزرق وغميق يا عباس"، قول نسب إلى جدي داوود منذ زمن لا أعيه، وذهب مثلاً للدلالة على لون البحر، وعمقه. تنبض به الشفاه، وتتفكه به القلوب.. كلما ضاق فضاء الأغنية والابتسامات.

بعد حرب "السفر برلك"، شحّت الأرزاق، تشققت الخوابي، ونفق الطرش والزرع والقطط والكلاب (جدّتي أكلت قطتها.. وحذت حذوها النساء، وطبخن يخنة بالبطاطا على لحم القطط، مدعيات أنه لحم أرانب).

ضاقت البلاد بأهلها، وكانت تلفظهم جثثاً مكومة في "القناية" التي جفّت مياهها، ويبس طميها، نساء في مقتبل العمر والشباب. ينزعن سراويلهن ويقايضن على عفّتهن وشرفهن بحفنة من الشعير أو الحنطة.. أو كسرة خبز.. وجدي داوود يعصره الألم من رجولته المهانة لأن "العين بصيرة واليد قصيرة"، يكتفي بإلقاء عباءَته على إحداهنّ، ويدعو لهن بالستر. في ليلة ليلاء، عزم جدي داوود مع جدي عباس على السفر إلى فنزويلا، يحدوهما حلم الشبع، ومرقد العنزة المنتظر. وفي ساحة القرية المتربة، المحلّقة بأشجار التين والصبار، وأمام دكان عمي عجاج الحلاق، الذي كان يقلع الأضراس بالكمّاشة، تجمع أهالي القرية لوداع المسافرين، عانقوهما، وذرفوا دموع الفراق، وألّحوا عليهما أن يكاتباهم، ولا يقطعا رسائلهما كما يفعل كل من يسافر إلى "بلاد بره".

جدي عباس كان أميّاً، وجدي داوود بالكاد كان يفك الحرف:

- أطبعوا لنا شفاهكم على المكاتيب إن كنتم بخير.. وبصماتكم إذا عضتكم الغربة وعصركم الضيم.

موكب السفر بمؤونته الشحيحة، وصرره المرقعة، انطلق إلى بيروت سيراً على الأقدام... والمودعون يخفون دهشتهم وفضولهم من قصبة جدي داوود التي كان يجرّها خلفه، وطولها أكثر من أربعة أمتار!! ترى لماذا يأخذ داوود قصبة معه إلى فنزويلا ؟

كثرة الغلبة طبع عليها الإنسان، لأنها السبيل إلى المعرفة... واحتاروا بأمر القصبة!

عمي عجاج أثلج صدورهم وأرضى فضولهم عندما همس لهم.. وجدي يبارحهم ويدير لهم قفاه على طريق السفر:

داوود سيصنع من قصبته نايات العتابا والميجانا، ويبيعها في فنزويلا ويجني الأموال الطائلة، لأن الإفرنج لم يتوصلوا بعد إلى اختراع النايات! صدقوه، وأثنوا على ذكاء جدي وتفكيره العملي.

في طريق الشوك والمشقّة، وجدي عباس يباعد نبات العلّيق والبلّان والجربان عن خطواته، وجدي داوود يلحق به وهو يداري قصبته من التشظي والانكسار، قال له عباس:

في فنزويلا لابد من وجود قصبة مثل قصبتك! كأن داوود لم يسمعه، وشفاهه مطبقة على سرّه الذي سيفصح عنه في حينه، ويسجل بموجبه براءَة اختراع.. مقترنة باسمه!

بعد ثلاث ساعات من السير المتواصل، وصل المسافران إلى الميناء:

جدي عباس كان على عجلة من أمره، سأل عن "البابور" المسافر إلى فنزويلا، صعد إليه وهو يغلي من الغيظ من داوود وقصبته الملعونة... وداوود كان سارحاً بأبصاره ومشدوهاً بالبحر، لونه الأزرق، وأفقه الواسع، وأمواجه المتدافعة التي كانت تتكسر على رصيف الميناء وتغمره بالماء.

اغتنم برهة انحسار الموج وتقدم إلى إفريز الرصيف، وبلمحة خاطفة شك قصبته في البحر.

لم تصل القصبة إلى قعره!!

وصرخ جدي من صميمه كنيوتن:

- "أزرق وغميق يا عباس"

كان عمق البحر أطول من قصبته..

نادى على عباس، وضاع صوته في البحر. قفل راجعاً إلى قريته وهو يحسد نفسه على حنكته ونور بصيرته، التي جنبته أهوال البحر والاختناق بمياهه المالحة التي لا قرار لعمقها.. ويرثي لحال صديق عمره عباس، الذي سبقه إلى "البابور، وسافر وحيداً دون أن يترك له فرصة لتحذيره من "الأزرق والغميق":

- الله يرحمك يا عباس..

أبطال من ملح

بعد أن استنكر القاضي هزيمتها وانكسارها، توسدت شخوصي جرحها، ونامت على أوراقي تحدوها أحلام البطولة:

- الأحلام المهربة طفل غير شرعي لضحك ماجن..

- الرماح لا تكسرها العواصف.. ولا تهزها الريح!!

والأحلام سمسار الأفراح الآتية، والرماح حديد وقسوة، وهي من لحم ودم وأحلام.. تخطئ أكثر مما تصيب، لنقص فادح في هرمون التكتيك..

مسكوبة على أوراقي كدموع مهاجرة في رمد الهجير، ومزخومة بأنفاس من خيوط الحكاية. رماح من ملح ورمل وزبد، ترتجّ بين خيوط الفجر ونزيف الشفق.

حياة وعبد الله يخطئان، وأخطاؤهما تلثم ضحكهما المرجوس.

حياة تلبس أحلامها على قفاها، مثل فساتينها، وعبد الله ينتعل عقله بالمقلوب، مثل حذائه. كما أنهما لا يميّزان بين نجوم الليل ونجوم الظهيرة. يفعلان ذلك دون قصد أو سوء نيّة لأنهما مسكونان بالركض إلى حتفها.

عقب كل رضّة قلب، أو عضة جوع، أو جرح كبرياء، ينكفئان على فشلهما، ويجهشان باللوم على بعضهما، وتنأى مسافات القُبل.

أحياناً، يتواريان عن جسديهما، وينفلتان من جحيم الرغبات إلى حلم يضجّ بكينونتهما الصاخبة.

ومن يخطئ دائماً، يلبس الإثم والعار. لا خلل أو عيب فيه سوى أنه يصدق..

قالت حياة: أنا جائعة.

وقبل أن يهم عبد الله بانتزاع قلبه ليقدمه لها. رسمتُ رغيفاً خرج لتوّه من التنور، تفوح منه رائحة القمح ولون الشمس. مدّ عبد الله يده لأخذ الرغيف، قال الخباز:

أعطني ثمنه..

(وأنا كنت قد نسيت أن أضع نقوداً في جيب عبد الله، لأن أول الشهر كان على الأبواب: وهو لم يقبض معاشه بعد).

دارت حياة قفاها لعبد الله، ونامت جائعة:

ذهب عبد الله في منامه إلى البحر، واصطاد سمكة، عانقته حياة وزرعته بالقبل، وقالت:

الرجل الرجل يذهب إلى البحر ويأتي بسمكة. انتشى عبد الله وشعر بالفخر، وانتفخت أوداج روحه. شكر البحر الذي قدم له هذه الهدية التي لا تقدر بمال.

بينما كانت حياة تنظف السمكة وتنزع أحشاءها، قفز خاتم السلطان من بين أصابعها، وكرج مع الماء. نطّ عبد الله إليه والتقطه من حلاوة الروح قبل أن يسقط في البئر. مسحه بذيل قميصه:

رقصا معاً على إيقاع حلم دنا قطافه..

ذهب عبد الله إلى السلطان، وكان لا يزال على هيئته الفوضوية. ملابس مبقّعة بالملح، وشعر مشطته أصابع الريح كما يحلو لها. ولأنه لا يحسن فن الديباجة والحديث، وهيئته لا تدل على أفعاله، طرده جند السلطان قبل أن يتفوه بكلمة، بركلة على قفاه، جعلته ينهض من نومه مذعوراً وهو يزرع قبضته في فمه، كي لا ينفلت صراخه ويرعب حياة.

بحث في جيوبه عن الخاتم، ولم يفطن أنه أسقطه تحت لسانه عندما زرع قبضة في فمه.

كان الرغيف لا يزال على مرمى يديه:

يده اليمنى مطوية على قفاه، واليسرى مفلوشة على فمه. حرامي اقتحم دفتري، كان عاري الوجه ولا يشبه زورو، يحمل مسدساً في كل يد، وخصره مدروز بالخرطوش. تسلل هذا الحرامي في اللحظة التي كنت أفكر فيها بالخاتم، وكيف استدرج عبد الله للنطق كي يكتشف مكانه.

سبقني الحرامي، وشهر مسدساته في وجهي، سرق كل الأرغفة، صرخ عبد الله، طار الخاتم على حبال صوته، ووقع في خرج الحرامي.

قال عبد الله: أنا فاشل ومهزوم.

وقالت حياة: أنا مكسورة الخاطر.

في الليل، وبينما كنت ألعن الحرامي في سرّي، وألوم نفسي على الورطة الشنيعة التي أوقعت بها أبطالي، وأفكر بخلاص مشرف لهم. رسمت حياة هودجاً محفوفاً بالحرير والرقى والتعاويذ والزغاريد، وعبد الله رسم خيمة وقطيعاً من الحملان.

هربا من دفتري، شدا قامتيهما. فتحت حياة خزانتي، لبست ثوب عرسي وتزينت بأقراطي وعقودي وأساوري، كحلت عينيها، ورفعت شعرها بإكليلي، وعبد الله ارتدى طقم عرس زوجي المرحوم، وعقد ربطة عنقه. ولم ينس أن يضع منديلاً قرمزياً في جيب سترته الصغير.

صارت حياة تشبهني..

وعبد الله كأنه زوجي..

فتحا الباب، وانسلا كعاشقين.

سار الركب على حداء الريح والرمل وأجراس القطيع، والصحراء كانت تفرش أهدابها وتظلله من الحريق. في مضارب السراب الوامضة كبحيرات من الفضّة، ترجل الركب عن محمله.. وهدأت أجراس القطيع.

وفي خيمة بحجم الكون، وعلى جلود دافئة وبسط ملوّنة، هدر العشق بحاراً من الأشواق "في غمرة انعتاقه إلى الموت، نسي عبد الله أن يضع أرسنة لأعناق القطيع، كما أنه نسي أن يرسم لها اصطبلاً".

تاه القطيع، وتبعثر رنين أجراسه في فلاءات الرمل، أنجبت حياة صبياً بعد آلام مخاض عسيرة. حبل السرة كان ملتصقاً برقبة الصبي، وملفوفاً حولها "كالشال" طرفه المفتوح يتدلى كمزمار على صدره، ويعزف ألحاناً عذبة كلما اختبأت فيه الريح، وعندما كبر صار يتأرجح به على حلبات السيرك وفي الأعياد، ينادي على أمه.. كلما ضاق عليه الخناق.

نهضت في الصباح، أخرجت دفتري من تحت وسادتي، كانت تلوّن صفحاته بقعة دم متناثرة الشموس.

آدم لا يحب البرتقال

لأنني البنت الأولى في أسرة عبد الباسط، سمّوني "بداية"، حملت اسمي بكل معانيه المتناقضة، وذبحها اليومي.. إلى ذلك الوقت الذي تزوجت فيه من "مهدي".

كنت في الخامسة والثلاثين، وحتى بعد مرور عشرة أعوام على زواجي، لم أنجب خلالها ولداً ولا بنتاً ولا عُقلة الأصبع..

بقيت بداية.. مجرد مشروع لم يكلل بخفقة ولادة. وأختي التي جاءَت بعدي بثلاثة بطون، سمّوها، "كفى"، وزجروا بطن أمي بشكل غير مباشر ليتوقف عن إنجاب "الأناتي".

بيني وبين "كفى"، بدرية وروحية ورقية، وإذا كان لا يد للإنسان في اختيار ولادته واسمه وموته، فقد لبست اسمي كتعويذة تحصنني وحدي. تلحّفت به كأنه قدري.. خوفاً من الوصول للنهايات قبل الشروع بأبجدية المطر، كما يحدث لنا غالباً نحن "الأناتي".

تكرّ الأيام والشهور والأعوام.

إبر النحل في أوكاري تمتص رحيقي وتبصقه بدمي. أضجّ وحيدة، ويبحّ خضابي..

أزرقّ، و"تنبق" شروش فوق جلدي كأنها تضاريس اليباس.

أنا "بداية"، الآتية من خارج الزمان والمكان على عربة اللذة السوداء، ببرودة الثلج تقدّد روحي، تحرقني الحمّى، ويبقبق أديمي.. بالبثور. ألجم نيراني بالرقص، وأطفح بالتقوى.. لا أنسى اسمي الذي أجهل أبجدياته وأسراره المهموسة والمرموزة.

شقيقاتي، بدرية وروحية ورقية، نسخ مكررة عن جدتي، تزوجن قبلي وأنجبن البنين والبنات، كرجن من رحم أمي كما يكرج الماء من الصنبور. أنا عبدّت طريق الخصب، وفي التعبيد مكابدة.. ومشقّة.

شقيقاتي تقيات ورعات، تسترن بالحجاب قبل العاشرة، وما وقع نظر محرم على أناملهن الطرية البياض، فهنّ الأبهى والأجمل... ولا يكتمل جمال البنت في قريتي.. إلّا بالحشمة! مع أن "كفى" شطافة البطون كما تقول عنها أمي، فهي أجمل مني، لبست اسمها تحت جلبابها.. وكفّت عن التساؤلات.

أنا لا أشبه أحداً البتة في أسرة عبد الباسط. داكنة السمرة، عظمي خشن مثل عظم الصبيان، وشعري ينداح بالموج عندما أشطفه بالماء. كما أن هناك شامة غامقة تشبه شامة البرتقالة فوق شفتي، والشامة التي على خدي أكبر منها، "وشاماتي الباقية يصعب عليّ عدها... كأنني حقل برتقال.

مع ذلك كانت أمي تقول، إن الله أراد يخلقني ذكراً، ولكنه غيّر رأيه في اللحظة الأخيرة، وكنت "بداية"، بدلاً من "عمار" الذي يكنّى به أبي وأمي.. لم يأت عمار، وبقي أبي "أبو عمار"، وأمي "أم عمار"!!

ونحن "الأناتي" بعدد أصابع الكف المفلوجة في عين الشيطان..

بعد انجاب "كفى"، حرد رحم أمي من الزجر والتعب، وبار خصبه. خلال أعوام خمسة، لم يرتح من ثقل الأجنّة. ما أن يفرغ حمله، إلّا ويملؤه أبي من جديد بعد الأربعين مباشرة، معذور أبي في لذته واستعجاله المنهوم. كان مشتاقاً لعمّار، لنعمر الأسرة بوجوده.. ما همه إن تعب بطن أمي ؟ وأنا أحزن من أجلهما، وأتمنى أن يحقق الله رغبتهما ويحوّلني إلى ذكر.. أصبح "عماراً" بدلاً من "بداية"، وأملأ البيت ضجيجاً وفوضى، حتى ولو كانت هذه الأمنية ستلغي حقول البرتقال في جسدي "لا علاقة البتة لفرويد بهذا".

إذا كانت البنت جميلة يقولون عنها "نصف مصيبة"، وإذا كانت دميمة، فهي المصائب كلها!!

ينْدفني الثلج من أطرافي.. وتعروني رعشة المحتضرين، وأنا أنظر إلى أعوامي التي كدّستها خلفي، لم أقتنع بالعنوسة والجدب! نداء الأمومة لم ينقطع سيله الجارف، وإن سلك مسار السماء عبر جسدي. عيون الرجال كانت عاجزة عن اختراق حجبي وجدراني السميكة وبراقعي المدلهمّة.. لقطف برتقالي. قبعت في البيت مع "كفى"، وانقطعنا عما هو خارج الجدران. تقوانا وعفافنا، أثمرا عن "مهدي"، بعد زمن قصير جاءَنا خاطباً لأختي "كفى". كنت في الخامسة والثلاثين، و"كفى" في الثلاثين! اغتم قلبي واسودت الدنيا في عيني. كان مهدي في الأربعين، ويناسبني أكثر. تأججت مشاعري كالجمر تحت الرماد... وتورمت دون أن أبكي! "مهدي" رجل تقي وورع، يفيض وقاراً وطيبة. صبوح الوجه، متوسط القامة، ويبدو أصغر من أعوامه الأربعين.

ما صدقت أذني عندما قالت "كفى" لأبي، إن "مهدي" مناسب لأختي "بداية" أكثر مني. وأضافت بإيمان معتق "أنا نذرت نفسي للشهادة.."

كأنما "كفى" قد قرأتني! تفتحت حقول البرتقال في جسدي، وكحّل شذاها دمعي. هطلت عطورها الحبيسة كالسواقي من شاهق الفرح.

قال أبي لمهدي، يؤسفني أن أردك خائباً، أنت رجل طيب وابن حلال. "كفى" عزفت عن الزواج، وابنتي "بداية" تليق بك أكثر منها، خذها جارية لك.

دخلت على أبي و"مهدي" أحمل صينية القهوة، كنت أرتعش من الخجل، دلقت فنجان القهوة على سروال "مهدي" من شدة اضطرابي. تمنيت أن تنشق الأرض وتبتلعني لأتحاشى نظرات أبي التي كانت تقدح غضباً. أسرعت وبللت طرف المنشفة بالماء، ناولتها إلى "مهدي" ليزيل القهوة عن سرواله، ولو لم يكن عيباً.. لفعلت ذلك بنفسي.

قهوة حلوة سيزول أثرها حالاً، قال أبي.

وطلب مني أن أجلس بجانبه. أطرقت وكلي عيون تجوس وتجوب الظواهر والخفايا. "راداراتي" المفرطة الحساسية نقلت إلي ذبذبات متناقضة، حائرة مضطربة. فتح "مهدي" فمه وقال إنه لا يمانع في زواجه منيّ، على شرط أن لا تكون هناك علاقة زوجية بيننا، وإنما علاقة أخوية، وحجته في ذلك، أنه

في سنواته الماضية، حيث أعمى الجهل عينيه، ارتكب "السبعة وذمتها"، وما زواجه الأخوي.. إلّا انتقام من غرائزه وشهواته الماضية، الإيمان فتح مداركه على التصوف والزهد والتقوى، كما أن هناك سبباً آخر دفعه للزواج، وهو خدمة أمه المسنّة ومساعدتها في تربية النحل والدجاج.

وافقت على شروط "مهدي" بسكوتي. لابأس، سأكون أخته وجاريته "العبيد والجواري من طينة واحدة". كنت على ثقة تامة بأنوثتي.. سينهار مهدي أمام إغراءاتها ونداءاتها:

جسدي حقل برتقال، وآدم أكل التفاحة قبل "مهدي"، والتفاحة والبرتقالة سيان..

ما صدقت أمي أنني "أنا الداكنة البشرة والشامات" سأعثر على زوج في يوم من الأيام. زغردت بخفوت خوفاً من الفضيحة "في خطوبة البنات، لا تجوز الزغردة، كأنهم يعلنون في هذا عن دعارة سريّة".

عشرة أعوام على زواجي، صرت في الخامسة والأربعين، ولا زلت أخت "مهدي" وجاريته. لم تبهت أحلامي في اكتشاف أبجدية المطر وإنجاب طفل، كل يوم يتجدد حبي لزوجي أكثر من اليوم الذي قبله. التمنع والصد، أيقظا فيّ عشق الضواري. كل ليلة ألبس جسدي، أوشيه بالأقمار، وأندّيه بماء الورد. أندس إلى جانب "مهدي"، وأهمس في أذنه "بردانة".

أغريه بشتى الوسائل.. لاقترافي، ويذكرني بشروطه قبل زواجه مني:

نامي إلى جانب أمي.. أو ضعي كيساً من الماء الساخن بين ساقيك.

أتونات العالم وجمرها.. لا توازي لمسة من يده!

جربت معه كل دلع الأنثى وغنجها. لم أشك برجولته يوماً "يعف عن تناول العسل من مناحلنا، يبيعه للناس دون أن يعرف طعمه". ذهبت محاولاتي أدراج الرياح.. وزادته إصراراً على موقفه.

ذبت كشمعة، رق عظمي الخشن، وكاد أن يتغضرف. الشحوب دمغني بأحزان مأهولة بسهاد الحرمان وأرقه:

لن يكون لي طفل يشبع حنيني، ويتأرجح بثديي عندما يشبع.

في إحدى الليالي انفجر خزان جوعي، مزقت حُجبي وكشفت عوراتي، حطمت جرّات العسل، وزرعت البيت صراخاً. هجمت على مهدي وخرمشت وجه بأظافري. شددت أمه من شعرها وبطحتها على الأرض. هدأت موجة جنوني عندما ضمني "مهدي" إلى صدره، وأطلقت العنان لنحيبي.

غمزني "مهدي"، ووسدني زنده، وقبلني من فمي:

أطلّت أكمام أزهار البرتقال، وشقّت طريقها عبر الجفاف والدم.

– صدقت يا "بداية". الخصب أجلّ أنواع العبادة.

في الصباح حمل إلي مهدي "قرص عسل بشهده"، ولمعت أضراسي.

خرافة

لو يغفر العقل طفولة القلب.. ويكفّ عن إشهار سيفه الجارح و"تشفيته" من غضاريف الحليب، كنت قد كففت عن لوم نفسي الذي لا يزال يؤرقني ويقض مضجعي.

يا لسذاجتي..

كنت أغبّ المعتقدات السائدة من حولي، كما يغب الجندي المحاصر في الصحراء قطرة الماء، وخاصة ما يتعلق بالمعجزات والخوارق "في مرحلة متأخرة لمت نفسي على سذاجتي الماضية، وأعترف صادقة، أنني، رغم قراءاتي الغزيرة وتجاربي الحياتية والعاطفية المحدودة، لم أتخلص كليا من إغراء المعجزة، إذ سقطت من إدراكي الواعي.. إلى جب أحلامي".

العمر غفلة، والبارحة كأنه اليوم!

صورة "سعران" لا زالت موشومة في عيني وذاكرتي.

ولو أنني كنت قد عرفت أن "سعران"، جرونا الصغير، ذا اللون الأصهب، لن يبارح فصيلة الكلاب عندما يكبر.. كنت ما أقدمت على فعلي "اللاإنساني"، وقطعت أذنيه بالشفرة، وأجبرته على التهامهما، عندما كنت في السابعة من عمري:

من المعتقدات التي كانت سائدة في قريتي الجبليّة، والمتجذرة في يقين أهلها البسطاء وأحلامهم، أنه إذا قطفت أذني كلب وهو جرو صغير ولقم إياها يعود إلى أصله الذي كان عليه قبل أن يدجن.. ويستذئب عندما يكبر.

المعجزات ولائم المقهورين.

وأنا صدقت هذا..

اتفقت مع خالتي "رحمة" التي كانت تكبرني بعامين، على أن نجعل من "سعران" ذئباً يحمي بيتنا وكرومنا وبيادرنا ودجاجاتنا من جشع الغرباء و"الواوية": أنا وخالتي "رحمة"، كنّا، ولا زلنا، مأهولتين بالخوف والجوع والشجن. نتضرَّع إلى الحكاية كي تحقق معجزتها في "سعران"، ويتحول من جرو صغير خرع إلى ذئب كاسر.

خالتي "رحمة" ذات القلب الرحيم كتفت "سعران" وأنا أمسكت بالشفرة. أغمضت عيني على صورة ذئب شرس، تتقاذف جبال قريتي ووديانها عواءه المكلوم بذبحه. ذبحت أذني "سعران" من جمامهما، وأطعمته كل أذن على حدة وأنا متجاهلة أنينه المتضرع ودموعي التي كانت تهطل على خدي. معزية نفسي، أن "سعران" عندما يكبر، سينسى ألمه ويشكرني. لن يتجرأ أحد على ركله وإهانته، لأنه سيصبح قوياً، يدافع عن نفسه.. ويحمينا!

يختتون الطفل من أجل الرجولة القادمة!!

"رحمة" وأنا، نسرق طعامنا إلى "سعران"، نضمر، ويكتنز هو.

يقول جدي "الصبر مفتاح الفرج".

وتقول جدتي "ما بعد الصبر سوى القبر".

هزلنا، وكبر "سعران". استطال جسده وقوائمه. تكوّرت أعضاؤه ونمت، وخشن نباحه. "انحلط" وبره عند أعضائه التناسلية، كاشفاً عن جلد زهري اللون.

سطا الحرامية على طرشنا وبيادرنا وكرومنا، وأكلت "الواوية" دجاجاتنا وصيصاننا. امتلأت البيادر بالهشيم وروث البقر الطحلبي، والقن بالريش والسلحات. بقي "سعران" كلباً! ما تحول إلى ذئب وأنصف خوفنا. دماء الفصيلة السلوقية، تجري في عروقه منذ جدّه الأول. إذا ما ركله عابر ببوز حذائه على وجهه الحزين، أو خاصرتيه، لا يشحذ أنيابه وينشبها بالقدم التي فعلت ذلك. يكتفي بالنباح. "يكوش" أمام المصطبة وهو يلحس وبره ودبره من الجوع والضجر، لا يعير القطة "نرجس" التي تتحرش به ليلعب معها.. أي اهتمام. يشيخ قبل الأوان، وبصبر لا يعرف النفاد، ينتظر عظمة عارية ليوهم نفسه بوليمة الشبع.

بَوِّح.. من زمن آخر

(قصص)

الإهداء

«كان يريد أن يهتم أحد بألمه اهتماماً عميقاً جداً بما يكفي لاحتضانه، عميقا بما يكفي لهدهدته، عميقاً بما يكفي للسؤال: كيف تشعر؟ هل أنت بخير؟ هل تريد بعض القهوة؟»

توني موريسون

ثــأر

مرور السنوات ينعكس سلباً على تكاويني.. تترهل وتفقد جاذبيتها ومرونتها وتنوْس ردود أفعالها. تنزاح عن أماكنها الأصلية وتبتعد.. وتتغرّب عني وأشتاق إليها كي تضمّني وتلمّني وتسندني. كنت قد لاحظت مراراً أن (سبّابتي) اليمنى (تنطعج) باستمرار وتميل نحو الوسطى مثل سبّابة أمي وجدتي! هذا (الانطعاج) ترك حسرةً في قلبي وأكدّ لي أهمية الجينات الوراثية وانتقالها من الأصول إلى الفروع وأن الماضي يصنع المستقبل.

قلت معزية نفسي:

ربما تمكن العلماء مستقبلاً من (تشْحيل) هذه الجينات... وتكون (سبابتي) يومها قد أصبحت تراباً لنبتة ملْوية العنق.

يدي قصيرة بالكاد تصل إلى نقْرتي التي تتعرّق باستمرار وتحكني. هي مثل عيني اليمنى التي تدمع دائماً لأنها لا ترى أبعد من شطحات قلبي.

في مقتبل العمر وفوران الزهر كانت (سبّابتي) تلك مستقيمة ومشدودة كوتر. ناعمة وبيضاء مثل الشرنقة تنزلق كقطرة ندى على البراعم الغضّة.

كبرت.. وكَبرت (سبابتي) معي.

حرشفتها الفصول وأرعدتها الجفْلات وتيبست من الخوف الذي كان يلوكنا معاً ويلفظنا أنيناً خافتاً، وإذا ماناداها القلم ترتعش وتتردد كأنها ذاهبة إلى المقصلة. تمسكه وهي مجبولة بنزيف قلق. ودون قصد منّي، تكوّم تاريخها على لسانه. ينزّ حكايا موجولة وأغان مبتورة وعشقاً مذبوحاً بحراب غير مرئية.

وأنا من شدّة خوفي عليها لم أتجرأ يوماً أن أرفعها احتجاجاً أو تهديداً وأخرق بها وجعاً مستقراً في النخاع! وهي اعتبرت هذا تجاهلاً منّي لها واستخفافاً بمقامها وفاعليتها ووجودها:

فهي مجرد أصبع بين إبهام يصل طوله إلى منتصفها ووسطى أطول منها بقليل. لذلك انكفأت على نفسها حزينة ومحبطة، وراحت ترمي بثقلها على الوسطى الوقحة..

و(تتطعج)، وتصبح كما هي عليه الآن بشكلها المأساوي الحالي. مرّة واحدة فقط أردت أن أجبر بخاطرها وأبين لها أهميتها الوجودية والمصيرية والتاريخية. حدث ذلك عندما رفعتها مع الوسطى راسمة بهما إشارة النصر المفتوحة على السماء!

هذا الحدث التاريخي الذي أعلنت فيه (سبّابتي) عن وجودها الحتمي والعلني للمرة الأولى في حياتها كان أمام سور البيت الأبيض في واشنطن!!

لم تصدّق (سبّابتي) ولا أنا هذا الاحتجاج العالمي الجريء الذي قمنا به معاً في أمريكا!

.. وكنّا نحدّق طويلاً في الصورة التي كنّا قد التقطناها في تلك المناسبة.. لنجزم أننا قد قمنا بذلك فعلاً ولم يكن الأمر مجرد تصوّر.

عجبت لحال (سبابتي) التي ظلّت (مطعوجة) بعد هذا الحدث الهام!

كأنها اكتشفت بالفطرة عدم جدوى هذه (المنفخة) وإنني أضحك عليها وعلى حالي!

مع أنني كلما شاهدت نشرات الأخبار في التلفاز كنت أخبئها خلف ظهري.. ولكنها كانت تغافلني وترتفع إلى خدّي لتمسح دمعة.

* * *

أغصان لا تحطّ عليها العصافير

يا ساقية الأحزان التي خبأت وشوشات النجوم في حضنها آلا تتعبين من نوح الصفصاف على ضفافك؟ الصفصاف، نعيق الغربان، والروح أغانٍ متناثرة في بواكير الحلم. ما همّ إذا كانت يداك أغصاناً عارية لا تحطّ عليها العصافير؟ والعصافير باتت تخاف أن تحطّ على أشجارنا المنذورة لليباس والقتل! وأصابعك رغم غلظتهم وعقدهم المزرّقه يُبدعون في عزفك على أوتار القلوب المنسيّة. صدّقيني، الأجدر لهم ولك ألا تكوّريهم وتخبئيهم خلف ظهرك كقبضتي طين مدعوس بحوافر الطرْش وتخفيهم عن الأنظار كأنهم عارك، لعنتك الأبدية. العار عار المواقف والأفعال والأقنعة التي تتبدل باستمرار: ارفعيهم إلى ما فوق رأسك واصفعي بهم الوجوه التي تلبس أقفيتها والتي تفوح منها الروائح النتنةّ وتقتل حبق روحك. اتخافين أن تقع عليهم عيون الآخرين، يسخر بعضهم منهم ويشفق البعض الآخر وكلا الأمرين يمرمرك؟ يالفداحة هذا الإثم الذي يسطحك كحذاء ويجعّدك كثوب عتيق! تتحملين أحزان العالم وعهره ولا تتحملين وحشة يديك؟ قبليهما بحنان واشكريهما لأنهما دليلك في اكتشاف معادن الناس. فالذي يشيح بوجهه عنهما كأنهما مصابتان بالجذام يقولان لك عنه أنه إنسان سطحي وتافه يحكم على الأشياء من خلال مظهرها الخارجي المخادع، ومن كان ينظر إليهما بتمعن وحيرة واندهاش كأنه يتأمل لوحة سرياليه ويخترق بأنواره السطح إلى ما تحت الجلد ويسمع همسهما الشفاف والمتفاني في وداعته يقولان لك عنه أنه إنسان عاش أفراح العالم وأتراحه.. توْمض ندوبهما بالبهجة.. ولا تتجرآن على التصفيق! يداك الملتهبتان بالعقد من سنديان وطنك. هل تذكرين هذا؟ يا صديقتي التي أحبها وأكرهها وتحبني وتكرهني، نتجاذب بكاء القلب وبوح

الروح واللعنات. تاريخ يديك مكتوب على أنفاسي. أعرف، بل أتذكر جيداً أنهما قد هرمتا قبلك في زمن تشيب فيه العصافير.

أرجوك لا تذكّريني بالماضي. في السابعة من عمرك افتضت بكارتهما وبكورهما، كانتا وسيلتك ومجذافيك إلى بّر الأمان وكسب رضا أمك أولاً وأخيراً. ألم يقل الرسول الكريم (الجنّة تحت أقدام الأمهات)؟. وتتسابق الجارات على (طلب يدك) لأنك (ست بيت) من الطراز الأول! والأصح (خادمة بيت) الذي لا يتنافى مع معانيه. فالسّيدة سيّدة والخادمة خادمة. التلاعب بالألفاظ يجني علينا أكثر مما يعبّر عنّا وينصفنا. (حرية، مساواة) شعارات خرقت طبلات أذاننا من تكرارها العبثي وغير المجدي. ومتى كان الإنسان حرّاً؟ هكذا دأبوا على تخديرك بمخدر فسد مفعوله في الأفواه قبل أن تذوقه يداك. اليدان تتذوقان بذوبان عذب طعم التفاحة قبل الفم. قبل ذهابك إلى المدرسة، في السادسة صباحاً تماماً، تدعكين عينيك من النعاس وتجهضين ثمار الجنة المعلقة في أهدابهما. تهرعين إلى السطل والممسحة وقلبك يركض كدقات الطبول في صدرك خوفاً من أن يفوتك موعد المدرسة. تلومين الشمس لأنها تفيق قبلك. والممسحة بحجم صدريتك المدرسية، تعصرينها بالتقسيط وأنت تنقطين دمعاً من أنفك. تصبح يداك مثل الشوندر المسلوق وهما تكشطان البصاق الأصفر عن الأرض بأظافرهما المتآكلة.. مثل العادة هاج سعال أمك في الليل وزرعت بصاقها مفلوشاً على الأرض. تدعين لأمك المصابة بالربو بالشفاء العاجل وأمعاؤك تقرقر في بطنك الذي كان ينتفخ مثل بالون.. ولكنه لا يطير بك إلى الجنة الموعودة وإنما سمّرك بمسامير قدرية إلى الأرض. ولا تتجرئين أبداً أن ترفعي رأسك وتهمسي في أذن أمك راجية منها أن تبصق في وعاء أو منديل لأن الجنة تحت قدميها، وأنت تحبين كثيراً الذهاب إلى الجنة لتتسلقي أشجارها العالية المثقلة بالعصافير والفاكهة اللذيذة. تأكلين ما تشتهي نفسك منها وتسبحين في أنهار اللبن والعسل وتضيئين مثل الشمس.

حلم الذهاب إلى الجنة كان يؤرقك ويدفعك إلى المزيد من التفاني ونكران الذات. قطرميز المكدوس الذي كنت تجلينه ثُقب من أسفله ودخلت إصبعك

الوسطى في الثقب وفقدت قسماً كبيراً من سلاميتها. بأسنانك عضضت على صراخك وأنت تعيدين القسم المذبوح إلى مكانه. غسلته بدموعك ولففته بخرقة، التهب جرحك وارتفعت حرارتك وامتد الألم من إصبعك إلى نافوخك. أخذتك أمك إلى المستوصف، قال الطبيب وهو ينظر مدهوشاً إلى جرحك، أنك من نسل الفراعنه الذين لا يتفسّخون! ميّزة عدم التفسخ نعمة من الله تعالى خصَّ بها أولئك الذين يلعقون جراحهم بصمت، ويعضّون عليها بين حين وآخر كلما التهبت بالصراخ، يهدهدونها بأصابع الطفولة ويضمّدونها برحيق الأحلام. ليذهب ذلك الشاب الذي أغرم بك في مراهقتك إلى الجحيم لأنه لا يستحق همسة من يديك ولا دقَة من دقات قلبك. كان ينتظرك على مفرق الحارة في الحر والبرد وهو لا يحمل شمسية ولا يعتمر طاقية، والحارة ناس وفضول وأقاويل. بين الخوف والإقدام أوجعك قلبك عليه وقلت له مرحباً. تجرأت يدك ومدّت حالها لتصافحه. ولّى هارباً وهو يصرخ، ياللهول.... ويدك من سنديان وطنك مشرّشة في القلب. ربما لو سلّم عليها واحتضنها بكفيه وقال لك اشتقت لك لتحولت إلى جناحين يحملانك إلى الجنة! مع الأيام تفاقم خجلك من يديك وأصبحت تميلين إلى الصمت والانزواء، وكان يقضّ مضجعك السؤال: كيف تعيدين ليديك طفولتهما وبراءتهما؟ بالتأكيد أنت غير قادرة على تحقيق مثل هذه المعجزة وحدك، لابدّ أن يساعدك أحد على ذلك! كيف؟ والحب لا يستجدى، والطلب مذلة وخاصة إذا ما قوبل بالرفض والصدّ.. ويدمغك بالعار والهوان ويدفعك إلى احتقار نفسك.. أو ربما إلى الانتحار.

لأن (ماحكَّ جلدك مثل ظفرك) دعكت يديك بالليمون ودهن الحلو، صبغتهما بالحنّة. لم تتوقعي أن تتحقق المعجزة بمثل تلك السرعة. أغرم بهما أستاذ التعبير في المدرسة وكتب فيهما قصيدة (الأغصان التي لا تحطّ عليها العصافير). كان الأستاذ يطلب منك أن تقرئي موضوع التعبير على زميلاتك في الصف، وكنّ يجهشن بالبكاء عند سماعهن ما خطّته يداك. يقول لك الأستاذ، أحسنت، ويهديك رواية (رجال وفئران) لجون شتاينبك. قرأت الرواية في الليل وبكيت بطلها (لني) الذي قتلته طفولته. اقتنيت قطة بيضاء، وكانت غبطة

يديك لا توصف عندما كنت تنيمينها في حضنك وتلامسين وبرها الناعم بحذر شديد وحنان مخطوف خوفاً من أن تنتهي مثل بطل قصة (رجال وفئران) تسري تلك النعومة دفئاً حانياً في نسغهما وتحلمان بقفازات العرائس، ترقصان وتصفقان كحمامتين عاشقتين. تحلّق روحك في فضاء الجنة.. عندما سافر أستاذك مع وفد تعليمي إلى كوبا، أرسل لك بطاقة من هناك كتب لك فيها: (أحلم بيديك كلما شعرت بالغربة). نظرت إلى يديك غير مصدقة! عادتا طفلتين نائمتين فوق سرير من الزبد! علّقت البطاقة فوق سريرك تكحلين عينيك بحروفها في الصباح والمساء وتلثمينها بأصابعك كأيقونة. لم تحسبي حساباً للآتي!! وليتك خبئتها تحت وسادتك. وقعت أنظار أبيك عليها. سألك عن مصدرها والشرر يقدح من أتونه الكامن الحريق. قلت له، إنها من أستاذي في المدرسة. فجحظت غيرته وشرفه وقال لك وهو يكزّ على عظامه: (ماذا اقترفت يداك؟ هل لعبت له بأعضائه؟). انقصفت من الخوف.

تلجلجت كصرصار يتحاشى دعسات الحذاء. تحوّلت على أنّة مرضوضة بالبصاق والصفعات والركلات. مزَق أبوك البطاقة إلى نتف صغيرة كوّرها ودفعها إلى فمك. وأنت لم تمتلكي يوماً القوة التي تمكنك من قول آخ.. كنت ستقسمين له بحياة جدّك قحطان وأخيك عدنان، أنك.. أنك.. (كنت تجهلين ما كان يقصده أبوك!).

* * *

قيلولة التعب

كانت الدنيا بَرْد.. والأشجار عارية. على مقعد في حديقة عامة امرأة ورجل ينقعان جسديهما بالشمس. المرأة كانت مهمومة، والرجل كان حزيناً. ضُبطا وهما متلبسان بالصمت! جرجروهما إلى المخفر في سيارة الشرطة. والرجل كان يردد طوال الطريق: إنها زوجتي.. لم يصّدقوه لأنه نسي أن يحمل في جيبه عقد النكاح!.

* * *

العيّب

في ليلة الدخلة تفجّر جسدها وتفتح وردة. التصقت به كما تلتصق المحارة بصدفتها. كثّفت فيه بعاق روحها إلى كينونة الماء. فجأة، نهض وانسلخ عنها كأنما لدغته أفعى! ما أن فتح شدْقه حتى أطلّت الأفعى برأسها من بين أسنانه وفحّت فحيحاً قاتلاً: من علّمك فنون العشق؟؟ همدتْ.. صارت جثة، وظلّت ميتة دهراً....... وهو كان يعتليها ويصهل فوقها كأنّه حصان يسابق الريحْ!

* * *

الجرح

بعد خروجها من غرفة العمليات كانت تهذي وهي تحت تأثير المخدّر. زوجها كان إلى جانب سريرها. استغلّ هذه اللحظة التي انتظرها طويلاً.. سألها:

- من هو حبيبك؟. أجابته بشفاه واهنه ومبيضة:

- الله......... لو قالت له: أنت!. الله غائب حاضر، وهو زوجها، الحاضر بشحمه ولحمه دائماً. لسانها ثقيل على البوح، وهذا ما يؤرقه ويؤجج أتون شكوكه وظنونه. لو كان غريمه غير الله جلّ جلاله لتضرّع إلى ملوك الأنس والجن في صلواته أن تُمسخ إلى بقرة يربطها إلى معلفة كما حدث لتلك المرأة التي خانت زوجها في كتاب ألف ليلة وليلة. لمّا زال عنها المخدّر خاب أملها لأنها ما زالت على قيد الحياة.. كم تمنت أن تغادرها روحها وهي في غيبوبة البنج. قال لها: الحمد لله على سلامتك. أندلقت عيناها على وجهه، ونبتت أشواك قاسية على ذقنه تحولت إلى دغل كثيف ومظلم انغرست أسنانه في ثديها المقطوع. صرخت من الألم.. قال لها: الجرح يؤلم بعد زوال المخدّر.. تجلّدي..

* * *

عاشـقة

-١-

تلك المرأة التي اسمها (ناهدة) لا تشبع من العشق. كلما عشقت تصغر عشر سنوات.. وتعود طفله تتلعثم بكلامها وخفقانها.. وتفوح منها رائحة البودرة والآس. وأسألها: ألا يتعب قلبك من التنهدات والسهر؟. وكانت تحبو وتكاغي، ترفع قامتها إلى المرآة وترسم على صفحتها فراشات ووروداً بقلم أحمر الشفاه، يتكاثف الندى على أهدابها.. وتخفق كرفّ من العصافير. تصير صبيّة زهر البنفسج والرمّان والصّبار!. تغنّي بصوت عميق كأنه خارج من قبر: (مين قال حاكيتو وحاكاني عا درب مدرستي). وتصير غابة المطر. ويحيّرني السؤال: (لماذا المرأة الجميلة هي الأكثر حزناً؟).

-٢-

تلك المرأة التي خلقها الله (ناهدة) بقيت خارج نظرية التطوّر! تصرّ على اسمها وكينونتها وأنوثتها.

- لماذا يا (ناهدة)؟

- كي لا ينقرض الرجال ويتحوّلوا إلى جنس ثالث وتختلّ موازين العقل والكون وتموت الحياة! وتنصبّ عليها اللعنات. تتهمها المناديات بحقوق المرأة بالتخلف، يقلن عنها أنها عقبة تقف في طريق حريتهن لأنها تستمرئ عبوديتها وأصفادها وتنهداتها. تُبهظها هذه المفارقة الغارقة في التناقض وسوء الفهم!

تتعب (ناهدة) كثيراً في تلميع المرايا التي تعكس نور الشمس وقامة الشجرة لتكحل عيني حبيبها... ربما يراها على حقيقتها، تعانق يده كتفها وتعانق يدها كتفه ويسيران معاً على درب السنبلة.

-٣-

تلك المرأة التي اسمها (أُنثى). يختار لها حبيبها لون ملابسها وتسريحة شعرها وماركة عطرها ومشيتها وفراشها ولحافها ووسادتها. ولكنه فشل في معرفة لون حزنها.. ولماذا تحزن؟.

-٤-

تلك المرأة التي أعرفها كما أعرف نفسي. تخرج من رأسي كلما تثاءَبتُ ودبّ فيَّ النعاس وتشعل الحرائق في كل مكان، وتحرق وسادتها...

* * *

عزف منفرد

هو: أنا رجل ناضج وحرّ، وزوجتي امرأة رصينة وحكيمة. تزوجنا منذ ما ينوف عن عقدين من الزمن كانت حياتنا خلالها خالية من المنغّصات والنكد مما حدا بأصدقائنا ومعارفنا أن يطلقوا علينا (الزوجان المثاليان)!. أنا مليح وزوجتي مقبولة، وكلانا على قسط وافر من العلم والثقافة، لا أنكر أنني أخون زوجتي من حين لآخر لأرفد قلبي بدماء جديدة وأبعد عن نفسي شبح الرتابة والملل. أفعل ذلك كلما سنحت لي الفرصة: أنا عبقري في اقتناص الفرص!. أفعل ذلك عندما تسافر زوجتي في مهمة إلى خارج القطر بحكم عملها الإداري. أرمي شباكي رمية محكمة.. رمية معلّم، ولا أعدم الوسيلة في اصطياد امرأة.. وما أكثرهن!. وأحبُّ زوجتي أكثر.. أعتقد أن هذا شعور طبيعي، التجدد يملأ نفسي بالبهجة والحبور. يؤكد لي رجولتي ويعمق إنسانيتي. ويزخم عطائي الفكري والعاطفي.. ولا يراودني أي شعور بالنّدم.. أنا لست بحاجة إلى تبريرات لتأكيد الذات. إذ لا فائدة من الإسفنجة الجافة. هي: لست غبية كما يظنني زوجي. الزوج آخر من يعلم والزوجة أول من تعرف! المرأة دائرة كونية شاملة التكوين، والرجل سهم طائش يخترقها من نقطة ضعفها، المركز – القلب. يعيث فيها العقاب والفوضى ويراكم مخلّفاته على محورها. من رائحته، ونظراته وحركاته أعرف مدى صدقه وخاصة إذا ما بالغ في إظهار عواطفه أو قدّم لي هدية في غير مناسبة. أُجزم أنه اقترف ذنباً في حقّي.. ولا أُثير الشجار! أُظهر اللامبالاة وأحصره في زاوية الندم. الحياة قصيرة لا تستحق منّا أكثر من أن ننظر إليها أحياناً بعيون مستعارة.. وإلّا استحالت إلى ساحة حرب ضحاياها هم الأطفال بالدرجة الأولى. ولقب (مطلّقة)

يشعرني بالدونية والحرج. نجاحي في عملي يعوّضني عن الخيبات والنقصان. يعجنني في بوتقة الواقع ويبُعدني عن رومنسيات الحريم. تعودت أن أعضّ على قلبي وأنهش أنّاته التي كانت تطالبني بالصدق. لا بأس أن أعترف، كان ألمه يطغى على حكمتي أحياناً. أذرف روحي على مناديل الأمومة. الابنة: عندما أكبر لن أتزوج أبداً...

* * *

تفاصيل صغيرة
من حياة امرأة

طقسها اليومي يبدأ مع زقزقة العصافير. حافظت عليه طيلة خمسة عشر عاماً خوفاً عليه وعلى حالها من التشتت والضياع: عالمها الداخلي مثل العالم الخارجي غير مستقر ويحتم عليها وضع الأشياء في أماكنها المخصصة لها حتى لا تغرق في لجّة التناقضات العاصفة وانقلاب المعاني وضياع المفاهيم. تفيق من نومها في السادسة صباحاً. تمكث في فراشها ساعة قبل أن تنهض. تتذكر خلالها أحلامها التي كانت قد رأتها في منامها. تفتح كتاب (إبن سيرين) لتفسير الأحلام، ولكنها في معظم الأحيان لا تجد فيه تفسيراً لأحلامها: زمنها غير زمن إبن سيرين!. كتبت على حاشية الكتاب بقلم الرصاص: زمن حُكم فيه على الإنسان أن ينتعل رأسه، يلبط به كرة منفوخة بالهواء تارة، ويهرول به تارة أُخرى طلباً للرزق والأمان، وكلما اهترأ نافوخه يركب له نصف نعل من الأوهام!. حلم يتكرر كل ليلة. ترى في منامها أن الشمس قد انطفأت وسادت الظلمة العالم. تحتضن أولادها وقد عادوا أطفالاً. تركض بهم إلى مغارة عتيقة في بطن الجبل. تسدّها بصخرة. تتمتم: ليتهم لم يخترعوا البارود! تغتم وينشغل بالها على أولادها الذين تبعثروا في أنحاء الكرة الأرضية طلباًللرزق وأشياء أخرى! تهاتفهم كي تطمئن عليهم، تقطع ثمن فاتورة الهاتف من قوْتها.. ينزل ضغطها.. وتدوخ. تغسل وجهها من آثار الكوابيس، تتأمله في المرآة متجاهلة سطور الزمن على صفحته. تبتسم وتقول له:صباح الخير يارفيقي. يعود طفلاً بأسنانه اللّبنية التي بدّلها لتوّه.

تشعل البوتوغاز وتضع ركوة القهوة. تصبّ فنجانين. علّ إحدى الجارات تزورها وتقول لها: صباح الخير يا جارة كيف حالك؟. تشرب فنجانها ذا الشفّة

المثلومة وهي تتأمل الفنجان الآخر. تغطيه بالصحن كي لا يبرد. تُشمّر عن ساعديها وتنهمك في أعمالها اليومية. تتفقد أصص نباتاتها التي وضعتها على إفريز النافذة. تُنحّي عنها اليباس وتسقيها إذا كانت عطشى. تزيل الغبار. والغبار يتراكم كالهموم، ولا تتعب من إزالته بشتى الطرق العصرية.. كأنها تزيح الهموم عن نفسها وتنقّيها من الشوائب. أكثر ما يرهقها ويهدّ حيلها تنظيف السجادة. يؤلمها ظهرها يتعضل ساعداها وبطّنا رجليها. تمسح الأرض بالماء والصابون. تدخل إلى المطبخ وهي تسند خاصرتها بيديها. تتكئ بكوعيها على حافة المجلى وهي تحضّر طعامها، وغالباً ما يكون مفركة بطاطا أو شوربة عدس أو كشك. تتناول طعامها على طاولة صغيرة أمام شباك المطبخ الذي يطل على نهر السيْل الذي جفّت مياهه وتحوّل مجراه إلى مكبّ للنفايات، وعندما كانوا يفتحون نهر يزيد عليه، تجرف المياه تلك النفايات إلى حديقة المنشيّة حيث تشكل جزيرة تغطّيها جيوش من البرغش والذباب، ويتصاعد من أبخرتها رائحة نتنه. تحزن على النهر كأنه شريانها الذي يمدها بالحياة، وتتساءل بفجيعة: لماذا يرمون بأوساخهم إلى النهر وموظف البلدية يطرق أبوابهم كل صباح ليأخذ أكياس زبالتهم؟ تغصّ بين اللقمة والأخرى وتشرب جرعة من الماء. تنزلق اللقمة في بلعومها كالرصاص. في قيلولتها على الديوان المقابل للمكتبة. تتأمل عالمها النظيف.. وتحبه كثيراً. اشياؤها تنطق بها. تمدّ لها زغبها الحاني أطيافاً من ألوان شتّى وتهزج

بذكريات عمرها: المكتبة والطاولة والكرسي والديوان والبساط والطراريح. أشياء عزيزة على نفسها كأنها قطعة منها. تختزن رائحة دفئها وقلقها وتعبها وانتظارها المعتقة في نسيجها وتفاصيلها. تذكرها أنها لازالت موجودة، وأنها لا تزال تحمل بعضاً من دفء وأفراح وشجن وإن كانت هي قد عتقت أكثر منها لأنها حافظت عليها واعتنت بها أكثر من حالها! تصلي كل ليلة وتبتهل إلى الله كي لا تغادرها نفائسها هذه إذا ما حدثت حرب أو حريق أو زلزال.. وأن يطويها معها.. هي محارة دفئها وأسرارها. لشدّ ما يؤرقها مصير هذه الأشياء عندما تموت وترحل عن هذا العالم.. وخاصة المكتبة. لو يكون لها مدفن مثل مدافن الفراعنة.. يحيطونها بأشيائها ويكفنونها بكتبها. تُبحر في رفوف المكتبة التي رافقتها رحلة عمرها وكانت لها خير صديق. يخرج لها «كنكان العوام» من رفّ المكتبة ويمدّ لها لسانه. يسحبها من

جلدها إلى الشارع. لم يترك لها فرصة كي تُبدل منامتها وتمشّط شعرها وتنتعل حذاءَها لأنه كان يحبّ الأجنّة العارية. جل ما تخشاه هو العري!! وقبل أن تدوْزن أنفاسها، هبط إليها العاشق العظيم «كاتسبي» من رفّ آخر، وأثار زوبعة من عناق وتنهدات وقُبل. حملها بين ساعديه إلى قصره الشفّاف المتلالئ بأنوار العشق. احترقت دماؤها وكادت أن ترقص. وصل دوي جنونها إلى شهريار الذي قفز إليها من كتاب ألف ليلة وليلة شاهراً سيفه. سحبها من شعرها وجرّها إلى مخدعه. تضيق بها الجدران. تلوب في أرجاء عالمها المسوّر بالتنهدات باحثة عن شيء لم تجده أبداً ولم تفقد الأمل بوجوده. ربما كان في متناول يدها! انهمكت في تغيير أماكن «عفشها» ورتبته من جديد. طوت تلك السجادة البنيّة التي كانت تتخللها خطوط زرقاء كأوردة ميتة. هذه السجادة التي كانت قد ورثتها عن أمها، تستهلك وقتها وطاقتها لتعيد إليها الحياة. باعتها بألف ليرة واشترت كنزة صوفية بألف ومئتي ليرة! ربما كان ثمن السجادة زهيداً بالقياس إلى ثمن الكنزة، ولكن عندما كانت تقارنه بالجهد الذي كانت تبذله في تنظيفها تحمد الله أنها قد تخلصت منها أخيراً، عدا عن ذلك فقد كانت تذكرها بأمها التي توفاها الله بينما كانت تركع على ركبتها وتدعكها بزيت الكاز، وكانت ألوانها تزهو ويكمد لون أمها. كما أنها منذ خمسة عشر عاماً لم تشتر كنزة جديدة. قالت لها جارتها: شتان بين السجادة والكنزة. إذا كنت راغبة بشراء كنزة ليس من الضروري أن تبيعي السجادة، يمكنك شراؤها من البالة بمائة ليرة. أجابتها دون أن يراودها شعور بالندم: ولكنها كنزة جديدة من إبرتها، والجديد غال الثمن، كما أنني لا أحب الأشياء التي تفوح رائحة الغرباء منها، ألا تذكرين جارتنا سعاد التي سرقت زوج عفاف؟ رائحة عفاف ظلت عالقة بمسامه ويقول عنها لسعاد أنها تُشبه رائحة السفرجل. – شتان بين الكنزة والرجل. – كلاهما يدفئان بدرجات متفاوتة الحرارة. «زوجها مات وهو يضع زنده تحت رأسها.. لامت رأسها الثقيل على موته. لو كان لها رأس دجاجة! خريطة بصماته على جسدها كشّت وبهتت.. أصبحت صدى لآهات هامسة، وبقيت في ذاكرتها جرحاً يفصد أمصال وحدتها».

صديقاتها وأصدقاؤها قلّة. صداقتها لهم تعود لأيام الدارسة. لم تُغامر بصداقة جديدة لأنها ملّت من اكتشاف الآخرين.. والخيبات. هاتفت صديقتها حنان التي كانت معها على نفس المقعد في الصف الخامس ابتدائي في مدرسة زينب فواز بباب

الجابية.. وتواعدتا على الذهاب للسينما. «منذ زمن طويل ربما أكثر من عشرين عاماً لم تذهب إلى السينما، كانت خلالها تشاهد الأفلام الأجنبية على شاشة التلفزيون.. وتتعب عيناها من قراءة الترجمة وهي تلهث وراء سطورها العجلى.. وتفوتها رؤية وجوه الممثلين والممثلات». ارتدت كنزتها الخضراء الجديدة وتنورتها الكلوش البنّية التي قد ضاقت قليلاً على خصرها.

صارت شجرة... انتعلت حذاءها الذي كانت تحشوه بورق الجرائد كي لا يتجعد جلده من طول الانتظار، حزمت شعرها إلى الخلف بقطعة مطاط. كحّلت عينيها وبللت شفتيها بلسانها. فتحت الباب وتسمّرت بالعتبة. ألقت نظرة إلى الوراء وتصاعدت دقات قلبها كالمطارق.. كأنها تودع حبيبها.. وانطلقت قبل أن تبدل رأيها، وبينما كانت تهبط الدرج تذكرت أنها لم تُسكِّر قفل الباب ذا «السبع طقات».عادت أدراجها بسرعة.. اعتذرت لحنان على تأخيرها. اختارتا فيلماً عاطفياً.. وطقّتا من البكاء. وبينما كان البطل يُقبّل البطلة ويعصرها بساعديه. تذكرت «عفراء» أنها لم تُغلق قارورة الغاز، اضطربت وارتجّت، هبّت واقفة وظنتها حنان أنها ذاهبة إلى دورة المياه وتعجبت لتصرفها هذا الذي يأتي في قمة أحداث الفيلم العاطفية! وصلت «عفراء» إلى البيت بقلب محروق، حمدت ربها أن النيران لا تتصاعد من شبابيكه كما تصوّرت، وطنجرة الحليب الموضوعة فوقه تعلوها طبقة سكيمة من «القشوة». هاتفت حنان وسألتها عن بقية أحداث الفيلم. قالت لها بصوت مخنوق العبرات: أن البطلة ماتت بالسرطان.

* * *

هـوايـة

فيحاء وجميلة تعشقان المسلسلات المكسيكية منذ أيام ولادتها وانتشار موضتها عبر الأرضيات والفضائيات تتابعانها باهتمام وشغف منقطع النظير.. ولا تفوتهما حلقة من حلقاتها مهما كانت مفرطة في الطول. بحكم الجوار تعمّقت وتوطدت صداقة فيحاء وجميلة التي مازالت مستمرة منذ أربعين عاماً، ومما زاد هذه الصداقة ديمومة ورسوخاً هوايتهما المكسيكية المشتركة، تلك المسلسلات التي كانت تسحبهن بعيداً عن الشيخوخة ووحشتها وتعيد إليهن رومانسية حالمة طافحة بالشباب والجمال الساحر، وإذا ما حدث أمر طارئ يحول بينهما وبين متابعتها كانت جميلة تطلب من خادمتها إفتكار أن تسجل لها الحلقة على الفيديو. تلك المسلسلات التي شغلت حيزاً هاماً من حياة فيحاء وجميلة عوّضتهما عن الترمّل وزواج الأولاد. زوج فيحاء مات بالسكتة القلبية. وزوج جميلة مات بالسكتة الدماغية. جميلة كانت اسماً على مسمّى، إضافة إلى أنها شخصيه قيادية تصلح لأن تكون جنرالاً في الجيش. كريمة، سخيّة اليد والقلب، لا تبخل بتقديم المساعدة لكل محتاج، ولكنها كانت عصبية إلى حدّ الانفجار إذا ما خالفتها فيحاء رأيها.. ولكنها كانت سرعان ما تهمد، قلبها لا يتسع للضغينة أو الحسد أو الكراهية. أولادها تخرجوا من «بلاد برّا» وحازوا على أعلى الدرجات العلمية واختارت لهم زوجات من عائلات ثرية ومرموقة دون أن يعترض أي منهم على هذا الاختيار. كلهم كانوا على ثقة بذوق أمهم ومقاييسها. وفيحاء امرأة عادية، أقل ثراء من جميلة.. وبالتالي أقل سلطة منها، ربما كانت سلطتها هشّة بسبب عفويتها، ابنها البكر مات في حادث سيارة، وبناتها تزوجن

حسب رغباتهن، لذلك تعودت فيحاء أن توافق جميلة على آرائها وتبصم لها بالعشرة،خاصة إذا ما تعلّق الأمر بنظرة جميلة الثاقبة التي تتنبأ بها نهاية مسلسل من تلك المسلسلات التي كانتا تتابعانها في الغالب على تلفزيون جميلة ذي الـ (٣٧) بوصة الذي أحضرته من شتورا. تجلسان قبالته وتستنفر جميلة خادمتيها افتكار وازدهار. حيث تقف الأولى على يمينها والثانية على يسارها وتُترجم لهما جميلة لغة المسلسلات الفصحى إلى العامية لأنهن لا يفقهن شيئاً من لغة سيبويه. وما أن تبدأ أحداث المسلسل، حتى تجرفهن تلك الأحداث بعيداً، تعلو أصواتهن بالسباب والشتائم القاذعة واللاذعة عندما يتعرض أبطال المسلسل لمكيدة أو مؤامرة، وتحثانهم على اكتشافها قبل فوات الأوان «كأن هؤلاء الأبطال يمتون إليهما بصلة رحم أو قرابة»! إلى درجة أن أصواتهما هذه تعلو على أصوات أبطاله وهما تنبهان أولئك الأبطال إلى المكيدة أو المؤامرة. بين المسلسل والمسلسل كانتا ترخيان جسديهما وأعصابهما، تحتسيان القهوة وتعلقان على الأحداث. أثناء هذا الطقس المسائي تنعزلان عن العالم. لا تردّ جميلة على جرس الباب أو الهاتف. وقبل النوم تلوكان فصوص الثوم لتخفّفا من انفعالاتهما وارتفاع ضغطيهما الناتج عن أحداث تلك المسلسلات!.

* * *

اللّه لم يخلق البعوض
لإذلال الجبابرة فقط

منذ أن أصبح العالم قرية صغيرة.. والهموم من أمتعتي الشخصية. في محاولة يائسة أضغطها واكوّمها، ألفّها بورق السلوفان وأربطها بشريطة حمراء كهدية إلهية.أضعها إلى جانب سريري، يصبح السرير بخفة ريشة يرتفع ويحلّق بين السحب مثل بساط علاء الدين السحري.. وهمومي ممغنطة برائحتي، سرعان ما تلحق بي، تكتسحني، تُدثّرني وتعصرني من رحيقي، أهوي مع أحلامي إلى قعر الألم قبل أن أرسو على أهداب غيمة بعيدة عن أحقاد الأرض وشرورها. أصبح وليمة جاهزة للبعوض الذي يفوح من حولي وهو يعلن باصرار نهمه إلى دمي. وز.... وز.....وز.... والهموم حامضة كالأسيد، أذابت وسائل دفاعي الشخصية «وصار حالي كحال البزّاقة التي تعلن عن وجودها.. ببصاقها». والبعوض مخلوقات دموية شرسة. يشمّ رائحة دمي الحلو عن بعد كيلومترات. أتمترس تحت اللحاف مفوّتة عليه فرصة التهامي.تتسلل البعوضة من خلال شق فتحته للتهوية كي لا أختنق. تحطّ على خدّي تغرس خرطومها.. تمتصني. أصفعها بعد فوات الأوان. يلتهب خدّي بصفعتي.. أستنفر حواسي وأتهيأ للثأر إذا ما حطّت على خدّي ثانية. كنت متأكدة أنها ستعود. انتظرت.. وعادت. سبقها صوتها إلى أُذني. وز.. وز.. حامت حول رأسي عدة مرات، هيأت كفّي تحت اللحاف. بلمح البصر حطّت على خدّي وقرصتني. صفعتها ورغبة جامحة تتآكلني.. لمعسها! طارت لأنها تجيد «التكتكة» التي أجهلها! علّمت أصابعي الخمسة على خدي.

هكذا أنا دائماً.. أصفع حالي.. وفي ظنّي أنني أصفع الآخرين الذين يغدرون بي.. ويقتلونني بالتدريج!!.

* * *

رَمَدٌ ربيعي

تتهامس الجارات من خلف ظهرها: – «وليدة» طق عقلها. قطفت زر القرنفل الذي كان يمدّ رأسه من حديد النافذة وشكلته في شعرها خلف أذنها. ألا تستحي على شيْبتها؟ لمن تتزيّن وليس عندها أحد غير ظلّها؟. – غناؤها ورنّة أساورها يخترقان جدران بيتي وأذني ويسببان لي وجع الرأس والأرق. – تتحدث إلى عصافيرها ونباتاتها كأنهم بشر مثلنا! – لو كان عندها ذرة خجل لخجلت من تكحيل عينيها وسفورها، الله يساعدها على آخرتها. – في الخمسين يبدأ الخرف يارب ثبّت علينا العقل والدين. «وليدة» كانت تجهل ما يدور من همس خلف ظهرها: «في صغرها كان أبوها قد حذّرها من النظر إلى الخلف:.. ياوليدة لا تنظري إلى الخلف حتى لا تتطعج رقبتك وتفوتك مباهج اللحظة..». لذلك لم يراودها أدنى شك بحسن نوايا جيرانها، بل وتجزم أنهم يحبّونها مثلما تحبهم. تستقبلهم بوجه بشوش وقلب طازج ينبض بها. دائماً تحشو حقيبتها بالبسكويت والشوكلاته والكرميلا، توزعها على أطفال الحارة الذين ما أن يلمحوها حتى يندفعوا إليها كاندفاع النحلات على الرحيق. والكبار أيضاً كانوا في زمن ما.. أطفالاً، وكانت «وليدة» لا تصدّق أنهم قد نسوا طفولتهم، لأنهم إذا ما فعلوا فإنهم يصبحون قساة القلوب وأنانيين وحسودين وجشعين وحاقدين ومتآمرين. إذا كانت وليدة قد اختارت لسكناها حيّاً شعبياً لاعتقادها أن أناسه يشبهونها. في أماسي الصيف يشرعون أبوابهم وقلوبهم. يجلسون على الكراسي أمام أبوابهم، يتسامرون وهم يحتسون القهوة والشاي والمتّة. «أم عدنان» تبصّر

لها بفنجان القهوة يوم السبت «وأبو عدنان» يحضر لها جرّة الغاز، وعدنان يساعدها في حمل حاجياتها من السوق. الغمز واللمز والهمس بدأ منذ تلك الساعة المشؤومة التي كسرت فيها وليدة كاحلها وحملها «أبو عمار» على ظهره إلى السيارة وأخذها إلى المشفى. «أم عمار» طقّت من الغيرة وهي ترى «وليدة» تركب على ظهر زوجها وتعانق خصره بساقيها ورقبته بساعديها. قال لها «أبو عمار» وهو يلهث تحت ثقل جسدها... ورائحتها: إذا طلّقتني مَرتي بدي إجي لعندك! ومنذ ذلك الحين رفع «أبو عمار» الكلفة بينه وبينها. كأنها إحدى حريمه. يطرق بابها بمناسبة وغير مناسبة متذرّعاً بشتى الحجج كأن يسألها إذا كانت المياه مقطوعة عندها.. والمياه كانت تنقطع عن الحي كله في ساعات محددة، وتارة أخرى يرقّص لها حاجبيه ويحاصرها بنظراته ويلمّح لها بكلام يكسر أهدابها ويحرق وجنتيها!! تقول له «وليدة»: أنت مثل أخي. «أم عدنان» أقلعت عن التبصير لها بفنجان القهوة. و«أبو عدنان» امتنع عن إحضار جرّة الغاز لها. و«عدنان» صار يهرب منها ويتوارى عن أنظارها وهي تنوء بحمل حاجياتها. طفح كيل «أبو عمار» من تجاهلها له. لم يعد يؤمن بالمثل القائل «حط إيدك في عينك متل ما بتوجعك بتوجع غيرك». يظن أن عينه وحدها توجعه إذا ما حطّ إصبعه فيها. يستنكر سفور «وليدة» علناً و يستهجن أناقتها ورائحة القرنفل التي تفوح منها. يقول لها بصوته الجهوري الخشن: تستري ياحرمة. و«وليدة» تؤمن أن الله خلق الإنسان عارياً، ويأخذه إلى ملكوته عارياً، والله وحده جلّ جلاله يحق له محاسبة عبيده لأن« كل عنزة معلقة بكرعوبها». وهي «وليدة» ملابسها محشومة، فضفاضة وطويلة تغطي جسدها وتكنّس الأرض بأذيالها ولكنها لا تستطيع أن تحبس رأسها بطرحه أو منديل، تحرقها حرارته وتوخزها منابت شعرها التي تتعّرق بغزارة. تقول «لأبي عمار»: الحجاب الداخلي هو الأهم. تصفعه جرأتها ويقينها، يمدّ يده ويضع

إصبعه في عينها: يتهمها بالكفر والإلحاد والوقاحة. تحمرّ عينها وتصبح في لون التوت الشامي. عندما كانوا يسألونها عن سبب احمرارها، كانت تقول لهم، أنه الرمد الربيعي الذي يغزوها في كل الفصول.

في إحدى الأيام و «وليدة» ذاهبة إلى معرض الزهور وهي في كامل أناقتها، اعترضها «أبو عمار» في الحارة، ابتلع طوفاناً من بصاق وبعاق قبل أن يضع أصابعه العشرة في عينيها ويرجمها بالعهر. أظلمت الدنيا في عينيها، هطلت دمعاً مجبولاً بالدم نزّ من تحت عتبة بابها وساح على درج البيت وذبح أرض الحارة.

قال الجيران: مسكينة وليدة.. صارت تعْملها تحتها!!

* * *

أبو راغب

يا إلهي.. بقدر ما كنت أخشاه وأنفر منه.. كانت شخصيته تلعثمني وتحيّرني. كنت مجبرة على الذهاب إليه حاملة له صحن الطعام وصرة الغسيل. كنت طفلة، والأطفال يحبّون الملائكة بأجنحتهم الناصعة وخدودهم الوردية: لو كنت يومها قد قرأت «راسبوتين» القيصري أو شاهدته في السينما لشبهته به، والفرق بينه وبين «أبو راغب»، أن «أبو راغب» مربوع القامة، جلد رقبته مطوي على بعضه مثل شرشف متهدل. مستدير الكرش، أصلع الرأس، حليق اللحية والشنب، عيناه وفمه يميلان إلى الجحوظ. أبداً يرتدي جلابيه رمادية اللون، إفرازات رقبته ترسم طوقاً بنياً على ياقتها. يعلّق على رقبته حجاباً عريضاً ضمنه قلب نسر وعين ضبع وفروة ذئب، وإذا ما كلّف بقضيه قضائية كان يضيف إليه حجاباً آخر فيه ريشة نسر وبرقع طفل وليد.. ويبزّ بفصاحته وذكائه أكبر «أفوكاتو»! لذا كان «أبو راغب» مهاباً ومحصناً ضد الخوف والتردد والفشل. يعرف بواطن الأمور من ظواهرها، والذين كانوا يقصدونه لحل مشاكلهم العويصة والمعقدة، كانوا يجلّونه ويحترمونه ويؤمنون بصواب أرائه وبركاته ومعجزاته! بنظره الثاقب الذي كان يخترق به حُجب الحاضر، يقرأ الشخص الماثل أمامه من فردة حذائه وحجم أنفه وبؤبؤي عينيه. إذا كان رجلاً، والمرأة يقرؤها من أردافها وبطة رجلها وحاجبيها! يبلسم أوجاعهما بخلطة عجيبة من الأعشاب ومسحوق العظام وأذناب الزواحف، وفي حال كان قاصده يعاني من مشكلة اجتماعية أو قضائية فإنه ينوب عنه في حلها بعدما يرتدي طقمه الإفرنجي ويعتمر طربوشه المكوي وينتعل بسطاره العثماني. كان «أبو راغب» يقوم بكل هذا مجاناً، وكان يتلقى الهدايا والخدمات مقابل ذلك. مكانته القائمة

على الترغيب والترهيب كان قد فرضها ورسخها بشخصيته القوية الواثقة ومعرفته بهموم الناس البسطاء التي لا تصل أحلامهم إلى النجوم. «آمن بالحجر تبرأ».. وآمن به سكان زقاقه العتيق الذي كان يقع داخل سور المدينة التي دحرت الغزاة عبر التاريخ. أقروا بعلومه الغزيرة واعتبروه من المباركين! و«أبو راغب» كان قد تلقّى مبادئ القراءة والكتابة في الكتاتيب العثمانية وطورها بجهوده الشخصية. نساء الزقاق تناوبن على إرسال الطعام له وغسل ملابسه. كنّ يفعلن ذلك عن طيب خاطر لكسب رضاه وبركاته.

لم يتزوج «أبو راغب» الزواج مسؤولية وعبودية، ونير الزواج يضيق على رقبته الثخينة ويحزها ويحرمه من متعة التنفس والحرية والتجدد اليومي. لذلك لم يرَ راغب النور ليخلّد.. جدّه. كان «أبو راغب» لا يؤمن بالخلود، إذ كان يعتبره كذبة يضحك بها الطامعون إليه على أنفسهم ليخترعوا هالة من العظمة تخفف من وطأة الغياب والنسيان. أخته «فاطمة» تسكن في غرفة مجاورة له. بينها وبينه حائط من اللبن، «فاطمة» تنقش العرائس في ليلة دخلتهن، و«أبو راغب» كان قد أحدث ثقباً في ذلك الجدار وضع فيه بللورة مكبّرة يتلصص من خلالها على الصبايا ويطلّع على تفاصيلهن وأسرارهن ويعرفهن عن كثب.. ويدوخ من رائحة الحنّاء المجبولة بلحم الأنوثة وعطر.. الأنفاس!! أحمل إلى «أبو راغب» صحن الطعام الذي سكبته له أمي. البخار يتصاعد منه في حركات لولبيه إلى ما فوق رأسي ويرسم أكثر من علامة استفهام. كم كنت أشتاق على رائحة الغيوم التي تغسلني مثل الأشجار. ليت الله خلقني شجرة تحتضن الفصول وأعشاش العصافير وقُبل الرياح وأصابع المطر. لو يسحرني «أبو راغب» ويحولني إلى شجرة! ولكني كنت أخاف أن أبوح له بأمنياتي. كما كنت أشك في مقدرته على فعل ذلك. الله وحده هو القادر والعارف.

أقف بالعتبة وأنا أرتعش مثل عصفور وأمعائي تنتفخ في بطني. يكاد صحن الطعام أن يسقط من بين يدي ويندلق على ملابسي. يتناوله «أبو

راغب» وينفرج فمه عن ضحكة لها أسنان ذهبية مؤطرة بمادة بيضاء لزجه. لم أقبّل يده يوماً كما كان يفعل الجميع! يده كبيرة ومكتنزة تشبه الصفعة، وأظفاره محشوة بالسواد. كنت أخاف من عاقبة هذا التمرد.. ربما يسحرني «أبو راغب» إلى نعامة تسرق الأقراط من آذان البنات وتنقل إليه أسرارهن وتنهداتهن. كانت نفسي تعاندني على تقبيل يده. أتسمر في مكاني مثل مسمار وأنا أتأمل عالمه العجيب والغريب عن كل العوالم المعروفة. أتساءَل كيف يعيش وأين ينام؟ جدران مجدورة وزوايا معنكبة وفوضى كأنها مخلفات عاصفة: عظام حيوانات، سحالي ومناقير طير وأذناب سعادين. عيون وقلوب بوم، قرون وعول وكباش، طحالب ونجوم بحرية. تتدلى بخيوط وحبال وتتأرجح في فضاء الغرفة. رفوف محشورة بمرطبانات يعلوها غبار وكمخة. ثمة طاولة وكرسي وديوان في وسط الغرفة. على الطاولة تكدست ملاعق وشوك وسكاكين وصحون وكاسات وبابور كاز كان مشتعلاً على الدوام تحت حلة غصت إلى جمامها بعظام الجمل، كان «أبو راغب» يغلي تلك العظام بعدما يغمرها بالماء حتى تصبح هلاماً يتناوله على الريق! سكان الزقاق يقولون أنه اختار عظام الجمل لأن الجمل قوي وليس له مرارة تفقع من الغيظ والقيظ.. وبالتالي كانت تكسبه طول البال والصبر والحكمة (أبي وأمي ومعظم الناس الذين كانوا يأتون إليه كانوا يشكون من مراراتهم، وكان «أبو راغب» يصف لهم هلام عظام الجمل). قاصدوه من سكان الزقاق وخارجه معظمهم من النساء «المرأة وجود كوني يتخطى الزمان والمكان، طاقتها أكبر من جسدها، وهمومها تفوق طاقتها. تقصد «أبو راغب» ليفتح لها كوّة صغيرة تتسرب منها روحها إلى أفلاكها الطبيعية، لتطرز وجودها بأقمار العشق وتنهدات الشجن»!

كان «أبو راغب» ينفرد بكل امرأة على حدة. انفراد قد يطول أو يقصر حسب تقوس الحاجبين وانفراجهما وامتلاء بطة الرجل واستدارة الكفل وإيقاع الأنفاس. يطلب من المرأة أن تغمض عينيها، يضع في كفها قلب بومة ويطلب

منها أن تغلقه بأحكام.. ويكرج بوح المرأة على لسانها مثل الماء. تحكي له عن ماضيها وحاضرها ودقات قلبها وارتعاشات روحها كأنها منوّمه مغناطيسياً، وإذا ما حازت على ثقته ورضاه، كان يقول لها أن مشكلتها عويصة وتتطلب طقوساً لحلّها. يستضيفها و«يكبّسها»!! العاقر تحمل بعد أن تدفن قرن كبش تحت شجرة التوت، والعاشقة الولهانة تبلى من العشق بعد أن تربط قرادة جمل في كمّها، والمسحورة يذهب السحر عنها بعد أن تعلّق في رقبتها كعب أرنب، والحردانه تعود إلى زوجها بعد أن تطعمه مخ حمار وقلب ضب. أمّا الرجال الذين كانوا يأتونه، وأكثرهم كان يشكو من قلّة «المني»، كان «أبو راغب» يصف لهم مرارة السنونو ليدهنوا بها المناطق الأكثر وعورة وعَوْرة إضافة إلى هلام عظام الجمل. في أواخر عقده الثامن أصيب «أبو راغب» بداء الفالج وتكرسحت قامته وانحسرت هيبته وسحره. هلام عظام الجمل فقد مفعوله وفاعليته. في وضعه هذا المكرسح على الفراش. كان يمدّ يده المرتجفة إلى ما حوله. يتناول «شحاطته» ويلوّح بها يميناً وشمالاً ثم يضرب بها السقف وهو يخاطب الله جلّ جلاله مهدداً: خُدها وريِّحني.. كان يقصد روْحه. اتهمه سكان الزقاق بالكفر والإلحاد وانفضّوا من حوله وهم يستغفرون الله. ولأن الله رحيم بعباده أخذها.. وتركه جثة وحيدة.

* * *

تعارف

في يوم خريفي من عام الأصفار والاحتضار (٢٠٠٠) صادفتها في أحد المقاهي الواقعة على ضفة بردى. كان النهر جافاً وقد تحول إلى مستعمرة للبرغش والقوارض.. وصار يُشبهنا!! صخرة «أذكريني» التي كانت تطلّ علينا من خاصرة الجبل مَدْبوغة بالشمس والنسيان. كانت تتأبط حقيبة يدها وتمشي متثاقلة بأعوامها السبعين. لمّا مرّت بجانبي تلاقت نظراتنا. أحسست بالودّ تجاهها.. كأنني أعرفها منذ زمن بعيد.. عندما كانت لهفة القلوب تسبق الأيدي إلى التلاقي والعناق. أشرق وجهها أثلاماً من ضوء وحبيبات ندى وافتر ثغرها عن ابتسامة طفلة. جَلست في أقصى ركن بالمقهى ولوّحت لي بيدها. تركت حقيبتي وأوراقي على الطاولة وطرت إليها: تلويحة يدها رنَّختني.. بالأشواق. عَرّفتني بنفسها. هي من عائلة دمشقية عريقة. قضت سبعاً وثلاثين سنة في مهنة التدريس وخرّجت أجيالاً عدّة وراتبها التقاعدي (١٦٠٠) ليرة فقط. ولكي أتأكد من صحة أقوالها، فتحت حقيبة يدها وأخرجت منها رزمة من الأوراق دفتر تقاعدها وقصاصة من جريدة محلية كتبت فيها قصتها، وصورة لها مع عبدالناصر وشكري القوتلي وهي تخطب أمام الميكروفون أيام الوحدة. قالت لي أنها تعيش وحيدة بعدما تزوج أولادها، ولامت الموت لأنه أخذ زوجها قبلها، وأنها تعاني من آلام الشيخوخة وتكاليفها الباهظة وراتبها التقاعدي لا يسد جزءاً صغيراً منها، وأنها في أحد الأيام كادت تطقّ من الوحشة. رفعت سماعة الهاتف وأدارت القرص على الرقم (١٤٧). مع أنها كانت تعرف أن هذا رقم الاستعلامات، ولمّا جاءها صوت عاملة الهاتف، قالت لها، أرجوك

لا تقفلي الخط أنا امرأة وحيدة وأريد أن أتحدث إلى أحد. تأثرت بقصتها، ووعدتها أن أهتف لها وأزورها بعدما دوّنت رقم هاتفها وعنوانها على ورقة. ودّعتها.. وعدت إلى مكاني، لأكتب..عنّي. في هذه الأثناء بَعثت لي بصحن «حرّاق اصبعو» كان قد أحضره لها حفيدها.

* * *

الفهلوي

كانت الرياح تُصفّر في بطني وجيوبي وتلفحني بالجوع. الفراغ يحوّلني إلى طبل أجوف يطنّ ويفرقع من تلقاء نفسه. رائحتي هويّتي، تعلن عن وجودي وتسبقني. رائحة عرق وإفرازات جافّة شبيهة برائحة روث البقر. أبداً شعْري يقف على رأسي كالإبر متأهباً مستنفراً للمفاجآت والأحداث التي تهزّ البدن.. يرفض الاستلقاء والنوم، أسقيه «بريانتين» ليسترخي قليلاً... ويرتاح. لشدّ ما أكره أن أبدو منفراً! قال لي خالد: الفراغ أساس التكوين والخلق والامتلاء سأم وضجر وشرور وقسوة. لم أستوعب هذا القول، فالمخ بحاجة إلى فوسفور يضئ تلافيفه حتى يفهم هذه الفلسفة والمفارقه المعقدة. كان خالد يستفزني ويسخر من محدوديتي وجهلي. يحق له أن يفعل ذلك، فهو قد أنهى دراسته الثانوية وأنا تسّربت من الثالث ابتدائي إلى لقمة العيش. ليس لخالد رائحة مثل رائحتي النفاذة والمقتحمة. رائحته هامسة عذبة كأنفاس الصنوبر «أمّه ملّحته ودهنته بالآس ساعة ولادته». رائحة الفلافل والشاورما تشطر روحي إلى نصفين نصف ينعتق منّي ويعانق بخاراً لزجا،والنصف الثاني يتنهنه في جسدي صرخة مفلوشة واهنة. قلت لخالد: رائحة الفلافل والشاورما تنغل فيّ كالإبر وتستنفر خلاياي وتمصلها. أمدّ لساني للشعراء الذين يتغنون بالفل والياسمين ويسقطون الفلافل والشاورما من أشعارهم ولو كنت شاعراً لأنصفتهما بأجمل قصائدي. حلم الشبع يراودني بضراوة الأنياب والسكاكين.. والحياة تعلمنا لغتها أكثر من الكتب. لأن التجارة شطارة ومهارة، سخّرت لها قواي.. وعدت بطني بالشبع وقلبي بالعشق:

أنا لست أبله كما أبدو للآخرين، وإذا كنت أخلط الجد بالهزل وأضحك من جوارحي خوفاً أن يفترسني اليأس قبل أن أحقق أحلامي بالشبع. قلتُ لأمي

في يوم ضاوٍ: لنذبح الستاتي التي تعشعش في شبابيكنا ونسكت جوعنا إلى حين. تجهمّ وجه أمي الضاحك مثل غيمة سوداء. قالت: استغفر الله العظيم سنصاب بالعمى إذا فعلنا ذلك، الستيتية مخلوق وديع ومسالم ومبارك عشعشت على غار حراء وحمت الرسول عليه السلام من أعدائه. لم تكن أمي ولا أنا من جمعية الرفق بالحيوان، فالجوع يحوّل قلبي إلى مقلع للحجارة وأمي تداري جوعها بالإيمان والتعاويذ والصبر. أحيانا يكون الإيمان قوت الجائعين حتى لا يتحولوا إلى جانحين وخارجين عن القانون. الخوف يمنعهم من ذلك! بصبر هازل وجَلَد موجوع السياط سرتُ على طريق تحقيق حلمي (الفلافلي والشاورمي). ولأن الصبر مفتاح الفرج (فتحها الله في وجهي من بيع الحلي وأدوات الزينة التي كنت أعرضها على بسطه في سوق الحرير). أنا «فهلوي» جداً في التعامل مع الجنس اللطيف. أعرض عليهن الحلي، خواتم وأساور وحلق وعقود. بمهارة وثقة تامة بموهبتي في اقناعهن كأنني أعرض حُلي الملكة اليزابيت... ويتهافتن على شرائها. شبعتُ من أكل الفلافل.. حتى عافتها نفسي. تزوجتُ وأكلت الشاورما مع زوجتي «إنصاف» التي كانت تحب الشاورما قبلي! وجه «إنصاف» كان فاتحة خير. تطوّرت تجارتي واستأجرت دكاناً أبيع فيه لوازم العرائس. فار دمي وبقبق جلدي من زخم رائحة الأنوثة التي كانت تفوق رائحة الفلافل والشاورما نفاذاً.. وعذوبة. بدأ جسدي يتمرد على حَلاله ويتوق إلى معانقة كل العرائس:.... وأمي كانت ترقص لأبي الذي كان يكبرها بثلاثين عاماً. تحزم خصرها بشالها وتؤرجح العصا بيدها. تترجرج طيات لحمها وتفور فوق أديمها مثل الموج. وأبي الممصوص كعود القصب كان يغالب ضحكه وهو يتصنّع الوقار: عيب استحي على حالك ياحرمة أولادنا صاروا شباباً. عوامل وراثية زدتُ عليها قليلاً من الملح والبهارات وريالتي التي كانت تسبق ضحكتي وتهرول إلى زوايا فمي. ازددت اخضراراً وتوقاً وشوقاً إلى المرأة. تزوجت «قمر» التي كانت تشبه القمر وتكبرني بعشرين عاماً! «قمر» بعكس «إنصاف» ممتلئة وبيضاء كالقشطة وعيناها زرقاوان مثل الفيروز. تتزيّن مثل شجرة الميلاد وتلبس الألوان الصارخة وتفرقع كالبارود. وآه.. لو كنت أعرف الثمن الذي سأدفعه في الأيام القادمة لقاء

فرحي ومرحي وهزلي! رجلان بنظارات سوداء وملابس داكنة وأحذية لامعة اقتحما دكّاني وأنا في ثياب عرسي. ظننتهما من المهنئين في بادئ الأمر، وقبل أن أمدّ يدي للمصافحة طلبا مني هويتي بلهجة آمرة ذات أجراس صدئة. جفّ ريقي وعودي واستغفرت الله العلي العظيم ولعنت الشيطان الرجيم، قلت لنفسي: راحت عليك يا «جدعان». الرجلان كانا من رجال الأمن، واجهاني بتهمة الخيانة العظمى وهي شتم الدولة!! أقسمت لهما بأولادي الخمسة: – أنا شتمت مؤسسة الكهرباء لأنها تحرمنا من النور ساعات طويلة وأنا أكره العتمة كره العمى.الوسواس الخناس يسكن العتمة. يسرح ويمرح فيها على هواه.ويمهد لي سبيل الغواية. ليُشلّ لساني إن كنت قد شتمت الدولة. كيف أفعل هذا وأنا مواطن فيها ولو فعلت لا سمح الله كأنني أشتم حالي. محسوبكم إنسان بسيط يمشي من الحائط للحائط ويقول يا رب سترك. اسألوا جيراني عني لا أنكر أنني «فهلوي» في التجارة وأتمادى أحياناً في هرجي وضحكي، أفعل ذلك لأحوّل الحزن إلى كوميديا حتى لا أموت من القهر، ولو كنت أعرف أن التصرفات العفوية والصادقة تجرّ الويلات على صاحبها لالتزمت الجدية والوقار وخرست حتى ولو بارت تجارتي. – هل تعرف عاقبة من يشتم الدولة؟ سألني أحدهم. – فلقة تورّم القدمين ويذهب عقلي بعدها. قلت بصوت دامع ومهزوز. توسلت إليهما أن يتركاني بحالي ولا يصدّقا وشاية الحسّاد لأنني أعشق الدولة أكثر من زوجتي إنصاف وقمر. طبطبا على كتفي وانفجرا بالضحك. عرفتُ أن ماحدث كان مزحة تفتَّقت عنها عبقرية جيراني حتى يتسلوا ويضحكوا أكثر!كأنّ ما اخترعه لهم من نوادر وفكاهات لا يكفيهم. من يومها غادرني الضحك.. وصرت مزموماً وجافاً وحذراً.

* * *

جحود

قالوا لي إنني امرأة جميلة! لم أكن يومها قد قرأت بيت الشعر الذي يقول: خدعوها بقولهم حسناء والغواني يغرهن الثناء. لو كنت غانية. أنا امرأة عادية تصدّق أذنيها وعينيها وفمها وأنفها ودقات قلبها أكثر من النصائح الجاهزة المحنطة على الألسن. صدقت كلامهم.. وأصدّه عن تقبيلي، أعاف رائحة فمه الذي كان يستعمله لأغراض أخرى غير الطعام والشراب.. أمقت جلده الأصفر وشخيره الذي يحوّل ليلي إلى جحيم. أجمع حاجاتي وأعود إلى أمي. تتسابق عليّ الدبابير كأنني قرص نحل شهي. أفقد براءَتي وحميميتي.. وأوصد الباب دونهم جميعاً. أبكي الرجل الذي ذوى ونحل واعتل عندما فارقته. أنوح عليه كأول وآخر الفرسان الذين لم أفهمْ حقهم وقابلت محبتهم بالصدّ ومعروفهم بالإساءة!.

* * *

بوِّح.. من زمن آخر

اسمي «فتاة» وكم كنت أتمنى أن يسمّوني «محمودة» أو «ميمونة»!. علماء الفلك يقولون أن للاسم علاقة بالحظّ.. ومن يلبسه اسمه هو إنسان سعيد!. تناقض الاسم مع صاحبه يولّد حيرة وارتباكاً وغربة كل منهما عن الآخر.... ولم يلبسني اسمي. لو كان اسمي «محمودة» أو «ميمونة» ربما تبدّل طالعي وكانت حياتي مختلفة عما هي الآن.. حرف الميم مقدس! يوم الخميس أخذتني أمي إلى الداية ويوم الجمعة نتفوا زغبي وحمّموني وزوّجوني إلى «محمود» وأنا في بدلة الفتوة ومختومة المخارج! في صباح يوم السبت كانت أمي تنتظرنا على باب مخدعنا، نسيت أن تقول لنا صباح الخير.. أو مبروك. كان عقلها مشغولاً بما هو أكثر أهمية!. طلبت من «محمود» أن يسلّمها مناديل شرفي. صدمته المفاجأة التي لم يكن يتوقع حدوثها في مثل هذه السرعة. ارتبط لسانه ثم مالبث أن تدارك الموضوع. ابتسم، ووعدها أن يسلمها لها في أقرب فرصة. ابتعلت أمي كيظها وغيظها وقالت له: – الشرف لا يؤجل.. مضى أسبوع على زواجي من محمود. وأنا أنام إلى جانبه وأرتدي ثلاث كنزات وبنطالا صوفياً وأرتجف من البرد. أتوسل إليه كي يحضنني ليبعد شبح الوحش عنّي. يطلب مني أن أنام عارية.. وتنتابني هيستريا من الخوف. أمزّق الوسائد والشراشف بأسناني وأنا أجهش بالرعب وأخور مثل بقرة ذبيحة. حركة الجسد من حركة الكون. وأنا أخجل من جسدي المتشنّج والمشدود مثل وترْ فوق هاوية. وكان من البديهي أن يكون لي وحدي لأنه وطن روحي ونبع أحاسيسي وفكري.. إذا ما تألم لا أحد يحسّ بآلامه غيري. جلّ ما أخاف أن تقع عينا محمود على عريْه.. ويتهمني بقلّة الحياء والوقاحة و.. «ملعونة القطة التي تعيش من خلال جسدها القططي. لن تدخل الجنّة مثل كلب أهل الكهف «قمطير»!!». نفذ صبر أمي واستدعوا الداية التي كشفتني وقالت:

عذراء. لامت أمي محمود على تقصيره، ووعدها أن «يخرق الميل بالمكحلة» في تلك الليلة. في الصباح ذهبت مع حماتي إلى سوق البزورية واشترينا صبغة دامية، لوّثنا بها مناديل شرفي. زغردت أمي بعد أن طوَت مناديل شرفي ووضعتها في حقيبة يدها وأسرعت لتنشرها أمام الأهل والجارات. تحمَّل زوجي إهانات أمي وطعنه في رجولته وأكبرتُ فيه هذه التضحية. «آه... لو تعرف ما صنعت يداها وفمها»؟ محمود تقيّ وورع يلبس اسمه. يسبّع يديه بالمياه الجارية كلما خرج من دورة المياه، وينظف أسنانه بالمسواك عدة مرات في اليوم. راض عن نفسه كل الرضا لا يحملها أوزار ما يحدث خارجها. متوازن مثل كفتيّ الميزان. يمشي على الصراط ولا يحيد عنه قيد شعرة حتى ولو حدثت عاصفة أو زلزال. توازنه نابع من قناعاته الراسخة وإيمانه العميق. يتقبّل ما قسمه الله له بالحمد والشكر دون أي اعتراض أو تأفف. «ربما كنت الخطئية الوحيدة التي ارتكبها محمود في حياته.. وربما اعترف بها بينه وبين نفسه في زمن متأخر». وأنا «فتاة». لو كنت أمتلك الجرأة أو الموهبة لإخراج ما في صدري على الورق لاحترق الورق وأحرقني!. كأنني معلّقة من قدمي بكلابات حديدية مجلودة بالتعاويذ والريح والليل. يفطرني العطش والحنين إلى الماء الذي كان يعكس صورتي ولا تصل شفتاي إليه.

«ربما كنت حفيده هاروت وماروت». أُدلّع محمود وأناديه «ميمو» ولا يعترض على هذا الدلع الذي يتنافى مع وقاره وسنّه. يضحك كأنني أدغدغه، وحماتي كانت تزجرني غاضبه وتطلب مني أن أناديه «ابن عمي»! اسم طويل على عُمري ونزقي وروحي المعلّقة برأس منخاري. كان محمود الحكمة... وأنا الجنون، الهدوء.. وأنا العاصفة، القناعة.. وأنا الرفض، الإيمان.. وأنا الشك. في الفقدان عدم توازن. هو يملك جسده ويملكني.. وأنا بلا جسد.. روح هائمة تبحث عن مستقر لها. يقول لي محمود: الثلج أبيض. أقول له: ما الألوان سوى خداع بصيري. يقول لي: أنني من ضلعه.وأعزو ما أنا فيه إلى ضلعه الناقص! ولأن الإنسان يحبّ ما ينقصه، عشقني محمود، وأغرقني هذا في بحر من الشجن. كنت جاهله بطقوس الزواج ومسؤولياته التي شطرتني إلى نصفين، قدّيسة وعاهرة، مافوق السُّرة وما تحت السّرة، وفشلت أن أكون أي منهما كما فشلتُ أن أكون نفسي. يدلّلني محمود كقطة ويشتري لي كل أنواع اللحوم. قلوب، كلاوي،

طحالات، أكباد، شرحات، أسماك، فراريج. يحشو البراد بها، وتقوم حماتي بطبخها. يعبق البيت برائحة الزفرة، أربط أنفي وفمي بمنديل.. وأشتاق إلى الرعي في حقول لم تطأها قدم إنسان. حاولت أن أتعلّم الخياطة لأرفو له جواربه، وأعيد لقمصانه أزرارها المقطوعة.. وفشلت في هذا أيضاً.. «طاقتي الكونية سخّرتها للموت». تقصيري في واجباتي الزوجية كان يفاقم شعوري بالذنب، وبتّ أستمرىءالقصاص أكثر من الصفح! أنا لم أختر محمود، هو الذي اختارني ووافق أهلي على هذا الاختيار. وأنا خرستْ.

الخرس لغة السلامة والأمان. وكثيراً ما عذبني السؤال: كيف تحب المرأة الرجل وتنصهر فيه؟ أتمنى أن أموت وأعود ثانية لأكتشف أسرار هذه اللعبة السحرية. أنا بطبعي «فتاة» تستمرئ الخضوع وترفضه في آن واحد!! تلوي السنبلة عنقها عندما تمتلئ بالحَبّ.. وتلك الخاوية يقصفها الريح ويبعثرها هشيماً.

زوجي الحنون والصبور والمتسامح، كان يقلقه مصيري من بعد موته: أتمنى أن تموتي قبلي يا حبيبتي. – لماذا؟ – حتى لا يتزوجك رجل آخر وتتبهدلي من بعدي. حيّرتني هذه الأمنية! تُرى هل هي نابعة من الأنانية وحبّ التملّك والغيرة؟ الأرجح أن محمود الذي كان يؤكد لي دائماً أنني من ضلعه، كان يرفض أن يعير هذا الضلع إلى رجل آخر.

مات زوجي محمود قبلي، وما قطف داليتي المحرّمة. قطعتني الدورة الشهرية وأنا في عقدي الثالث.. وعذراء!! لم أحذُ حذو صديقتي «منتهى» التي ترمَّلت قبلي: كانت تقدم جسدها على طبق من مسامير لكل راغب فيه. وكم تمنّيت أن أعيرها جسدي!!.

* * *

امرأة من هذا الزمان

-١-

- أخائفة أنت؟
- أجل.
- ممَّ تخافين؟
- من قلبي وعيني وأذني وأنفي والعتمة!
- لِمَ تخافين من حالك؟
- لأنهم.. لأنهم.. لأنها.. لأنني خائفة.
- إنهم يفجّرون أنفسهم من أجل قضية وهم في مقتبل العمر، وما أنت سوى كومة من الحطب المتعفّن في أقبية الذات.
- الموت أهون ألف مرة من الخوف.
- انتحري.
- لا أملك الشجاعة ليت أحدهم يباغتني بطلقة أو طعنة.

-٢-

اصطحبها قريب لها إلى صديقه الذي يدير شركة تجارية ليوظفها سكرتيرة لديه. كانت في الرابعة والعشرين. جميلة.. ومطلّقة. دخلت مكتب المدير الفخم يتقدمها قريبها. دقات قلبها كانت تصم أذنيها وتُزلزل أركانها. مدَّت يدها

لتصافحه. استقرت نظراتها على عينيه. تقطعت أمعاؤها واحتقنت مثانتها بالسوائل. أول كلمة نطقت بها:

– أين المرحاض؟

–٣–

منذ أن أصيبت بنوبة فقدان توازن شبيهة بالصرع في الاجتماع التربوي الذي كان مخصصاً لمناقشة ظاهرة الخوف وتأثيرها على النشء، اعتكفت على نفسها خوفاً أن تتكرر تلك الحادثة. زارها الأمير «ميتشكين».(١) أمسك يدها برفق وقادها إلى طريق تكسير المزهريّات والأصنام. قال لها: الارتجاج ماركة عالمية مسجّلة باسم الأرواح المتمردة على القوالب والضيق والأقنعة والبروتوكولات.

–٤–

لمّا زارها الرجل الأربعيني الوسيم والأنيق الذي تعرّفت عليه عند إحدى صديقاتها.. فاحت في البيت رائحة الياسمين، وشعّ نور باهر انعكس على ستائرها المسدلة. نطّ قلبها من قفصه وراح يتقافز حوله مثل كنغر مهللاً بقدومه. ركبتها موجة شديدة من الارتعاش بذلت جهداً كبيراً في السيطرة على رجفان يديها وهي.. تصافحه. كان الوقت مساء ومنزلها عتمة لا تدخله شمس ولا نور تضيئه لمبة نيون شاحبة. كانت الصينية ترتجف معها وهي تقدم له فنجان القهوة. احتسى قهوته على عجل وهي لم تتجرأ أن تشرب فنجانها حتى لا يدلقه رجفانها على ملابسها. ظنَّها مصابة بداء «الباركنسون». ودّعها ومضى وهو يتمنى لها الشفاء العاجل!!.

* * *

---

(١) الأميرميتشكن بطل رواية الأبله لديستويفسكي.

الساحـرة

منذ أن تزوجت ابن ملك الجان، هجرت «زهرة» فراش زوجها لأن الفراش لا يتسع لثلاثة على حدّ زعمها. صارت «زهرة» تفك المربوط والمسحور والمرصود وتشفي القلوب العليلة والأرواح المعذبة. تدلهم على كنوزهم المخبوءة وتشرع لهم أبوابها. ذاع صيت «زهرة» وشاع سحرها. تهافت عليها الناس من كل حدب وصوب، رؤساء القبائل والعشائر والعامة. تحول زوجها إلى سكرتير لها يرتب لها المواعيد. «زهرة» التي هجرت فراش زوجها واقترنت بابن ملك الجان، لم تتهم بالعهر لأنها اختارت مهنه غارقة في الزمن والقداسة. و«عرفان» قرر أخيراً أن يذهب إليها بعدما سُدّت جميع أبواب الفرج في وجهه وأدارت له الدنيا قفاها.

بحكم اختصاصه الجامعي في الفلسفة كان يعقّد الأمور ويعطيها حجماً أكبر من حجومها الطبيعية.. ومن خلال عمله كسائق تاكسي تعمقت معرفته وفراسته بأحوال البشر. من خلال مرآته التي كانت تعكس وجوههم كان يقرؤهم. ومن خلال روائحهم كان يحكم على أوضاعهم الاجتماعية والنفسية.. وكلهم كانوا مستعجلين ومهمومين وملهوفين، والزمن يتخطاهم، لذلك يبدون أنهم يراوحون مكانهم حتى ولو ركبوا سيارة أو طائرة كما يراوح هو مكانه أمام مقود السيارة كأن عجلاتها تسير إلى الخلف مع أنه أحياناً يود أن يطير وهو يتأمل صورة «مارلين مونرو» التي ألصقها أمامه على زجاج السيارة والتي كانت رفيقته الدائمة في مشاويره. في مثل هذه اللحظات النادرة يتجاوز الإشارة الحمراء. يصفّر له شرطي المرور ويكتب مخالفة بحقه. كان «عرفان» يعتقد جازماً بعدما تخطى عقده الثالث، وشجّ سقف الغرفة التي كان يقطنها رأسه وملأه بالفدوع لأنه كان أطول من السقف، أنّ مؤامرة قد حيكت ضده في الخفاء والعلن. «المؤامرة كانت مدروسه ومتقنه أول ما استهدفت

رأسي، جوّفته من الأسئلة والأحلام وجعلته مغارة للمستحاثات والهوام ثمّ قلبي الذي انبثق من صدري مثل قبضة مشلولة وحطّ على سلك مكهرب ونثر فوقه دمه المتخثر». «عرفان» الذي كان راجح العقل صار ينفعل أكثر ممّا يفكر.. والانفعال يفرمه ويشظيه في دوامة الحياة اليومية إلى نتف من لحم وقمامة. يؤمن أن كنزه مرصود في أعماقه تسدّه فوّهة مدفع ومفتاح سرَّه ضائع في بطن حوت!

(وأنا «عرفان» ابن محي الدين) ولدتُ على عشّ الدبابير بينما كانت أمي تهشها بالمكنسة عن قفير النحل. طنين الدبابير يهجم عليّ من مكامن لوعتي، تعشعش إبرها في أكمام سترتي وبنطالي.. وتتدسّ في الأماكن المحظورة.. فائقة الخصوصية! قال لي صديق: ما إلك إلا «زهرة»! كيف لم تخطر على بالي هذه الفكرة من قبل؟ وهل تستطيع زهرة أن تجد خيط الحرير المعقد والمشوش وتسحبه دون أن تقطعه.. وتكرّ الشرنقة من تلقاء نفسها حتى العُري؟ والداخل كوكب معقّد فشل العلماء والأطباء في اكتشاف مجاهيله. لم يتوصّلوا البتّة.. إلى تلك السراديب العميقة التي تؤسس علم الفلك والطبيعة والإنسان. في داخلي كل هذا التعقيد والغموض. تُرى هل ترى المرأة أكثر مما يرى الرجل؟. قالت لي زرقاء اليمامة، أجل.. بين الموافقة والممانعة دهر من التردد والعذاب. شغلتني تلك المرأة المباركة التي لم تسقط مع سقوط الأدلجة. احتلّتني بالتدريج قبل أن أصل إلى عرشها المسحور!. كيف أُلاقيها وقاصدوها بالمئات؟. سألت، وقيل لي أنها تختار زوارها من خلال بلّورتها السحرية!.

«للحزن وجه أكثر ألقاً من الفرح!». الضّحكة الصافية المجلجلة العذوبة تنطلق من سراديب الحزن. وللخوف أيضاً ألف وجه من الغموض والهروب والمماحكة والجنون المنكفئ الجفون.

لم تسكنني امرأة من قبل وتحتلني كما فعلت تلك المرأة. لم أر مخلوقاً باسقاً من مرمر تموج غلالته الوردية الشفافة على أنفاس دمه وترقص على نبض عطره. غلالة الشفق والنحور تسبقها شفاه المقصلة.. تتدحرج رؤوسها السكرى على العتبات الإلهية بعيون شاخصة إلى السماء. سربٌ من آهات

وأنّات وأنفاس متعبة وشفاه تتطاير قبلاتها في الهواء مثل أوراق الورد الجوري. للدمعة هوية المنافي تحفر مساربها إلى البحر في أخاديد الألم» منافذ «زهرة» تبدو للعيان من خلال غلالتها الوردية، ينفسخ ألقها وجمالها على الأكوان، ترقص نجومها وتفيض ينابيعها وتتحول صحاريها إلى واحات وعصافير. دنت «زهرة» منّي، قبّلت يدها جبهتي، حدّقت في عيني.. وعرفتني. قرَّبت شفتيها من أذني واكتفت بهمسه.. لا تفسير لها إلا في النواميس الطبيعية. ناولتني قلماً وورقة وطلبت منّي أن أحرّر جسدي وأُطْلق العنان لروحي وأرسم اسمي: رسمت دمعة تثْقب صخرة.. وزهرة تلوي عنق مدفع.

* * *

العيد

لم ينم «العيد الصغير» في تلك الليلة. ظلّ واقفاً على قدميه يهرول مع الناس في التحضير لقدومه. لقد نام عاماً كاملاً وشبع نوماً. وآن الآوان ليصحو من نومه الطويل ويلعب مع الأطفال. «كل الموجودات على وجه الأرض وفي السماء تنمو وتكبر وتشيخ وتموت. إلا هو «العيد الصغير» بقي يحبو في طفولة دائمة. عمره ثلاثة أيام فقط. هكذا حدّدوه بالتقاويم، حتى ولو أنه قد شاخ في ذاكرة البعض وفقد بهجته الماضيه». ارتضى بقسمته الزمنية هذه وراح يداعب مخيلة الأطفال بالملابس والأحذية الجديدة التي أناموها على وسائدهم وزنودهم، ودغدغ بطون الكبار بالولائم الدسمة. وما أن بزغت الشمس وصاح الديك أسرع وغسل وجهه من النعاس. لبس أفراحه المعتقة وأشرق بالبسمات. (لقد خبر مسرّات الناس وأحزانهم، وسوف يرجّح كفة الفرح.. سيضع كل ثقله فيها. والأحزان ثقيلة كالرصاص، والفرح أجنحة). ارتدى حلته القشيبة وأجراسه العذبة. انتظر الأولاد على المفارق والساحات.. فاتحاً لهم ذراعيه. وما أن بدؤوا يتوافدون زرافات زرافات حتى اعترته الدهشة وفتح فمه الصغير. نظر إليهم غير مصدق عينيه، وشعر برعشة من البرودة صبغت أجراسه بالحزن. أخذه العجب من ملابسهم التي كانت كابية الألوان.. وفقدت جدّتها وبهجتها لأن أطفالاً آخرين في بلاد بعيدة كانوا قد أرتدوها قبلهم.. وينعمون بالطفولة وأعيادها أكثر منهم!! ولأنه العيد.. فهو يحب الألوان الزاهية التي ترقص كالفراشات على أجساد الأطفال. ولكنه لا يملك مالاً ليهديهم ملابس جديدة.. وهو يملك الفرح..

وهو أهمّ وأغلى من المال.. وسوف يضاعفه لهم. لا بأس إن نقع جراحه الآنية.. بالسكر. مسح دمعة عن خدّه وانخرط مع الأولاد صاخباً لاهياً، وراح يراقبهم عن كثب. من كانت خرجيته متواضعه كان يكتفي بركب الأرجوحة أو القلاّبة أو الدوّيخة.. ومعظمهم كان يبتاع الترمس والبوشار والفول النابت. ومن كانت خرجيته تسمح له باقتناء لعبة، فإن البنات كُنَّ يبتعن الدمى، يهدهدنها على صدورهن كالأمهات وينيمنها على زنودهن. والصبيان يشترون المفرقعات والمسدسات والرشاشات لفرض هيمنتهم المبكرة!! أحزنته هذه المفارقة التي باتت مستفحلة ولم تكن دارجة في بواكيرعمره!! في المساء خطف نفسه إلى بيت أبي سعيد. تجّول في أرجائه. لا أثر للمعمول والكرابيج! بضع ملبَّسات مرصوفة في علبة تصدّرت الطاولة. أخذ العيد حبّة منها ووضعها في فمه. غصّ، وجحظت عيناه.

* * *

كليمة

«كليمة» صديقتي، تلحّ عليّ دائماً أن أكتب قصة حياتها. أقول لها، أن حياة كل امرأة في وطني ملحمة تراجيدية. فتجيبني، أن بعض فصول حياتها يجب أن تُكتب لأنها مختلفة، ولا تشبه إلا «كليمة». تُغمض عينيها، ومن ذاكرة غائمة حاضرة. تتذكر أول سطر كتب فيها، حروفه محفورة بمدية. كانت يومها في الخامسة من عمرها عندما هاجروا من قريتهم في جبل لبنان في مطلع الأربعينات من القرن الماضي إلى مدينة القنيطرة. حيث عمل والدها حارساً على شوالات القمح في مخازن مديرية الميرة. جاوروا عائلة «أبو جورج» الذي كان يعمل في الجيش الفرنسي. «أسرة كليمة مؤلفة من أبيها وأمها وإخوتها الذكور الثلاثة وهي». تقتصر وجباتهم الغذائية الرئيسة على خبز الذرة. كانت أمها تعجنه وتقرّصه وتخبزه على لوح تنك يشبه الطّارة الصغيرة فوق بابور الكاز. إخوة «كليمة» كانوا أصغر منها ولا يعون تلك الفترة، وعندما كانت تحدّثهم عنها.. لا يصدّقونها!. عقدت «كليمة» صداقة مع ابنة الجيران «جورجيت» وكانت تلعب معها لعبة «أنا النحلة أنا الدبور». تلك اللعبة التي تحتّم على لاعبيها أن يديروا ظهورهم لبعضهم ويشبكوا أيديهم ويتناوبوا في شقل بعضهم. كانت «جورجيت» ترفع «كليمة» على ظهرها وتحملها كأنها تحمل ريشة، «وكليمة» عندما يجيئ دورها لترفع «جورجيت» كانت ترتجف مفاصلها وتتطوي وتكاد أن تسقط «جورجيت» على الأرض. «جورجيت» مكتنزة ومتورّدة.. «وكليمة». نحيلة مثل سنبلة القمح. أهل «جورجيت» يأكلون الخبز الإفرنجي الذي كان يحضره «أبو جورج» من الثكنة. كانت «كليمة» تنظر إلى رغيف الخبز الإفرنجي باشتهاء.. وتقدّر طوله بطول قامتها. عمّقت صداقتها مع «جورجيت» لتشم من خلالها رائحة الخبز الإفرنجي، وتتذوّقه في بعض الأحيان، عندما تقدم لها «جورجيت» قطعة منه كانت تتأملها وتشمّها وتحسّ بالدوار. تحدّق في لبّها الأبيض الذي يشبه عشق اللآلئ. تضعها في جيبها، وفي البيت تجزئها

إلى نتف صغيرة توزّعها على أسرتها الذين كانوا يدسّونها في رغيف الذرة ويلفونه كسندويشة. كانت «كليمة» ترافق أباها أحياناً إلى عمله. تلتقط حبّاب القمح المتناثرة على الأرض، تجمعها في كفها، وتنْقدها مثل عصفور.

كانت «جورجيت» تحبّ «كليمة» وتحزن على نحولها وشحوبها، وهذا ما دفعها إلى رفع الفراش من «الليوك» وأخذ رزمة النقود التي كانت أمها تخبئها إلى اليوم الأسود. أعطت النقود إلى «كليمة» وتوسلت إليها أن يشتروا بها خبزاً إفرنجيا ومرتديلا وبسطرما. فرحت «كليمة» وأعطت النقود إلى أمها، وكان جزاؤها صفعة على خدّها وأمها تقول لها: نحن لسنا شحاذين أو حرامية. أعادت «أم كليمة» النقود إلى «أم جورج». اعتذرت لها قائلة:« أنهم أولاد لا يعرفون سامحيهم». بدأت «كليمة» تعي العيب والحلال والحرام، تكبر وتهرول إلى الشيخوخة، بدّلت أسنانها اللبنية، أول ضاحك قلعته عنوة ورمته في عين الشمس قائلة: «يا شمس يا شموسي خذي سن «كليمة» وأعطني سنّ الأميرة الذهبي». لم تستجب الشمس لطلبها، عندما نبت سنّها كان مثلّماً كمنشار وعريضاً كمجرفة، وصارت أمها تناديها بـ «أم مجارف» وهذا ما دفعها أن تزم شفتيها.. وحرمت نفسها من الضحك. «ابو كليمة» كان يقضي معظم وقته بين شوالات القمح التي يحرسها.. ويغصّ كمن يبتلع سكيناً. يحرس عشرات الشوالات وليس في بيته كمشة طحين منها!

أشار عليه «أبو جورج» أن يأخذ منها شوالاً إلى بيته.

قال له، معاذ الله هذا حرام لأنه سرقة.

أجابه «أبو جورج»، لن يكتشف أحد نقصان شوال من بين عشرات الشوالات.

ثم برّر له هذا قائلاً: أنت أحق بها من غيرك، ضمير الفقير بطنه، أنت جائع والله لا يحاسب الجائعين.

انتهز «أبو كليمة» حلول الظلام وحمل الشوال على ظهره، وقبل أن يصل به إلى البيت أصيب

بأزمة قلبية ومات.

* * *

اغـتـراب

-١-

يا امرأة.. يا أنت.. يا أنا..

يكتبونك قصيدة، وطناً، عشقاً، لعنة، خطيئة، موتاً.

يختزلونك في شيفرة الغياب، يحاصرونك في قواميس اللغة، يحنطونك في توابيت النعوت.

ولا يسألونك من أنت؟

وأنت أنت.

طبيعة متجددة الولادة والخصب وعناقيد الأجنة.

أنت عجينة الجمر في رحم البراكين، موقدها قلبك، وحطبها عظامك ورمادها شفتاك.

لو أنهم أصغوا إلى صراخ الشجرة والمنشار يحزّ جذعها.. ربما اقتربوا من وجعك.

لو حرّك سكونهم وهمودهم عويل الرياح وصخب الأعاصير.. لاقتربوا من محراب حزنك.

لو.. تغلغلوا في عبير الوردة.. لتوصلوا إلى سرّ جمالك.

عيناك المخضبتان بالأشواق، سرّك الدفين.. مرايا الماضي والحاضر والمستقبل، فشلت كل الأحلام في النفاذ إلى رحمه.

-٢-

يخطئون في هويتي الشخصية.

لون عينيّ.. واسم أمّي.

كتبوا فيها: العينان سوداوان.

اسم الأم: ملكية...

لم تناقشيهم في هذا.. وبَصمتِ لهم بالعشرة.

ولون عيني، أزرق.

واسم أمي ملكة، ولكنّها لم تملك يوماً تاجاً أو صولجاناً.. أو حتى جداراً تسند إليه تعبها.

أبداً لم تصل رسائلها المحروقة إلى قلب أبي.

-٣-

أنا من برج الحَمَل.

وطالعي المريخ.

قررت أن أكتب عن العصافير بعدما حاصرتني هموم الأرض.

اقتنيت عصفوراً أخضر اللون.

حبسته في قفص، وضعته أمامي على الطاولة.

أسهبت في الكتابة عن القفص.. ونسيت العصفور!!.

* * *

أهداف مالحة

الرغبات المقتولة

تشبه جثثاً جميلة

لا تعرف الشيخوخة

«كفافي»

تأديـب

ما عاد الديك الفصيح من البيضة يصيح

ديك دجاجتنا ما أن نقر البيضة وأطل برأسه وهمّ بالصياح حتى أشهر أبوه الديك الكبير السمين والوقور منقاره ونقره من حنجرته. لم يمت الديك الصغير كما أنه لم يخرس كلّيا، من حنجرته المنقورة صار يخرج لهاثه صفيرا عذبا يشبه غناء العصافير.

لذلك صادقته العصافير، كانت تتقافز حوله وما إن تلمح الديك الكبير حتى تطير هلعة إلى الأغصان ومن هناك كانت تطلق لحنا محرّضا تدعو الديك الصغير إليها.

يفرد الديك الصغير جناحيه ويصّفق بهما، ما إن يرتفع قليلا عن الأرض، حتى يهبط إليها ثانية، كرر المحاولة أكثر من مرّة، دبّ الخدر في جناحيه وأجهدته محاولة الطيران.

أمّه الدجاجة كانت تراقبه بحزن، وينفرط قلبها ألما على ديكها الصغير المنقور الحنجرة، الذي يغنّي كالعصافير ولكنه لا يستطيع أن يطير مثلها. رجته أن يقتنع بأنّه ديك وإن كان ينتسب إلى عالم الطيور وهو محكوم بجيناته الدجاجيّة الأرضيّة التي تمنعه من الطيران.

ونصحته أن يكفّ عن تقليد العصافير.

لم يقتنع الديك الصغير بكلام أمّه لأن الكبار يخشون الطيران لذلك ينصحون الديكة الصغار أن يقتنعوا بأنهم ديكة وليسوا عصافير. لذلك كان ينتظر نوم أمّه وأبيه وذويه الذين كانوا يأوون إلى الخمّ في غروب الشمس، لينطلق إلى بستان قريب مكتظة أشجاره بأعشاش العصافير النائمة، وكان يصغي السمع إلى الصوصأة الهامسة التي كانت تتسرب منها بين حين وآخر، تطربه وتدغدغ جناحيه فيفردهما ويصفق مبتهجا، ولكنهما يخذلانه كما في المرّات السابقة... ولم ييئس الديك الصغير ولم تخطر على باله أبدا فكرة أنّه لا يستطيع الطيران، بل كان متأكداً أن محاولته في الطيران ستنجح في يوم ما.

وفي بكور أحد الأيام وقبل شروق الشمس نهضت الديكة وبدأت بالصياح.. أطلّ

الصباح بأهدابه الرطبة التي غطّت جسد العصفور الصغير الساكن النائم تحت شجرة وارفة العصافير. كان منقاره مفتوحا على حشرجة شدو مديد الطيران.

ضياع

كان العرب يحتفلون بالولادات الثلاث..

ولادة طفل وولادة فرس وولادة شاعر.

عندما غادر رحم أمه الدافئ كان يبكي

لعلع الرصاص ورقصت الأرض وبحّت الحناجر من الزغاريد.

ألبسوه اسم جده وثياب من سبقوه من الأخوة.

لما كبر صار يشبه المهرج يمشي إلى الخلف ويتعثر بخياله.

أخذوه إلى الطبيب الذي تعجب من أقدامه المفلطحة التي تشبه خفي الجمل، ونصحهم أن يفصلوا له حذاء جديداً ولما انتعله صار يمشي إلى الأمام ورأسه إلى الخلف.

لذلك لم يعرف كيف يحدد طريقه إذ كل خطوة إلى الأمام كانت تعقبها سقطة!!

انتظار

عندما كانت طفلة بدأت بحياكة شال أحلامها على مسمارين، لأنها لم تكن تملك المال لشراء سنّارتين. كانت دائما تختار الخيوط الزاهية التي كانت تجمعها من الكنزات العتيقة، تغسلها وتعقد خيطانها وتلفّها على أصابعها مثل كرة صغيرة. كان الشال يطول مع تقدم العمر... صار أطول من انتظارها لفارس أحلامها الذي كانت تحيكه من أجله.

في الغرزة الأخيرة قبل أن يطفىء الغبش عينيها لمحت من خلال جفونها المتورّمة وأهدابها الرطبة فارسا يشبه دون كيشوت يعتمر طاسة الحلاقة ويمتطي فرسا دامع النظرات واهن الخطوات علقت حوافره بشالها وكرّت خيطانه من أول غرزة إلى أن انتهى إليها. انقطعت خيوط الشال...

سقطت يداها إلى حضنها وغابت.

معذرة من كافكا

بعدما تحوّلت إلى حشرة لا يزال يراودني من حين لآخر شعوري القديم:

عندما خيّل إليّ في أحد الأيام أنني ممشوقة القوام هيفاء القد خفراء الخد ألبس قناعاتي وجسدي وأرقص أحلامي في حضن نجمة تسكن عيني...

يعتريني الإحساس بالذنب.. وبمهانة التكفير القصوى أرتدّ إلى واقعي المعيش وألتصق بزاويتي الطحلبية خوفا من سحق الأحذية لماهيّتي اللزجة التي تقودني إلى هلاكي المحتوم والمحكوم بالانسحاق.

للمخلوقات أقدارها المرسومة في سطور الغيب:

الفقراء والمرعوبون لا يساهمون في صنع أقدارهم يلتزمون بالتبعية الكاملة ليأمنوا شرور العالم من حولهم.

الجنرالات والتجار وحدهم المخوّلون برسم أقدار البشر.

من سار على خطا أبيه وجده سلم من مطبات الطريق ومهاويها.

حاولت مرارا وتكرارا أن أطبّق بصمات يديّ وقدميّ على بصمات أقدام من سبقني كنت أخطىء دائما ولم أفلح أبدا. أنا لم أحاول عن عمد التمرّد على تلك البصمات.. أبدا.. أقسم على هذا بالله وملائكته ورسله وأوليائه. كانت مقاساتي هي السبب في هذا الشذوذ الذي جعل خطواتي مختلفة عمّا سبقها.. تشبه الرقص أحيانا والبكاء حينا آخر، وبصماتي أوتار لروحي التي كانت تعزف غربتها على ألوان الغسق.

الكتب التي قرأتها في بواكيري أكّدت لي أن الحياة لا تعيش في غرف الأمس. حاولت أن أبني غرفة بشرفة تطل على العالم. تطاير شعري ورقص ثوبي وكادت أن تنبت لي أجنحة قبل أن يهدموا شرفتي.. ويعهّروني..

الاختلاف مرفوض جملة وتفصيلا مهما كان هدفه ونوعه وجنسه وجنسيته. هو معصية بحد ذاتها ويجب أن يطبق على مقترفها أقصى العقوبات... وإذا كان هذا الاختلاف أنثى فهي تستحق الرجم والوأد.

غافلوني.. جاؤوني متلصصين بخطواتهم الهامسة المجبولة على الجبن والغدر ربطوني إلى معلفهم بعدما أنهكوني بسياط ألسنتهم وبصاقهم... ذوّبوني بفحيح حقدهم الذي عرّش على جسدي لعنات وطعنات.

ضمرت.. ووهنت من أسيد أشباحهم وخطاياهم وذنوبهم.

اندسست بجحور الرخويّات أقتات من لعابي.. وأذوي في عتمة تعويذاتهم.

أنتظر بفارغ الشمس هلاكي..

كم أتمنّى أن يكون هلاكا ذاتيا... بعيدا عن سحق الأحذية وكتم الرعشات:

أعرف أن هذا مستحيل...

فلا حقّ للرخويّات في الاختيار!

لــوم

لامت القطة بعض الكاتبات اللواتي يكتبن عنها من خلال جسدها وغريزتها ولا يتعرضن لروحها التي لا تختلف عن أي روح خلقها الله:

كم يسعدني أن يتسلل جسدي إلى الأقلام كرمز من رموز الرفض والقهر. ربما لأنني بسبع أرواح لأن البشر يسومونني كل ألوان العذاب. كما أن لديّ طاقة كبيرة ونبعا لا ينضب من قوة الاحتمال والصبر على الشدائد والآلام.

تعددت أسمائي. هرّة، سنور، خيطل... وتدنت مكانتي وقلّت قيمتي.

سلّطني الله على الفأرة «أم الخراب» التي جذبت فتيل السراج وأحرقت سجّادة النبي وقطعت حبل سفينة نوح.. ومع ذلك لن أدخل جنة الخلد مثل «قمطير» كلب أهل الكهف وناقة صالح وبراق النبي وحمار العزيز لأنني من الممسوخين كما نعتوني.

يقولون إن الله أمطر الحزن على بني آدم أربعين سنة وأمطر عليه الفرح عاما واحد.

لذلك كان الإنسان حزينا بطبعه، ونحن القطط ندخل الأنس إلى وحشته والفرح إلى قلبه بمداعباتنا البريئة.

لا يعوضنا شبع القصور وترفها عن حريتنا... ننطّ من النوافذ ونتسسلل من شقوق الأبواب نبحث عن ذواتنا في متع عابرة مثلنا مثل بقية الحيوانات لحفظ النوع القططي.

نحن معشر القطط نقدس الحرية، نحترم أجسادنا ونلبي حاجاتها بشتى الطرق ولا نعدم الوسيلة لذلك.

حتى ولو كان تحت سيّارة وغالبا ما ندفع حياتنا ثمنا لذلك. نموء وتتمزق حناجرنا بالصراخ إذا ما أقصينا عن فطرتنا وأجسادنا.. ومهما توارينا عن الأنظار ونحن نمارس حقنا الطبيعي في السفاد لا نسلم من تطفل الناس الذين يقطعون علينا وصالنا بالضرب والركل.

ما ذنبنا إذا الحرّة خجلت وذو الغيرة هاجت حميّته وعزب تحركت شهوته عندما نحمّل أصواتنا رعشات أجسادنا التي تهيج في فصل الشتاء صارخة من أجل السفاد؟.

للرفض والقبول عندما نختار نصفنا الآخر شروط ومواصفات ليست بالسهولة التي تظنونها، نبحث عن الأفضل القادر على إقناعنا وإغوائنا بعدما نخضعه لامتحان يتطلب صبرا طويلا ومقدرة على تحمل الصدّ والنهر واللطم:

أنا «نرجس» في موسم السفاد أغسل جسدي بلعابي وفي أكثر الأحيان اختار شجرة عارية وأصعد إلى أحد فروعها وغالبا ما تكون هذه الشجرة مكتظة بالقطط من الجنسين حتى ليخيل للناظر إليها أن ثمارها قطط.

أختار مكانا بارزا وأمدد جسدي على أحد الفروع وأختار «هارون» قط الجيران الذي كان يلاحقني منذ فترة، أتعمّد ألا أنظر إليه مباشرة لكي أوهمه بأنه لا يعنيني، ولكنه لا يملّ من التحديق في عيني ويشم رائحة أنفاسي تمتد هذه المناورة ساعات طوال وقبل أن ييئس أغادر الشجرة، ويلحقني مباشرة.

أتسلل إلى تحت سيارة وعندما يقترب هارون منّي أنهره تارة وألطشه تارة أخرى بيدي حتى ينهنهه الذل والتعب وقبل أن ييئس منّي ويغادرني أستلقي على ظهري وأقوم بحركات لا تخلو من الغنج والدلال والإثارة ويتم التواصل.

تؤنبني «عصمت خانم» المرأة الوحيدة التي أعيش معها وتكيل لي الشتائم لأنني وسّخت صوفي الأبيض تحممني بالشامبو وأرتعش من البرد ولكنها لا تبالي بارتعاشي، أدفع ثمن متعة عابرة تعتبرها عصمت خانم وقاحة وقذارة وتحرمني من الخروج من المنزل.

أمارس حريتي في حديقة المنزل المحاطة بالجدران الإسمنتية والتي لا يستعصي تسلّقها على هارون.

نغافلها حتى تنام ونتواصل.

أصوات موائنا توقظها وتراقبنا من خلف ستارة النافذة بفضول وحسد شديدين،وربما تمنت أن تكون قطة.

منذ أن صارت عصمت خانم تترقب لقائي بهارون تبدلت حياتها أصبحت تكحّل عينيها وتضع الحمرة على خدودها، ودّعت أعوامها الخمسين ووحدتها عندما قررت الزواج من «أبو تحسين» السبعيني ولعنت القطط منذ ليلة الدخلة.

في كل ليلة يسمع فيها «أبو تحسين» مواءنا أنا وهارون يجتاحه سيل من الإسهال وتسارع عصمت بوضع كيس نايلون على مؤخرته حتى لا يلوّث برازه الفراش «فأنا أحفر التراب عندما أريد أن أقضي حاجتي وأدفن فيه بولي وبرازي ثمّ أطمره حتى لا تشمّه الفئران وتتحاشاني».

حمّلتني «عصمت خانم» أسباب سوء بختها وما جرى لها وصارت تطاردني وتضربني بالعصا وهي تكيل لي الشتائم وتنعتني بأقذع الألفاظ وتقول لي: اغربي عن وجهي يا قطة النحس.

امتلأ جسدي بالرضوض وغادرت بيتها مكرهة إلى الشوارع والأزقة. أبحث عن طعامي في حاويات القمامة وأنام في أماكن متفرقة، تحت الدرج أو في خرابة أو حديقة. أصبحت مشاعا لقطط الشوارع.

اسودّ صوفي وهزلت. في غمرة شقائي لم أنس عصمت خانم كنت بين الحين والآخر أموء تحت نافذتها وأخرمش على بابها علّها تشفق علي وترأف بحالي، والنافذة مغلقة، أعلق تضرعاتي وبكائي على درفتيها وأمضي إلى سبيلي.

ما ذنبي إذا كانت عصمت خانم قد أساءت الاختيار؟ آه.. لو يفهم البشر لغتنا وخاصة تلك التي نهرّ بها من أحشائنا عندما ننعم بالشبع والدفء «نسبح بحمد الله ونشكره على نعمه التي خصنا بها وأوّلها أنه قد خلقنا قططاً بسبع أرواح تعشق الحرية المجبولة بالرغبات والدم.

لا ذنب للعصافير

بترت سبابة يدها اليمنى المصبوغة بالدم التي خرقت بها شرفها...

زرعتها في ليل عاصف.

نهضت السبابة شجرة.

فروعها أظافر طويلة تمزق لحم العصافير الذين يتقافزون عليها ويغنّون... ذبحها.

الأصبع «المعيوبة» يجب أن تقطع وتشفّى من شجرة الحياة هذا ما قاله فتى غرّ قطع رأس أخته العذراء بفأسه لأنه اعتقد أنها خدشت شرفه... حزنت عليها صديقتها وبكتها حتى يبست دموعها، وانتقاما لها مدّت سبابتها اليمنى إلى نبع شرف القبيلة.. ومزّقته عن عمد.

الكرسـي

كرسي المدير لا يشبه كراسي موظفيه:

ضخم، فخم، ظهره «عالي» وجوانبه «منجّدة» ومقعده «وثير».. لذا كانت سطوته حاضرة أبدا ويرهبه أصحاب الكراسي المتواضعة.. حتى ولو كان خاليا.

عشرون عاما مضت على استقالتي من عملي لم يفارق ذاكرتي خلالها «كرسي المدير» الذي كان يسد باب القسم الذي أعمل فيه فيضطر المراجع إلى الدخول بالعرض.

وحكاية هذا الكرسي ربما باتت مملة من كثرة تكرارها، وربما بدت تقليدية. وخلاصتها، أن مديرنا الجديد الذي حلّ محل مديرنا القديم كان أول شيء فعله قبل أن يباشر مهامه هو تبديل الكرسي الذي كان يجلس عليه سلفه مع أنه كانت لاتنقصه الفخامة ولا الوجاهة، ظهره عالٍ ويدور في كل الاتجاهات حسب حركة المقعد الذي يجلس عليه. ومع ذلك بدّله مديرنا الجديد حتى لا تصيبه عدوى الانزياح. ولأن مديريتنا كانت محشورة بالأقسام وضيّقة ولا يوجد مستودع فيها كان هذا الكرسي من نصيبنا وحشروه خلف باب قسمنا. زميلتي في القسم منيرة «حطّت عينها» على هذا الكرسي لأن كرسيها كان ضيّقا عليها فهي بدينة وجوانبه تنتّف ملابسها. وكرسي المدير الذي يسدّ باب قسمنا تستحقّه منيرة عن جدارة لكي تريح عليه بدنها فهي مددت سنيّ تقاعدها بعد أربعين سنة قضتها في التعليم وخرّجت خلالها أجيالا متعاقبة... هذا الكرسي بمعناه المجازي صغير عليها، قيمة الكرسي ليس بمنصب من يجلس عليه فقط وإنما بقيمته وماهيّته، فإذا كان كبيرا يكبر الكرسي به وإذا كان صغيرا مهما اعتلى من مناصب يصغّر الكرسي مهما كان فخما.. يبقى صغيرا حتى ولو جلس على السحاب.

زميلتي منيرة المكتنزة بذاتها، بخطّها الجميل وديباجيّتها المنمّقة رفعت كتابا إلى المدير ليسمح لها أن تستبدل كرسيها بذلك الكرسي، وردّ عليها المدير بعدم الموافقة غير عابئ بسنوات عمرها التي قضتها في التعليم.

كانت في الستّين؟ «وربما لو كانت» شابة لاختلف الأمر وانقلبت المعادلة لم تكلّ منيرة وظلت ترفع إلى المدير الكتاب تلو الكتاب وفي كل مرّة تغيّر الديباجة حتى صار هذا الكرسي حديث الدائرة مما حدا بنا نحن الموظفين أن نكتب عريضة نعلن تضامننا معها ووقعنا عليها جميعا ورفعناها إلى المدير الذي وافق وهو منتفخ الأوداج.

أنظر إلى منيرة وهي تجلس على كرسيها الجديد الذي بدا لي كأنه مفصّل لها تفصيلا ويليق بقدّها وحجمها.

لقد شرّفته عندما جلست عليه وغسلته من نفاقه وأدرانه السابقة.. وملأته عن استحقاق وجدارة.

لم يمرّ أسبوع على جلوسها على هذا الكرسي حتى مرضت وشحب لونها كأنّما لعنة قد أصابتها.

بدأت تذوي وتذوب كالشمعة ورحلت عن هذه الدنيا بعد فترة قصيرة:

ربما كانت لعنة الانزياح التي ترافق هذا الكرسي من نصيبها.

حزنت على رحيل منيرة التي كانت أمّاً وأختاً وزميلة، وكلّما نظرت إلى كرسيها الفارغ الذي كان يتصدر الغرفة أغصّ بدمعي.. وأكيل له اللعنات.

رحلت منيرة... وبقي الكرسي، الكراسي لا ترحل برحيل أصحابها. تبقى شاهدة على عصر يسيّدها ويفخّمها ويبجّلها ويربط قيمة الإنسان بأحجامها وأشكالها، فالذي يجلس على كرسي بظهرِ محميّ من عوادي الزمن ومن يجلس على كرسي لا ظهر له ينكسر ظهره.

قصّة واقعيّة

جارنا عماد رحمه الله كان يعشق الشعر والشعراء ويعجب أيمّا عجب بما تجود به مخيلته الشعرية، وكان مرتادو الحانات هم جمهوره الوحيد. عندما يقرأ قصائده عليهم كانت أكفّهم تتورّم من التصفيق وحناجرهم تبحّ من صيحات الإعجاب وكان يطفح بالعظمة ويشعر أنه أمير شعراء كل الدهور والعصور.

عندما تفرغ الحانة من زبائنها يعود إلى بيته «مطوطحا» وهو يردد شعر المتنبي:

الخيل والليل والبيداء تعرفني...

يشق صوته حلكة الليل ويتفاقم لديه الشعور بالأهمية.

وكلّما ترنّم بالخيل والليل كان يخبط الأرض بقدمه ويوقظ زوجته وأولاده يستغلّ فترة صحوهم ليقرأ عليهم قصيدته العصماء الأخيرة.

يديرون له أقفاءهم ويعودون إلى نومهم جائعين وهم يحلمون برغيف الخبز!

كان المتنبي مثله الأعلى لذلك قرر أن يحذو حذوه ويطرق باب البيك لينال حظوته وعطاءه كما فعل سلفه المتنبي مع سيف الدولة ليشبع أولاده الجياع ويبرهن لهم أن الشعر يطعم خبزا ومجدا....

ربما اقتنعوا بموهبته الشعرية وهللوا وصفّقوا له كما يفعل أصدقاؤه في الحانة بدلا من أن يديروا له أقفاءهم. من أجل ذلك قرّر عماد أن ينظم قصيدة

طويلة يخلّد بها البيك مستعرضا مواقفه الوطنية وفضل أياديه البيضاء على الوطن والإنسانية، وزيارته شخصيّا والمثول بين يديه ليقرأ في حضرته قصيدته العصماء، ومن أجل أن يضفي على قصيدته قيمة جمالية وعذوبة باذخة اصطحب ابنته زينة ذات الأربعة عشر ربيعا بعد أن ألبستها أمها فستان العيد الجلّناري الذي أشترته لها من البالة وفردت لها ضفائرها الشقراء فهطلت على ظهرها كأمواج الشمس..

صارت زينة قصيدة تبزّ قصيدة أبيها.

أمسك عماد ابنته بيد وباليد الأخرى قصيدته وقصد البيك في قصره الصيفي وكلّه أمل بأن البيك سيرحب به ويثني على جمال ابنته وقصيدته ويغرقه بكرمه وربما أصبح صديقه وشاعره الخاص....

ولكنّه ما كاد يخطو خطوتين في حديقة القصر حتى هاشت عليه جوقة الكلاب... أطلق قدميه للريح وهو يجرّ زينه خلفه كجرو صغير.. صراخها الذي اختلط بنباح الكلاب كان يفلق الصخر.

في معمعة الهروب هذه أطاح الخوف بالورقة الزرقاء المؤطرة بالورود التي كتب عليها عماد قصيدته...

تقاذفتها وتناوشت عليها أشداق الكلاب.

في مساء ذلك اليوم ذهب إلى الحانة وعلى غير عادته انزوى صامتا في ركن قصي.. تجرّع بطحة عرق «سك» زاغت عيناه وفتل رأسه وهبط إلى الطاولة:

غادره ضجيجه عندما توقف فؤاده عن الخفقان.

عـودة

غادر قلبي قفصه وذهب يائسا إلى مقبرة القلوب المحطّمة

لم يجد له مكانا.

عاد مضرجا بالحزن والخيبة.

تسكع في الحواري والدروب.

عثر عليه أطفال مضرّجو الوجنات.

راحوا يلعبون به ويلبطونه بأقدامهم الصغيرة... كالكرة.

عاد إلى صدري لاهثاً من الرقص.

على مقبض الباب

على مقبض الباب
صدى لأصابع مرتعشة
وعلى السجادة همسات لأقدام دافئة
عبرتها على عجل
قال الباب أنا بردان من صفعات الريح
قالت السجادة أنا حارة من وهج الذكرى
قالت المرأة أنا أشتعل ثلجاً.

على درج مقهى النوفرة

كلما جلستُ في مقهى النوفرة ترتد ذاكرتي إلى الوراء.. إلى زمن غابر ما زال ملتصقا بحدقتي ومشيمة روحي:

تعود تلك البنت الصغيرة التي كانت تحمل أخاها الصغير على ظهرها وتجلس على إحدى درجات مقهى النوفرة في التاسعة من مساء كل يوم تقاوم نعاسها بضراوة، وبكلتا يديها تتتشبث بيدي أخيها الصغير ابن العامين الغافيتين على كتفها خوفا أن يسرقه الحرامي ويضيع منها.

تصدمني وتفتت كبدي عينا تلك الصغيرة الواسعتان، الناعستان.... كانتا تتسعان لأحزان العالم كلّها.

من خلال رموشها الكثيفة تراقب بفرح ممزوج بدهشات واهنة أضواء المقهى وتحسد روّاده الذين يتسامرون وتعلو ضحكاتهم ربما لأنهم كبار لا يخافون من العتمة مثلها، وتلومهم في أحيان كثيرة لأنهم تركوا أولادهم في البيت وحدهم، وربما كانوا يخافون من العتمه ووحوشها، ويحملون إخوانهم وأخواتهم الصغار على ظهورهم يغالبهم النعاس وهم ينتزعون أنفسهم من فراشهم، يجرجرون أجسادهم وأثقالهم ويجلسون الآن على الدرج مثلها ويحلمون أن يناموا على زند دافىء وترنيمات أغنية مغزولة بأحلامهم...

قبل أن ينام نعاسها تنهض متثاقلة بحملها الثقيل على سنواتها السبع تجرجر خوفها وتغيب في جوف العتمة....

عتب على فيروز

بيت يغور في الأرض، «قبو» يرزح تحت أربعة طوابق لعمارة رمادية عتيقة، له نافذتان مشبوكتان بالحديد الأخضر المتصالب الذي كبا لونه. سقفه واطىء على أنفاس سكانه المحرورة والنزقة يعرق باستمرار وينقط على رؤوسهم. خمسة أفراد منكوبون بالحركة والصخب والأمنيات الممشوقة القوام. في قيلولتهم يرفعون رؤوسهم ويراقبون المارة من خلال النافذتين ولا يرون سوى أقدامهم وأحذيتهم. تتعب أعناقهم من حمل رؤوسهم، ويمغزل حديد النافذتين أعينهم..

تكرّ تنهيداتهم، يطأطئون.... ويكنّسون بها الأرض.

يحلو للبنت ذات الأربعة عشر ربيعا أن تصعد إلى النافذة الشرقية كل صباح بحجّة تنظيفها من غبار الشارع والأحذية التي تمر بها. تتحرّق على تنظيفها ودعكها بالليفة والماء والصابون على أغنية فيروز «وقّف يا أسمر في إلك عندي سلام قصة عتاب وحب وحكاية غرام» وتغص البنت بقلبها عندما تقول فيروز «هالبنت اللي بيتها فوق الطريق حمّلتني اليوم لعيونك سلام». تخفق مثل طائر ذبيح وتنتفض باختلاجة عارمة وتسقط اللّيفة من يدها وتتمنّى أن تبدّل فيروز كلمة «فوق الطريق» إلى «تحت الطريق» علّ هذا الشاب الأسمر الذي دأب على قراءة صحيفته الصباحية في الشرفة المقابلة يحسّ بحريق قلبها ويلتفت إليها. فحديد النافذة بمربعاته الضيقة لا يسمح لجناح أمنية أوتنهيدة من المرور.. هذا الشاب الوسيم الأسمر بمنامته الزرقاء وغرّته الداكنة التي تنسدل على جبينه مثل غيمة يحتل قلبها ومشاعرها بضراوة وبسببه

تورّمت أصابعها وتجرّحت من قسوة حديد النافذة وتأرّقت في الليل وانعدمت شهيّتها إلى الطعام.

لم تيئس بنت «الأربع تعش»..

داومت على ممارسة طقوس عشقها اليومي...

كانت تتضرع وتأمل أن تعلو النافذة أو تهبط الأغنية.. إليها..

مع أغنية فيروز «وقّف يا أسمر» ترفع سطل الماء والصابون إلى إفريز النافذة وتبدأ بالحفّ والدعك وصوتها يئنّ بأشواقه مع الأغنية «هالبنت اللي بيتها تحت الطريق حمّلتني اليوم لعيونك سلام».

طيران

بالأمس قصّت الصبيّة ضفائرها الشقراء.

صنعت منها حبالا تعربشت بها إلى النافذة.

شربت الضوء وقضمته روحها قضمة قضمة.

اجتاحتها نشوة عارمة وتوق جارف سحبها بعيدا عن حديد النافذة المتصالب السواد.

طارت، هنيهة، دهرا، وهي تحلّق بأجنحة زغب دهشاتها التي كانت تهطل من شفاه قطرة ندى دمعت على جبينها.

اصطدم رأسها بالحديد المتصالب السواد.

وعادت إلى إفريز النافذة.

غشّى الظلام عينيها المترعتين بالضوء. وظلّت تدعك جفنيها على امتداد الأعوام والفصول.. وتتساقط النجوم من أهدابها إلى حضنها.

... وتتعس كثيرا.

زوجة رومانسية

يا إلهي كم أنا حزينة!

تنفرط قامتي دموعاً وتنزل منهمرةً كالجداول الصغيرة من عيني:

تبدأ أمطاري الحزينة هذه كل صباح قبل أن يذهب زوجي إلى عمله.

غيوم أحزاني الصباحية تبدأ من زرّ قميص زوجي المقطوع.

يغضب زوجي ويصرخ في وجهي كأنه لم يمارس الحبّ معي في الليل... ينعتني بكل نعوت الزوجة المقصّرة في واجباتها الزوجية لأنني لم أتفقد أزرار قمصانه وأعيدها إلى مكانها إذا كانت مقطوعة.

كل الحق على أمي التي لم تعلمني خياطة الأزرار وفتح العراوي وأشياء أخرى مغرقةٍ في أهميّتها وبساطتها كتلميع طناجر الألمنيوم، هذا ما كانت تعيّرني به حماتي.

إنني أعترف أيضاً أن سبب تقصيري هذا الروايات الرومانسية التي كنت أقرؤها وأعيش قصص الحب ومآسيه مع أبطالها الذين كانوا يسرقونني من نفسي، ومن جراء ذلك كثيراً ما نسيت الطبخة عالغاز، أتذكرها عندما تفوح رائحة الدخان في عيني. إذ سرعان ما أفتح الشبابيك وأقضي وقتاً عصيباً في جلي طنجرة الألمنيوم المحروقة حتى لا يراها زوجي.

لأنني بطبيعتي امرأة رومانسية لا تطيق الصراخ والنكد وحريصة كل الحرص على الحياة الزوجية الهانئة، تخليت بالتدريج عن أحلامي الرومانسية التي كانت تغذّيها الروايات العاطفية، شمّرت عن أكمامي وانهمكت في البحث عن أزرار قمصان زوجي المقطوعة لأعيدها إلى مكانها. بحثت عنها تحت الأسرة والأرائك، وكنت كلما عثرت على زر تنتابني مشاعر الغبطة كمن يعثر على كنز فأسارع إلى ضمّ الخيط بالإبرة لإعادته إلى مكانه وكنت في أحيان كثيرة أخطئ في تحديد مكانه فألعن الشرود ومسبباته القسرية.

ضاق بيتي الذي كان في رحابة الكون من قبل، خرم الإبرة قلصه بعدما أكل رحابته، ولكنني في المقابل حزت على رضا زوجي الذي صار يعشقني بالرغم من انطفاء البريق في عينيّ.

رجـل عصري

كان ياما كان في حاضر هذا الزمان رجل خمسيني مثقّف منتوف الريش يدعى عبد الله، عقله يضاهي عقل أكبر الاقتصاديين، وقلبه قلب أكبر شاعر رومانسي.

كان يقضي نهاره في إقامة المشاريع الاقتصادية الوهميّة، كأن يشتري الورود من أفريقيا والفياغرا من سورية ويصدرهما إلى أوروبا....

يخيّل إليه أنه أصبح مليونيرا، وفي الليل يكتب قصيدة رومانسيّة يهديها إلى كل النساء ثمّ يلتحف البرد في غربته وينام جائعا.

ديك وثلاث دجاجات

يمشي مهند أمامنا ويسبقنا مختالا في مزرعته.

الثمار والدوالي التي تطل من بين أوراق الأشجار كالقناديل توقظ فينا إحساساً كابياً، ودهشة منسية تطلّ من عيوننا بخفر مضرّج بالحياء.

ثلاث نسوة كنا نسير خلفه. يعشعش الخريف في شعرنا ولون ملابسنا...

وقلوبنا كانت نائية عن أصابعه العارية... خطواتنا متهادية وعيوننا تسبح في بحر من الخدر الذي يبعثه الاخضرار المحيط بنا.

تدغدغ أقدامنا وشوشات العشب الطرية..

زوجته وأنا وصديقتنا نون ننظر إليه ونضحك بهمس... نغطي ابتساماتنا بأكمامنا حتى لا يسخر منّا.

أنا ونون مطلّقتان لأسباب ثقافيّة، وزوجته وحدها تنعم بهذا الحضور الطاغي والرجولة الفاحشة...

ولا نحسدها على هذا....أبدا.. أبدا...

فجأة يدير لنا مهنّد وجهه ويلتفت إلينا. يتأمّلنا برهة وينهرنا بصوته الجهوري المفعم بالرجولة:

عليّي الطلاق إنكنّ لا تمتّن بصلة إلى جنس الأناتي..

نغطّي أفواهنا بأكمامنا... ونضحك إلى حدّ الهطول..

فأنا ونون عندما نضحك يطوف ضحكنا من عيوننا ويبلل ملابسنا بالمطر.

البحث عن المفتاح

حلم يتكرر كل ليلة.

باب متباعد الدرفتين..

أحاول عبثا أن أقربهما من بعضهما لأضع قفلا يحمي بيتي من الحرامية.

ويطول بحثي عن القفل، وعندما أعثر عليه يضيع مني المفتاح.

وأقضي بقية أحلامي الليلية وأنا أبحث عن المفتاح.

افتح عيني في الصباح والحلم لا زال عالقا بأهدابي.

أهرع إلى ابن سيرين...

ولا أجد في كتابه تفسيرا لحلمي.

تقول لي صديقتي:

ابحثي عن مفتاحك عند فرويد وأنا متأكدة أنك ستجدينه.

لا أصدقها..

لأنني لا أريد أن أجده:

إن وجدته....

ستنتهي الأحلام.

الحذاء

دائما أرى نفسي في المنام أركض وأنا حافية القدمين.

قالت لي صديقتي: إن مناماتك تنطبق دائما وأبدا على واقعك وهي تفسّر نفسها بنفسها.

الحذاء يا عزيزتي يرمز إلى الرجل وأنت طول عمرك حافية.

كنت دائما وأبدا أحلم بحذاء سندريلا.

قالت لي صديقتي: إن حذاء سندريلا اختفى باختفاء الفرسان.

في إحدى الليالي وبعد طول انتظار تحقق حلمي. رأيت حالي في المنام وأنا أنتعل حذاء ذهبيا مثل حذاء راقصة الباليه... وتزوّجت مباشرة بعد هذا الحلم، ولكن للأسف لم تطل فترة انتعالي لهذا الحذاء الجميل... بعد مرور شهرين. رأيت نفسي في المنام وأنا أنتعله وأخوض في الوحل.

توحّل وكبا لونه وتقطّعت شواطاته... وبحلول الصباح افترقت عن زوجي، وفي الليالي المتوالية كنت أنتعل في أحلامي أحذية ضيّقة جدا على قدمي وهذا ما سبب لي نتوء عظمتي القدمين.

ومن يومها وأنا أنتعل شحاطة وأشحط بها قدمي.

ليتني بقيت حافية القدمين، فالتراب أكثر حنانا من كل أحذية العالم...

وطبعا، انعكس بؤس القدمين هذا على مزاجي وتصرّفاتي:

أصبحت عصبيّة جدا.... وسوداوية أكثر.

نصحتني صديقتي، أن أذهب إلى طبيب نفسي يصف لي عقارا للاكتئاب والإحباط.

فذهبت فورا إلى الطبيب الذي شخص حالتي ووصف لي عقارا رائعا أتعاطاه قبل النوم...

ومن يومها وأنا أحلّق ليلا ونهاراً بالفضاء مثل العصافير.

وحـام عصري

عبد الباقي «يشتغل بالفاعل» من الفجر إلى النجر. يصل إلى بيته كأنه تمثال من غبار.

يفلح ويزرع ويخصب أراضي الغير. يعتني بدوابهم ويرعى قطعانهم لقاء أجر زهيد إذا ما قيس بطاقته التي يهدرها.

فور وصوله إلى البيت ينادي زوجته مفيدة.

يغتسل كيفما كان لأنه كان يعتبر عمليّة النظافة عبثاً في عبث... وتبقى رائحة الروث والعشب والتراب تهطل من مسامه.

يلتهم صحن مجدّرة مع كوزين من الثوم والبصل، يحتسي الشاي ويشرب إبريقا من الماء... ويتجشأ، تنطلق من جوفه سحابة من الأبخرة وتنعقد في فضاء الغرفة، يلتهب دمه بحريق يتجدد كل ليلة..

تعتريه رغبة عارمة لحرث أرضه الوحيدة التي يمتلكها.

يأوي إلى الفراش ويطلب من مفيدة أن تأتيه فورا... ومفيدة تتجاهله كأنها لا تسمعه! فمنذ أن سكن معلم المدرسة الأستاذ عارف بجوارهم وهي لا تلبّي نداء زوجها الذي يلح عليه جسده أكثر ويصرّ على حقّه في المتعة والتعويض عن كدّه وتعبه كلّما مانعت في صدّه. لم تكتشف مفيدة من قبل أن صوته أجش إلى هذه الدرجة ورائحته كريهة إلى هذا الحد وهيئته المتنافرة التقاطيع خالية من التناسق. مثلا كانت لا تلاحظ أن أنفه كان يحتل ثلث مساحة وجهه بطاقتيه

المشعرتين. كما أنها كانت لا ترى الثألول المشحّر الذي يركب أرنبة أنفه، وغابت عنها عيناه الضيّقتان الغائرتان تحت حاجبين كثّين في غزارتهما كانا يتصدران جبهة ناتئة البروز.

حتى أصابع يديه باتت ثخينة وقدماه مفلطحتين، وليس هناك انحدار لخصر في جثته الضخمة بين قسميها العلوي والسفلي.

والأستاذ عارف يشبه الممثل أنور وجدي الذي شاهدته في أحد أفلامه على تلفزيون صديقتها أم حسّان بشعره الفاحم اللامع «المفروق عالنص» وشنبه المشذّب وملامحه المتناسقة وطلّته البهية التي تزيدها حقيبته الجلدية وقارا وهيبة وتضفي عليه نوعا من السحر.

تتعمّد مفيدة كل صباح أن تمرّي عينيها بطلّة الأستاذ عارف وهو ذاهب إلى المدرسة من خلف النافذة فتترع بالضوء وتتندى بالطل تفرّغ شحناتها في حلم ولد خارج النافذة امتلك قلبها ومشاعرها وحواسها صيّرها كالمسحورة تقضي نهارها كأنها تمشي في نومها... فلم تعد ترى عبد الباقي ولا تسمع صوته النزق النبرات وهو يناديها:

مفيدة هناك شيء يحترق تحت سرّتي بأربع أصابع... تعالي اطفئيني بسرعة.

ومفيدة المسافرة على جناح الحلم تنأى عنه.

عيل صبره وتحوّلت أنفاسه إلى خوار.

من حقه أن تلبّي زوجته نداءه وتقضي حاجته. فهو يوفر لها المأوى والكساء والطعام ويعطيها اسمه وجسده ولا يقصّر أبداً بواجباته البيتيّة، هو إنسان من لحم ودم وليس آلة، وعيبه أنه قروي، فقير وبسيط لا يجيد فنون العشق وأساليبه التي تلهب الجسد والروح. من يعمل بالأرض يكتسب صلابتها وقسوتها، ومن يسوس البهائم تصيبه عدوى غريزتها الفطرية. تزوجها منذ عامين

كانت خلالهما نعم الزوجة التي تلبي رغبات زوجها وتقضي له حاجاته قبل أن يغلق فمه على الحرف الأخير من اسمها... حتى في الليالي التي تكون تعبة ومكدودة فيها ترضخ له وتخفض جناحيها كالدجاجة، يعتليها كالبهيمة كأنها ركيبة دون أن يصدر عنها أي تذمّر عندما يفلق خواره أذنيها ويشظّي روحها. لإيمانها أنه قدرها وسكناها.

انقلبت حياتها رأسا على عقب منذ أن وقع نظرها على الأستاذ عارف وشاع اسمه بالقرية كراية من رايات العلم.. كانت تشبّهه بالنجمة التي أضاءت حياتها... فالعلم نور...

كان لا بد لها أن تلبّي نداء زوجها في النهاية خوفا من الفضيحة. جرّت قدميها جرّا كأنها ذاهبة إلى القبر.أغمضت عينيها، وقفزت صورة الأستاذ عارف إلى مخيلتها واحتلّت كيانها....

مرّ عام ومفيدة تسبح في الأزرق مثل سمكة. أنجبت طفلا سمّته عارف...... وكان يشبهه تماما «كأنّه بصقه من فمه!».

لمّحت لها صديقتها أم حسّان بذلك، وقالت لها مازحة: زوجي أحلى من زوجك وأنا أكثر منك بياضا ومع ذلك ابنك عارف أجمل من أولادي يا ترى طالع لمين؟

أجابتها مفيدة ضاحكة: السبب أن جارنا أحلى من جاركم وأنا عيني بتنقل، لقد توّحمت على جارنا..

وكما كانت تقول أمّي، البطن بستان يحمل أشكالاً وألوانا.

أمّا عبد الباقي فلم يلاحظ هذا الاختلاف أبدا، ولم ينتابه أي شكّ بأن ابنه عارف نسخة طبق الأصل عنه..

ومن شابه أباه ما ظلم.

تعب

كان لا بد لي من صعود ١٨٠ درجة للوصول إلى بيت أمي المريضة الذي كان يقع في الطابق الرابع من بناء عتيق، فالحرب الدائرة عطّلت المصعد – على الرغم من أن أمي صلّحته على حسابها أكثر من مرّة بعد أن رفض الجيران مشاركتها، وفي كل مرة من هذه المرات كانت تلصق على بابه يافطة كتبت عليها بالقلم الأحمر والخط العريض «خطر الموت».

كان سكان البناية يمدون ألسنتهم لليافطة ويصعدون إلى بيوتهم بالمصعد. واستمر الوضع على هذه الحال من الصعود والنزول «المجّاني» على حساب أمي ولعناتها المنصبة عليهم.

إلى أن أخمدت أنفاس المصعد قذيفة صاروخية وأحالته على التقاعد... وصار يشبه أمي.

في ذلك اليوم الذي صعدت فيه إلى بيت أمي كنت تعبة من السفر ينهبني الخوف – في ذلك الوقت كان السفر من دمشق إلى بيروت ينطوي على مغامرة كبيرة – وفاتني أن أعد الدرجات... «لأن الخوف يلغي الذاكرة».

ولمّا تقطّعت أنفاسي وقفت أمام باب بيت أمي الأخضر – كل أبواب بيوت العمارة خضراء – وقرعت جرس الباب الذي فتحته لي جارة أمي الشابة أمينة التي كانت تتواجد عندها باستمرار.. بعد أن سلمت عليها اتجهت إلى غرفة أمي مباشرة وصعقت عندما رأيت رجلا نصف عار في السرير، نظرت حولي غير مصدقة وتفحصت جيداً أثاث البيت الذي دخلته....

لم يكن بيت أمي وإنما بيت جارتها أمينة التي كانت قد تزوّجت حديثا.

تـجـاوز

صديقتي «كفى» تأثّرت في صغرها باسمها إلى حد الكفّ والكفاف. قننت أنفاسها وصوتها ونظراتها وخنقت لهاثها ودقّات قلبها.

«كفى» اسم زاجر يحمل التهديد سمّاها أبوها به ليكفّ رحم أمها عن إنجاب البنات. لذا كانت «كفى» التي استقبلتها الحياة بالزجر والرفض مختلفة عن بنات جنسها وشقيقاتها.

فإذا كان أبناء الحب مختلفين تنمو قاماتهم ومشاعرهم حسب القانون الطبيعي للنمو، فإن أبناء القهر أيضا لهم حجومهم الضاربة جذورها في أعماق الحريق يسرقون أحلامهم من فيض المطر وأفنان الأشجار العالية.

وكانت «كفى» نخلة ترزح تحت ثقل أقراطها. كل من كان يمرّ بها ولا يستطيع رفع رقبته المعوجة إلى الوراء لتأمل أقراطها التي تشبه النجوم.. وكان يلعنها في سرّه.

فمنذ طفولتها اخترعت سقفا من غيم وصدفة من عشب وقنديلاً من حكايا. كانت تلتهم الكلمات وتمتص الحروف بنهم الجائع إلى المعرفة علّها تجد الأجوبة على الأسئلة التي تقض مضجعها والتي لم تجد الأجوبة الشافية لها، لا في البيت ولا في المدرسة. حتى أنها عندما مارست مهنة التدريس حاولت أن تكون نموذجا مختلفا يقربها الحوار من تلميذاتها كأم، وكانت تنفذ من خلال محاورتهن إلى بيوتهن. تحاول أن تحلّ لهن مشاكلهن التي كن يخشين أن يبحن بها لأمهاتهن.

بعد فترة وجيزة من التدريس عيّنت «كفى» مديرة على تلك الإعدادية التابعة لريف دمشق لم تتبدل كانت تعتبر تلميذاتها بناتها وتعاملهن بحنو

لا يخلو من القسوة أحيانا. وقد دأبت طالباتها اللواتي هن في عمر الزهور أن يحتفلن بها في عيد الأم ويقدمن لها الورود التي كانت تشبههنّ.

في أحد الأيام وأثناء الفرصة ضبطت الطالبة وردة في غرفة التدبير المنزلي وهي تدخن سيجارة.

ويا غيرة الله... قامت الدنيا ولم تقعد!! أشارت المدرسات على «كفى» طردها من المدرسة. ولكنها لم تستجب إلاّ لصوت الأم والمربية الحكيمة. بعد انتهاء الفرصة اختلت بوردة وحدثتها عن قدسية حرم المدرسة ومضار التدخين وسألتها عن الأسباب التي جعلت صبيّة جميلة مثلها تدخّن.

فما كان من وردة إلاّ أن أجهشت في البكاء. حدّثتها عن أسرتها المفككة التي أودت بأخوتها الّذكور إلى معهد الأحداث، ووعدتها ألّا تدخّن ثانية واعتذرت لها وطلبت منها السماح.....

كفكفت لها دموعها بحنان الأم، وكانت النتيجة أن وردة كانت الأولى على المدرسة في الشهادة الإعدادية.

وكانت نسبة النجاح في المدرسة مئة بالمئة.

استمرّ هذا الحال من التفاعل والانسجام بين الطالبات وأعضاء الهيئة التدريسية إلى أن جاءت إلى المدرسة معلّمة للغة الإنكليزية وطلبت من المديرة أن تضع لها كل ساعاتها خلال يومين في الأسبوع دون أن تراعي حق زميلاتها وزملائها. لم تستجب «كفى» لطلبها، هددتها بزوجها رجل الأمن. من يومها عادت «كفى» إلى اسمها أحسّت بالضآلة والتزمت الصمت وطلبت بنقلها من المدرسة بعدما أحسّت أنها لم تعد مؤهلة إلى هذه المهنة النبيلة التي تتطلب من الذي يمارسها أن يكون واثقا وكبيرا...

بعاق الجسد

مسكينة عفيفة...

ألبسوها اسمها وجلبابها وأحاطوها بسيوف ماضية من التعاويذ حرصا على معاني اسمها.

ولكن جسدها ظلّ ينبض بمكنوناته ويفرز صراخه أنينا من مسامه يبقع جلدها بالبثور.

كانت دموعها وإفرازاتها تنقط من عينيها وذقنها وأكمامها وأذيالها فتبدو مثل قطّة خرجت لتوّها من الماء... مع أنها صارت في منتصف عقدها الثالث لم يجفّ ماؤها أو تختفي بثورها التي كانت تنبق على وجهها وأماكنها المستورة. وسواء كان اسمها عفيفه أو كانت تحمل أي اسم آخر... تظلّ وتبقى ابنة الأرض يجاور ثلجها حريقها... كان ماء عفيفة ينبع من رحم حريقها.

وفي موجة حريق صاخبة النيران أشعلت جسدها وأحرقت برقعها وجلبابها واسمها هجمت على زوج صديقتها زينب وتوسّلت إليه كي يعانقها ويطفىء حريقها.

قالت سهاد شقيقة زينب أنها اشتمّت رائحة الحريق المنبعث من جسد عفيفه منذ أن سكنت بجوارهم تتصاعد من شقوق بابها وستائر نوافذها.

وحذّرت أختها زينب منها، وكان قلب زينب الكبير يكذب كلام سهاد عن عفيفة، لأنها كانت مسكينة ودرويشة وعلى قدّ حالها، لا تملك شيئا من حطام هذه الدنيا، لا الجمال ولا المال، وكان هذا يستدر شفقة زينب عليها.

قالت دنيا صديقة زينب: اعذروا عفيفة إنّها مسكينة... وطلبت من خالد زوج زينب أن يجبر خاطر عفيفة ويعانقها لأن عناقها يعتبر حسنة بعشرة أضعافها إذ ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان.

اشترط خالد على عفيفة قبل عناقه لها أن تخلع برقعها وجلبابها واسمها على عتبة جسدها.

وعفيفة كان صخب جسدها أعلى من صوته أحاطته بساعديها ورعفت حنينها على صدره.

أهداب مالحة

«فتحية» جوقة أحزان مكتومة الآهات..

نجمة تنوس بالخطايا والذعر في ليل الشهوة والغريزة المندسة تحت طيّات الثياب واللحم.

... أبدا تفوح منها رائحة الصابون والغار والدموع... رائحة تنهدات مسحوبة من شروش الروح.

عندما يرخي الليل ستائره الحالكة تصبح ابنته... ترتدي حلّة الغياب، ملاءة سوداء وبرقع سميك.

ترن خلاخيل حزنها بخفوت كأنها ذاهبة إلى وليمة الديدان والقيء والموت.

مشاويرها الليلية تتوزع بين أبواب الحانات والشوارع الخلفية. وما إن تشم الغرائز المكبوتة المنتشية رائحة الضحية حتى تستيقظ ملحّة تفوح منها رائحة حامضة الأنفاس.

تلحق بها إلى ضفاف بردى أو مرج الملعب البلدي... تنزع فتحية سروالها وتقترف على عجل كخطيئة مغرقة في ذنوب الجسد دون أن تسفر عن وجهها.

ترثي أمي لحال «فتحية» التي كانت جارتنا وتقول عنها:

«فتحية» بنت كار الله يتوب عليها ويستر على جميع الولايا. قبل مجيئها إلى المدينة كان اسمها فرحة وكانت بنت ناس أوادم ومستورين، وفي أحد الأيام وبينما كانت تحسر أذيال ثوبها تحوش حبات الزيتون وتملأ حرجها بها شاهدها الناطور كمم فمها وشدها من ضفيرتها وسحبها إلى دغل من الأشواك، نزع عنها سروالها واقترفها وأخذ وجهها ثم رفع سرواله وناولها صرّة ملبّس على لوز.

كانت في الخامسة عشرة واسمها فرحة، ولو أنها لم تهرب لكان مصيرها الذبح، لأن البنت عار عليها وعلى أسرتها أن تعيش بلا وجه الذي هو شرف عذريتها وقبيلتها وقريتها.

ولأنني كنت صغيرة يومها لم أفهم ما كانت تعنيه أمي من أن الناطور «أخذ وجه فتحية» حيث كنت أنظر إلى وجهها مليا وأتأكد أنه موجود فعلا! وما كان يحيّرني أكثر ويسبب لي الرعب هو لماذا نزع الناطور سروال فتحية عندما أخذ وجهها؟ وما هي علاقة السروال بالوجه؟ ولأنني كنت قاصرة عن فهم لغة الكبار وأمي كانت تفاجئني بلطمة من قفا يدها على فمي كلّما حاولت أن أسأل عن ذلك وصرت أطمر وجهي تحت اللحاف وأبول في سروالي في الليل خوفا من أن أصبح فتحية جارتنا التي كنت أحبها أكثر من أمي... كنت أحب رائحة الصابون والدموع التي تفوح من أنفاسها وجلدها عندما تعانقني وينسكب حنان يديها على شعري وهي تمشطني وتفك عقده بصبر دون أن تقتلع جلدة رأسي كما كانت تفعل أمي...

كانت ضفيرتاي ترقصان على ظهري ضاحكتين كحزمتين من الحرير عندما تمشطني وكانت تملأ جيوبي بالقضامة على سكر، لذلك كنت انتظر الصباح بفارغ الصبر لأخربش بأصابعي الصغيرة على بابها وما أن تفتح لي الباب حتى تلفحني رائحة الصابون والغار التي كانت تفوح منها. أنزع شحاطتي حتى لا أوسّخ لها البيت وأجلس على الديوان وسرعان ما يداهمني النعاس... وأغفو وأنا أحلم بالجنّة..... إلى أن جاء ذلك اليوم المشؤوم الذي بتر أحلامي كان ذلك عندما خربشت على بابها ولم تفتح لي جلست على عتبة الباب وبكينا سوية.

قالت أمي لقد وجدوا جثتها عائمة في نهر بردى.

في ذلك الزمن المنسي من القرن الماضي... قفزت فتحية إلى النهر عندما داهمها حماة الأخلاق وقبيلة من الرجال مكشوفي الأقفية ينبطحون فوقها.

أمنيات مهاجرة

«عبد الباسط» قريب أبي، عندما تزوّج من «شهيرة»، قرّر من ليلة العرس أن يبصم لها بالعشرة ويوافقها بكل مما تنطق به من قرارات ورغبات وحكمة،استجابة لأمنية خبأها بين أحشائه وضلوعه، وهي «ألّا ينقصف عمره ويموت قبلها كما يحدث لمعظم الأزواج.»..... وأنا كان يأخذني العجب من هذا الخضوع الذكوري الآسر، مطلق الصلاحية، من قبل قريبنا «عبد الباسط» الذي كان معروفا بالشدة والحزم سواء في آرائه أم قراراته! هذه الصفات إضافة إلى شهادته الجامعية وأخلاقه الحميدة كانت سلّمه إلى مناصب يحسد عليها في الارتقاء الوظيفي.

كانت جدّتي رحمها الله تطلق على هذا النوع الذكوري «في البيت شحرور وفي الخارج دبّور» وكان هذا القول يلبسه تماما.

كان البعض يتهمه بالمراوغة والدجل «عندما ينيخ رقبته لشهيرة إلى حدّ الصفعة.» و«عبد الباسط» يقابل مثل هذه الآراء بابتسامة محيّرة مثل ابتسامة «الجوكندا»...

واستمرت حياة «عبد الباسط» الزوجية بلا منغصات ونكد ظاهر للعيان إلى أن جاء ذلك الصباح المشؤوم، عندما صفعته «شهيرة» بصرختها الداوية التي اهتزت من جرائها الجدران حين همّ بدخول الحمام ناسيا أن ينتعل «شحّاطة الحمّام»، صرخة زلزلت كيان «عبد الباسط» وضعضعته، فقد توازنه، وهوى من عمق أمنيته... إلى الرحيل، وترك زوجته «شهيرة» وحيدة مع صوتها.

القربان

ما كنت أعرف أن زيارتي لخالتي «آمنة» ستضع حدّاً لمعاناة وآلام دجاجتها السوداء «المكلومة» التي ينهمر عرفها الأحمر على خدّها كستارة محارب أثخنته الجراح..

لو كنت أعرف أن خالتي «آمنه» قد قررت ذبح دجاجتها احتفالاً بقدومي.. لكنت ألغيت تلك الزيارة التي عمّدت بدم دجاجة بريئة ومسكينة:

من زمان قبل أن أولد أنا وتولد خالتي ودجاجاتها كانت القرابين على اختلاف مناسباتها يدفع ثمنها الأبرياء العزّل من النساء والأطفال والأكباش.

تقول خالتي «آمنة» أنها عزمت على ذبح دجاجتها السوداء قبل مجيئي، وكان عليها أن تذبحها منذ شهر لتختصر آلامها وتحرم الديك المتغطرس من متعة اعتلائها وتهشيم رأسها بنقرات منقاره القاسي، وانهالت خالتي باللوم على دجاجتها السوداء التي كانت خير خادمة للديك من بين كل الدجاجات.

وكانت ما إن تراه يقترب منها حتى تغمض جفنيها المقرّحين وتخفض جناحيها وتنكّس رأسها. ثمّ ما تلبث خالتي أن تخفّف من لومها على الدجاجة قائلة بصوت مخنوق النبرات:

المعتّرة طالعة إلي... وهي أحياناً أكثر جرأة مني عندما تملأ الدنيا بالصياح فرحة ببيضتها لتذكّرنا بوجودها المثمر.. ونحن لا نخجل عندما نسرق بيضها من تحتها وهو ما زال دافئاً يحمل رائحة أحشائها.

حكيت لخالتي «آمنة» عن البوذيين الذين يقولون إن البيضة للدجاجة والحليب للبقرة محرّمة عليهم.

دهشت وعلّقت على كلامي غير مصدّقة لأن بيض الدجاج وحليب البقرة هما المصدر الغذائي الوحيد والرئيسي في القرية وسألتني، ماذا يأكلون. قلت لها إنهم نباتيّون يعيشون على الخضار فقط.

في هذه الأثناء حزّت «آمنة» عنق الدجاجة.. وتركتها على حرّيتها ترقص رقصتها الأخيرة.. وأنا أغمض عيني لأن رقص الطيور المذبوحة يؤلم قلبي.

الصرخة

هذا الميناء عمره من عمر الحرب الأهلية....

هو واحد من عشرات الموانئ الأخرى التي استحدثت على عجل من قبل تجار الحروب لاستيراد السلاح وتصدير البشر الهاربين من الموت.

أحجاره ليست ملساء أو ناعمة لتنزلق عليها أقدام السيّاح والمسافرين...

كومة من الصخور السوداء مدببة المسامات تمتد في مياه البحر كلسان منهوب بالدمامل.

زوارق عتيقة قشّر جلدها الملح كان يستخدمها الصيادون لصيد السمك تحاذي خاصرة الميناء وتلطي في ظلّها تنتظر الهاربين قبل أن يقتلهم حبّ الوطن لتقلّهم إلى سفينة راسية في عبّ البحر بعيدا عن مرمى القذائف والصواريخ لتأخذهم إلى قبرص.

رحلة السلامة هذه كانت باهظة الثمن، تكلّف الشخص الواحد أكثر من ألف دولار !!!

والمسافة بين قبرص وبيروت «ضربة حجر»...

كانت المراكب المكدّسة باللحم البشري ونهنهات الخوف والتعب تنطلق على عجل في جنح الظلام وتسير في خط حلزوني ومنكسر تفاديا لنيران القذائف... وهو مواطن منذ أن ضاق الوطن بسقف مستوٍ وجدران واقفة تلمّه

وتحميه مع زوجته وطفلتيه، باع ما فوقه وما تحته برخص التراب وقرر أن يهجّ بأسرته الصغيرة إلى برّ الأمان.

قال لزوجته التي كانت تحتضن طفلتيها وتلتصق بالزاوية: بلاد الله واسعة.

«وكان قد اتخذ قراره هذا في عزّ حرب الصواريخ والقذائف وهدير الراجمات».

على عجل جمعت زوجته بعض الملابس في صرّة.

احتضن هو طفلته الكبرى ابنة السبع سنوات وهي احتضنت الأخرى التي كانت تصغرها بعامين وانطلقا يهرولان ويتقافزان كحيوانات الكنغر التي تخبىء صغارها في جيوبها....

في تقافزهما كانا يستغلان فترة الهدوء الواقعة بين قذيفة وأخرى ويسرعان أكثر... وكلّما انفجرت قذيفة في مكان قريب كانا يستعملان جسديهما دروعا لحماية طفلتيهما ويلطيان إلى لزقة حائط مهدّم أو هيكل سيّارة محروقة أو تلّة نفايات...

قبلتهم البحر...

وبدا لهم أن مشوارهم إليه أطول من كل سنوات أعمارهم مجتمعة.

ولمّا لاح لهم البحر دمعوا من رحابته المشرّعة السكينة على ضفاف الأفق البعيد.

كانت الشمس قد بدأت في المغيب.

تقدّم زوجته وركض فوق الصخور السوداء، تمزّق جلد حذائه من نتوآتها المسننة وانبقر كعب قدمه... وترك وراءه خيطا من الدم امتد إلى حدود الشفق.. وزوجته كانت تحدّق في خيط الدم وتتبعه..

وأخيرا وصلوا إلى حافة الميناء وأطلّوا على زورق الخلاص.

تركهم ونزل إليه وناول صاحب الزورق لفّة من الدولارات عدّها بمهارة الحاسوب.

ناولته زوجته طفلتهما الكبيرة فحملها من تحت ابطها وأنزلها إليه وكانت تبكي بكاء يشبه العواء.

ثم أدلت إليه بالصغرى التي وصل بكائها إلى مرحلة النهنهة الخافته.

ولما جاء دورها وأنزلت قدمها اليمنى سقطت قذيفة على الزورق وطار بمن فيه:

لفظت المرأة روحها مع صرخة يا ولدي..

هذه الصرخة بقيت معلّقة بحبال الهواء يسمعها كل من مرّ بتلك المينا ذات الأحجار المدببة السوداء.... تتكرر كل مساء عندما يغطس خدّ الشمس بالبحر.

العابرون من بشر وسفن ونوارس وأسماك، يجفلون من هولها ويشكون أنها صدرت عن مخلوق آدمي في يوم من الأيام..

البنت الصغيرة
والسرير الضيق

عندما سافر عشيق أمّها إلى أميركا بقصد الدراسة كان عمرها تسع سنوات، لم تحزن لغيابه أبدا لأنها صارت تنام على السرير إلى جانب أمها وتنعم بالدفء بعدما كانت تنام على الطراحة.

وفي إحدى الليالي عاد العشيق وتظاهرت بالنوم... لأنها أصبحت كبيرة في الرابعة عشرة من عمرها لم تعد أمها تقوى على حملها لتنيمها من جديد على الطراحة لذلك أيقظتها وطلبت منها أن تذهب إلى الغرفة الأخرى وتنام إلى جانب والدها (زوج أمها) وعاودها الأرق من جديد ولكنها كانت تتظاهر بالنوم.

وصوت مفاصل السرير وخشخشة أساور أمها الذي عاد إلى أذنيها من جديد صار يسبب لها توترا يندس في خلاياها كألسنة نارية تحرق جسدها.. هذا الرقص واللهاث وقرقعة مفاصل السرير كان جحيما ليلياً يلتهم نومها...

وتتظاهر بالنوم عندما ينزع أبوها سروالها ويعتليها..

وتهمد غارقة في نوم عميق عندما ينتهي لهاث العشيقين وتنام أساور أمّها ومفاصل السرير.

وبعد مضي شهور عندما انتفخ بطنها صارت تنعس وتنام كثيرا... لم تحسّ بما كان يدور حولها.

وفي إحدى الليالي طرق مسامعها لغط وهمس وبقيت كعادتها تتظاهر بالنوم، فاجأتها كفّ أبيها وهي تكمم فمها. وصرخت بعينيها على اتساعهما.. رأت سكينا يضحك لها في يد أمّها. انهال على عنقها وحزّ أوردته.. نامت هذه المرة وهي مفتوحة العينين.

اعترفت الأم والأب أمام الجيران والشرطة والقاضي بأنهما قاما بذبح ابنتهم سلطانة غسلا للعار.

صفق لهما الجيران وبرأهما القاضي..

وفي الأيام التي تلت غياب سلطانة نشطت مفاصل السرير وخشخشة الأساور واللهاث من جديد كأنّما العشيقان يتسابقان لصعود قمّة.

الأرض والمحراث

محراث صدئ يجره ثور داكن، والأرض كانت طرية بينابيعها.

انغلّ حديد المحراث في أحشائها تكوّم التراب الأحمر مقطوع الشرايين على شفتي المحراث الحديدية وأصبح زاهيا من الغزارة.

حطّ عصفور على ثلم جرح ونقر آهة.

داسه الثور بظلفه المفلطح وهرسه لأنه دنس الجرح.

تفرقت أصابع العصفور الرمادية الشديدة النحول ونامت في مساحة الوجع.

لبط الثور الأرض بقوة على خاصرتها... وجلط جراحها المنقوعة إلى حين.

وقف يتمعن يباس شفاهها وتحجر خلاياها بعينين غاضبتين.

شهقت الأرض وحنّت إلى أدغالها.

أحلام مسافرة

في «البوسطة» التي أقلّته من قريتهم «عش اليمام» مع أفراد أسرته الذين تكوّموا على أكياس الخضار وأقفاص الدجاج إلى مدينة البحر داخ سعيد بينما كان يراقب أشجار قريته وجبالها ودروبها المعفّرة بالغبار وروث الدواب تهرب مذعورة من شبابيك «البوسطة» وتتوارى عن أنظاره، تقّيأ على ملابسه. بقع حامضة غطّت قميصه وتدفّقت إلى قفص الدجاج من تحته فتعالى صياحها وقوقأتها، قرصته أمّه من زنده لأنه أفسد ملابسه وصبّت جام غضبها عليه لأنه استهان بتعبها وجهدها الذي بذلته في ترقيعها من أجل أن يسافر إلى المدينة بملابس تليق بها.... وسعيد كان رأسه يفتل ويدور مثل «الفرنينة». لم يحسّ جسده الموشوم بدوائر القرص الزرقاء بقرصة أمّه الذي تعوّدها كما تعوّد على البكاء والضحك. الذبابة التي حطّت على فمه نبهتّه إلى المكاتيب المحشورة في جيوب قميصه وبنطاله، تفقّدها هلعاً من أن يكون قيئه قد أفسدها. تنفّس الصعداء وشكر ربّه لأنها لم تتأثر بالحموضة التي تدفقّت من جوفه بسبب ورقها السميك الذي غالبا ما اقتطع من أكياس عسليّة اللون والتي كان العم عارف الدكنجي يصرّ بها الحاجات المباعة لأهل القرية.

فمنذ أن تعّلم سعيد فكّ الحرف صار يقصده أهل قريته ليكتب لهم المكاتيب لأنهم لا يجيدون القراءة والكتابة، والرسائل التي كان يحملها في جيوبه قرّحت جفونه من السهر، وكلّها موجّهة إلى العم يوسف الذي سافر إلى البرازيل قبل ولادته وهناك ابتسم له الحظ وأصبح مليونيرا وصار اسمه جوزيف بدلا من يوسف وسمّيت شوارع باسمه، وكانت أخبار العم يوسف تتناقلها القرية بفخار.

سكّانها الفقراء يعتبرون العم يوسف هو مارد القمقم مخلّصهم الذي سيجعلهم يقبرون الفقر إلى الأبد. كما لو أنّهم ورثته الشرّعيون لأنهم قد سمعوا بأنه لم ينجب أولادا – ومثل هذا الأمر غير مؤّكد ربما كان من اختراع خيالهم–.

أكثر من عشر رسائل يحملها سعيد معه ليرسلها من مدينة البحر إلى «أميركا» ففي ذلك الزمن من خمسينات القرن الماضي كان أهل قرية «عش اليمام» الذي يعشعش فيها الجهل إلى جانب الفقر يعتقدون أن هذه «الأمريكا» تقع عند خط الأفق الذي يحد البحر ولا تبعد عن المدينة كثيرا.

كان سعيد يحفظ ديباجات هذه الرسائل التي اخترعها خياله عن ظهر قلب رغم أنّه كان في العاشرة من عمره فهو يبزّ أولاد قريته جميعا بذكائه وسعة خياله الذي استمدّه من حكايا جدّه. معظم هذه الرسائل، كان سعيد يستهلّها بديباجة واحدة:

«العم المقدام الذي يشرّفنا نسبنا إليه نقّبل شواربه ويديه ونفتخر بطربوشه الذي يغطّي فوديه إذا جئتم بالسؤال عنّا فلا ينقصنا إلا مشاهدتكم وجوع بقراتنا إلى سخاء معلفكم وصفير بطوننا إلى امتلاء نعمتكم وأحلامنا اليابسة إلى نداوة كرمكم». عندما كان يقرأ سعيد هذه الديباجة على أهل قريته في ساحتها العامة كانوا يشقلون أكتافهم على عظمة معانيها وبلاغة ألفاظها ويطلبون من سعيد أن يحذف منها كلمة شواربكم وطربوشكم، لأنها لا تلائم اسمه الجديد جوزيف إذ كانوا يتصوّرونه أحلس أملس عاري الرأس وكانت كل تلك الرسائل ممهورة بختم المختار وختم رئيس البلديّة.

الأحلام التي حمّلتها الرسائل ثقيلة، يكاد أن يثقب ثقلها جيوبه رغم بساطتها وتواضعها:

العجوز سلسبيل التي أطفأ عينيها القطران بينما كانت تطبخ الصابون كان حلمها أن يعود بصرها إليها بعمليّة جراحية أو بمجرّد أن تضع النقود التي سيرسلها العم يوسف إليها على عينيها حتى تشرقا بالنور لأنها كانت تؤمن أن الدراهم كالمراهم إن وضعتها على الجرح يشفى..

وكانت على ثقة تامة بأن العم يوسف سيتألم من أجلها ويرسل لها تكاليف العمليّة فورا بعد أن يقرأ رسالتها المنقوعة بالدموع. أمّا رسالة عجاج فقد كانت أثقل تلك الرسائل لأنّه كُثّف كلّ أحلامه بامتلاك «فدّان» يفلح به الأرض. وحمدان الإسكافي اقتصر حلمه على ماكينة وسندان لدرز وترقيع صرامي أهل القرية. والصبيّة جوريّة كانت تشتاق لشراء فستان أحمر ومكحلة وعلبة حمرة وأسوارة خرز من كشّة أبي جميل.

سعيد وإن كان لم يوجّه رسالة خاصة إلى العم يوسف فقد كان يرفق كل رسالة بالعبارة التالية:

«سعيد كاتب هذه الرسالة يقرّك السلام».

كفّت الدجاجات عن الصياح والقوقأة وهجم النعاس على عينيّ سعيد بينما كان يفتش عن الاسم المناسب له عندما يصبح ثرياً مثل العم يوسف لأنه كان متأكدا أن الإنسان الفقير إذا ما ضحكت له الدنيا وحالفه الحظ وأصبح غنيّا يجب أن يبدل اسمه الذي حمله وهو جائع. غطّ في النوم دون أن يجد الاسم المناسب لأحلامه أكثر من الاسم الذي يحمله منذ ولادته والذي يلبسه مثل جلده... سعيد، وأنه لا يبدله حتى باسم عنترة بن شدّاد.

أجراس القطيع

في شفق ذبح من الوريد للوريد وصبغ العيون بالدم

بدت الجبال والتلال أكوام لحم تخثر في الغياب. الأجساد انفصلت عن رؤوسها وعمت فوضى التنافر بين الأرض والأجساد الراعفة.

في كل حفنة تراب شرك منصوب للخراب.. وفي كل نسمة هواء سموم قاتلة صنعت من طحالب النفط.

جلجلت أجراس القطيع برنين منشوز بعيد عن انتظام الرتل، والقطيع كان يدلي برقابه إلى المقصلة:

«في فترة سابقة من تاريخ الرقاب المطعوجة والمطوقة برنين جنائزي رتيب كان إيقاع أجراسها لا يخلو من العذوبة الدفينة التي تدغدغ نعال السائس وحاشيته.»

تدافع القطيع في كل الاتجاهات مثل زوبعة من الغبار يبحث عن مراعي وينابيع اختزنتها ذاكرة الأجداد..

...... وحراب السائس تنقر خواصره المجوفة، كي يكتفي بقسمته في معلفه القديد.

حرنت البغال وخارت الأبقار وبركت العيس، الخراف والنعاج فتحت ثغاءها وظلت تنادي على العشب، الجياد التي كانت في المقدمة، استقامت على قوائمها الخلفية وشرعت صدورها للريح كي تدفع الأذى عن القطيع.

وحدها الحرابي والدويبات الصغيرة تسلقت أكوام اللحم والأنين إلى سفينة الرمل التي كانت ترسو في ميناء طحلبي.

كان القطيع محاصراً بين حراب السائس وأنياب الذئاب...

تخثر الشفق في فجوات وثقوب لزوجة النفط... بركاً متناثرة اللعنات.

الثقوب التي أحدثتها حراب السائس في أجساد القطيع... كانت تنز بالجراح..

والعلاقة الهارمونيّة انعدمت تماماً بين رنين أجراسه.... وقرقعة أمعاء السائس وتجشئه. لذلك بدا الشفق نحوراً معلقة بأوتار أغانيها الخاصة كما بدت الأرض وما عليها من أكوام لحم وصراخ وصهيل يسكنها مشروع قيامة.... أو طوفان.

تقدمت الجياد وخلعت مقدمة سفينة الرمل.

غاص السائس وحرابيه ودويباته وتيوسه في مستنقع طحلبي.

يومها كتب شاعر على دفتر اصفرت أوراقه قصيدة:

«انتظام رنين الأجراس

من انتظام رتل الرقاب المعلقة بها

انتفاخ أوردة الرقاب ولهاثها

يؤرخ قيامة

ويبشر بأجراس العيد

لماذا تموت النوارس
على شاطئ البحر

«البغي الحقيقية هي حبيبة كل الرجال وتملك القدرة على تجريحهم وصفعهم».

كتبت مريم على دفترها:

ينقص عمري كل يوم، أمد رأسي إلى الوراء وأقرأ سيرة التراب ثم أغسل قدمي من الوحل وأجلي عيني بالدمع وأبصق غضبي على الورق ليقرأه الخصيان:

الحكاية طويلة، من عمر الكون.. مكتوبة على لوح طيني في معبد مهجور ما زالت تتبض بالحياة على درب اللذة والآلام والتكفير والموت.

قال لي زبون من زبائني ابتلى بالعنّة ولوثة الشعر، إذا كانت العدالة ماتت على هذه الأرض فلا مبرر لوجود الإله. ضحكت يومها كثيرا حتى هطل الضحك من رموشي وغسل نحري الأبيض من آثام شرف الجبناء الملوّثين بأبخرتهم وصديدهم وفحيح أنفاسهم.

كم أكره الأمثال وكلام الكتب التي تحضّنا على الفضيلة الطافية على طحالب مستنقع الوحل.

وأنا امرأة القاع، خضت، وجذّفت في مستنقعات الوحل حتى تنهنه القلب من التعب والبكاء.

تلوّث جسدي ورُضَّ من كدمات الأبخرة وصديد تفريغ المخصيين.. يوم الجمعة أخصصه للتوبة والنظافة. أنقع جسدي بالمياه المالحة وأدعكه بالصابون والبخور والعنبر لتعود روحي إليه من جديد.

أفتح نافذة غرفتي وأستقبل الشمس، أسترخي على السرير، وأغوص في ذاتي وعوالمي الداخلية لأتطهّر مما علق بجسدي... أهبط إلى قاع الألم لأكتشف أسرار الوجود.

جارتي الخمسينية شهيرة التي تشبه شوال البطاطا. ابتكرت طريقة شرعية ومباركة، لاصطياد لرجال.... وأنا أكثر ما يضايقني فيها رائحة فمها. «منذ طفولتي ومن خلال «عبّ» جدتي العابق برائحة الطيّون والوزال والحبق والمردكوش. أدركت أن الإنسان رائحة، ورائحته تحمل عبق أنفاسه وروحه وشغاف قلبه وعبق عالمه الداخلي.

والذي يحيّرني أكثر المفارقة الكبيرة بين ادعاءاتها ومظهرها وسلوكها.

حجابها السميك، وتظاهرها بالعفّه، وتمسّكها بالشرائع السماوية.

دأبت هذه الشهيرة المداومة عند «أم محمود الداعية» بعد طلاقها من ابن عمها. تركت ثلث قرن وراءها وراحت تبحث عن نصيبها عند الداعية أم محمود، وكانت تختار أعمار أزواجها من العقد السابع وما فوق.

فاللواتي يقصدن أم محمود كثر، وأعدادهن تزداد يوما عن يوم، ومعظمهنّ عندهم أشقاء أو أقرباء أو جيران، إمّا أرامل أو عوانس، فيجدون في شهيرة المستورة ضالتهن المنشودة. وبهذه الطريقة الذكية والشرعية في اصطياد الزبائن تزوجت شهيرة ست مرات" خلال عشر سنوات عاشرت نصف دزينة من الرجال!!

تتعرى أمامهم كل ليلة بعد أن تعطيهم حبوبا تشبه الفياجرا جلبتها من عند العطار. بعد شهر أو شهرين من هذه الممارسة الشبقية، يفطس العريس، إما بالسكتة الدماغية أو القلبية. وسرعان ما تفتش عن زوج جديد قبل انتهاء العدّة على المتوفي. أما الزوج السابع الذي كان قبل تقاعده أستاذاً جامعيا محترما، لم تنطلِ عليه اللعبة رفض هذه الحبوب، وقرر ألّا يموت، وبعد عام على زواجها، طلبت منه أن يطلّقها وقالت له: «أنا مو مجبورة أخدمك»... وطلّقها.

«وطلعت من هذه الزيجة إيد من ورا، وإيد من قدام» بعكس أزواجها السابقين الذين ورثت عنهم البيوت والأموال.. وحزنت أشد الحزن لأنها لم تحصل الميراث.. ولا حتى المقدم والمؤخر... وندبت سوء حظها.

تتحدث عنها الجارات:

عندها ست برادات وست غسالات ست غرف نوم وست طقومة كنابات وغرف سفرة. عفش وكراكيب مكدّسة في الغرف والممرات من الأرض للسقف بحيث إن بيتها لم يعد يتسع لـ« قشّة».

ويستنكرون طمعها وجشعها قائلات «الله لا يشبعها».

-٢-

ذات مساء قرأت وجهي في المرآة، اكتشفت أن الزمن كتب عليه خربشات على جبهتي وشبكات عناكب حول عيني وفمي. كنت في عقدي الثالث، وقلت لنفسي معزية إن الطفل يولد في هذا الزمن هرماً.... وجدير بي أن أغبطها لأنني ما زلت على قيد الحياة، في الحقيقة كنت أتمنى أن أرحل عن هذه الفانية باكرا بعدما أدركت عبثيّتها... وأن أوقف الزمن وأمد له لساني وأدحر سكّينه التي يحفر فيها قدري ونهايتي.

لأنني امرأة بحريّة سكنني اللون الأزرق الذي يشّف عن ضياء باهر في سكينة البحر وانفتاحه الرحب على المدى.

ذات يوم قادت لي الأقدار بحّاراً عجوزاً أنهكته الأسفار، عرض عليّ أن أقيم معه في قمرة مركبه ليحدثني عن مغامراته البحرية والنساء اللواتي عشقهن. وافقت على الفور لأنني بدوري قد تعبت من حمل الأجساد ونزيزها وروائحها.... أجساد تنزلق مذعورة على أديم الرغبة كأنها أسماك تلفظ رمقها الأخير.

قال لي البحار إن قدره كقدر النوارس... أن يموت على شاطىء البحر.. ثمّ ضمني وعزفني على أوتار قلبه أغنية للنوارس التي يكفنها الزبد بعد موتها.

نداء يشبه العويل

كان هناك امرأة اسمها «صالحة».

تاريخها رغبات نائمة في موقد الروح وانتفاضات الجسد. صراخ مكتوم دونته صالحة على الهواء والجدران، ويشهد أقاربها وجيرانها بطهارتها وأخلاقها الحميدة... ويدرجون اسمها في خانة «الصالحات».

كانت راضخة وراضية بقدرها المكتوب على حجر رجمت به امرأة يوما.

استمرّت هذه القناعة المحنّطة بالخوف حتى عقدها الرابع بعدما رحل عنها الأب والأم.

حيث اتخذ الخوف منحى آخر:

صارت «صالحة» تخاف كثيرا في الليل... وعندما يتفاقم خوفها، تخاطب جارها «صالح» كأنه موجود في الغرفة معها... ثم ينطلق نداؤها بنبرات مبحوحة العذوبة، طافحة الخوف:

«يا جارنا يا صالح

يا حلو

يا مالح

هات سيفك الهندي

وتعا شوف شو عندي

عندي ضبع أسود

رايح يأكلني.»

يأتيها جارها صالح على جناح البرق شاهرا سيفه الهندي.. يبحث عن الضبع، ولا يجد أثراً له.

هذه الأغنية الليلية كانت ترددها صالحة كل ليلة.. ولا يتعب صالح من امتشاق سيفه الهندي والمجيء إليها.

وكانت صالحة تقول له بأن الضبع الأسود ما أن يشم رائحة الرجل.. حتى يفرّ هارباً من الشباك.

بعدما بُحَّ صوتها تماماً، وتعب صالح من حمل سيفه الهندي. قرر أن يتزوجها.

ومنذ تلك اللحظة المباركة، نعمت صالحة بالأمان والنوم الهني والأحلام الوردية.

فـارس

يطول التعب... ويقصر العمر...

وفارس تعوّد منذ نعومة أظفاره أن يفيق مع الشمس وينعس في غيابها.

وما بين الشروق والغروب ملحمة عشق لا تنتهي..

المسؤوليات تتثاقل جبالاً على المنكبين كلّما تقدّم به العمر.

النهايات ما هي إلا احتمالات قصوى لبدايات جديدة.

ورحيق فارس يتناقص بالتدريج من فيض التعرق واللهفات، وعضلاته الواهنة لا تكفّ أوتارها المموسقة على عزف ألحانها على لحم الوليمة. ألحان تبدأ بصخب الأبواق ورنين الصنوج كالمارشات العسكرية... وتنتهي بنأمة قلب على وتر ربابه في صومعة الجسد المقرور...

وجسد فارس "كونه الصغير" متناسخ من جبال وأشجار ومياه....أبدا" مسكون بالهدير ولا يكفّ عن الدوران حول ينابيعه القصيّة ورغيفه الذي يشبه القمر في بعده وجماله وجلاله واكتماله... بالتعب والضجر يدنو من أصله...ينزّ مواله الأخير على شرفة الانتظار، ولا يضجر فارس "أجير مقهى أبو شفيق" من عمره... الذي صبغ جلده بالوشوم الداكنة والندوب العميقة.

مع الشروق يركض فارس إلى اسمه بخطوات معربدة " حتى ولو كانت أقدار البشر من أمثاله مثل أقدار الشجر..

وكلاهما تحت رحمة الفأس والجشع.

ولا يجفّ فارس مع جفاف النهر وموت الشلال. النهر كان شريان الوادي يهدر عند أقدام الأشجار وتحت مقاصير المقهى بصخب البدايات... والشلال كان يهبط بزخمه الفارع من إحدى خواصر جبل قاسيون ويندّي الأشجار والطاولات والكراسي ورواد المقهى المحرورين.

... يطول الانتظار ويقصر العمر..

في انتظاراته الشتائية الملهوفة،يطلّ فارس من إحدى شرفات المقهى المطلة على الوادي والتي تبدو من عمق الوادي كأنها مناطيد خضراء معلّقة بالهواء. يطير كنسر والرياح تختبئ في عبّه وأمامه، يصبح جوقة من الفرسان تخبّ مهورها في مروج القلب على صنوج الشعر، وكأيام زمان يصخب بهدير النهر ونزق الشلال الهادر.

" مقهى أبو شفيق " الذي عمل فيه فارس أجيرا لأكثر من نصف قرن مقترنا بذاكرة الربوة وعشاق الغوطة..

بعد مرور مئة سنة على ولادته بقي على حاله الذي كان عليه منذ ولادته.رياح العصر بصرعاتها وديكوراتها وبهرجتها وجنونها لم تمسَّ شعرة من رأسه الوقور ولم تبدل أبدا من ملامحه الدمشقية العريقة رغم أن عشرات المقاهي العصرية جاورته وحاصرته بقي "مقهى أبو شفيق" في وسطها كأنه الجد المهيب ينطق بتاريخ الأيام الغابرة..

... وسترة فارس أعرض من كتفيه بشبرين... وبنطاله أعرض من خصره بأربعة أصابع وحذاؤه أكبر من قدميه بثلاث نمر. كان فارس يشد بنطاله بمرسة إلى خصره ويطعج حذاءه مثل الشحاطة. صاحب المقهى وأولاده من بعده ما طالبوه أن يبدّل حلّته ويرتدي بدلة عالموضة مثل نوادل المقاهي المجاورة، فهو والمقهى سيان بينهما علاقة عمر لا يفصل عراها حتى الموت تبقى في ذاكرة الوادي كأغنية... يرجّع قاسيون صداها.

"شوشة" الأشجار تخضرّ في الربيع..."و"شوشة" فارس حالكة في كل الفصول... أبدا ما غزا البياض شعرة من رأسه!! ربما لأنه مفطور على طفولة مديدة تجهل كيف تغلّف أهوالها وتضخمها:

أصالة الرؤوس والشجر من أصالة المنبت...وما تحريم المشروبات الروحية في المقهى إلا زيادة في الحرص على تقاليده "وحريم" روّاده، فالصرعات العصرية الوافدة تفدع جبهته وتدميها بقسوتها، ولا بد من استيعاب أسبابها ومسبباتها وغاياتها حتى لا تضلّ الإيقاعات مسارها.... حاراتها وأفلاكها.

وفارس الذي لا يعرف " فك الحروف وتضليلاتها"سمّى نفسه بـ "زلمة الشاعر"، إذ كان بفطرته الطفلية النقية من شوائب عصره على علاقة وطيدة مع الله والطبيعة والشعر.

منذ الخمسينات توطدت علاقة فارس بالشعر، وهذا التاريخ مرادف لظهور الشاعر في حياته،فقد دأب الشاعر منذ ذلك الزمن على المجيء إلى المقهى يوميا ولا يقطع مشاويره إليه حتى في عزّ البرد والزمهرير حيث يقفر المقهى من رواده، ويكون زبونه الوحيد.... يأتيه راجلا بشجن مقرور النجوم وأحلام طافحة بنسيج الغربة، وفارس ينتظره دائما في مقصورة من تلك المقاصير الخضراء يمنّي نفسه بدفء التواصل وحرارة اللقاء.

النهر قصيدة والشلال قصيدة والمرأة الجميلة قصيدة... كلّ ما حولنا قصائد رائعة،

كتبها الله بلغته التي نعجز عن محاكاتها وتقليدها. هذا ما قاله الشاعر عندما سأله

فارس عن الشعر، ومن يومها لازمت فارس دهشة قصوى:

كيف يستطيع الشاعر أن يحمل كل هذا في دفتره الذي كان يتأبطه في مجيئه ورواحه؟

قال له: أنا زلمتك..

صار يتصوّر مع صديقه الشاعر كلّما جاءت الصحافة والتلفزيون لإجراء ريبورتاجات ومقابلات معه.

للكاميرا عين فضولية لا تخطيء تفاصيل من تسلط عليه أنظارها:

يشدّ فارس قامته وهو يحبس أنفاسه وينفخ أوداجه. ملابسه الجديدة كانت تخص صديقه الشاعر،كالعادة، بدت فضفاضة عليه بمقاس فارسين ولكنه لا يبالي فهو مثل الجنود ليس حرّا في اختيار ملابسه.

يشرق فارس بفرح طفولي وهو يتفرج على حاله في الصورة. يتمعّن فيها وهو غير مصدّق، فهو منذ ليلة عرسه لم ينظر إلى نفسه في المرآة إلى درجة أنه نسي وجهه.

صاحب المقهى الذي كان يمتّ إلى فارس بقرابة بعيدة، قال له: "استرزقلك بقرشين"، وسمح له أن يفتح المقهى في فصل الشتاء من أجل صديقه الشاعر..... وكان فارس ينتظره طوال فصل الشتاء يوميا على مقصورة خضراء حيث كان الشاعر يأتيه راجلا يتأبط صحفه ودفاتره وأقلامه كأنّه منذور للشوق النازف من صخرة العشاق المجاورة للمقهى والمتكئة على قاسيون. كلمة "اذكريني" التي كتبها عاشق يوما محفورة على وجه الصخرة، تبدو كوشم نابض الحروف يطلّ على الوادي. "غورو" وعساكره كانوا قد مرّوا من تحتها... اقتحموا دمشق من بوابة العشق!! لم يلتفتوا إلى الصخرة ووشمها الشاهد على عمرها وصلابتها:

ودمشق حكر على عشاقها....

طاولات فارغة وكراسٍ مهجورة مغطّاة بأوراق التين والدلب والدوالي الصفراء، والأغصان العارية من دثارها تنزّ، ووحشة... فارس وصديقه الشاعر

وسط هذا العراء مثل دون كيشوت وسانشو يحوّلان وحشة القفر إلى ملحمة طافحة بالأحلام.

... وفارس يحبّ فصل الشتاء أكثر!

في فصل الصيف، والوادي يشمخ بأشجار حوره وقاسيونه ينهض فارس مع جهجهة الضوء كأنّه على موعد مع عبلاه:

أباريق الشاي ودلال القهوة والنراجيل. هم ترسه ورمحه وأبجره في مقارعة الزمن. الشعر والنهر والشلال والأشجار أبجدية الدهشة المقيمة في الحنايا.. ولا يعرف فارس سرَّ هذا الاصطخاب الذي يعتريه في محرابهم. صاحب المقهى كان قد أعطاه غرفة على يمين درج المقهي. تزوج فارس فيها وأنجب أولاده، كبر الأولاد وتزوّجوا، وبقي أجيراً نشيطاً يعيل أولاده المتزوجين في عسرهم، وملابسه تتفضفض باستمرار مع جلده....

ينمو التصحّر كأخطبوط يشفط الماء وبهجة الخضرة. يشحّ النهر ويموت وينقطع الشلال...

ويضيق الكون من حوله. صديقه الشاعر ومعجباته المليحات اللواتي كنّ يتقاطرن إليه من شاشات السينما والتلفزيون... يوسعون الكون إلى حدود الروح... ويتوازن فارس مع عالمه واسمه. يضحك كأيام الشباب قبل أن تتعرّى لثته من بياضها كما تتعرّى الصدفة من قوقعتها... ويتعملق بالشعر في فصول البرد. وحده يصبح المقهى يصول ويجول على هواه. لاصخب ولا جلبة وصوت مذياع وقرقرة نراجيل كما في فصل الصيف. الذي يحوّله إلى أجير مهمته مسح الطاولات وتلبية طلبات الزبائن. والقليل القليل منهم ربما يمنحه كلمه أو ابتسامة. والبقشيش في اكتظاظ الحر والناس له رنينه وإغراءاته، ولكنه بلا تواصل أو مودة يكرّس عبوديته....

والذاكرة روزنامة الأيام الماضية... لا يذكر فارس تاريخ ميلاده، فهو مثل المدن يؤرخ عمره بالأحداث الكبرى. يقول لصديقه الشاعر أنّه عاصر العسكر السنغالي ورشقه بالحجارة وشارك في إضراب الستين، ويصدق الشاعر عندما يقول له، إن عنترة أبو الفوارس، هو أب لكل الرجال الشجعان ولا بد أن يمتّ إلى فارس بصلة قرابة... ويكبر فارس إلى اسمه ويتوارف في شتائه مع أشجار المقهى، يرتبط اسمه بالمقهى ويصبح مرادفاً له.

في لفح الشوق والسماء تشلح ثوبها الأبيض وتدرّ على الوادي. من مقصورته يطلّ فارس على الوادي يراقب مدخله الدمشقي.. بشغف العشاق ينتظر قدوم صديقه الشاعر. لقد أعدّ له الشاي الخمير وعندما يحضر سيدفىء له الكاسات بالماء الساخن حتى يرتشف الشاي دافئاً..

يطول الانتظار ويقصر الدرب...

وفارس في مكانه على الشرفة لا يملّ من الانتظار. يدثره الثلج ويبيض شعره مثل فرسان العصور الوسطى:

وكانت المرّة الأولى التي أخلف فيها الشاعر وعده.

الزلزال

الساعة الثانية بعد منتصف الليل.

الأرق الذي عمّقته وحدتي سرق النوم من جفوني...

أنا قلق... إذن أنا إنسان "معادلة عصرية سأسجلّها براءة اختراع باسمي!!"

والساعة الثانية بعد منتصف الليل... أنا ملك العالم أصنعه كما أحب وأشتهي.

الصمت مملكة الإبداع.

فأرة تبدأ بقضم شيء ما... تراك... تراك..

أهبط من عرش سمائي إلى الأرض.

مخرز يقطّع نخاعي الشوكي... ألف لعنة على الفئران "أم الخراب".

خبط قوي على الباب أذعر الفأرة التي كفّت عن القرض... وأذعرني...

هرول الكلام من فم جاري يقظان وهبّ مثل عاصفة هوجاء:

- انهض يا نعسان واخرج فوراً بسرعة البرق سيقع زلزال خلال ساعتين كزلزال تركيا ولا تنسَ هويّتك ونقودك وصك ملكية المنزل.

- شكرته وبقيت في فراشي "ليدمّر الزلزال العالم الذي بات لا يطاق".

إن متّ لن أخسر شيئا...

لم يلبث عقلي أن نبهني إلى خطورة ما عزمت عليه... الموت الفوري غير مؤكد ربما غمرتني الأنقاض وأختنق بالتدريج دون أن تتمكن فرق الإنقاذ والكلاب من العثور علي وإنقاذي.

الموت اختناقاً تحت الأنقاض حرّضني للخروج من بيتي وركوب المصعد.نزلت إلى حديقة العمارة البرجية من الطابق التاسع.

تأمّلت ما حولي وأسكرني سحر الليل والأنس الذي دبّ فيه. القمر يضحك في كبد السماء والنجوم تنبض بأنوارها، تسقط علينا مثل شلال تنير القلوب والوجوه، يتعرّف الجيران على بعضهم يسلّمون ويتصافحون وكأنّهم قادمون من قارات أخرى تفصل بينهم البحار والجبال والمحيطات وليس من نفس العمارة البرجية المؤلفة من اثني عشر طابقاً.

يعود الفضل في هذا الأنس الليلي إلى يقظان الذي نبّه سكان عمارتنا إلى الخطر القادم إلينا من تململ أحشاء الأرض.. وكان قد جاءه خبر هذه الكارثة من ابنه في اللاذقية.

انتظم الحشد في حلقة دائرية مفترشين عشب الحديقة كأنهم في سهرة سمر.

قال أبو محمد: بنايات مشروع دمّر سيسقطها الزلزال بشكل عمودي لأن القائمين على المشروع لم يدرسوا طبيعة التربة قبل البناء لذلك خفست بنايات بعض الجزر ودعّموها على نفقة قاطنيها. فما كان من أبي طارق الذي كان قد جاء من الإمارات لقضاء إجازته الصيفية إلاّ أن نهض وذهب بسرعة إلى بيته لإحضار جوازات السفر ولحق به بقية الرجال لجلب ما خفّ وزنه وغلا ثمنه من بيوتهم... وانهمك الجميع في التضرّع والصلاة بصوت واحد "اللهم لا أسألك رد القضاء ولكن أسالك اللطف به" ثم أعقبوها بدعاء "يا لطيف ويا لطيف تجعل للبلا تصريف".

كانت أهوال زلزال تركيا ما زالت ماثله في عيونهم وتأسفوا على مواطنيهم الذين يغطون بالنوم...٠ وأجمعوا على أن ألف نومة في الكدر ولا نومة تحت الحجر...

وتمنّوا أن تسعفهم الدولة بمساكن بديلة بدلا من الخيام في حال وقوع الزلزال.

تركزت أنظار الجميع حول القطة التي تسللت إلى منتصف دائرة الحشد وراحت تتفرس بالوجوه وتموء مواء أشبه بالبكاء، وحسدنا القطط والكلاب الذين لا يموتون بالزلازل لأنهم يشمونها ويتنبئون بها قبل وقوعها.

بعدما تعبت القطة من المواء اختارتني ونامت في حضني. استبشر الجميع خيرا وانخرطوا في أحاديث ودية. تبادلوا الأسماء والعناوين وتعرفوا على مهن بعضهم واهتماماتهم وأحلامهم. تعازموا وتواعدوا..

كانت جلسة أنس وحفلة تعارف حقيقية ونادرة في تاريخي.

في السادسة صباحا ودّعت جيراني وأنا أحتضن القطة:

كل زلزال وأنتم بخير.

.... وكانت نقطة بداية أضاءت حياتي.

فهرس

اعتدال رافع

- ولدت عام ١٩٣٧م في عالية / لبنان
- حصلت على الإجازة في التاريخ من جامعة دمشق.
- عملت في التعليم والصحافة الأدبية السورية والعربية.
- عضو جمعية القصة والرواية في اتحاد الكتّاب العرب.
- كتبت القصة والشعر والمقالة.
- انتصرت على معاناتها مع المرض العضال بالكتابة التي فتحت لها أفقاً تحلق فيه روحها.

الطبعة الأولى / ٢٠١٧م

كلمة الغلاف

ثمة علاقة استثنائية بين اعتدال رافع وبين إبداعها، فهي تعيش كلمتها، وتتنفس بفضلها، إنها فرحتها الوحيدة، التي أمدّتها بالروح، ودفعتها للاستمرار في الحياة، إنها صمام أمانها، تطرد بها وحشتها، لهذا أخلصت لها الود، وتمسكت بها، كمن يتمسك بحبل خلاصه، وقد تنقطع عن الكتابة فترة من الزمن حين تهجم عليها أوجاع الحياة، لكنها سرعان ما تستجمع قواها الروحية، وتلملم إرادتها مستندة على حروفها؛ لتنهض من جديد.

تتوغل الكاتبة في أعماق ذاتها وأعماق الآخرين، حتى لتبدو قصصها أشبه بوقفة تأمل لمعاني الحياة الكبيرة، وأسرارها الخالدة؛ مما أتاح لها تقديم إبداع أصيل في فن القصة القصيرة، يترك بصمته في ذاكرة المتلقي؛ لن نستغرب أن تكون رائدة في فن صعب، لا يمنح التميز لأي كان.